مجالس من التفسير

مجالس من التفسير

تأليف الخطيب
الشيخ عبد الحميد المرهون

منشورات شركة دار المصطفى لإحياء التراث

بيروت

في أي صورة ما شاء ركَّبك

هــذه صــورتي وهــذا كــتابي　　　لي ذكرى إن غبت تـحت التـراب
نـاظِري أسـطري رجـائيَ مـنكم　　　دعــوة الله لي عــظيم الثــواب

المؤلف في سطور

اسمه: الشيخ عبد الحميد بن الشيخ منصور آل مرهون.

مولده: ٢٨ / ١٢ / ١٣٤٨ هـ.

تعلم القراءة والكتابة علىٰ يد أخويه الفاضلين: الحاج الشيخ سعيد والوجيه

الحاج محمد المتوفى في ١٥ / ٢ / ١٤٢٩هابني الشيخ منصور المرهون، ثم علىٰ يد ابن عمه الحاج الملا حميد المرهون، المتوفى في سنة ١٣٣٧ هـ.

تعلم الخطابة علىٰ يد أخيه الشيخ عبد العظيم المرهون، المتوفى في ١٣/١/ ١٤٢٤ هـ، ثم واصل دراسته العلمية علىٰ يد أخيه العلامة الشيخ علي المرهون، ثم على يد الحجة الشيخ فرج العمران، المتوفى في ٢٢ / ٣ / ١٣٩٨هـ.

ويعتبر المؤلف أحد وجهاء المنطقة، ومن أبرز خطبائها المعاصرين، قدم العديد من الخدمات الاجتماعية، ولا زال أباً روحياً لأبناء مجتمعه، وإماماً لمسجد الجامع في بلده أُم الحمام، ومرشداً لحجاج بيت الله الحرام. له العديد من المؤلفات المطبوعة، وهي:

من سيرة الحسين

رائق الضمير ١ـ٣.

الجذوة من شعر أم الحمام.

حول الإنسان.

سطور النور في ذكرى الشيخ منصور.

مجالس من التفسير.

شرح الدرة اليتيمة.

والمخطوطة، ومن أهمها:

الإمام علي عليه السلام.

سيرة أهل البيت عليهم السلام.

الميسور في حوادث الأيام والشهور ١ ـ ٤.

ديوان شعر.

الناشر

سورة الفاتحة

﴿١﴾

أسماؤها المباركة

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾.

تسمى هذه السورة بعدة أسماء أهمها:

الأول: أنها تسمى سورة الفاتحة، لأنها فاتحة القرآن الكريم، كتابةً وقراءةً. وأما بالنسبة إلى النزول فقد قيل أيضاً: إنها أول سورة نزلت بكاملها؛ لأن الذي نزل قبلها إنّما هو الآيات الخمس من سورة العلق، قرأها عليه جبرئيل، ثم ركل الأرض برجله فنبع الماء، فقال: «**اجلس فتوضأ**». وعلّمه الوضوء، ثم صلّى به ركعتين، وقال له: «**هكذا الصلاة**»[1]. ومضى عنه.

---

(١) سعد السعود: ٢١٥، التفسير الكبير ٣٠: ٧٩.

قالوا: وكانت الفاتحة في تلك الصلاة التي علّمه إياها جبرئيل؛ لأنه لم تعهد صلاة في الإسلام بغير الفاتحة. ورووا عن النبيﷺ أنه قال: «**لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب**»[1].

وبهذا الاعتبار كانت هي أول سورة نزلت بكاملها من القرآن، فهي فاتحته حتى في النزول.

الثاني: أنها تسمى أُمّ الكتاب، قالوا: وإنما سميت بذلك؛ لأنها جامعة لأصول مقاصد القرآن الكريم ومحتوية على رؤوس مطالبه. والعرب يسمون ما يجمع أشياء متعددة أمّاً لها ـ أي أمّاً لتلك الأشياء ـ كما يسمون الجلدة الجامعة للدماغ والحواسّ أمّ الرأس.

وإذا كانت الآيات المحكمات من القرآن تسمى أمّ الكتاب[2]؛ فإن الفاتحة من تلك المحكمات وفيها كلّ ما فيها؛ وهي أمّ لها أيضاً. ويحتملون أن ابن عباس رضي الله عنه أشار إلى ذلك عندما قال: «لكلّ شيء أساس، وأساس القرآن الفاتحة»[3].

الثالث: أنها تسمى الحمد؛ وذلك لأنها مفتتحة بكلمة ﴿**الْحَمْدُ لِلّهِ**﴾، مع العلم أن الله سبحانه افتتح أربع سور من القرآن بالحمد، ولكن لم تُسمَّ بهذا الاسم إلّا هذه السورة. وتلك السور الأربع هي:

١ ـ سورة الأنعام افتتحها بقوله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾.

٢ ـ سورة الكهف افتتحها جلّ وعلا بقوله: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا**﴾.

---

(١) عوالي اللآلي: ١٩٥ / ٢، عنه في مستدرك وسائل الشيعة ٤: ١٥٩ / ٤٣٦٨، تفسير أبي الفتوح الرازي ١: ١٥.

(٢) كما في الآية (٧) من سورة آل عمران.

(٣) مجمع البيان ١: ٤٧، الجامع لأحكام القرآن ١: ١١٣.

٣ ـ سورة سبأ افتتحها بقوله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**﴾.

٤ – سورة فاطر افتتحها بقوله: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاء**﴾.

الرابع: أنها تسمى الرقية وذلك لقوله صلى الله عليه وآله وسلم لمن رقىٰ بها سيد الحي: «**وما أدراك أنها رقية؟**». والقصة كما في (الدر المنثور) بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سريّة، ونحن ثلاثون رجلاً، فنزلنا بقوم من العرب، فلم يضيفونا، فلدغ سيدهم، فأتونا وقالوا: هل فيكم أحد يرقي من العقرب؟ فقلت: نعم أنا، ولكن لا أفعل حتى تعطونا شيئاً. قالوا: فإنّا نعطيكم ثلاثين شاة. قال: فقرأت الحمد عليه سبع مرات، فبرؤ، فلما أعطونا الغنم عرض في أنفسنا منها شيء، فكففنا عنها حتى أتينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فذكرنا ذلك له، فقال: «**أما علمت أنّها الرقية؟**»، وأذن لنا في الغنم[١].

وقد ذكرت الرقية في قوله تعالى: ﴿**كلا إذا بَلَغَتْ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ**﴾[٢]؛ لأن المعنىٰ علىٰ ما ذكره بعض المفسرين: كلّا إذا بلغت الروح التراقي، وقال هو أو بعض أحبته: من يرقيه؟ أي من يقرأ عليه ما ينفعه ويشفيه، أو يهون عليه ما هو فيه؟

الخامس: أنها تسمى الشفاء، لما روي من أن فيها شفاء من كلّ داء، وقد ذكر الفخر الرازي في تفسير الفاتحة من تفسيره الكبير، أن قيصر ملك الروم أصيب بصداع في رأسه، فأعيا الأطباء علاجه، فكتب إلىٰ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو يومئذ بالكوفة: هل يوجد طبّ في الإسلام فيه شفاء لهذا الداء؟

---

(١) الدرّ المنثور ١: ٤.　　(٢) القيامة: ٢٦ ـ ٢٧.

فأعطى الإمامعليه السلام رسوله قلنسوة، وقال له: «**قل له فليضعها على رأسه**». ففعل ذلك فبرؤ؛ ففتشوا القلنسوة فوجدوا فيها ورقة صغيرة، مكتوب فيها سورة الفاتحة، فعلموا أن السر في هذه الكلمات، فأعادوها على حالها، واحتفظوا بها؛ وجعلوا كلما أصيب أحد منهم بذلك الداء وضعوا تلك القلنسوة على رأسه فيبرؤ بإذن الله[1].

وقد جاء في كتب الفقه، ومنها (العروة الوثقى) للسيد اليزديرحمه الله، أن من مستحبات عيادة المريض، أن يقرأ عنده فاتحة الكتاب سبعين مرة، أو أربعين مرة، أو سبع مرات، أو مرة واحدة[2].

وعن أبي عبد اللهعليه السلام أنه قال: «**ما قرئت الفاتحة سبعين مرة على وجع إلّا سكن بإذن الله، وإن شئتم فجربوا ولا تشكّوا**»[3]. قيل: لأن من يشكّ لا ينتفعْ.

وعنهعليه السلام أنه قال: «**لو قرئت الفاتحة على ميت سبعين مرة ثم ردّت فيه الروح ما كان عجباً**»[4].

وفي كتاب الفقه للسيد الشيرازيرحمه الله أن الشيخ البهائيرحمه الله تحداه رجل من أهل الكفر والإلحاد بكذب هذه الرواية، فقرأهارحمه الله على حيوان ميت سبعين مرة،

(١) التفسير الكبير ١: ١٧١، وفيه: كتب إلى عمر. وفي برنامج بثته محطة دبي الفضائية يوم السبت ١٢/ شوال ١٤٢٩ الموافق لـ١١ / ١٠ / ٢٠٠٨م حول الاستشفاء بالقرآن أن إعلامياً اسمه أكرم الهاشمي تعرض لإطلاق النار فهشّم ساقه بكامله بأكثر من سبعين رصاصة، فلم يُشفَ جرحه، ثم التقىٰ بامرأة من مصر ترقي من الأمراض، فقرأت سورة الحمد وآيات أُخرىٰ علىٰ زيت زيتون، يقول: وحينما استعملته أحسست بالفرق من أوّل ليلة، وبعد أُسبوع مشيت علىٰ قدمي بشكل طبيعي بعد أن كنت أعرج منها.

(٢) العروة الوثقى ٢: ١٧.

(٣) طب الأئمة: ٥٣. وفيه: «ما قرئت الحمد». الوسائل ٦: ٢٣٢ / ٧٨١١.

(٤) الكافي ٢: ٦٢٣ / ١٦، الوسائل ٦: ٢٣١ / ٧٨٠٦.

فأحياه الله بقدرته جل وعلا[١].

السادس: أنها تسمى الصلاة؛ وذلك لما جاء في الحديث المتقدم: «**لا صلاة إلّا بفاتحة الكتاب**». والذي من أجله جعل بعض أئمة المذاهب الإسلامية[٢] الفاتحة حتى في صلاة الجنازة.

وظن بعض العوام أنَّ معنى المثل العامي: (إذا نسيت الحمد أبايش اتصلي) أن معنى ذلك أن المصلي إذا نسي قراءة الفاتحة في صلاته، بطلت صلاته، والحال أن المثل المذكور، إنما يعني نسيان حفظها لا نسيان قراءتها، فإن المصلي إذا نسي قراءتها في صلاته فصلاته صحيحة، وربما يكون عليه سجود السهو استحباباً.

السابع: أنها تسمى الكافية؛ لأنها تكفي في الصلاة عن غيرها، ولا يكفي عنها غيرها، إلّا في بعض الموارد الاستثنائية.

الثامن: أنها تسمى عدل القرآن؛ وذلك لما روي عن النبيﷺ أنه قال: «**إن الله قال لي: يا محمد، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ المَثَانِيَ وَالقُرْآنَ العَظِيمَ﴾[٣]، فأفرد الامتنان عليّ بفاتحة الكتاب وجعلها بإزاء القرآن**»[٤].

التاسع: أنها تسمى السبع المثاني كما في الحديث المتقدم؛ لأنها سبع آيات، ولأنها تثنّى في الصلاة، أو لأنها نزلت مرتين: مرة بمكة ومرة بالمدينة، تعظيماً لشأنها.

ولكن الأول هو الأشهر، وفي ذلك تأييد لما أفتى به الفقهاء[٥] من شيعة أهل

---

(١) كتاب الفقه ١٢: ١٨٢.

(٢) نقله في تذكرة الفقهاء ٢: ٧٥ / المسألة ٢١٩٠ عن أحمد والشافعي، وفي المجموع شرح المهذب ٥: ٢٣٣، عن الشافعي في كتاب الأُم.

(٣) الحجر: ٨٧.

(٤) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكريعليه السلام: ٢٩، الأمالي (الصدوق) ٢٤١، مجمع البيان ١: ٤٨.

(٥) نهاية الأحكام ١: ٤٦٩.

البيت عليهم السلام، بأنه لا تلزم قراءة الفاتحة إلّا في الركعتين الأوليين، أما في غيرهما كالركعة الثالثة والرابعة ـ فإن في التسبيح كفاية عنها، بل ربّما كان التسبيح أفضل فيهما منها، إلّا في بعض الموارد الخاصة، كما إذا نسي المصلي قراءة الفاتحة في الركعتين الأُوليين، فإن الأحوط له حينئذٍ القراءة لها في الأخيرتين، وإن كان الأقوى بقاء التخيير.

ولا يخفى أن الفاتحة لا تكون سبع آيات إلّا إذا كانت البسملة آية منها، وقد روى الدارقطني، عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه سئل عن السبع المثاني، فقال: «**هي الحمد**». فقيل له: إنما هي ست آيات، فقال: «**إن البسملة آية**»[1].

وروى الدارقطني أيضاً بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذا قرأتم الحمد فاقرؤوا ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾؛ فإنها أمّ القرآن والسبع المثاني و﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ إحدى آياتها**»[2].

قالوا: وبذلك تكون آية **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾** كأنما جاءت لحفظ عدد آيات هذه السورة المباركة، ولإثبات أنّ البسملة هي أول آية منها، ولكنهم مع ذلك طرحوها من الفاتحة، ومن غيرها، وعدّ بعضهم أن قراءتها مع الفاتحة وغيرها بدعة.

وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**ما لهم عمدوا إلى أفضل آية من كتاب الله فزعموا أنها بدعة؟**»[3].

وعن ابن عباس أنه قال: «استرق منهم الشيطان أعظم آية من القرآن وهي

---

(١) سنن الدارقطني ١: ٣١١ / ١١٨١، باختلاف.
(٢) سنن الدارقطني ١: ٣١٠ / ١١٧٧.
(٣) تفسير العياشي ١: ٢١ / ١٦، مستدرك وسائل الشيعة ٤: ١٦٦ / ٤٣٩١.

البسملة»(١).

ويبدو أن أول من ترك قراءة البسملة مع الفاتحة وغيرها في الصلاة هو معاوية، فقد جاء في تفسير الرازي أن معاوية صلى بالناس في المدينة، فلم يقرأ البسملة، ولم يكبر للركوع والسجود، فصاح به جمع من الصحابة بعد فراغه من الصلاة: أسرقت الصلاة، أم نسيت؟ أين البسملة؟ أين التكبير للركوع والسجود؟ فأعاد الصلاة مع البسملة والتكبير(٢).

وروي عن الإمام الشافعيﷺ، أنه قال: «إن معاوية كان سلطاناً عظيم القوة، شديد الشوكة، فلولا أن قراءة البسملة، هو الأمر المتقدّر عند كلّ من الصحابة، لما قدروا على إظهار الإنكار عليه، بسبب تركها. ولما استجاب لهم بإعادة الصلاة معها. ولذلك فقد أوجب هذا الإمام قراءتها في الصلاة مع الفاتحة، ومع كلّ سورة، فأتباع مذهبه يقرؤونها في الصلاة في الجهرية جهراً وفي الإخفاتية إخفاتاً»(٣).

قالوا: ولكن خليفة المسلمين وخال المؤمنين عاود الترك مرة بعد أُخرى، حتى تابعه الناس؛ لأنهم على أديان ملوكهم.

أما لماذا فعل ذلك؟ فلعلّه مراغمة لأهل البيتعليهم السلام الذين في طليعتهم عليعليه السلام، فقد كان يقرأ البسملة في الصلاة ويجهر بها، حتى في الصلاة الإخفاتية.

قال الرازي: وقد ثبت عنه ذلك بالتواتر، ومن اقتدى بعلي في دينه فقد اهتدى، قال: والدليل عليه قول رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم: «**اللهم أدر الحق مع علي حيث دار**»(٤).

وقد روى السيوطي في تفسيره (الدر المنثور) أن رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم كان يجهر بالبسملة في الصلاة أيضاً(٥). وقد تابعه أهل البيتعليهم السلام وشيعتهم، فكانوا يجهرون

---

(١) السنن الكبرى ٢: ٥٠.
(٢) التفسير الكبير ١: ٢٠٤.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) التفسير الكبير ١: ٢٠٥.
(٥) الدر المنثور ١: ٨، ٢٣٢.

بها في كلّ صلاة، ويعدون ذلك من علامات الإيمان[١].

ومخالفة الأمويين ومراغمتهم لأهل البيت وأتباعهم في جاهليتهم، وإسلامهم، أمر معلوم، حتى إنهم امتنعوا من الدخول في حلف الفضول الذي هو أشرف حلف في العرب، لا لشيء إلّا لأن القائم به والمؤسس له الزبير بن عبد المطلب عمّ رسول اللهﷺ وشقيق أبيه. ومن سبر أحوال بعض الأمويين في جاهليتهم وإسلامهم، علم أن الإسلام لم يغير شيئاً من أحوالهم ومواقفهم من بني هاشم، لا سيما بالنسبة لأبي سفيان وأولاده. قال المقريزيرحمه الله:

عبد شمس قد أضرمت لبني ها ... شم حرباً يشيب منها الوليدُ
فابن حرب للمصطفى وابن هند ... لعلي وللحسين يزيدُ[٢]

---

(١) روي عن الإمام العسكريعليه السلام قوله: «علامات المؤمنين خمس: صلاة الإحدىٰ وخمسين، وزيارة الأربعين، والتختّم باليمين، وتعفير الجبين، والجهر بـ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾....». مصباح المتهجّد: ٧٨٨ / ٨٥٦.

(٢) النزاع والتخاصم: ٦٢.

﴿٢﴾

السبع المثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدم في المجلس السابق أن الآية الكريمة **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾**[١]، كأنما جاءت لتحفظ عدد آيات الفاتحة المعنية بـ(السبع المثاني)، يعني سبع آيات بما فيها البسملة؛ لأنها لا تكون سبع آيات إلّا بها. وقد حاول بعض من شق عليه مخالفة الأمويين أن يقسم الآية الأخيرة منها إلى آيتين، فيجعل **﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾** آية، و**﴿غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾** آية لتكون سبعاً من دون البسملة، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل؛ لأنها مخالفة للرسم القرآني المشهور. فإن جميع المسلمين لم يجدوا في ترقيم آيات الفاتحة ما يسند هذه المحاولة في أي نسخة من القرآن. ولأن المستفيض بين المسلمين أن البسملة آية من الفاتحة بل ومن كلّ سورة ما عدا سورة براءة.

قال صاحب تفسير (المنار)[٢]: وقد ذهب علماء السلف من أهل مكة إلى أنها ـ أي البسملة ـ آية من كلّ سورة ومنهم ابن كثير.

وكذلك أهل الكوفة ومنهم عاصم والكسائي، وبعض الصحابة من أهل المدينة ومنهم علي، وابن عباس، وابن عمر، وأبو هريرة. وغيرهم، وكان ابن عمر يقول:

---

(١) الحجر: ٨٧.
(٢) تفسير المنار ١: ٣٩.

إذا لم تقرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فلماذا كتبت في القرآن؟[١].

وهذا القول من ابن عمر يدل على أنّ من أقوى حجج القائلين بأن البسملة آية من الفاتحة وغيرها ماعدا سورة براءة إثباتها في المصحف الشريف؛ لأن الصحابة جردوا القرآن من كلّ ما ليس منه حتى كلمة (آمين)، التي يقولونها بعد الفاتحة في الصلاة وغيرها، وذلك لقناعتهم أنها ليست من القرآن الكريم، فلمَ لم يجرّدوه من البسملة إذا لم تكن منه؟

وقال بجزئية البسملة أيضاً جماعة من التابعين وأهل المدينة وغيرها ومنهم سعيد بن جبير، وعطاء، والزهري، وابن المبارك (رحمهم الله).

وقد ذكر المقدس شرف الدين في كتابه، (مسائل فقهية) كثيراً من الأحاديث الدالة على أن البسملة آية من الفاتحة بل ومن غيرها ما عدا سورة براءة، وذكر مما احتج به ﷺ أن من المأثور المشهور عن رسول الله ﷺ، قوله: «**كل أمر ذي بال لا يبدأ بـ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فهو أقطع**»[٢]، و«**كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بـ(بسم الله) فهو أبتر**»[٣] ـ أو ـ «**أجذم**»[٤].

قال: ومن المعلوم أن القرآن أفضل ما أوحاه الله تعالى إلى أنبيائه ورسله، وكل سورة منه ذات بال وعظمة تحدّى الله بها البشر، فعجزوا أن يأتوا بمثلها، فهل يمكن أن يكون القرآن أقطع أو أبتر وأجذم؟ قال: وكذلك الصلاة، فإنها الفلاح وخير العمل كما ينادى بها على المنائر والمنابر، ويعرفه البادي والحاضر لا يوازنها شيء بعد الإيمان بالله، وكتبه، وأنبيائه، ورسله، واليوم الآخر، فهل يجوز أن يشرعها الله بتراء جذماء لا بسملة فيها؟

---

(١) الدر المنثور ١: ٧. (٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١: ٤٣.

(٣) كشاف القناع ١: ١٢.

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ١٢: ١٠٨، نيل الأوطار ١: ١٦٨، تلخيص الجبير ١: ٣٩١.

وبالجملة، فإن الأئمة من أهل البيت عليهم السلام وتابعهم فقهاء شيعتهم في كلّ زمان ومكان أوجبوا قراءة البسملة مع الفاتحة، ومع غيرها من السور في الصلاة وأجمعوا على أن من ترك قراءتها في الصلاة مع أي سورة، فصلاته باطلة، سواء كانت الصلاة فرضاً أو نفلاً.

وقال بعض فقهائهم: إنها مع كونها آية من كلّ سورة، ما عدا سورة براءة فإن لها مع كلّ سورة معنى خاصاً، يتناسب مع محتوى السورة التي تقرأ بعدها، ولذلك فقد أوجب أهل هذا الرأي تعيينها لتلك السورة الخاصة التي يريد المصلي أن يقرأها في صلاته؛ حتى يحصل لها معناها الخاص بها في تلك السورة، ولو قرأها ثم لم يدرِ لأي سورة قرأها، فعليه أن يعيّن السورة التي يريد أن يقرأها، ثم يأتي بالبسملة مرة ثانية، ولا شيء عليه من الأولى.

ومن لم يقل بوجوب التعيين، قال به على سبيل الاحتياط. وقد رووا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سمع رجلاً قرأ الفاتحة في صلاته بدون بسملة، فقال له: «**قطعت على نفسك الصلاة، أما علمت أن ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ من الحمد، فمن تركها فقد ترك آية، ومن ترك آية فقد أفسد عليه صلاته؟**»[1].

كما رووا أن الله جل وعلا قال: «**إنّي قسّمت الفاتحة بيني وبين عبدي؛ فنصفها لي ونصفها له، فإذا قال العبد: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، قال جلّ وعلا: بدأ عبدي باسمي، حق عليّ أن أُتمم له أموره، وأُبارك له في أحواله. وإذا قال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾، قال جل وعلا: حمدني عبدي، وعلم أن النعم التي له ـ أي بيده ـ من عندي، وأن البلايا التي دفعت عنه بطولي، أُشهدكم أني أُضيف له إلى نعم الدنيا نعم الآخرة، وأدفع عنه بلايا الآخرة كما دفعت عنه بلايا الدنيا. وإذا قال:**

(١) الدر المنثور ١:٧.

﴿الرحمن الرحيم﴾، قال جل وعلا: شهد لي عبدي أني الرحمن الرحيم، أُشهدكم لأوفرن من رحمتي حظه، ولأجزلنّ من عطائي نصيبه. وإذا قال: ﴿مالك يوم الدين﴾، قال جلّ وعلا: أُشهدكم كما اعترف لي عبدي بأني مالك يوم الدين، لأُسهلّن له يوم الحساب حسابه، ولأتقبلن حسناته، ولأتجاوزن عن سيئاته. فإذا قال العبد: ﴿إياك نعبد﴾، قال جل وعلا: صدق عبدي إيّاي يعبد، أُشهدكم لأُثيبنّه على عبادته ثواباً يغبطه عليه كلّ كافر ممّن خالفه في عبادته لي. فإذا قال العبد: ﴿وإياك نستعين﴾، قال جلّ وعلا: استعاذ بي عبدي، والتجأ إلي، أُشهدكم لأُعيننّه على أموره، ولأُغيثنّه في شدائده، ولآخذنّ بيده يوم نوائبه. فإذا قال العبد: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ إلى آخر السورة، قال تعالى: استجبت لعبدي وأعطيته ما أمّل»[١].

وقد ذكروا أن من خصائص هذه السورة أن قيصر ملك الروم، كتب إلى الخليفة العباسي كتاباً يقول فيه: إنّا وجدنا في الإنجيل ذكر سورة خالية من سبعة أحرف، (ث ج خ ز ش ظ ف) من قرأها حرم الله جسده على النار، فطلبناها في التوراة فلم نجدها، وفي الزبور فلم نجدها، وفي الإنجيل فلم نجدها، فهل تجدونها في كتابكم؟ فجمع الخليفة العلماء وسألهم عن تلك السورة، فلم يعرفوها، ولما سئل الإمام الهادي عليه السلام أخبره أنها سورة الفاتحة، فقيل له: وما الحكمة في خلوها من هذه الحروف السبعة؟ فقال عليه السلام: «**لأن الثاء من الثبور، والجيم من الجحيم، والخاء من الخيبة، والزاء من الزقوم، والشين من الشقاء، والظاء من الظلمة، والفاء من الفرقة**» فكتب بذلك إلى قيصر، ففرح وأسلم[٢].

---

(١) التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكري عليه السلام: ٥٨ و٥٩، الجامع لأحكام القرآن ١: ١٢١.

(٢) شرح شافية أبي فراس الحمداني: ٥٦٣.

وهذه القضية وأمثالها، وما أكثر أمثالها، تدل على أن أهل البيت عليهم السلام يعلمون من القرآن ما لا يعلمه غيرهم.

ومن الشواهد على ذلك ما روي في كتاب (الاحتجاج) للطبرسي رحمه الله أنه جيء للمتوكل العباسي برجل نصراني، قد زنى بمسلمة، فلما أرادوا أن يقيموا عليه الحد أسلم، فقال قاضي القضاة يحيى بن أكثم: «قد هدم إيمانه شركه وفعله». وقال آخرون غير ذلك.

وعندما سألوا الإمام الهادي عليه السلام عن ذلك قال: «**يضرب حتى يموت**»، فأنكر يحيى وغيره من الفقهاء ذلك، وقالوا: إنه شيء لم ينطق به كتاب، ولم تأتِ به سنة، فأرسل إليه المتوكل أن الفقهاء أنكروا قولك وقالوا: إنه شيء لم ينطق به كتاب، ولم تأت به سنة، فكتب إليه الإمام عليه السلام: «**بسم الله الرحمن الرحيم ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾**[1]...»[2].

وأمثال هذه القضايا عن أهل البيت عليهم السلام كثيرة جداً.

---

(١) غافر: ٨٤ ـ ٨٥.

(٢) الاحتجاج ٢: ٢٥٨.

﴿٣﴾

خصائص البسملة

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

تقدم أن البسملة: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾ هي الآية الأولى من سورة الفاتحة، وبها تكون الفاتحة سبع آيات، وبما أنها تقرأ في كلّ صلاة مرتين، فهي السبع المثاني التي عنتها الآية الكريمة، ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**﴾[1].

وقد جاء في الحديث عنه ﷺ أنها تسعة عشر حرفاً، بعدد الزبانية[2]، وأن من أراد أن ينجيه الله من الزبانية التسعة عشر، فليقرأها، فإن الله سبحانه يجعل كلّ حرف منها جُنة له من واحد من الزبانية التسعة عشر، قال تعالى: ﴿**عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ**﴾[3].

ولذلك يلزم أن تكتب ﴿**الرحمن**﴾ هكذا بدون ألف كما جاء في كتابة القرآن؛

(١) الحجر: ٨٧.

(٢) تفسير السمعاني ٦: ٩٥.

(٣) المدثر: ٣٠.

فإن كتابة القران تعبدية، وإن من وراء ذلك قصداً إلهياً.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه لما نزلت هذه الآية ﴿**عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ**﴾ قال أبو جهل: إنّ ابن أبي كبشة يخبر أنّ النار عليها تسعة عشر فقط، وأنتم الدهم، أيعجز كلّ عشرة منكم أن يبطشوا بواحد منهم؟ فقال أبو الأسود بن أسيد الجمحي ـ وكان شديد البطش شديد القوة ـ: أنا أكفيكم سبعة عشر، فاكفني أنت اثنين، فنزل قوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا**﴾(١)، والمعنى أن أصحاب النار ليسوا رجالاً أمثالكم، حتى تقدروا على مقاومتهم(٢)، وانّما هم ﴿**مَلاَئِكَةٌ غِلاَظٌ شِدَادٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾(٣).

وقد اكتشفت العلوم الإلكترونية، بعد ألف وأربعمئة سنة، أن البسملة إنما جعلت ١٩ حرفاً، وأن الرسول صلى الله عليه وآله إنما نوه بعدد حروفها مقروناً بعدد الزبانية لأن في ذلك سراً عجيباً، وهو أن عدد سور القرآن الكريم ١١٤ سورة، وكلها مبدوءة بالبسملة، إلّا سورة براءة، فيكون القرآن محتوياً على ١١٣ بسملة فقط، وهذا العدد لا يتناسب مع مضاعفات ١٩، فتم بتكميل العدد بالبسملة التي في سورة النمل ﴿**إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾(٤)، وبذلك أصبح عدد البسملات ١١٤، وهو من مضاعفات العدد ١٩، فإذا ضربت عدد حروف البسملة وهو ١٩، في عدد الآيات التي بقيت من سورة الحمد بعد البسملة وهو ٦، كانت النتيجة ١١٤ عدد سور القرآن، وذلك ما يدل على أن عدد حروف البسملة آية من كلّ سورة ما عدا سورة براءة، لأنها لو كانت في سورة براءة، مع وجودها في آية ﴿**إِنَّهُ مِن**

---

(١) المدثر: ٣١.
(٢) التفسير الكبير ٣٠: ٢٠٣، الجامع لأحكام القرآن ١٩: ٨٠ ـ ٨١.
(٣) التحريم: ٦.
(٤) النمل: ٣٠.

﴿سُلَيْمَانَ﴾ لكان العدد ١١٥، وحينئذٍ لا يتناسب العدد مع مضاعفات تسعة عشر، فسبحان الحكيم العليم!

وإذا أراد أي إنسان أن يعثر على السورة التي فيها البسملة المعوضة عن بسملة براءة، التي لو لاها لما كانت البسملات والسور بعدد يتناسب مع مضاعفات ١٩، فعليه أن يعدّ بعدد حروف البسملة من سور القرآن، مبتدئاً بسورة (براءة) الخالية من البسملة، ومن بعدها سورة (يونس) ثمّ (هود) ثم (يوسف)، وهكذا إلى أن يصل إلى السورة رقم ١٩، يجدها سورة النمل التي تحتوي على البسملة المعوضة عن بسملة براءة، ويجد عدد الكلمات في هذه السورة بين البسملة الأُولى والثانية ٣٤٢كلمة، وهذا العدد يساوي عدد حروف البسملة ١٩ مضروباً في عدد السور التي تبتدئ بسورة براءة، وتنتهي عند سورة النمل أي تنتهي بالسورة التي قبل سورة النمل، وهو عدد ١٨، لتكون النتيجة ٣٤٢.

وهذا يدل على أن البسملة، وضعت في القرآن وضعاً هندسياً، مطابقاً لحساب محكم، يحفظ للقرآن عدد آياته، وسوره، وكلماته، وصدق الله سبحانه حيث يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(١).

وقد أمرنا القرآن والسنة أن نذكر ولو بعض هذه الآية المباركة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ عند كثير من أمورنا، فقال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُواْ اسْمَ اللّهِ عَلَيْهِ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ﴾(٤).

---

(١) الحجر: ٩.
(٢) المائدة: ٤.
(٣) الأنعام: ١١٨.
(٤) الأنعام: ١١٩.

وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللّهِ عَلَيْهِ﴾[١].

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**إذا توضّأت فقل: باسم الله؛ فإنّ حفظتك لا تبرح تكتب لك الحسنات حتى تحدث، وإذا تغشيت أهلك فقل: باسم الله؛ فإن حفظتك يكتبون لك الحسنات حتى تغتسل، وإذا ركبت دابة فقل: باسم الله والحمد لله تكتب لك الحسنات بعدد كلّ خطوة، وإذا ركبت سفينة فقل: باسم الله والحمد لله تكتب من العابدين حتى تخرج منها**»[٢].

وروى الحميري بإسناده عن الإمام الباقر عليه السلام أن أمير المؤمنين علياً عليه السلام كان يقول: «**من أكل طعاماً فسمى الله على أوله وحمد الله على آخره لم يسأل عن نعيم ذلك الطعام كائناً ما كان**»[٣].

وفي (الكافي) عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «**ما من رجل يجمع عياله على المائدة ويسمي ويسمون في أول الطعام ويحمدون في آخره فترفع المائدة حتى يغفر لهم**»[٤].

وقد جاء في دعاء يوم السبت، للإمام زين العابدين: «**باسم الله كلمة المعتصمين، ومقالة المتحرزين**»[٥]، وفي دعاء يوم الثلاثاء أيضاً، «**وهب لي في الثلاثاء ثلاثاً، لا تدع لي ذنباً إلّا غفرته ولا غماً إلّا كشفته ولا عدواً إلّا دفعته، بباسم الله ربّ الأرض والسماء أستدفع كلّ مكروه أوله سخطه وأستجلب كلّ محبوب أوله رضاه، فاختم لي منك بالغفران يا ولي الإحسان**»[٦].

بل ربما عوقب المؤمن على ترك الابتداء بها، أو ببعضها في شيء من أعماله، فقد روي في تفسير (البرهان) أن عبد الله بن يحيى دخل على أمير المؤمنين عليه السلام

---

(١) الأنعام: ١٢.
(٢) التفسير الكبير ١: ١٧١.
(٣) قرب الأسناد: ٩٠ / ٣٠٢.
(٤) الكافي ٦: ٢٩٦ / ٢٥.
(٥) الصحيفة السجادية الجامعة: ٥٨٨.
(٦) الصحيفة السجادية الجامعة: ٥٤٨ / ٥٤٠.

وبين يديه كرسي، فأمره بالجلوس عليه، فجلس ولم يسمِّ، فمال به الكرسي حتى سقط على رأسه، فأوضح من عظم رأسه وسال دمه، فأمر أمير المؤمنين عليه السلام بماء فغسل الدم عنه، ووضع يده على موضحته فاندملت، حتى كأنه لم يصبه شيء. ثم قال له: «**يا عبد الله، الحمد لله الذي جعل تمحيص ذنوب شيعتنا في الدنيا بمحنهم فيها؛ لتسلم لهم طاعتهم، ويستحقوا عليها ثوابها في الآخرة**».

فقال عبد الله: يا مولاي أحب أن تعرفني ذنبي الذي امتحنت به في هذا المجلس حتى لا أعود إلى مثله. فقال عليه السلام: «**تركك حين جلست أن تقول: بسم الله الرحمن الرحيم**». قال: فإني لا أتركها بعدها إن شاء الله. فقال: «**إذن تحظى وتسعد**»[1].

ولو سأل سائل فقال: إننا لو ابتدأنا أعمالنا بـ(باسم الله)، فما هو قصدنا من تلك التسمية؟

فالجواب: أن تلك التسمية لها عدة معانٍ هي:

١ ـ أن تكون نية صاحب العمل أني أبدأ عملي هذا مبتدئاً له باسم الله. فذكر اسم الله بهذه النية يكون للابتداء.

٢ ـ أن تكون نية صاحب العمل أني أعمل عملي هذا مستعيناً عليه باسم الله. فذكر اسم الله بهذه النية يكون الاستعانة.

٣ ـ أن تكون نية صاحب العمل أني أعمل هذا العمل باسم الله لا باسمي، وله لا لي. فذكر اسم الله مع هذه النية للبيان وللإخبار.

ولعل هذا المعنى هو أشرف المعاني وأسماها؛ لأنّه يكشف عن مقام الإقرار باعتقاد العبودية لله سبحانه وتعالى، فإنّ العبد لا يعمل عملاً مبتدئاً باسم سيده

---

(١) البرهان ١: ٤٥ / ١١.

فقط، أو مستعيناً عليه باسم سيده فقط، بل يعمل عمله لسيده وباسم سيده، فإن ما هو معروف ومألوف عند جميع الأُمم والشعوب أنّ الموظف إذا أراد أن يعمل عملاً من أجل أمير، أو وزير، أو زعيم، أو رئيس، أن يقول: إني أعمل هذا العمل باسم الأمير فلان، أو الوزير فلان، أو ... أو....

فعليه يكون معنى البسملة الذي يفهمه النبي ﷺ من نزولها عليه في ابتداء كلّ سورة أن جبرئيل يقول له: اقرأ هذه السورة يامحمد ﷺ مبتدئاً قراءتك بـ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾، أو مستعيناً به عليها، أو مخبراً أو مبيناً أنها ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾، لا باسمك، ومنه لا منك، وله لا لك، فما أنت إلّا رسول مبين.

وقد كانت الآية الأُولى التي خاطبه ربه في بادئ بدء تحمل كلّ هذه المعاني، فيحتمل أن يكون المعنى اقرأ مبتدئاً قراءتك ﴿**باسم ربك الذي خلق**﴾[1]، أو يكون المعنى، اقرأ مستعيناً على قراءتك ﴿**باسم ربك الذي خلق**﴾، أو يكون معناها اقرأ جاعلاً قراءتك ﴿**باسم ربك الذي خلق**﴾ لا باسمك، ومخبراً أنها منه لا منك، وإليه لا إليك. وعلينا نحن الذين منحنا الله القدرة على القيام بأعمالنا، وتأدية ما أراد منا، أن نعمل كلّ أعمالنا بقصد من هذه المقاصد الثلاثة، وأفضلها ثالثها؛ لأنه الكاشف عن مقام الإقرار باعتقاد العبودية له سبحانه وتعالى، ولعلّ هذا المعنى هو المتيقن في مقام ذبح الذبيحة، بدليل أنه لو ذبح الذبيحة كافر، لم تحل ذبيحته، حتى ولو ذكر اسم الله سبحانه وتعالى، وما ذاك إلّا لأنه لم يحصل منه الإقرار بالعبودية لله سبحانه وتعالى بذلك الذكر. وكذلك الإنسان المسلم إذا خرج عن مقام العبودية لله باستحلال ما حرّم الله من الحيوانات كالخنزير؛ فإنه لا تحلّ ذبيحته حتى لو ذكر الاسم عليها.

---

(١) العلق: ١.

وهذا نوح عليه السلام عندما ركب السفينة في ذلك الطوفان الرهيب قال لأصحابه: ﴿ارْكَبُواْ فِيهَا بِاسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، أي اركبوا فيها باسم الله لا باسمي، وبأمره لا بأمري؛ لأن السفينة له لا لي، وأنتم في ضيافته لا في ضيافتي، وفي ضمانه لا في ضماني؛ لأني لا أملك لكم ولا لنفسي نفعاً ولا ضراً إلّا ما شاء الله، فباسمه مجراها ومرساها، إن ربي لغفور رحيم. فلذلك فقد انتهت تلك الرحلة المائية المليئة بالمخاطر والمكاره بسلام وبركة، قال تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَركَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾[2].

وهذا سليمان بن داود عليه السلام، عندما كتب إلى بلقيس ملكة سبأ، كتب إليها ﴿إنه من سليمان﴾، يعني أن سليمان هو كاتبه ومرسله، ولكنه ليس باسمه ولا بأمره، بل ﴿وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللهِ الرَّحْمَن الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِين﴾[3].

والمعنى: أن الذي أُريده منكم أن تأتوني مسلمين لله، لا مسلمين لي أو علي، فإنّما دعوتكم له لا لي، وباسمه لا باسمي.

وقد عرفت بلقيس من فحوى كتابه عليه السلام ما أراد منها، فجاءت إليه طائعة خاضعة، وقالت: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4].

وفيما كتبه سليمان لبلقيس دليل على أنّ البسملة موجودة قبل الإسلام، ولكن الجاهلية المظلمة أنهت كلّ ما تفضل الله به عليهم، حتى هذه الكلمة الطيبة؛ ولذلك تعجب عداس النصراني عندما سمعها من النبي صلى الله عليه وآله.

وقصّة عداس هي كما روت كتب السير والتواريخ أن رسول الله صلى الله عليه وآله، لما اشتدّت عليه وطأة قريش، وامتدت عليه أيديهم بعد موت عمه وناصره أبي طالب رضي الله عنه، خرج إلى الطائف، ودخل على ساداتها بني عبد ياليل الإخوة الثلاثة، وطلب منهم

---

(١) هود: ٤١.
(٢) هود: ٤٨.
(٣) النمل: ٣٠ ـ ٣١.
(٤) النمل: ٤٤.

الجوار؛ لأنّ جوارهم ينفذ على أهل مكة، كما أن جوار أهل مكة ينفذ على أهل الطائف، فأبى بنو عبد ياليل إجارته، وردوا عليه بما يسوءه، ولم يرضوا بذلك، حتى أغروا عليه السفهاء والصبيان، فجعلوا يضربونه بالحجارة، حتى أخرجوه من الطائف، ودمه يسيل على الأرض، فآوى إلى بستان يملكه عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وكانا حينئذٍ في بستانهما. فلما رأياه وقد آوى إلى ظلّ شجرة، وجلس عنده يمسح دمه، رقّا له مع شدّة عداوتهما له، فأرسلا عبدهما عداساً النصراني إليه بشيء من العنب، وقالا له: قل له: إنه هدية، وإلا فإنّه لا يأكل منه شيئاً.

فجاء إليه عداس بالعنب وقال له: هذا هدية. وكان ﷺ في غاية الجوع، فمدّ يده وقال ﷺ: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم**﴾. فقال الغلام عداس وكان عالماً من أهل نينوى: من أين لك هذا الكلام؛ فإني لم أسمع بمثله منذ قدمت هذا البلد؟ فقال له النبي ﷺ: «**فمن أين أنت؟**». قال: من أهل نينوى. فقال ﷺ: «**بلد العبد الصالح يونس بن متى**». فقال عداس: وهذا أعجب، ومن أين عرفت يونس بن متى؟ قال: «**إنه أخي في النبوّة**».

وجعل يقصّ عليه قصته بالتفصيل، فقال: أشهد أنك رسول الله، والله لقد خرجت من نينوى وفيها كثير من العلماء، وما فيهم عشرة يعرفون يونس بن متى. ووقع على قدمي الرسول ﷺ يقبلهما، فقال عتبة وشيبة ـ وقد رأيا عداساً يقبل النبي ﷺ ـ: والله لقد أفسد علينا عبدنا. فلما قدم إليهما وأخبرهما عنه أنه نبي، جعلا يضربانه بأغصان الشجر، ولم يتركاه حتى أعطاهما بلسانه ما أراداه منه.

وبعد أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وأراد عتبة وشيبة أن يخرجا لحربه في واقعة بدر، نصحهما عداس ألّا يخرجا لحربه، وقال لهما: لئن خرجتما إلى حربه، لتخرجنّ إلى مصارعكما، فإن الرجل نبي. فجعلا يضربانه حتى أعطاهما بلسانه ما أراداه منه، وخرجا مع قريش إلى بدر، فكان الأمر كما قال عداس، فقد قُتلا

وقُتل معهما الكثير من أقاربهما(١).

وهؤلاء هم أشياخ يزيد بن معاوية الذين ذكرهم بشعر ابن الزبعرى، فقال ورأس الحسين عليه السلام بيده:

ليت أشياخي ببدر شهدوا … جزع الخزرج من وقع الأسلْ(٢)

وإذا كان ابن الزبعرى قد أسلم فيما بعد، واعتذر من قوله وفعله، وقال في ذلك معتذراً لرسول الله صلى الله عليه وآله:

إني لمعتذر إليك من الذي … أسديت إذ أنا في الضلال أهيمُ
فاغفر فداً لك والديّ كلاهما … زللي فإنّك راحم مرحومُ
فلقد شهدت بأنّ دينك صادق … حق وإنك في العباد جسيمُ(٣)

فإن يزيد لم يعتذر مما قال، ولم يندم على فعله، وزاد على أبيات ابن الزبعرى ما هو أعظم منها، فقال:

لأهلّوا واستهلّوا فرحاً … ولقالوا يا يزيد لا تشلْ
لست من خندف إن لم أنتقم … من بني أحمد ما كان فعلْ(٤)

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ٦١ و٦٢، بحار الأنوار ١٩: ٦ ـ ٧.
(٢) مقاتل الطالبيين: ٨٠، مثير الأحزان: ٨٠.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ٦: ٤٠٧، كتاب التوابين: ١١٩.
(٤) روضة الواعظين: ١٩١، ينابيع المودة: ٣٢.

﴿٤﴾

في معنى ﴿بسم﴾

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

الاسم: هو اللفظ الموضوع على الجوهر أو العرض، ينفصل به بعض عن البعض الآخر، فتقول: اسم هذا الشيء كذا، واسم ذلك الشيء كذا، فيدل الاسم على ما وضع له من غير أن يحتاج إلى الاقتران بزمان أو مكان. قالوا: وكلمة الاسم مشتقّةمن السمة أو من السمو:

فأما قولهم: إنها مشتقّة من السمة فلأنه يعرف بها صاحبها كما يعرف الشيء الموسوم بسمته.

وأما قولهم: إنها من السموّ أي من الارتفاع، كما سُميت السماء سماءً لارتفاعها؛ فذلك لأنّ المسمّى يرتفع بالاسم، فيخرج به من عالم الخفاء إلى عالم الظهور؛ لأنه يحضر في ذهن السامع بمجرد سماع الاسم الموضوع له. أو لأن لفظ الاسم يرتفع بوضعه لشيء خاص فيخرج من عالم الإهمال إلى عالم الاستعمال، أو من عالم العموم إلى عالم الخصوص.

ويجمع الاسم على «أسماء»، ووضعها للأشياء أمر ضروري، ولذا كـان أول شيء علمه الله آدمعليه السلام، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا﴾[١] أي علمه أن يضع الأسماء على الأشياء بناءً على بعض صفاتها وخواصها وحقائقها، وعلمه أسماء بعض الأشياء التي لا تصل بديهيته إلى معرفتها، وبذلك استطاع أن يتحدّث عن الأشياء بذكر أسمائها. ولولا ذلك لما استطاع أن يتحدث عنها إلّا بحضور ذواتها. وهذا أمر يستحيل على الإنسان، ولذلك علم الإنسان الأسماء لينقل العـلوم إلى غيره بالكلام والمراسلات، والكتب، والمدونات، فإنه لا يكون ذلك مقدوراً له إلّا بوضع الأسماء للأشياء بسبب خواصها وصفاتها وحقائقها. ولولا ذلك لتعسّر على الإنسان حتى معرفة ربّه؛ لأنّه سبحانه وتعالى إنّما عُرف بأسمائه، قال بعض أهل التفسير في كلامه عن قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾[٢] و﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾[٣]: إنه تعالى إنما أمر بتسبيح الاسم دون الذات؛ لأن مبلغ جهد الإنسان أن يعرف الله بأسمائه الحسنى وصفاته العظمى، أما الذات فلا تقع عليها العـقول والأفهام.فأسماؤه تعالى هي طريق وصولنا إلى معرفته، ولذلك أمرنا جلّ وعلا أن نسبحه بها وأن ندعوه بها، فقال تعالى: ﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾[٤]، أي بهذه الأسماء التي منها ما يرجع إلى صفات ذاته جل وعـلا كـالعالم، والقـادر، والحي والقيوم، والسميع، والبصير، ومنها ما يرجع إلى صفات أفعاله كالرحـمن والرحيم، والخالق، والرازق، والمحيي، والمميت، ومنها ما يفيد التـنزيه لذاتـه، كالواحد، والقدوس، وما شابهها من أسمائه الحسنى جلّ وعلا.

قال صاحب (الميزان)[٥]: والأسماء الحسنى هي التي لها معنىً وصـفي يـليق

---

(١) البقرة: ٣١.
(٢) الأعلى: ١.
(٣) الواقعة: ٧٤.
(٤) الأعراف: ١٨٠.
(٥) الميزان ٨: ٣٤٢، باختلاف.

بذاته، كالرحمن والرحيم، والسميع والعليم، والغفور والكريم، دون ما لها معنى وصفي، ولكن لا يليق بذاته المقدّسة جلّ وعلاكالعفيف، والشجاع، فإن فيهما معنىً وصفياً حسناً ولكنه لا يليق بذاته المقدسة؛ لأنهما ينبئان عن خصوصية جسمانية لا يمكن سلبها عنهما، ولو أمكن سلبها عنهما لم يكن هناك مانع من إطلاقهما عليه جلّ وعلا.

وما لم يكن فيه معنىً وصفيّ كلفظ الجلالة (الله)، فإنه وإن كان أعظم أسمائه وأجلها ولكنه لا يعد من أسمائه الحسنى، بل هو اسمه الأكبر، يعني الّذي هو أكبر من أسمائه الحسنى وقد جاء ذلك في بعض الأدعية الواردة عنهم عليهم السلام، كدعاء القرآن الذي يدعىٰ به في ليلة القدر المباركة، وهو «**الّلهمّ إنّي أسألك بكتابك المنزل وما فيه وفيه اسمك الأعظم الأكبر وأسمائك الحسنى وما يخاف ويرجى أن تجعلني من عتقائك من النار**»[١].

ويتبيّن لنا جلياً من أن لفظ الجلالة اسمه الأكبر بأن العبد إذا دعاه جلّ وعلا بغيره من الأسماء المباركة، فإنّه يدعوه بصفته التي يختصّ بها ذلك الاسم، فإذا قال: يا رحمن، دعاه برحمانيته، وإذا قال: يا رحيم، دعاه برحيميته، وإذا قال: يا كريم، دعاه بكرمه، وإذا قال: يا قدير، دعاه بقدرته، وهكذا بقية أسمائه جلّ وعلا. لكنه إذا قال: ياالله فقد دعاه بجميع أسمائه وصفاته جلّ وعلا.

والأسماء الحسنى قيل: إن عددها (٩٩) اسماً، ولكن الموجود فى القرآن أكثر من ذلك، فقد قال صاحب (الميزان) رحمه الله: إن في القرآن (٩٩) اسماً[٢]. ولعل تحديدها بهذا العدد لايعني حصرها فيه، وإنما المراد أن من هذه الأسماء (٩٩) اسماً ما أحصاها أحد إلّا دخل الجنة[٣]، وما دعا بها أحد الا استجيب له[٤]، أو لأن

---

(١) الكافي ٢: ٦٢٩ / ٩، بحار الأنوار ٨٩: ١١٣ / ٢.

(٢) الميزان ٨: ٣٥٩ ـ ٣٦١. (٣) التوحيد: ١٩٤ / ٨.

بعضها ينضوي تحت البعض الآخر، فلا يبقىٰ منها إلّا (٩٩) اسماً. فمثلاً «محمود» و«حميد»، و«العالي» و«الأعلىٰ» و«المتعال»، و«المحسن» و«قديم الإحسان»، فإن هذه الأسماء وما ماثلها ينضوي بعضها تحت البعض الآخر.

وقالوا أيضاً: إنه لايجوز إعطاء شيء من هذه الأسماء والصفات بكل مالها من حدود وأبعاد لأحد غيره جل وعلا، فلا يجوز أن تقول، فلان رحيم بكل ما للرحيمية من حدود وأبعاد وخصائص، وعالم بكل ما للعلم من حدود وأبعاد، وقادر بكل ما للقدرة من حدود وأبعاد؛ لأنه يلزم من ذلك وجود المماثل له سبحانه في رحيميته وعلمه وقدرته، والله لا مثيل له ولا عديل في كلّ شيء. وهذا هو معنىٰ الأحدية.

وأما تتمة الآية السابقة، فإن الله سبحانه عنىٰ بها عبّاد الأوثان الذين جعلوا يعدلون بأسمائه جل وعلا إلىٰ غيره من أصنافهم، ويغيرونها بشيء من الزيادة أو النقصان، أو تغيير بعض الحروف، كـ«اللات» من «الله» جل وعلا، و«مناة» من «المنان» و«العزى» من «العزيز»، أو يصفونه بما لا يليق به ويسمونه بما لايجوز تسميته به. فهؤلاء عناهم الله سبحانه بتتمة الآية السابقة، فقال تعالىٰ: ﴿**وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾(٥).

وأما قوله تعالىٰ: ﴿**قُلِ ادْعُوا اللّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى**﴾(٦)، فقد قيل: إن سبب نزولها أن النبيﷺ كان ساجداً بمكة في بعض الليالي وهو يدعو ربه ويقول: «**يارحمن يا رحيم، يا حليم يا كريم، يا سميع يا عليم**». وهكذا فقال بعض رجال قريش: إن هذا يزعم أن له رباً واحداً، وهو يدعو مثنى مثنى، فأنزل الله هذه الآية الكريمة، ومعناها أنه سبحانه شيء واحد وإن

---

(٤) وسائل الشيعة ٧: ١٤٠ / ٨٩٤٦.
(٥) الأعراف: ١٨٠.
(٦) الإسراء: ١١٠.

تعددت أسماؤه جل وعلا.

وقد ورد عن هذه الأسماء المباركة الـ(٩٩) أن من دعا الله بها استجاب له(١)، وأن من أحصاها دخل الجنة(٢) كما تقدم. ولكن ينبغي الانتباه إلى أنّ المراد من دعاء الله بها لا يعني أن نعدّها، وأن نجري ألفاظها على ألسنتنا فحسب، بل المراد بأن يؤمن الإنسان بهذه الأسماء والصفات ثم يحاول أن يعكس في وجوده إشراقة من مفاهيمها، كما رُويَ عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**نحن والله الأسماء الحسنى**»(٣)، يعني أن إشعاعاً من هذه الأسماء والصفات قد انعكس في نفوسنا وأرواحنا وفي سلوكنا وأخلاقنا.

وقد بينت بعض كلمات الزيارة الجامعة شيئاً من ذلك، فقالت: «**كلامكم نور، وأمركم رشد، ووصيتكم التقوى، وفعلكم الخير، وعادتكم الإحسان، وسجيتكم الكرم، وشأنكم الحق والصدق والرفق، وقولكم حكم وحتم، ورأيكم علم وحلم وحزم إن ذكر الخير كنتم أوله وأصله وفرعه ومعدنه ومأواه ومنتهاه**»(٤).

وقد قالوا: إن من أسمائه الحسنى أسماءه التي تقابل أسماء الخمسة أهل الكساء عليهم السلام؛ حيث يقال في الدعاء الشريف: «**يا محمود بحق محمد، ويا عالي بحق علي، ويا فاطر السماوات والأرض بحق فاطمة، ويا محسن بحق الحسن، ويا قديم الإحسان بحق الحسين، إلّا غفرت لي يا أرحم الراحمين**»(٥).

وقد قيل: إن هذا الدعاء المبارك هو بعينه الكلمات التي ذكرتها الآية الكريمة: **﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾**(٦).

---

(١) التوحيد: ١٩٥ / ٩.

(٢) التوحيد: ١٩٤ / ٨، ٢١٩ / ١١، صحيح مسلم ٨: ٦٣، سنن ابن ماجة ٢: ١٢٦٩ / ٣٨٦١.

(٣) الكافي ١: ١٤٤ / ٤، المختصر: ٧٥، بحار الأنوار ٢٧: ٣٨.

(٤) الفقيه ٢: ٦١٦، عيون الأخبار ١: ٣٠٩ / ١، بحار الأنوار ٩٩: ١٣٢ / ٤.

(٥) بحار الأنوار ٤٤: ٢٤٤ / ٤٤. (٦) البقرة: ٣٧.

كما ذُكر أنه كان كلما دعا عليه السلام[١] بها ووصل إلى ذكر الاسم الخامس منها انكسر قلبه، وجرت مدامعه، فأنكر ذلك من نفسه وسأل جبرئيل عن سبب ذلك، فأخبره أن ولدك هذا يصاب بمصيبة تصغر عندها كلّ مصيبة، وذكر له ما يجري على ولده الحسين عليه السلام فبكى عليه من يوم توبته عليه السلام:

بكـــاك آدم حـــزناً يـــوم تـــوبته وكنت نوراً بساق العرش قد سطعا[٢]

(١) الميزان ٨: ٣٧٥.

(٢) ديوان الشيخ صالح الكوّاز: ٢١.

﴿٥﴾

لفظ الجلالة

قال تعالى:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

تقدم الكلام عن الجار والمجرور الذي هو ﴿**بسم**﴾، وبقي الكلام على لفظ الجلالة الذي هو (الله)، ولا ريب أنه علم للذات المقدس سبحانه جلّ وعلا، وأنه كما قال الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء يوم الثلاثاء: «**باسم الله خير الأسماء، باسم الله رب الأرض والسماء**»(١). ولكن هل هو مشتق، أو منقول، أو مرتجل؟ فإن الاسم لا بدّ أن يكون نوعاً من هذه الأنواع الثلاثة. فالمشتق مثل «**محمد**صلى الله عليه وآله وسلم» من الحمد الكثير، يعني أنه المحمود بكثرة. وقد نسب لأبي طالب رضي الله عنه أنه قال في مدح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

لقد أكرم الله النبيّ محمداً فأكرم خلق الله في الناس أحمدُ
وشقّ له من اِسمه ليجلّه فذو العرش محمود وهذا محمدُ(٢)

---

(١) الصحيفة السجادية الجامعة: ٦٣ و٥٤٨، بحار الأنوار ٨٣: ٣١٠.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٤: ٧٨، بحار الأنوار ٣٥: ١٢٨ / ٧٣.

وقد ضمنّها شاعره حسان بن ثابت في شعره فقال:

ألم تــرَ أنّ الله أرســل عــبده بآيــاته والله أعــلى وأمــجدُ

(وشــقّ له مــن اِسـمه ليـجلّه فذو العرش محمود وهذا مـحمدُ)[1]

وقد أدركت قريش أن اسم «محمد» مشتق من الحمد الكثير، وأنه المـحمود بكثرة، فغيروا اسمه عداوةً له من محمد إلى (مذمم) وهو المذموم بكثرة، فقالت حمالة الحطب في شعرها:

مــذمماً أبــينا وأمــره عـصينا

ودينه قلينا[2]

ومن الأسماء المشتقّة (علي)، فإنه مشتق مـن العـلو، وقـد روي عـن أبـي طالب رضي الله عنه أنه لما سمى ولده علياً عليه السلام قال:

ســمّيته بــعلي كــي يــدوم له عــزّ العـلوّ وخـير العـزّ أدومـه[3]

وقد شاءت الأقدار أن تصدق لهذا الشيخ ما تفأل به لولده، فبقي عـلى رغـم أعدائه خالداً على جبين الدهر بكل فضائله وأمجاده.

قال المؤلف (سامحه الله) في قصيدة له يمدح بها أمير المؤمنين علياً عليه السلام:

حــاربته الدنــيا زمـاناً طـويلاً وأرادوا إطــفاء ذاك النــورِ

شــتمته سـبعون ألف خـطيب بــقبيح التـعبير والتـزويرِ

ألصــقوا فـيه كـلّ عـيب وريب مــن أمــير وقـائد ووزيـرِ

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ٦١، مسند الحميدي ١: ١٥٤.

(٣) كشف الغمة ١: ٨٥، بحار الأنوار ٣٥: ٣١.

شـــهروا السـيف لـلبراءة مـنه　　　طـلبوا جسـمه بـحفر القـبورِ
قــتلوا قــطعوا الأنــامل والأيـ　　　ـــدي عــلى حـبّه بـغير نـكيرِ
وأخـــيراً بـــقي عــلي عـلياً　　　وبــقوا لعــنة لأهــل الدهــورِ
إن هــذا ســرّ عــجيب تــجلّى　　　فــي عـلي تـراه عـين البـصيرِ
كـيف مــات الذي أراد له المـو　　　ت وعاشت علاه عبر العـصورِ

ومن الأسماء المشتقّة «حسن»، فإنّه مشتقّ من الحُسن.

ومنه غير ذلك، قال ابن مالك:

ومــنه مــنقول كـفضل وأسـدْ　　　وذو ارتــجال كسـعاد وأددْ[1]

فلفظ الجلالة «الله» من أي هذه الأنواع الثلاثة ؟

قال بعضهم: إنه مشتق، ورووا عن هشام بن الحكم ﵁ أنّه سأل الإمام الصادق ﵇ عن أسماء الله واشتقاقاتها، فقال فيما قال: (الله) ممّ هو مشتق؟ فقال: **«يا هشام، مشتق من «إله»، والإله يقتضي مألوهاً، والاسم غير المسمى، فمن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئاً، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك وعبد اثنين، ومن عبد المعنى دون الاسم فذاك هو التوحيد. أفهمت يا هشام؟»**.

قال: فقلت: زدني يا مولاي. فقال: **«إن لله جلّ وعلا تسعة وتسعين اسماً، فلو كان الاسم هو المسمّى لكان كلّ اسم منها إلهاً، ولكن الله جلّ وعلا معنىً يستدل عليه بهذه الأسماء، وكلها غيره. يا هشام الخبز اسم للمأكول، والماء اسم للمشروب، والثوب اسم للملبوس، والنار اسم للمحرِق، أفهمت يا هشام فهماً تدفع وتناضل به أعداءنا ؟»**. قال: قلت: نعم. قال: **«نفعك الله وثبتك»**.

---

(١) انظر شرح ابن عقيل ١: ١٢٤.

قال هشام: فو الله ما قهرني بعدها أحد في التوحيد حتى قمت مقامي هذا[١].

قيل: وقوله: «**الخبز اسم للمأكول، والماء اسم للمشروب، والثوب اسم للملبوس، والنار اسم للمحرق**»، أمر واقع؛ لأن الجائع لا يشبع بذكر الخبز، والظمآن لا يروى بذكر الماء، والعاري لا يكسى بذكر الثوب، وذاكر النار لا يحترق بذكرها، فلو كان الاسم هو المسمّى لحصل ذلك كله، فلما لم يحصل من ذلك شيء علم أن الاسم غير المسمى. ولكن البعض يدّعي أن الاسم هو المسمى، ويبرر دعواه بقوله تعالى: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى**﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾[٣]. وأن الناس يقولون: «**سبحان ربّي الأعلى**»، و«**سبحان ربّي العظيم**»، ولا يقولون: سبحان اسم ربّي الأعلى، ولا سبحان اسم ربّي العظيم. فدلّ ذلك على أن الاسم هو المسمّى. والحال أن الأكثرية ترى أن الاسم في الآيتين الكريمتين صلة قصد بها الوصول إلى المسمّى وهو كلمة ﴿**ربك**﴾، كما قال لبيد بن ربيعة العامري المتوفى بالكوفة في آخر أيام معاوية في خطابه لابنتيه:

فإن حال يوماً أن يموت أبوكما	**فلا تخمشا وجهاً ولا تحلقا شعرْ**
وقولا هو المرء الذي لا خليله	**أضاع ولا خان الصديق ولا غدرْ**
إلى الحول ثمّ اسم السلام عليكما	**ومن يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذرْ**[٤]

أو للمبالغة في تنزيه المسمّى؛ لأن معنى التسبيح هو التنزيه، فمن أجل المبالغة في تنزيه المسمّى أمر جلّ وعلا بتنزيه الاسم، كما حرم العلماء مسّ كلامه وأسمائه سبحانه وتعالى بدون أن يكون الإنسان على غير طهارة تبيح له الصلاة؛

---

(١) الكافي ١: ٨٧ / ٢، الاحتجاج ٢: ٧٢، بحار الأنوار ٤: ١٥٧ / ٢.

(٢) الأعلى: ١. (٣) الواقعة: ٩٦.

(٤) تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات: ٤٠٦.

مبالغةً في تنزهه جلّ وعلا.

قالوا: وليس مصدر هذا الحكم قوله تعالى: ﴿**لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْـمُطَهَّرُونَ**﴾[١]؛ لأن الذين على طهارة مطهّرون لا مطهّرون.

إذن مصدر هذا الحكم السنة وليست الآية الكريمة، ومسّ القرآن هو العلم به، والمطهّرون هم أهل آية التطهير عليهم السلام.

وقيل: إنه جلّ وعلا أمر بتنزيه الاسم دون الذات؛ لأن مبلغ جهد الإنسان أن يعرف الله جلّ وعلا بالمعاني التي تدل عليها أسماؤه الحسنى وصفاته العليا. أما الذات المقدّسة فإنها لا تصل إليها العقول والأفهام كما تقدم.

وقال بعضهم: إن لفظ الجلالة «الله» اسم منقول من «لاه»، يعني ارتفع واحتجب[٢]. ومعنى ارتفع يعني ارتفع عن مشابهة الأشياء ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾، ومعنى احتجب يعني احتجب عن العقول والأبصار. قال تعالى: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصَارَ**﴾[٣]. قال بعض الشعراء:

كل ما يرتقى إليه بوهم ... من جلال وعزّة وبهاءِ
فالذي أبدع البرية أعلى ... منه سبحان منشئ الأشياءِ[٤]

وقال آخر:

كيفية المرء ليس المرء يدركها ... فكيف كيفية الجبار في القدمِ[٥]

وقيل: إنه منقول من «وَلِه» الذي بمعنى الذهول والتحيّر؛ لأنّ العقول والأفهام تحيّرت وذهلت في معرفة ذاته؛ ولذا قال بعضهم:

---

(١) الواقعة: ٧٦.
(٢) مجمع البيان ١: ٥١.
(٣) الأنعام: ١٠٣.
(٤) المستطرف في كلّ فن مستظرف ١: ١٥.
(٥) دفع شبه التشبيه: ١٤٢.

فـيك يـا أعـجوبة الكـو ... ن غــدا الفكــر كــليلا

أنت حـــيّرت ذوي اللـ ... ـب وبــلبلت العــقولا

كـــلمّا أقـــدم فكـــري ... فـــيك شــبراً فـرّ مــيلا

نـاكـصاً يـخبط فـي عشـ ... ــواء لا يـهدي السـبيلا[١]

وقيل: إنه منقول من «وَلِه» الذي بمعنى «ولع»؛ وذلك لأنّ الصالحين من عباده مولعين بحبّه ولهين إلى قربه، حتى قال بعضهم:

هجرت الخلق طراً في هواكا ... وأيـتمت العـيال لكـي أراكـا

فلو قطعتني في الحبّ إربـاً ... لما مال الفؤاد إلى سواكـا[٢]

وأعظم وأجل من طبّق هذا القول وحوّله إلى الواقع المـحسوس هـو الإمـام الحسين عليه السلام يوم العاشوراء.

وقيل: إنه منقول من «أَلِه» الذي بمعنى «سكن»؛ وذلك لأن النفوس لا تسكن إلّا إليه، والقلوب لا تطمئن إلّا لديه. قال تعالى: ﴿**أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾[٣].

وقد اختلف في واضع هذا الاسم على تلك الذات المقدّسة من هو؛ أهو الخالق جلّ وعلا، أم هو المخلوق؟ فقال بعضهم: إن واضـعه هـو الخـالق جـلّ وعـلا. واحتجّوا على ذلك بعدّة أشياء، منها قوله تـعالى: ﴿**إِنَّـنِي أَنَـا اللَّـهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ أَنَـا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي**﴾[٤].

وقوله تعالى: ﴿**يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[٥].

ومنها أن وضع اللفظ على الذات، واستعماله لها يحتاج إلى تصور كلّ منهما، وذات الله سبحانه يستحيل تصورها على المخلوقات لاستحالة إحاطة المـمكن

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٣: ٥١.
(٢) تاريخ مدينة دمشق ٦: ٣٠٦.
(٣) الرعد: ٢٨.
(٤) طه: ١٤.
(٥) النمل: ٩.

بالواجب جلّ وعلا.

ومنها أن الأسماء التي تأتي من قبل الله جل وعلا لم تكن موجودة قبل ذلك، كيحيى بن زكريا عليه السلام، قال تعالى: ﴿**يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً**﴾[١].

وكذلك قال عن نفسه جلّ وعلا: ﴿**رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً**﴾[٢].

قال الرازي: والضمير في ﴿**لَهُ**﴾ يعود على الاسم العلم وهو «الله»، وليس على الصفة وهي كلمة ﴿**رَبُّ**﴾؛ لأنها تصدق على غيره بخلاف اسم العلم وهو «الله»، فإنّه لا يصدق على سواه، ولهذا جاء في الدعاء: «**يا من لا يقال لغيره يا الله**». والذي لم يكن له من قبل سميٌّ هو الذي لم يسمَّ أحد قبلُ باسمه. والآية وإن كانت تعني هذا المعنى ولكنها لا تنحصر فيه، بل إنها مع ذلك تشير إلى أن هذا الاسم يوحي إلى معانٍ أُخرى، منها أن الله سبحانه وتعالى أحيا بيحيى عقم أمّه وأحيا به ذكر أبيه عليه السلام.

ومنها أنه جلّ وعلا جعله عليه السلام حيّاً بشهادته وحياً بخصائصه التي منها قوله تعالى: ﴿**وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً**﴾ إلى غير ذلك مما ظهر لنا أو خفي علينا.

وبالأولى أن تكون الآية التي عنى بها نفسه جلّ وعلا كذلك تشير إلى أنه جلّ وعلا لا عديل أو لا مثيل ولا خلف لقوله ولا تبديل، وغير ذلك مما يعسر علينا حصره، ولم تكن الآية منحصرة في أنه تعالى لا سميّ له بالاسم فقط، بل إنه في كل شيء ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**﴾[٣].

ومنها أن هذا الاسم يختصّ بخواص لا توجد في غيره، فمنها أنه إذا حذفت منه الألف يبقى الباقي «لله» وهو مختص به تعالى. قال تعالى: ﴿**الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ**

---

(١) مريم: ٦. (٢) مريم: ٦٥.

(٣) الشورى: ١١.

الْعَالَمِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿**ولله جنُود السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾[١]، وقال تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[٢].

وإن حذفت منه الألف واللام بقي منه «له»، وهي تعني أن كلّ شيء له جل وعلا. قال تعالى: ﴿**لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾[٣]، ومعنى «المقاليد» يعني خزائن الأشياء ومفاتيحها.

وقال تعالى: ﴿**أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ**﴾[٤]، ومعنى الآية: ألا له عالم الخلق وهو عالم الأجسام، وله عالم الأمر وهو عالم الأرواح؟

وقال تعالى: ﴿**لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ**﴾[٥]، وقال وقال وقال.....

وإن أعدت الألف إلى «له» كانت «إله»، وهو مختص به جلّ وعلا، قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ**﴾[٦].

وإن حذفت الألف واللامين معاً بقي «هـ»، وهو أيضاً يدل عليه جلّ وعلا، قال تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**﴾[٧]، وما ماثلها من الآيات التي تحمل الضمير كآية الكرسي وغيرها؛ وذلك لأن الواو زائدة في الضمير بدليل سقوطها في التثنية والجمع، فإنّك تقول: «هما» و«هم» ولا تقول: «هوما» و«هوم».

فهذه الأشياء ليست موجودة في غير لفظ الجلالة من الأسماء.

ومنها أنه لا يجمع ولا يثنّى، قال القرطبي[٨]: وهذا من تأويل قوله تعالى: ﴿**هل تعلم له سميا**﴾كما تقدم.

---

(١) الفتح: ٤ ـ ٧.
(٢) المنافقون: ٧.
(٣) الزمر: ١٣.
(٤) الأعراف: ٥٤.
(٥) التغابن: ١.
(٦) الزخرف: ٨٤.
(٧) الإخلاص: ١.
(٨) الجامع لأحكام القرآن ١: ١٠٢، وفيه: «وهو أحد تأويلي قوله تعالىٰ...».

ومنها أن الهمزة والألف واللام لا تثبت في النداء إلّا مع هذا الاسم المقدس.

هذا بالنسبة إلى خصائصه اللفظية، وأمّا خصائصه المعنوية، ***فمنها*** أنك إذا دعوته جلّ وعلا بغير هذا الاسم، فإنّك إنما تدعوه بما يخصّ ذلك الاسم، فإذا قلت: «يا رحمن»، فإنّك دعوته برحمانيته، وإذا قلت: «يا رحيم»، فإنك دعوته برحيميته، وإذا قلت: «يا كريم»، فإنك دعوته بكرمه، وإذا قلت: «يا قدير»، فإنك دعوته بقدرته، وهكذا بقية أسمائه جلّ وعلا. ولكنه إذا دعوته بكلمة «الله» فقد دعوته بجميع أسمائه وصفاته كما تقدم.

ومنها أن الكلمات الأربع؛ «**سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر**» لا تأتي في الصلاة إلّا بهذا الاسم، وبصورة خاصة أن كلمة التوحيد التي ينتقل بقولها الكافر إلى الإسلام فإنّه لم يأتِ فيها إلّا هذا الاسم، فلو أن الكافر قال: أشهد أن لا إله إلّا الرحمن أو إلّا الرحيم أو إلا العليم أو غير ذلك من الاسماء لم يدخل في الإسلام، لاحتمال أنه يريد غيره جل وعلا ولو مجازاً، ولكنه إذا قال: «**أشهد أن لا إله إلّا الله**»، فقد أسلم. وكذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول للناس: «**قولوا: لا إله إلّا الله تفلحوا**»[١]؛ وذلك لأنها كلمة التوحيد. أما «**سبحان الله**» فإنها كلمة التنزيه، وأمّا «**الحمد لله**» فهي كلمة الحمد. وأمّا كلمة «**الله أكبر**» فإنها كلمة التعظيم.

فهذه الخواص وأمثالها تقرّب أن واضع الاسم هو صاحبه جلّ وعلا، وأكد ذلك السبزواري رحمه الله في تفسيره (مواهب الرحمن) وقال: «**ويشهد بذلك قول الإمام الصادق** عليه السلام: «**اعرفوا الله بالله**»[٢]...». وجوّز المقدّس الخوئي رحمه الله في (البيان) وضع هذا الاسم من جهة المخلوقين، وقال: «إن وضع اللفظ على الذات واستعماله لها إنما يتوقف على تصورها في الجملة، ولو بالإشارة، وهذا غير ممتنع على

---

(١) مناقب ابن شهر آشوب ١: ٥١، بحار الأنوار ١٨: ٢٠٢.

(٢) الكافي ١: ٨٥ / ١.

المخلوقين، وإلّا لامتنع وضع اللفظ واستعماله على الموجودات التـي لا يـمكن الإحاطة بكنهها، وإن كانت ممكنة كالروح والمـلائكة والجـنّ وغـير ذلك والله أعلم»[1].

---

(١) البيان في تفسير القرآن: ٤٢٦.

﴿٦﴾

معنى ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ من البسملة

قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿**الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾

أقول: من صفات الله العليا، واسمان من أسمائه الحسنى، والفرق بينهما أنّ كلمة ﴿**الرَّحْمَنِ**﴾ جاءت على صيغة المبالغة، فدلّت على الكثرة، فـ﴿**الرَّحْمَنِ**﴾ هو ذو الرحمة الواسعة الشاملة التي لا تضيق بشيء. ولذلك فإن هذا الاسم اسم خاص لا يجوز أن يسمّى به أو يوصف به غير صاحبه، تماماً كلفظ الجلالة، ولذلك جاء مرادفاً له في مقام الدعاء. قال تعالى: ﴿**قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى**﴾[١].

وجاء نائباً عنه في مقام العبادة، قال تعالى: ﴿**وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ**﴾[٢].

قالوا: في هذه الآية الكريمة دليل على أن الله سبحانه جمع بين رسوله محمد ﷺ وبين الأنبياء الذين قبله ليلة الإسراء في المسجد الأقصى، والّا فكيف يسألهم وهو لم يرهم، ولم يدركهم؟ قال البوصيري رحمه الله:

---

(١) الإسراء: ١.   (٢) الزخرف: ٤٥.

سـريت مـن حـرم ليـلاً إلى حـرم ... كما سرى البدر فـي داجٍ مـن الظـلمِ
وقـدّمتك جـميع الأنـبياء بـها ... والرسل تقديم مخدوم على خـدمِ[1]

وللمؤلف زيادة على ذلك:

فـنلت مـنزلة فـي القـدس عـالية ... إذ أمّك الأنـبيا والرسـل فـي الحـرمِ
وقـال ربّك سـلهم هـل جـعلت لهـم ... من يعبدون سوى الرحمن فـي القـدمِ
فـيا لهـا نـعمة كـبرى ومكـرمة ... عظماً سموت بها فـي الرسـل والأُمـمِ

فـ﴿**الرَّحْمَنِ**﴾ كما روي عن الرسول ﷺ أنه قال بأنه اسم خاص[2] لمعنى عام، أي أنه يخبر عن رحمة عامة شاملة تشمل البرّ والفاجر، والمؤمن والكافر.

أما ﴿**الرَّحِيمِ**﴾، فإنّه اسم عام لمعنى خاص، وهي الرحمة الملازمة له جلّ وعلا، والخاصة بمن يستحقها من عباده المؤمنين. ولذلك جاءت كلمة ﴿**الرَّحْمَنِ**﴾ على صيغة المبالغة لتدل على عمومية الرحمة، وجاءت كلمة ﴿**الرَّحِيمِ**﴾ صفة مشبهة لا تدل على العمومية، وإنما تدل على الدوام والثبوت.

ومن الأدلة على ذلك أنه لم يصف بالرحمانية غيره؛ لأن الرحمة التي يخبر عنها هذا الاسم لا يصل إليها غيره لسعتها وشمولها، وأما الرحيمية، فقد وصف بها غيره؛ لأنّها تختص بمن يستحقها، فقال تعالى في وصف نبيه الكريم محمد ﷺ: ﴿**لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[3]. فدلت الآية الكريمة على أن الرحيمية تصدق على غيره سبحانه؛ لأنها تختصّ بمن يستحقها من المؤمنين وإن كانت منه جلّ وعلا أوسع وأشمل، وقد بيّن سعتها منه جلّ وعلا وخصوصيتها بمن يستحقها بقوله سبحانه:

---

(١) الأنوار البهية: ٣٦.
(٢) مجمع البيان ١: ٥٤.
(٣) التوبة: ١٢٨.

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾(١).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً﴾(٣).

إذن فالرحيمية خاصة والرحمانية عامة، وبموجب ذلك فإنه سبحانه رحمن في الدنيا، رحيم في الآخرة، والآيات في ذلك كثيرة، فمنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾(٤).

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾(٥).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾(٦).

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلاَ أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُوْنَ * وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٧).

ومعنى هذه الآيات أنه لولا أن يكون الناس كلهم كفاراً لأعطى الله الكافر من زخارف الدنيا وزينتها وزبرجها أكثر مما يعطي المؤمن؛ وذلك لأن ما يفوته من

---

(١) الأعراف: ١٥٦. (٢) الأعراف: ٥٦.
(٣) الأحزاب: ٤٣. (٤) النساء: ٤٨.
(٥) الأعراف: ٤٠. (٦) المائدة: ٧٢.
(٧) الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥.

نعيم الآخرة أكثر من جميع ما في الدنيا، ولذلك قيل: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»[١] بهذا المعنى الخاص. وقد ذكر ذلك مولانا الإمام الحسن عليه السلام في قصته مع اليهودي، فقد روي أنه عليه السلام مرّ على يهودي فقير سيّئ الحال، والإمام عليه السلام في بـزة حسنة، وعلى دابة فارهة، فاستوقفه اليهودي، وقال له: روى الناس عن جدك أنه قال: «**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**»، فكيف يصح هذا وأنا بهذا الحال وأنت بهذا الحال؟ فقال عليه السلام: «**صدق جدي فيما قال، فإنك مع ما أنت فيه الآن من الفقر والمرض وسوء الحال، فأنت في جنة بالنسبة إلى ما أعد الله لك من العذاب الأليم بسبب إصرارك على الكفر. وأنا مع ما أنا فيه من سعة الحال في سجن بالنسبة إلى ما أعد الله لي من الثواب والنعيم المقيم بسب ما أنا عليه من الإسلام والإيمان**»[٢].

وبذلك يتّضح أن كلّ ما جاء عن رحمته في الآخرة فهي لأهـل الإيـمان ولا يصح أن تكون لأهل الكفر، ولو كانوا في عدل كسـرى وجـود حـاتم فـإنهم لا يدخلون الجنة أبداً؛ لأن الجنة لا مكان فيها لكافر.

نعم، يجوز أن يكونوا في النار والنار لا تمسهم بسوء، كما قيل ذلك في كسرى وحاتم، والله جل وعلا أعلم.

وتختلف رحمة الخالق عن رحمة المخلوق، فرحمة المـخلوق رقّـة تـقتضي الإحسان إلى المرحوم والتعطّف عليه، وهي ضدّ القسوة والشدّة التي ذكرها الله سبحانه، فقال: ﴿**ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿**أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ**﴾[٤].

وقد تستعمل رحمة الإنسان في الرقّة المجردة من الإحسان والتعطف؛ لأنه قد

---

(١) التمحيص: ٤٨ / ٧٦، دعائم الإسلام ١: ٤٧.
(٢) كشف الغمة ٢: ١٦٧، بحار الأنوار ٤٣: ٣٤٦.
(٣) البقرة: ٧٤. (٤) الفتح: ٢٩.

يرحم الإنسان من لا يستطيع الإحسان إليه والتعطف عليه.

أمّا الرحمة من الله جلّ وعلا، فهي مجرد الإحسان والإفضال بدون رقة. سأل ذعلب اليماني أمير المؤمنين عليه السلام يوماً فقال له: هل رأيت ربك؟ قال: «**وهل أعبد رباً لم أره؟**»، قال: كيف رأيته؟ قال: «**لا تراه الأبصار بمشاهدة العيان، ولكن تراه القلوب بحقائق الإيمان، قريب من الأشياء غير ملامس، بعيد عنها غير مباين، متكلم لا بروية، مريد لا بهمة، صانع لا بجارحة، لطيف لا يوصف بالخفاء، بصير لا يوصف بالحاسّة، رحيم لا يوصف بالرقة**»(١).

قالوا: وتنقسم رحمته جلّ وعلا إلى نوعين: وجوبية وامتنانية، فالامتنانية هي الرحمة المفيضة للنعم السابقة على العمل، وهي المقصودة بقولهم في الدّعاء: «**يا مبتدئاً بالنعم قبل استحقاقها**»(٢). وأما الوجوبية، فهي التي ذكرها الله بقوله: **﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾**(٣).

وقال تعالى: **﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**.

وأكثر من ذلك أنه قال تعالى: **﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾**(٤).

وعن محمد بن مسلمة قال: قال لي الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: «**إن ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة ويعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة**» قلت: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار؟ فقال: «**يا محمد بن مسلم، أترى أن العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثمّ لا يقبل الله منه توبته؟**». قلت: فإن

---

(١) نهج البلاغة / الكلام: ١٧٩.

(٢) الصحيفة السجادية الجامعة: ٢٠٦، التوحيد: ٢٢٢، بحار الأنوار ٨٣: ٧٥ / ١٠.

(٣) الأنعام: ١٢. (٤) الزمر: ٥٣.

فعل ذلك مراراً يذنب ثم يتوب ويستغفر، ويذنب ثم يتوب ويستغفر؟ فقال: «**كلّما عاد العبد المذنب بالاستغفار والتوبة عاد الله عليه بالمغفرة، فإن الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، فإياك أن تقنّط المؤمن من رحمة الله!**»[١].

وروي أن آدم عليه السلام قال: «**يارب إنك سلطت إبليس عليّ وعلى ذريتي وأجريته فيهم مجرى الدم في العروق، فما لي ولذريتي؟**» فقال جلّ وعلا: «**يا آدم، جعلت لك ولذريتك أن من همّ بالحسنة ولم يعملها كتبت له واحدة، فإن عملها كتبت له عشراً. ومن همّ بالسيئة ولم يعملها لم تكتب عليه، فإن عملها كتب عليه واحدة**». قال: «**يا ربّ زدني**». قال: «**جعلت لك لذريتك من عمل منهم سيئة ثم استغفرني غفرت له**». قال: «**يا ربّ زدني**». فقال تعالى: «**جعلت لك ولذريتك أن باب التوبة مفتوح حتى تبلغ الروح الحلقوم**». قال: «**ربّ زدني**». قال: «**أغفر ولا أُبالي، وأنا الغفور الرحيم**»[٢].

وقد ظهر لنا من رحمة الأنبياء عليهم السلام وتجاوزهم عن أهل الإساءة لهم والعفو عنهم ما يوجب لنا فسحة الأمل في رحمة الله جلّ وعلا؛ إذ لا شك ولا ريب أن رحمة الخالق أوسع من رحمة المخلوق، فهذا يوسف الصديق عليه السلام، فعل به إخوته ما فعلوا وما هو إلّا أن ظفر بهم، وإذا هو يشملهم بعفوه ويغمرهم بتجاوزه وإحسانه، ويقول لهم: ﴿**لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾[٣].

وأجل وأشرف وأوسع من موقف يوسف في العفو عن إخوته موقف نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي عفا عن جميع أهل مكة وهم الذين كذبوه ونابذوه وحاربوه وطاردوه، وما هو إلّا أن فتح مكة وصارت حياتهم وموتهم رهن كلمة تخرج من

---

(١) الكافي ٢: ٤٣٤ / ٦، بحار الأنوار ٦: ٤٠ / ٧١.
(٢) تفسير القمي ١: ٤٢، بحار الأنوار ١١: ١٤١ / ٨.
(٣) يوسف: ٩٢.

شفتيه صلى الله عليه وآله وسلم، وإذا هو يقول لهم: «**ما أقول لكم إلّا ما قال أخي يوسف: ﴿لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ...﴾ فاذهبوا فأنتم الطلقاء**». ثم منح أعدىٰ أعدائه وألد خصومه شرف الأمان في بيته فقال: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن**»[1].

وقد جاء في كتاب تاريخ ابن خلكان أن الشيخ نصر الله بن مجلي ـ وهو من ثقات أهل السنة ـ رأى الإمام علياً عليه السلام في المنام، فقال له: يا أمير المؤمنين، تفتحون مكة فتقولون: «**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن**»، ثمّ يتمّ على ولدك الحسين عليه السلام ما تمّ يوم العاشوراء؟ فقال: «**أما سمعت أبيات ابن الصيفي في هذا ؟**»، فقال: لا، قال: «**فاسمعها منه**».

قال: فاستيقظت وبادرت إلى دار ابن الصيفي ـ وهو الملقّب بـ«الحيص بيص» والمتوفى ٦/ ٨/ ٥٧٤ / هـ ـ فأخبرته بالرؤيا، فشهق وأجهش بالبكاء، وحلف بالله أنها ما خرجت من فمه ولا بخطّه إلى أحد، وأنه ما نظمها إلّا في ليلته تلك، ثم أنشدني:

ملكنا فكان العفو منا سجية ... ولمّا ملكتم سال بالدم أبطحُ
وحلّلتُمُ قتل الأسارى وطالما ... غدونا عن الأسرى نعفّ ونصفحُ
فحسبكُمُ هذا التفاوت بيننا ... وكل إناء بالذي فيه ينضحُ[2]

وقد خمّس هذه الأبيات السيد محمد صادق الفحام النجفي المتوفّى في ٢١/ ٨/ ١٢٠٤ هـ:

نعم جدنا المختار ليس أمية ... وجدتنا الزّهراء ليست سمية
ونحن ولاة الأمر لسنا رعية ... (ملكنا فصار العفو سجية

(١) مناقب ابن شهر آشوب ١: ١٧٨، الطرائف: ٣٩٠، بحار الأنوار ٢١: ١٢٩.
(٢) وفيات الأعيان ٢: ٣٦٥.

ولما ملكتم سال بالدم أبطحُ)

ألم نكُ يا أهل الضلالة والعمىٰ عفونا بيوم الفتح عنكم تكرما

لماذا سفكتم بالطفوف لنا دما (وحلّلتُمُ قتل الأسارى وطالما

غدونا عن الأسرى نعفّ ونصفحُ)

ونحن أناس لم يكُ الغدر شأننا ولا الأخذ يوماً كان بالذنب دأبنا

ولكننا نعفو ونكظم غيظنا (فحسبكُمُ هذا التفاوت بيننا

وكل إناء بالذي فيه ينضحُ)[1]

---

(١) أعيان الشيعة ٩: ٣٦٨.

﴿٧﴾

معنى ﴿الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[(١)].

قال أهل اللغة: إن الحمد والمدح والشكر من نوع واحد، ولكن المدح أعم من الحمد، والحمد أعم من الشكر. وإنما كان المدح أعم من الحمد؛ لأنّ المدح يحصل للمدوح على ما يكون له ومنه باختياره كسخائه وعلمه، وعلى ما يكون له ومنه بغير اختياره كصباحة وجهه وامتداد قامته. والحمد لا يحصل للمحمود إلّا على ما يكون باختياره؛ ولذلك لم ترد كلمة المدح لله جلّ وعلا في القرآن؛ لأنه لم يحصل له ومنه شيء بغير اختياره كما تحصل الحرارة للنار ومن النار، وكما تحصل البرودة للثلج ومن الثلج.

وقد ثبت في الأذهان أن الموجب بالذات لا يستحق الحمد، فلو انتفع الإنسان بحرارة النار أو ببرودة الثلج، فإنه لا يصح منه أن يحمدهما على ذلك، ويصح له أن

---

(١) الفاتحة: ٢.

يمدحهما على ذلك.

وإنما كان الحمد أعم من الشكر لأن الشكر لا يكون إلّا في مقابل نعمة تغدق من المشكور على الشاكر؛ ولذا قال تعالىٰ: ﴿**اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ**﴾[١]؛ وذلك لأن الله سبحانه هو المنعم الأول، والوالدين هما المنعم الثاني، فاستحقوا بذلك الشكر.

وأما الحمد فإنه يكون لمن يستحقه وهو الله سبحانه علىٰ كلّ حال؛ ولذا جاء في كلام الصالحين: «الحمد لله علىٰ السرّاء والضرّاء، والحمد لله علىٰ الشدة والرخاء». بل جاء في بعض كلامهم (رضي الله عنهم): «الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه».

قيل: وإنما حمدوه علىٰ المكروه لأمرين:

الأمر الأول: أنهم حمدوه علىٰ ذلك، لأن كلّ ما يفعل المحبوب محبوب، فأهل هذه الدرجة يعتبرون أنفسهم في البلاء أو النعماء، وفي الشدة أو الرخاء علىٰ حد سواء، طالما هما من قبل محبوبهم وهو الله جل وعلا. روي أن نبي الله داود عليه السلام، سأل ربه أن يعرفه قرينته في الجنة، فعرفه بها، فمضىٰ إليها داود عليه السلام، وبشرها بذلك، فقالت: يانبي الله لعله اسم علىٰ اسم؛ لأن مثلي لا يستحقّ هذه المنزلة. فأكدَّ لها داود عليه السلام، أنها هي، وسألها عن أعمالها، فقالت: ليس لي شيء استوجب به مقارنة نبي مثلك، إلّا أن يكون شيء واحد وهو أنني ما تحول حالي إلىٰ حال فسألت الله أن يحولني إلىٰ غيره، بل أكون راضية بما تحولت إليه إن كان خيراً أو شراً. فقال لها: «**بهذا حصل لك ما حصل من المنزلة عند الله**».

وهكذا كان نبي الله أيوب عليه السلام؛ فإنه علىٰ الرغم من إلحاح زوجته عليه بأن يدعو الله لنفسه بالعافية، كان يمتنع من ذلك لرضاه بما اختار الله له من عظيم البلاء

---

(١) لقمان: ١٤.

ومفارقة النعماء، من باب:

وكل ما يفعل المحبوب محبوب

ولما ألحت عليه زوجته بذلك، حلف إن منَّ الله عليه بالعافية أن يضربها مئة جلدة، مع مبالغتها في خدمته وصبرها علىٰ عظيم بليته. وإلىٰ اللحظة الأخيرة فإنه لم يسأل ربه بأكثر من قوله: ﴿**رَبِّ مَسَّنِيَ الضُّرُّ**﴾. ولم يقل: فمنَّ علي بالعافية. وإنما قال:﴿**وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾. ولما منَّ الله عليه بالعافية، أمره أن ينفذّ يمينه في زوجته بتلك الصورة الخفيفة المرضية، فقال له تعالىٰ: ﴿**وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ**﴾[١].

الأمر الثاني: أنهم حمدوه علىٰ ذلك باعتبار أن ما يحصل للعبد لايخلو إما أن يكون من الله، أو من العبد نفسه، أو من الناس:

فإن كان من الله فلا شكّ أن الله سيعوّضه عنه بالثواب الجزيل الذي لا يبلغه بعمل مهما كان عمله حسناً، فقد جاء أن في الجنة منازل أو درجات لا يبلغها العبد بعمل مهما كان عمله، وإنما يبلغها ببلاء الدنيا، وأن أهل العافية إذا رأوا ما أعطى الله أهل البلاء في الآخرة، يتمنون أنهم ابتُلوا بأكثر مما ابتُلي به أهل البلاء، وأنهم أُعطوا مثل ما أُعطوا. وقد روي عن النبيﷺ أنه قال لولده الحسين في منامه: «**وإن لك في الجنة درجات لن تنالها إلّا بالشهادة**»[٢].

وإن كان ذلك من العبد نفسه، فإن الله بلطفه وكرمه يجعل ما أصابه كفارة لذنوبه؛ لأنه أكرم من أن يعذّب عبده مرتين.

وإن كان من الناس، فإن الله سبحانه وتعالى أقسم ألّا يفوته ظلم ظالم، ولا يعفو

---

(١) ص ٤٤.

(٢) الأمالي (الصدوق): ٢١٧، بحار الأنوار ٤٤: ٣١٢.

عن قصاص مجرم، وقد ورد أنَّ يوم الظالم أشد من يوم المظلوم[١]؛ ولذلك، فإنّه سبحانه وتعالى يستحق من عباده الحمد على كلّ حال. قال مولانا زين العابدين عليه السلام في دعاء يوم الثلاثاء: «**الحمد لله والحمد حقه كما يستحقه**»[٢].

والحمد في اللغة، هو الثناء بالجميل على قصد التعظيم والتبجيل؛ سواء كان على النعمة، أو على غيرها، ولذلك فهو أعم من الشكر من جهة المتعلَّق؛ لأنه يكون على النعمة وعلى غيرها كما تقدم، وأما الشكر، فإنّه لا يكون إلّا على نعمة كما تقدم أيضاً.

ولكنه[٣] أخصّ من الشكر من جهة المورد؛ لأنه لا يكون في الإنسان إلّا باللسان، بخلاف الشكر فإنّه يكون باللسان والجنان والأركان. قال تعالى: ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾[٤]. وقال الشاعر:

أفادتكُمُ النِعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجبا[٥]

وأخص من الشكر من جهة المورد أيضاً؛ لأن الشكر جاء في القرآن الكريم لله تعالى ولغيره، قال تعالى: ﴿**اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ**﴾[٦]. والحمد لم يأتِ في القرآن الكريم الّا لله وحده.

وقد اختلف في الألف واللام التي في ﴿**الْحَمْدُ**﴾؛ فقال بعضهم: إنها للاستغراق، أي لاستغراق أنواع الحمد، فكل حمد يصدر من المخلوق فهو له جلّ وعلا. فلو حمدنا الأنبياء على هدايتهم، والمصلحين على إصلاحهم، والصالحين على صلاحهم، والأطباء المخلصين على حسن عنايتهم، وغيرهم ممن يستحق الحمد،

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٢٤١، وفيه: «يوم المظلوم على الظالم أشدّ من يوم الظالم على المظلوم».
(٢) الصحيفة السجادية الجامعة: ٥٤٧ / ٢٤٠.
(٣) أي الحمد.
(٤) سبأ: ١٣.
(٥) الإقناع ١: ٦، مغني المحتاج ١: ٤.
(٦) لقمان: ١٤.

فكل ذلك الحمد له جلّ وعلا؛ لأنه مصدر العطاء، وكل خير فهو صادر عن ذاته المقدسة، وهو مبدأ الكل. فـ«حمد الكل»، و«كل الحمد» له سبحانه.

وقال بعضهم: إنها للجنس؛ لأن المطلوب من العبد إنشاء الحمد لا الإخبار به، وحينئذٍ يستحيل كونها للاستغراق؛ إذ لا يمكن للعبد أن ينشئ جميع المحامد منه، ومن غيره، بخلاف كونها للجنس.

وقد جاء في أسمائه تعالى «الحميد» على وزن فعيل، قال تعالى: **﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾**(١)، وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾**(٢)، إلى غير ذلك من الآيات.

قال صاحب (مجمع البحرين): «وهو بمعنى المفعول، أي المحمود؛ لأنه المحمود على كلّ حال»(٣) كما تقدم.

وأحمدُ الناسِ أحمدُهم لخالقه جلّ وعلا؛ لأن «أحمد» أفعل تفضيل، وهو من أسماء نبينا محمد صلى الله عليه وآله، بل هو اسمه الخاص في التوراة والإنجيل. قال تعالىٰ حكاية عن نبيه عيسى بن مريم عليه السلام: **﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾**(٤).

وخصّ بهذا الاسم فيما بشّر به آخر نبي قبله وهو عيسى بن مريم عليه السلام إشارة إلى أنه أحمد لله من كلّ مَن سبقه من الأنبياء والمرسلين، والأولياء والصالحين. وبما أنه أحمدهم له، فهو أحمدهم عنده؛ ولذلك كان أفضل الكلّ. وقد روي عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»(٥). يعني صلى الله عليه وآله أني لا أقول ذلك لأفخر على من سواي، وإنما أقولها بياناً للحقيقة وتحدثاً بالنّعمة.

---

(١) لقمان: ١٢. (٢) فاطر: ١٥.
(٣) مجمع البحرين ١: ٥٧٠. (٤) الصف: ٦.
(٥) أمالي الصدوق: ٢٥٤ / ٢٧٩، الاختصاص: ٣٣، بحار الأنوار ٩: ٢٩٤ / ٥.

وقد استغل بعض رجال الكنائس هذه الفرصة فغالط نفسه وأتباعه، وقال: «إن المسيح إنما بشر بنبي اسمه «أحمد»[١]، فهذه البشارة لا تعني نبي الإسلام، لأنّ اسمه «محمد» صلى الله عليه وآله بنص القرآن واتّفاق المسلمين. وهذا قول سخيف؛ لأن القرآن كناه بالاسمين معا، والمسلمون وغيرهم يعرفونه بهذين الاسمين منذ نعومة أظفاره؛ فهذا عمّه أبو طالب يقول فيه كما جاء في كتاب (إيمان أبي طالب) لشمس الدين المتوفى سنة ٦٣٠ هـ:

لقد أكرم الله النبي محمداً ... فأفضل خلق الله في الناس أحمدُ
وشقّ له من اِسمه ليجلّه ... فذو العرش محمود وهذا محمّدُ[٢]

وللمؤلف سامحه الله:

علا فوق كلّ الناس في الحمد أحمدُ ... فجازاه أن سماه في الرسل أحمدا
وكافأه بالحمد حمداً مضاعفاً ... فسماه في أمّ الكتاب محمدا

وليس هو بدعاً من الرسل في كونه صلى الله عليه وآله ذا اسمين، فقد سبقه في ذلك أنبياء كثيرون، ومنهم إلياس أو يوشع بن نون فإنه إلياس وذو الكفل، ويعقوب فإنه إسرائيل ويعقوب، ويونس فإنه يونس وذا النون، وعيسى بن مريم عليه السلام فإنه عيسى والمسيح، وكل ذلك في القرآن، ونبينا محمد صلى الله عليه وآله من هذا النوع؛ فهو أحمد ومحمد صلى الله عليه وآله.

وقد اختلفوا في سبب تسمية جده له بهذا الاسم «محمد» صلى الله عليه وآله، فقال بعضهم: إنه سماه لعلمٍ عنده به، فقد كان من أوصياء الأنبياء عليهم السلام.

وقال بعضهم: إنه سماه بإلهام من الله جلّ وعلا.

---

(١) إيمان أبي طالب: ٢٨٤.
(٢) انظر: بحار الأنوار ٣٥: ١٦٥، شرح نهج البلاغة ١٤: ٧٨.

وقال بعضهم: إنه سماه تفاؤلاً له بأن يكون محموداً بكثرة فضائله، وكان الذي دفعه على أن يتفاءل له بهذا الاسم ما حصل له[1] من تفاؤل أبيه له بتسميته «شيبة الحمد» متفائلاً له بأن يطول عمره إلى أن يبلغ سنَّ الشيب، وأن يكون محموداً بين الناس، فحصل له ما تفاءل به أبوه له من باب: «**تفاءلوا بالخير تجدوه**»[2]. فبلغ سنّ الشيب، حتى كان أقل ما قيل في عمره: إنه ثمانون سنة، وكان محموداً بين الناس بما حصل له من المزايا الطيبة والخصال الحميدة، فهو قاضي العرب وأبو السنن لعلمه، وهو مطعم طير السماء لكرمه، وهو ساقي الحجيج لسقايته، وهو وهو.

أمّا اسم عبد المطلب فهو اسم طرأ عليه بعد ثماني سنين من عمره، وذلك عندما جاء به عمّه المطلب، من عند أمه لمى بنت عمرو النجّارية وكانت قد ذهبت به وهو رضيع إلى أهلها بالمدينة بعد موت والده هاشم، فلما جاء به عمُّه المطلب إلى مكة، جعل الناس يسألونه عنه، وهم معجبون بجماله، فيقول لهم: «هو عبدي»؛ خوفاً عليه من العين، فجعل الناس يتحدثون عنه ويسمونه عبد المطلب، حتى عرف بذلك عند القريب والبعيد حتى إن النبيصلى الله عليه وآله وسلم كان يرتجز باسمه في المعارك فيقول:

«أنا النبي لا كذبْ أنا ابن عبد المطلبْ»[3]

---

(١) أي لعبد المطّلب رحمه الله. (٢) الميزان ١٩: ٧٧، ميزان الحكمة ٣: ٢٣٥٣.

(٣) الأمالي (الطوسي): ٥٧٤ / ١، الخرائج والجرائح ٣: ١٠٤٧، بحار الأنوار ٢١: ١٥٧.

﴿٨﴾

معنى كلمة ﴿رَبّ﴾

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

يظهر أن لهذه الكلمة وهي كلمة ﴿رب﴾ عدة مراتب؛ فرئيس الأسرة: ربّها، وسيد العبد: ربه، قال تعالى حكاية عن نبيه يوسف عليه السلام لما راودته زليخا عن نفسه: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ ومعنى الآية: أنه سيدي، وهو زوجك أحسن مثواي؛ فأسكنني في بيته، وائتمنني على كلّ ما في قصره، فلا يمكن أن أخونه في أهله، فأكون بذلك ظالماً له ولنفسي: ﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[١].

وقال تعالى حكاية عن نبيه يوسف أيضاً أنه عندما عَبَّر الرؤيا للغلامين اللذين دخلا معه السجن: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً﴾[٢]. أي يسقي سيده الملك خمراً.

ثم قال تعالى حكاية عن نبيه يوسف أيضاً: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا﴾ من الغلامين ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾، أي اذكرني عند سيدك الملك بأني مظلوم، فلينظر في أمري ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ أي ذكر سيده الملك، ﴿فَلَبِثَ فِي

---

(١) يوسف: ٢٣. (٢) يوسف: ٤١.

السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[١]، أي سبع سنين على أكثر الأقوال.

وقال تعالى حكاية عن نبيه يوسفعليه السلام لما أراد الملك أن يطلقه من السجن: **﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾**، أي إلى الملك، **﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾**[٢].

ويُجمع الـ«رب» على «أرباب»، قال تعالى حكاية عن نبيه يوسفعليه السلام أنه قال للفتيين عندما دعاهما إلى الإيمان بالله جلّ وعلا: **﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾**[٣]، يعني أيهما أفضل، أن يكون لكما **﴿أَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ﴾** يستعبدكما هذا ويستعبدكما هذا، أم يكون لكما ربّ واحد غالب لا يغلب، وقاهر لا يقهر، لا شريك له ولا عديل، ولا خلف لقوله ولا تبديل؟ وقال تعالى: **﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ﴾**[٤].

وفي كتاب (مجمع البحرين) أنهعليه السلام قال: «**والله ما دعوهم لعبادة أنفسهم، ولو دعوهم إلى ذلك ما أجابوهم، ولكن أحلّوا لهم حراماً وحرموا عليهم حلالاً، فعبدوهم من حيث لا يشعرون**»[٥].

قالوا: وأرفع مراتب الربوبية أنه الإله المعبود، والآيات الثلاث الكريمة ـ وهي قوله تعالى: **﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾** ـ تبين أنه ليس كلّ ربّ ملكاً، وليس كلّ ملك إلهاً؛ لأنها بدأته أولاً بـ**﴿رَبِّ النَّاسِ﴾** ثمّ ارتقت إلى **﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾**، ثم ارتقت إلى **﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾**، فمقام الأُلوهية هو أعلى مقامات الربوبية.

ولذلك فإن فرعون عندما ادّعى الربوبية رفع نفسه إلى مقامها الأعلى الذي هو

---

(١) يوسف: ٤٢.
(٢) يوسف: ٥٠.
(٣) يوسف: ٣٩.
(٤) آل عمران: ٦٤.
(٥) مجمع البحرين ٢: ١٢٧ ـ ربب.

مقام الألوهية، قال تعالى: ﴿**فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى**﴾(١)، يعني أنا إلهكم الذي يجب أن تعبدوه ولا تعبدوا غيره. وبهذا المنطق الجائر خاطب نبي الله موسى بن عمران عليه السلام، فقال له: ﴿**لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ**﴾(٢).

وهذه أنزل مرتبة ينزل إليها العبد الظالم لنفسه، وهي أن ينازع ربّه حتى في مقام الألوهية؛ لأن الربّ الأعلى الذي يستحق الألوهية لابدّ أن يكون هو الخالق وهو الرازق وهو المالك، وهو المصلح، وهو المدبّر، وهو المربي لجميع مخلوقاته وهو وهو...، وقد بين له موسى عليه السلام ذلك عندما سأله: ﴿**قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾(٣).

فهو جلّ وعلا ربّ كلّ مربوب، وخالق كلّ مخلوق، ولا يطلق هذا الاسم إلّا عليه، ويقيّد في غيره ممّن يجوز عليهم اسم الربوبية مجازاً كما تقدّم في السيد والملك. وأما هو جلّ وعلا فإنّه إذا خصّص ربوبيّته لبعض مخلوقاته كما جاء ذلك في بعض الآيات الكريمة، فإنّما يفعل ذلك لأُمور، منها تشريف بعض مخلوقاته، كقوله تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ**﴾، فإنّه أراد بذلك تشريف هذا النوع البشري.

وكقوله تعالىٰ: ﴿**إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا**﴾(٤)، فإنّه أراد بذلك تشريف ذلك البلد وهو مكة المكرمة.

وكقوله تعالى: ﴿**رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ**﴾(٥)، فإنه أراد بذلك تشريفهما.

وفي الدعاء: «**يا رب محمد، صلِّ وسلِّم على محمد وآل محمد، وارحمنا بمحمد وآل محمد صلى الله عليه وآله**».

---

(١) النازعات: ٢٤.
(٢) الشعراء: ٢٩.
(٣) طه: ٤٩ ـ ٥٠.
(٤) النمل: ٩١.
(٥) الأعراف: ١٢٢.

وكذلك شرف العلماء العاملين بتسميته لهم الربانيين، فقال تعالى: ﴿**لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ**﴾(١).

ومنها: تفخيم وتعظيم بعض مخلوقاته كما قال تعالى: ﴿**وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾(٢). وقال تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى**﴾(٣).

والشعرى: كوكب كبير يعادل عشرين ضعفاً من كوكب الشمس، ومسافته تبعد عن الأرض بمقدار يعادل ألف ألف مليون من مسافة بعد الشمس عن الأرض، فإذا كان نور الشمس يصل إلينا في (٨ دقائق و١٣ ثانية) لأن بعدها عن الأرض بمقدار (؟)، فإنّ شعاع الشعرىٰ لا يصل إلينا إلّا بعد عشر سنين، مع أن الضوء يقطع في الثانية ٣٠٠ ألف كيلو متر. فسبحان الخلاق العليم! وكانت بعض طوائف العرب كطائفة خزاعة، تقدس هذا النجم وتعبدهُ، لأنها تظن أن هذا الكوكب لعِظَمه هو مبدأ الموجودات، فأخبرت هذه الآية أن لهذا الكوكب ربّاً خلقه، فهو أولى بالعبادة منه ومن غيره؛ لأنه ربّ كلّ شيء، وخالق كلّ شيء.

ومن مقاصد التخصيص أنه لشمول الأصناف والأنواع والدلالة على كثرة أجناس المخلوقين كقوله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾؛ فعالم الأجسام، وعالم الأفلاك، وعالم الأرواح، وعالم العناصر وعالم الجن، وعالم الإنس، وعالم الملائكة، وغير ذلك من العوالم التي لا يحصيها إلّا خالقها: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ**﴾(٤)، كلّ تلك العوالم هو ربها وخالقها.

قال السبزواري ﷺ في تفسيره (مواهب الرحمن): ولهذا الاسم ـ أي (الرب) ـ منزلة عظيمة في الكتب السماوية، لا سيما القرآن الكريم، فهو من أمّهات الأسماء المقدسة، كالحي والقيوم، بل هو الأم لهذه الأسماء؛ لأنه ينضوي تحته الخالق

---

(١) المائدة: ٦٣.
(٢) التوبة: ١٢٩.
(٣) النجم: ٤٩.
(٤) المدثر: ٣١.

والعليم، والقدير والمدبّر، والحكيم والمربي، بالتكوين والتشريع وغير ذلك.

وقد أشار الخليل إبراهيمعليه السلام لهذه المعاني، عندما تدرَّج بأصحابه ليوصلهم إلى الإيمان بالله، قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[1]؛ لأن الخليلعليه السلام بنفيه الربوبية عن الشمس والقمر والكوكب بسبب أفولها،كأنما قال للذين يخاطبهم: إن الربّ هو الخالق المربي لمخلوقاته، والمربي لمخلوقاته لابدّ أن يكون قريباً منهم وعلى صلة بهم، أما من يغيب عنهم ويختفي ساعات طويلة، فإنه لا يجوز أن يكون ربّاً لهم.

إن الذي يطلع ويغيب، ويغيب ويطلع في أوقات معينة ومواعيد مقررة لا يستطيع أن يتقدّم عنها ولا يتأخر فإنه يدل على نفسه بنفسه أنه خاضع لقوانين معينة لا يستطيع أن يدفعها عن نفسه، وبذلك لا يمكن أن يكون ربّاً؛ لأنه عاجز عن الدفع عن نفسه، فكيف يدفع عن غيره؟

إن المتحرك لابد أن يكون حادثاً؛ لأن الحركة دليل على الحدوث، فلا يمكن أن يكون هذا المتحرك قديماً أزلياً أو دائماً أبدياً، وإذا لم يكن كذلك فلا يمكن أن يكون ربّاً.

قالوا: وتختلف مراتب الربوبية والأُلوهية باختلاف مراتب المربوب والمألوه، فالربوبية والألوهية المتعلقة بالأنبياء والملائكة أعلى من الربوبية والألوهية المتعلقة بسائر الناس، ولذا جاء في دعاء الحسينعليه السلام يوم عرفة: «**يا إلهي وإله**

---

(١) الأنعام: ٧٦ ـ ٧٩.

آبائي إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ورب جبرئيل وميكائيل واسرافيل ورب محمد خاتم النبيين ﷺ»[١].

وقد قرن هذا الاسم وهو اسم «رب»، بما يفيد عظمته وجلاله، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾[٢]، ولعظمة هذا الاسم وجلاله، جاء مقسوماً به في القرآن الكريم في عدة آيات، فقال تعالى: ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً**﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿**فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ**﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿**فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ**﴾[٦].

ولكون هذا الاسم أيضاً مظهراً لجملة من أسمائه المقدسة، فإنه لم يرد في القرآن الكريم دعاء من الأنبياء والأولياء والصالحين إلّا وهو مبدوء به، فآدم وحواء عندما أكلا من الشجرة وبدت لهما سوآتهما قالا: ﴿**رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[٧].

ونوح عليه السلام لما أراد النزول من السفينة قال: ﴿**رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ**﴾[٨].

وإبراهيم الخليل عليه السلام عندما جاء بزوجته هاجر وولده إسماعيل إلى مكة، قال: ﴿**رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾[٩]. وقال عليه السلام أيضا:

---

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة ٢: ٨٠، فلاح السائل: ١٩٢، بحار الأنوار ٩٥: ٢٢٠.
(٢) الصافات: ١٨٠.
(٣) النساء: ٦٥.
(٤) الحجر: ٩٢.
(٥) المعارج: ٤٠.
(٦) الذاريات: ٢٣.
(٧) الأعراف: ٢٣.
(٨) المؤمنون: ٢٩.
(٩) إبراهيم عليه السلام: ٣٥.

﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[1].

وقال عليه السلام أيضا: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ * رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[2].

قالوا: وفي هذه الآية دليل على أن أبوي إبراهيم مؤمنان، وأن أباه غير آزر لأنّ القرآن نصّ على كفر آزر إلى آخر حياته، وأن إبراهيم لما عرف منه الكفر تبرأ منه. وكل ذلك في بدء رسالة إبراهيم عليه السلام، وبعد أن كبر إبراهيم عليه السلام وأنجب الأولاد وأسكن إسماعيل وأُمّه مكة المكرمة، دعا ربّه وقال فيما قال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[3]. فدل هذا الدعاء على أن له أباً غير ذلك الذي تبرأ منه لكفره؛ لأنّه لا يصح أن يتبرأ منه ثم يدعو له.

وموسى عليه السلام حيث دعا وقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً﴾[4].

قالوا: وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وآله قد قال: «**علي مني بمنزلة هارون من موسى إلّا إنه لا نبي بعدي**»[5]، فقد أخبر بذلك أن علياً سيبقى من بعده، وأن له كلّ ما لهارون من

---

(١) إبراهيم عليه السلام: ٣٧.
(٢) إبراهيم: ٤٠ و٤١.
(٣) إبراهيم: ٤١.
(٤) طه: ٢٥ ـ ٣٥.
(٥) دعائم الإسلام ١: ١٦، علل الشرائع ١: ١٣٧ / ٥، فضائل الصحابة: ١٣ و١٤، صحيح

موسى، إلّا النبوة والأخوة النسبية. فكأنه ﷺ يقول: إن علياً مني بمنزلة هارون من موسى إلّا إن هارون لو بقي من بعد موسى لكان مع كونه خليفة له نبياً بعده، أما علي فإنّه سيبقى من بعدي، وله كلّ ما لهارون من موسى من الوزارة والأخوة والخلافة، وغير ذلك ما عدا الفارق السببي وهو النبوة والفارق النسبي وهو الأخوة.

وأهل الكهف قالوا: **﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾**(١).

وعيسى عليه السلام قال تعالى عنه عليه السلام: **﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيرُ الرَّازِقِينَ﴾**(٢).

وسليمان بن داود عليه السلام قال تعالى عنه عليه السلام: **﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾**(٣).

قالوا: وقد دلّت هذه الآية الكريمة، على جواز طلب الملك حتى للأنبياء والأولياء إذا كان ذلك من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة حدود الله وتنفيذ أحكامه، وتعميم عبادته، فهو وسيلة لا غاية. وأمّا إذا كان هو الغاية ـ كما قال معاوية: «ما قاتلتكم لتصلوا، ولا لتصوموا ولا لتحجوا، وإنكم لتفعلون ذلك، وإنّما قاتلتكم لأتأمر عليكم، فأعطاني الله ذلك وأنتم له كارهون»(٤) ـ فإنه رأس كل خطية كما جاء في الحديث الشريف «**حب الدنيا رأس كلّ خطيئة**»(٥).

ونسب إلى نبينا محمد ﷺ أنه دعا ربّه ليلة المعراج فقال: **﴿رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن**

مسلم ٧: ١٢٠ ـ ١٢١.

(١) الكهف: ١٠.

(٢) المائدة: ١١٤.

(٣) صٓ: ٣٥.

(٤) الإرشاد ٢: ١٤، شرح الأخبار ٢: ٥٣٣ / ٤٨٣، تاريخ مدينة دمشق ٥٩: ١٥٠، البداية والنهاية ٨: ١٤٠.

(٥) الكافي ٢: ٣١٥ / ١، التحصين: ٢٧ / ٤٣.

نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

كما نسب إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً**»(١).

قال صاحب تفسير (الأمثل): «نقرأ في تفاسير متعددة أن هذه الآية الشريفة، نزلت في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام»(٢). وقد استجاب الله له فزوّجه سيدة نساء العالمين وولد له منها سيدا شباب أهل الجنة. واستنتج بعضهم من هذه القراءة لهذه الآية أن طلب الرئاسة الروحية والزعامة الدينية والدنيوية بأسبابها المرضية ليس غير مذموم فقط، بل هو أمر راجح ومطلوب، بل ربما كان واجباً في بعض الأزمان على بعض الأعيان:

فما أفسد الإسلام إلّا عصابة	**تأمّر نوكاها وجار زعيمُها**
وأضحت قناة الدين في كفّ ظالم	**إذا اعوجّ منها جانب لا يقيمُها**

---

(١) قراءة في الآية ٤٧ من سورة الفرقان.   (٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزّل ١١: ٢٨٥.

﴿٩﴾
معنى ﴿الْعَالَمِينَ﴾

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١].

يختلف المراد في كلمة ﴿الْعَالَمِينَ﴾ باختلاف مواردها في القرآن الكريم؛ فتارة يراد بها البشر، وتارة يراد بها بعضهم، كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٢]، فإن المراد بتفضيل بني إسرائيل على العالمين تفضيلهم على أفراد عصرهم ومنطقتهم لا تفضيلاً مطلقاً؛ بدليل أنّ القرآن الكريم خاطب المسلمين في آية أُخرى. فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٣].

وكما في آية مريم بنت عمران عليها السلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ﴾[٤]، فإن المراد بالعالمين هنا نساء البشر في ذلك الزمان وفي ذلك العالم فقط. فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه

---

(١) الفاتحة: ١.
(٢) البقرة: ١١٢.
(٣) آل عمران: ١١٠.
(٤) آل عمران: ٤٢.

قال لابنته فاطمة الزهراء عليها السلام يوماً: «**أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين؟**». قالت: «**فأين مريم؟**». قال: «**تلك سيدة نساء عالمها، وأنت سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين**»(١).

وتارة يراد بـ﴿**الْعَالَمِينَ**﴾: الجن والإنس فقط، كما في قوله تعالى: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً**﴾(٢)، أي ليكون للجن والإنس نذيراً، فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «إنه صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن نذيراً للبهائم وإنما كان نذيراً للجن والإنس»(٣).

وتارةً يراد بكلمة ﴿**الْعَالَمِينَ**﴾ الجن والإنس والملائكة. قال صاحب تفسير (الأمثل): «إن «عالم» جمعت هنا جمع مذكر سالم، وهو لا يستعمل عادة إلّا في العاقل، ولذلك ذهب بعض المفسرين(٤) إلى أنها تعني الجماعات العاقلة كالجن والإنس والملائكة»(٥).

وقال بعض المفسرين(٦)، ومنهم صاحب تفسير (الكاشف) رحمه الله: «إنها تعني كلّ ما عدا الله جلّ وعلا؛ فهي عامة لجميع الكائنات، إلّا أن تخصِّصها القرينة كما في آية بني إسرائيل، وآية مريم»(٧) المتقدم ذكرهما. وإذا كانت تعني العوالم كلها، فالعوالم كثيرة لا يسعها الحصر، ولكن الله جلّ وعلا حصرها في نوعين، فقال تعالى: ﴿**فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ**﴾(٨)، فكل ما يراه الإنسان بالعين المجردة أو بالمجاهر والمراصد وسائر الأجهزة فهو من عالم ﴿**مَا تُبْصِرُونَ**﴾، وكل ما لا يراه الإنسان بواسطة أو بغير واسطة فهو من عالم ﴿**وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ**﴾.

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٠٥، سير أعلام النبلاء ٢: ١٢٦، الإصابة ٨: ١٠٢.
(٢) الفرقان: ١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ١: ١٣٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم ١: ٢٥.
(٥) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزّل ١: ٣٩.
(٦) الكاشف ١: ٣٣.
(٧) انظر التفسير الكبير ١٢: ١٤٥.
(٨) الحاقة: ٣٨ ـ ٣٩.

وينقسم عالم ﴿مَا لاَ تُبْصِرُونَ﴾ إلى نوعين: نوع من المادة، ونوع مما وراء المادة، فمن النوع الأول: الجاذبية، التي أشار إليها جلّ وعلا بقوله: ﴿اللّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[١].

ومنها أشعة X أكس التي اكتشفها بالصدفة «رونتجن» الألماني الفيزيائي المتوفى سنة ١٩٢٣م. وقد استخدمها العلم الحديث لإنجاز بعض الأمور الطبية كالأمراض الداخلية لأنها تخترق المادة وتطلع على ما بها وما وراءها من الأمراض والأعراض، وتشخصها للطبيب.

ومنها الذرة التي ذكرها القرآن نحو ست مرّات فإنها لا ترى؛ لأنها أصغر شيء في المادة؛ فحجم الذرة بالنسبة إلى التفاحة المتوسطة الحجم كحجم التفاحة بالنسبة إلى الأرض، وحجم كلّ من النيوتروناث والبروتونات والألكترونات التي تتألّف منها الذرة كحجم حبة من العدس بالنسبة إلى الهرم الكبير. فالذرة من الصغر بحيث لا يمكن للإنسان أن يبصره حتى بأدق الآلات مع أن علم الإنسان قد استخدم ما كان يعرفه من قوانين الكتلة والطاقة في تشخيص صفة الذرة وتركيبها وخواصها، واستعملها في صناعته بعد أن عرف أنها في الأصل طاقات كهربائية تكدست بإذن خالقها العظيم، بترتيب رائع، ونظام بديع حتى كانت هذه الذرة، ثم تشكّلت بأشكال شتى حسب اختلاف عدد الألكترونات السالبة، والبروتونات الموجبة التي منحها إياها خالقها القدير، فتكونت منها جميع العناصر: الحديد، والرصاص، والكالسيوم وغير ذلك من العناصر، فسبحان الخلاق العليم الذي خلق الذرة وما تتكوّن منه الذرة، قال تعالى: ﴿لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٢]، ومثلها

---

(١) الرعد: ٢. (٢) سبأ: ٣.

الآية ٦١ من سورة يّس.

والذي أصغر من الذرة أجزاؤها التي تتكون منها وهي الألكترونات والبروتونات والنيوترونات.

ومن النوع الثاني وهو النوع الذي من وراء المادة الروح، والنفس والعقل. وبما أن الإنسان يحمل هذه الأشياء، فهو من المخلوقات الجامعة لعالمي ﴿**مَا تُبْصِرُونَ**﴾، و﴿**مَا لاَ تُبْصِرُونَ**﴾. ومهما حاول أن ينكر ذلك من نفسه فإنه لا يقدر على ذلك؛ لأن البراهين والدلالات العقلية تثبت له وجودها فيه، فالإنسان العاقل يعلم بتجاربه، وبواسطة معدّاته وأجهزته أن التركيب والترتيب في المادة لا يوجدان لها الحياة، وأن الذي يوجد لها الحياة شيء آخر، وهو الروح الصادرة من أمر الله جل وعلا، قال تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾[١]، والتي نستدلّ على وجودها بعدة أدلة، منها أن الإنسان كثيراً ما يرى نفسه في النوم في أماكن نائية ومحلّات بعيدة، في حال أنه ملقىً على فراشه، نائم في غرفة نومه. فمن الذي سافر إلى تلك الأماكن البعيدة؟ لا شك أنها النفس التي تنفصل منه حال نومه، فيبقى حينئذٍ حياً بروحه فقط، قال تعالى: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[٢].

في كتاب (الدر المنثور) أن الخليفة عمر قال يوماً: العجب من رؤيا الرجل أنّه يبيت فيرى الشيء لم يخطر له على بال، ثم تكون رؤياه كأخذ باليد، ويرى الرجل الرؤيا لا يكون رؤياه شيئاً. فقال له الإمام علي عليه السلام: «**ألا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين؟ يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾**.. الآية. **فالله يتوفى**

---

(١) الإسراء: ٨٥. (٢) الزمر: ٤٢.

الأنفس كلها، فما رأت وهي عنده في السماء فهي الرؤيا الصادقة، وما رأت وهي راجعة إلى أجسادها فإن الشياطين تلقاها في الهواء فتكذبها وتخبرها بـالأباطيل فهي الرؤيا الكاذبة»، فعجب عمر من قوله عليه السلام[١].

ومنها أننا نعرف الأشياء، ونعرف أننا نعرفها، ونعرف أن المعرفة ليست من نتاج المادة ـ وهي الأجسام ـ ولا من خواصها، فلو كنّا مادة فقط، لما توصلنا إلى معرفة تلك الأشياء، فلابد أن عندنا شيئاً غير المادة وهو الروح والنفس والعقل.

ومنها أنّا نعلم يقيناً أن عندنا شيئاً أو أشياء تفسر المادة وهي على ما يخالف طبعها، كالجوع، والعطش اللذين نتحملهما في الصوم، وكالعناء والتـعب اللـذين نتحملها في الأعمال من أجل طلب المعيشة، وكالقتل والأسر اللذين نقدم عليهما أو على أحدهما بسبب الجهاد في سبيل الله، فلولا أن لنـا مـما وراء المـادة مـا يقسرها ويجبرها على ذلك لما أقدمنا على كلّ هذه الأشياء.

ومنها أننا نعلم أنّ المادة لو انتقشت عليها صورة فستبقى عليها هذه الصورة إلى أن تنتقش عليها صورة أُخرى، وحينئذٍ إمـا أن تـنمسح الأولى، أو يـحصل لهـا الاضطراب والتشويش من انتقاش الثانية عليها، فتكون شكلاً مشوشاً؛ وذلك لأن المادة لا تتحمّل إلّا صورة واحدة، وكذلك الشريط الصوتي فإنه عندما يُسجل فيه صوت ثانٍ على الصوت الأول، فإنّه إمّا أن ينمسح الأول ويثبت الثاني، أو يكون الصوت مشوشاً لأنّ المادة لا تتحمل إلّا شيئاً واحداً، في حين أننا تنتقش عندنا الصور والمعلومات والمعارف من دون أن يؤدي حصول شيء منها إلى محو ما قبله، فدل ذلك على أن عندنا شيئاً بل أشياء غير المادة التي هي الجسم، وتـلك الأشياء هي النفس والعقل والروح.

---

(١) الدرّ المنثور ٥: ٣٢٩.

وكذلك العضلة أو الجارحة الجسدية، إنما تحمل وراثة واحدة، أما الروح والنفس، فإنها تحمل عدة وراثات، وربما من أفراد متعددة، كما قال بعض الشعراء في مدح علي الأكبر عليه السلام:

جمع الصفات الغر فهي تراثه — من كلّ غطريف وشهم أصيدِ
في بأس حمزة في شجاعة حيدر — في جود عمّ بالمكارم مرتدِ
في عمر فاطمة البتولة أمه — بإبا الحسين وفي مهابة أحمدِ
وتراه في خلق وحسن خلائق — وبليغ نطق كالنبي محمدِ[1]

---

(١) شهداء أهل البيت : ١٢١.

﴿١٠﴾

العوالم مرئية وغير مرئية

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ* وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ﴾(١).

تقدم في المجلس السابق حيث كان الكلام عن **﴿الْعَالَمِينَ﴾** أن الله سبحانه وتعالى جمع جميع أنواع العوالم في هذه الآية الكريمة، فكل ما يراه الإنسان بالعين المجرّدة أو بواسطة المجاهر والمراصد وسائر الأجهزة، فهو من العالم الأول عالم **﴿مَا تُبْصِرُونَ﴾**. وما لا يراه الإنسان بواسطة أو بغير واسطة، فهو من العالم الثاني عالم **﴿وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ﴾**، ومنه الروح والنفس والعقل، فإنّ هذه الأشياء ليست مرئية عندنا، وإنّما نستدل عليها بآثارها، ومن ذلك أننا نحسّ في بعض المناسبات أن بينها عراكاً محتدماً، وصراعاً شديداً، يترك الإنسان في حيرة من أمره، فيكون بين دافع ومانع حتى إنه ربما قال:

فوالله ما أدري وإني لحائر ... أفكر في أمري على خطرين(٢)

---

(١) الحاقة: ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٤٨.

أو ربما قال: أخيّر نفسي بين الجنة والنار[١].

ولذلك فإننا نعتقد وجود تلك الأشياء وإن لم نرَها. وقد احتمل بعض العارفين أن من معاني قول أمير المؤمنينعليه السلام: «**من عرف نفسه فقد عرف ربه**»[٢]، يعني من عرف أنه عاجز عن معرفة حقيقة نفسه وعن رؤيتها، فهو عن معرفة ربه ورؤيته أعجز وأعجز:

كيفية المرء ليس المرء يدركها فكيف كيفية الجبّار في القدمِ[٣]

ومن العوالم التي لا يراها البشر عالما الجن والملائكة، قال تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ**﴾[٤].

وإبليس من الجن كما قال تعالى: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً**﴾[٥].

وكما أننا لا نرى الجن، فإننا لا نرى الملائكة، مع أنهم معنا في الليل والنهار، قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ**﴾[٦].

وجاء في دعاء كميل المنسوب لأمير المؤمنينعليه السلام: «**وكل سيئة أمرت بإثباتها**

---

(١) الإرشاد ٢: ٩٩.

(٢) عوالي اللآلي ١: ٥٤، بحار الأنوار ٢: ٣٢ / ٢٢.

(٣) من الشعر المنسوب لأمير المؤمنينعليه السلام، وهو أوّل بيتين ثانيهما:

هو الذي أنشأ الأشياء مبتدئاً فكيف يدركه مستحدث النسمِ

انظر موسوعة الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام ١٠: ٩٢ / ٥٠٩٨.

(٤) الأعراف: ٢٧. (٥) الكهف: ٥٠.

(٦) الانفطار: ١٠ ـ ١٢.

الكرام الكاتبين الذين وكلتهم بحفظ ما يكون مني، وجعلتهم شهوداً علي مع جوراحي، وكنت أنت الرقيب علي من ورائهم، والشاهد لما خفي عنهم»[١].

وبما أننا لا نرى الجن والملائكة، وقد نسمع في بعض الأوقات أصواتاً نعلم يقيناً أنها من غير البشر فإننا ننسب تلك الأصوات إلى بعض هذين النوعين: الجن والملائكة، ونسميها هواتف.

و﴿**الْعَالَمِينَ**﴾: جمع عالم، وعالم جمع أيضاً، ولا واحد له من لفظه، كالقوم والرهط والنفر. واشتقاقه من العلامة بمعنى الدلالة؛ لأن كلّ ما هو مخلوق فهو علامة كاشفة عن وجود خالقه، وعن قدرته وحكمته، قال الشاعر:

ولله في كلّ تحريكة وتسكينة في الورى شاهدُ
وفي كلّ شيء له آية تدل على أنه واحدُ[٢]

وهي - أي العوالم - كثيرة لا يستطيع أن يحيط بها إلّا خالقها جلّ وعلا، قال تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ**﴾[٣].

روي في كتاب (الأنوار النعمانية) وغيره[٤] عنهم عليهم السلام: «**أن الله خلق مئة ألف قنديل وعلقها بالعرش، وجميع السماوات والأرض وما فيهما حتى الجنة والنار كلها في قنديل واحد، ولا يعلم ما في القناديل الأخرى إلّا خالقها**».

قال المقدس السيد هبة الدين الشهرستاني رحمه الله في كتاب (الهيئة والإسلام): وإنما عبروا عليهم السلام عن هذه المخلوقات بالقناديل لأمور، منها أن القنديل شكله بيضوي والنظام الشمسي شكله بيضوي.

---

(١) مصباح المتهجد: ٨٤٩، الإقبال بالأعمال الحسنة ٣: ٣٣٦.
(٢) ديوان أبي العتاهية: ٤٥. (٣) المدثر: ٣٠.
(٤) تفسير الآلوسي ١: ٧٩.

ومنها: أن القنديل يتضمّن جسماً لطيفاً في وسطه يتوقد ناراً ويشعّ نوراً، وكذلك النظام الشمسي فإن في وسطه كرة الشمس.

ومنها: أن القنديل مدلّى في الهواء، وليس مركوزاً في جرم، وكذلك النظام الشمسي فإنه مدلّى في الهواء مربوط بالجاذبية؛ ولذلك شبهوهاعليهم السلام بالقناديل.

وفي (البحار)[١] للمجلسي و(مشارق الأنوار)[٢] للبرسي (رحمهما الله) عن أبي حمزة الثماليرضي الله عنه عن الإمام زين العابدينعليه السلام أنه قال له: «**يا أبا حمزة، أتظننّ أنّ الله سبحانه لم يخلق خلقاً سواكم؟ بلى والله لقد خلق ألف ألف عالم وألف ألف آدم وأنتم في آخر ذلك العوالم**».

وفي كتاب (التوحيد) للصدوقرحمه الله أن الإمام الباقرعليه السلام قال لجابر بن عبد الله الأنصاريرضي الله عنه: «**ولعلك ترى أن الله لم يخلق بشراً غيركم، بلى والله لقد خلق ألف ألف عالم وألف ألف آدم وأنتم في آخر تلك العوالم**»[٣].

وورد عنهمعليهم السلام: «**إن في السماء مدائن كمدائنكم**».

قالوا: وفي (البحار) بسند صحيح عن أمير المؤمنينعليه السلام أنه قال: «**إن في هذه النجوم التي في السماء مدائن كمدائنكم التي في الأرض**»[٤].

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم نراه يشير بدون لبس ولا إبهام إلى وجود أحياء آخرين غير الذين يعيشون على كوكبنا الأرضي، قال تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ**﴾[٥].

ولا شك أنّ المراد بالسماء: كلّ شيء عالٍ كوكباً كان أو فضاء أو سحاباً، وأن المراد بالدابة كلّ ما فيه الحياة سواء كان طيراً أو حيواناً أو إنساناً ما عدا الملك،

---

(١) بحار الأنوار ٢٥: ٢٥ / ٤٥، ٥٤ / ٣٣٦ / ٢٤.

(٢) مشارق أنوار اليقين: ٦٠.

(٣) التوحيد: ٢٧٧ / ٢.

(٤) بحار الأنوار ٥٥: ٩١.

(٥) الشورى: ٢٩.

فإنّه لم يرد ذكره في تفسير الدابة، وقد صرح بذلك قوله تعالى: **﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلآئِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾**(١). فالملائكة غير الدابة؛ لأن الشيء لا يعطف على نفسه، وكلا النوعين: الدواب والملائكة تنص الآية الكريمة على أنهم موجودون في السماء.

وجاء في دعاء يوم الجمعة للإمام زين العابدينعليه السلام قوله: «**اللهمّ إني أشهدك وأشهد جميع ملائكتك وسكان سماواتك**»(٢)، فأخبر بذلك أن في السماء سكاناً، وأنهم غير الملائكة؛ لأنّه عطفهم على الملائكة.

وقد ثبت بالطرق العلمية الحديثة أن على سطح المريخ وفي جوّه حرارة وماء وأوكسجين، وهي الثلاثة اللازمة لوجود الحياة.

ولعلّ العلم يصل يوماً إلى أكثر مما وصل إليه فإنهم على وعد من الله في ذلك. قال تعالى: **﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾**(٣).

وقد بدأ الناس منذ العهد القريب الذي لايزيد على نصف قرن يجدون أطباقاً فضائية تنزل من السماء إلى جهات معينة من الأرض، مختصّة بصناعات ذات أهمية، أو تحوم في فضائها لمهمات مجهولة من الاكتشاف والتصوير، وربما حصل لها الأثر في تعطيل بعض المحرّكات من تلك الصناعات الأرضية؛ ولذلك فإنها تثير الرعب في نفوس أولئك المسؤولين عن تلك المحرّكات، وربما لاحقوها بالطائرات الحربية، فترسل عليها تلك الأطباق إشعاعات مدمّرة فتهلكها إذا لم تلذ عنها بالفرار. ولا يزال العالم الأرضي حتى الآن يجهل مصادر تلك الأطباق الفضائية، ويحتمل احتمالاً قوياً أنها جاءت من بعض تلك الكواكب

---

(١) النحل: ٤٩.
(٢) الصحيفة السجادية الجامعة: ٥٥٦ / ٢٤٦.
(٣) فصلت: ٥٣.

المأهولة بالسكان، ولا يستبعدون أن يكون من أولئك السكان من هو أعلم من الإنسان وأقدر منه في ميادين الاختراع والصنعة الهائلة، كما قال تعالى: ﴿**وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ**﴾[1].

ومن كلام لأمير المؤمنين عليه السلام: «**سبحانك ما أعظم ما نرى من خلقك! وما أصغر عظيمهُ في جنب قدرتك! وما أهول ما نرى من ملكوتك! وما أحقر ذلك فيما غاب عنا من سلطانك!**»[2].

وقد جاء في كثير من التفاسير أن قوله تعالى: ﴿**قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً**﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّـهِ**﴾[4] أنهما يعنيان أن البحار لو تحولت إلى مداد ـ أي إلى حبر ـ والأشجار تحولت إلى أقلام، لجفت البحار ونفدت الأقلام قبل أن تُحصىٰ كلماته جلّ وعلا، وهي موجودات عالم الوجود فضلاً عن أسرارها ورموزها وأبعادها.

وقد عثر العلم اليوم على عدد من النجوم والكواكب يفوق عدد حروف ونقاط نصف مليون كتاب متوسط الحجم، حتى قال العلماء لو كنا نعدّ النجوم والكواكب بسرعه ١٥٠٠ في الدقيقة الواحدة لاستغرق عدنا لها نحو سبعمئة سنة.

وقد يبلغ حجم الواحد قدر حجم الأرض آلاف المرات في بعضها، وملايين المرات في البعض الآخر بحيث يصبح حجم الأرض بالنسبه إلى بعض تلك الكواكب والنجوم بنسبة هباءة من التراب.

وكلها سائرة في أفلاكها ومنحنياتها كما تسير السفن في محيطات البحار. وقد يبعد بعضها عن البعض الآخر بنحو مليون ميل. ويقدر العلم على أقل الاحتمالات

---

(١) يوسف: ٧٦.
(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ١٠٩.
(٣) الكهف: ١٠٩.
(٤) لقمان: ٢٧.

أن نحو مليونين من هذه الكواكب والنجوم معمورة بعوالم أمثالنا، فسبحان الخلاق العليم.

ولذلك قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**من ذا يعرف قدرك فلا يخافك؟ ومن ذا يعلم ما أنت فلا يهابك؟**»[1].

---

(١) مصباح المتهجد: ٥٠٨، بحار الأنوار ٨٧: ١٨٨.

﴿١١﴾

معنى ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

قال تعالى:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾[١]

قال بعض المفسرين: إن هاتين الصفتين المباركتين جاءتا في البسملة بالعنوان العام من كونهما صفتين للذات المقدس بلا إضافة إلى شيء، وجاءتا هنا باعتبار منشأ استحقاقه سبحانه للحمد، أي أنه إنما استحقّ الحمد؛ لأنّه **﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**، ولأنه **﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾**، فهذه الخصوصية توجب الاختلاف في الجملة، وبها يرتفع دعوى التكرار للصفتين الكريمتين.

ورحمة الله جلّ وعلا بعباده تنقسم إلى نوعين: نوع دنيوي، ونوع أخروي، وإليهما أشارت الآية الكريمة: **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاء﴾**[٢]، لأن معنى الآية بل رحمتاه مبسوطتان: رحمته في الدنيا، ورحمته في الآخرة، لأنه جلّ وعلا ليس بجسم حتى تكون له جوارح وأطراف وعضلات.

---

(١) الحمد: ٣. (٢) المائدة: ٦٤.

فأمّا رحمته في الآخرة، فهي التي ذكرتها الآية الكريمة: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً**﴾(١).

وقد روي أنه لما نزلت هذه الآية الكريمة وسمعها الناس من النبيﷺ سأله بعضهم فقال: وحتى الشرك يا رسول الله؟ فنزل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء**﴾(٢)، فكانت هذه الأية مقيّدة للآية السابقة، *كما قال بعضهم*: إن هذه الآية أيضاً مقيّدة بقوله تعالى: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى**﴾(٣).

ومن رحمته جلّ وعلا بعباده في الآخرة ما بيّنه رسول اللهﷺ بقوله المأثور عنه: «**وضع عن أمتي تسع خصال: الخطأ، والنسيان، وما لا يعلمون، وما لا يطيقون، وما اضطروا إليه، وما أكرهوا عليه، والطيرة، والوسوسة، والحسد ما لم يظهر بلسان أو يد**»(٤).

وأما رحمته في الدنيا فهي تتجلّى في موارد كثيرة مادية وروحية، وعامة وخاصة، فمنها ما يتعلق بالزمان كقوله تعالى: ﴿**وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾(٥)، وكقوله تعالى: ﴿**لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ**﴾(٦).

ومنها ما يتعلق بالمكان كقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً**﴾(٧).

ومنها ما يتعلق بقانون التزاوج كقوله تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً**﴾(٨).

---

(١) الزمر: ٥٣. (٢) النساء: ٤٨.
(٣) طه: ٨٢.
(٤) الكافي ٢: ٤٦٣ / ٢، وسائل الشيعة ١٥: ٣٧٠ / ٢٠٧٧١.
(٥) القصص: ٧٣. (٦) القدر: ٣.
(٧) البقرة: ١٢٥. (٨) الروم: ٢١.

ومنها ما يتعلق بنشر الرياح لتسوق السحاب وتتسبب في تلقيح الأشجار والنبات، قال تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾**(١).

ومنها ما يتعلق بنزول المطر قال تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾**(٢). وقال تعالى: **﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾**(٣).

والمراد بـ**﴿رَحْمَةِ اللَّهِ﴾** هنا: المطر، والمراد بآثارها: إحياء الأرض بالأشجار والنبات والثمار.

فكل هذه الأمور من الرحمة المادية، وهي ثابتة بالعيان والمشاهدة.

وأما الرحمة المعنوية، فمنها إنزال الكتب وإرسال الرسل، قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾**(٤)، يعني بذلك القرآن الكريم. وقال تعالى: **﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**(٥). ويعني بذلك القرآن العظيم أيضاً.

وحتى استماع القرآن فإنّه رحمة، قال تعالى: **﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُواْ لَهُ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾**(٦)، وقال تعالى: **﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إَمَاماً وَرَحْمَةً﴾**(٧)، يعني بذلك: التوراة.

فالكتب المنزلة رحمة، والمرسلون بها رحمة، قال تعالى في عيسى بن مريم عليه السلام: **﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً﴾**(٨) و**﴿لِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْراً مَّقْضِيّاً﴾**(٩)، وقال تعالى في حبيبه محمد صلى الله عليه وآله: **﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً**

---

(١) الأعراف: ٥٧.
(٢) الشورى: ٢١.
(٣) الروم: ٥٠.
(٤) يونس: ٥٧.
(٥) الأعراف: ٥٢.
(٦) الأعراف: ٢٠٤.
(٧) هود: ٢٠٤.
(٨) مريم: ٢١.
(٩) مريم: ٢١.

لِلْعَالَمِينَ﴾(١).

وكما أن رسالته رحمة، وقرآنه رحمة، فإن أخلاقه ﷺ أيضاً رحمة. قال تعالى: **﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾**(٢).

وإنما صارت أخلاقه ﷺ رحمة؛ لأنها تأخذ بيد الناس إلى متابعته ومطاوعته، ومن ذلك ما روي أنه ﷺ جاءه رجل من الأعراب فطلب منه عطية فأعطاه عطية لم يرضَ بها. فقال: ما أجملت ولا أفضلت. فاستاء المسلمون بقوله وهموا به، فلما رأى النبي ﷺ ذلك منهم قام وأخذ بيد الرجل وذهب به إلى بعض بيوته، وأعطاه ما يرضيه. وقال له: «**إن المسلمين قد استاؤوا بسماع ما قلت، فلو أسمعتهم ما تطيب به نفوسهم، لكان خيراً لك، فإني أخشى عليك أن يصيبك منهم سوء**». فوعده أنه سيفعل ذلك، ولكنه لم يفعل. فلما فرغ النبي ﷺ من الصلاة ولم يرَه فعل شيئاً من ذلك، قال للمسلمين: «**إن أخاكم الأعرابي قد قال قولاً غير الذي سمعتم، فلا تؤاخذوه بما سبق منه، أليس هكذا يا أخا العرب؟**». قال: بلى، إن رسول الله ﷺ أعطى وأغنى وأجمل وأفضل. فارتاحت نفوس المسلمين لذلك.

وقال النبي ﷺ للمسلمين: «**أتدرون ما مثلي ومثلكم ومثل الأعرابي؟**». فقالوا: وما مثلنا يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**إن مثلي ومثلكم ومثل الأعرابي، كمثل قوم في سفر، فهربت راحلة أحدهم، فتبعها أصحابه ليصطادوها له، فلما أحست بالطلب ازدادت في الهرب، فلما رأى ذلك طلب منهم أن يدعوه وراحلته، فتركوه معها فهدأت من الهرب، فجمع لها شيئاً من حشائش البر، وجاءها من جهة وجهها، وجعل يريها ما جمعه لها، ويدعوها إليه بما تفهمه منه، فجاءت إليه فأطعمها، وأخذ بعنقها. فهذا مثلي ومثلكم ومثل الأعرابي، فلو تركته معكم لقتلتموه، وكان**

---

(١) الأنبياء: ١٠٧. (٢) الأعراف: ١٥٩.

مصيره إلى النّار، ولكني أصلحت شأنه بشيء من حطام الدنيا».

ومن هذا الباب ما جاء في قوله تعالى: **﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ﴾**[١].

وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة أن رجلاً من الصحابة يقال له عبد الله بن نبتل كان منافقاً وكان يجلس عند رسول الله صلى الله عليه وآله، فيسمع كلامه وينقله إلى المنافقين على سبيل الاستهزاء، وينمّ عليه عندهم، فأخبره جبرئيل بذلك، فاستدعاه النبي صلى الله عليه وآله وعاتبه على ذلك، فحلف إنه لم يفعل شيئاً من ذلك، فقال له صلى الله عليه وآله: «**أما إذا حلفت بالله فقد قبلت منك**». فرجع إلى أصحابه المنافقين فقال لهم: إن محمداً أذن. يعني يصدّق كلّ ما يقال له، كما أن الأذن تسمع كلّ ما يقال لها، فإن ربّه أخبره عني أني أنمّ عليه، فصدقه وأخبرته أني لم أقل شيئاً من ذلك فصدقني[٢]. وخفي عليه أنه صلى الله عليه وآله إنما قبل منه لمكارم أخلاقه، وإلّا فإنّه يعلم أنه كاذب فيما زعمه وحلف عليه، وأنه لم يصدقه في شيء، وإنما كان يؤمن بالله ويصدق للمؤمنين وأنه صلى الله عليه وآله رحمة للمؤمنين.

وكما أن أخلاقه صلى الله عليه وآله رحمة، فوجوده رحمة. قال تعالى: **﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾**[٣].

روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «**كان في الأرض أمانان من عذاب الله، وقد رُفع أحدهما، فدونكم الآخر فتمسكوا به**»[٤]، وهو الاستغفار.

قال صاحب تفسير (الأمثل): «والمعروف أن المرفوع عن الأمّة ببركة وجوده صلى الله عليه وآله هو العذاب العام، أي الجماعي، وأما العذاب الفردي فقد نزل على بعض الأفراد في مرات متعددة.

---

(١) التوبة: ٦١.
(٢) تفسير القمي ١: ٣٠٠.
(٣) الأنفال: ٣٣.
(٤) نهج البلاغة / الحكمة: ٨٨.

ومن أولئك الذين نزل عليهم العذاب الحارث بن النعمان الفهري، أو النعمان بن الحارث الفهري الذي لما بلغه ما قال رسول الله ﷺ في علي عليه السلام يوم غدير خم، جاء إلى النبي ﷺ فقال له: أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلّا الله وأنك رسول الله فشهدنا، وأمرتنا بالحج والجهاد والصوم والصلاة والزكاة فقبِلنا، ثم لم ترضَ حتى أخذت بيد هذا الغلام وقلت: «**من كنت مولاه فعلي مولاه؟**» فهذا شيء منك، أو أمر من عند الله؟ فقال ﷺ: «**والله الذي لا إله إلّا هو، إنه من عند الله**». فولى وهو يقول: ﴿**اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾[١]. فلما أصحر رماه الله بحجر على رأسه فقتله، وأنزل الله على نبيه ﷺ قوله تعالى: ﴿**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ**﴾[٢]...»[٣].

وقد ذكر المقدّس الأميني رحمه الله في كتاب (الغدير) هذه القصة، وأسندها إلى نحو ثلاثين من علماء المسلمين[٤].

وكما أن أخلاقه رحمة، ورسالته رحمة، وقرآنه رحمه، ووجوده رحمة، فإن أهل بيته رحمة أيضاً، فقد روي عنه ﷺ أنه قال: «**أهل بيتي أمان لأهل الأرض**»[٥]، وأنه ﷺ قال: «**أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى**»[٦].

وقد جاء عن الإمام الشافعي رحمه الله أنه قال:

---

(١) الأنفال: ٣.
(٢) المعارج: ١ ـ ٣.
(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزّل ٥: ٣٨٠.
(٤) الغدير ١: ٨٠ ـ ٣٠٩.
(٥) علل الشرائع ١: ١٢٣، كمال الدين: ٢٠٥ / ١٩.
(٦) المعجم الأوسط ٥: ٣٠٦، درر السمط: ١١٦.

ولمـــا رأيت النـاس قـد ذهـبت بـهم مـذاهـبهم فـي أبـحر الغـي والجـهلِ

ركبت على اسم الله في سـفن الـنجا وهم آل طه المصطفى خاتم الرسـلِ

وأمسكت حــبل الله وهــو ولاؤهــم كـما قـد أُمـرنا بـالتمسك بـالحبلِ[1]

وقد أشار رحمه الله فـي البـيت الثـالث إلى قـوله تـعالى: ﴿**وَاعْـتَصِمُواْ بِـحَبْلِ اللّـهِ جَمِيعاً**﴾[2]، فهم والقرآن حبل الله الممدود بينه وبين عباده، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً**»[3].

(١) شرح الأخبار ٢: ١٢٥، بحار الأنوار ٢٩ / ٧.

(٢) آل عمران: ١٠٣.

(٣) دلائل الإمامة: ٢٠ / ١، الاحتجاج ٢: ١٤٧، المعجم الكبير ٣: ٦٥، نـظم درر السـبطين: ٢٣١.

﴿١٢﴾

معنى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾(١)

هذا هو الاسم الخامس في أسمائه الحسنى التي ذكرتها هذه السورة الكريمة، فكأنه تعالى قال لعبده فيها: أنا خلقتك من قبل ولم تك شيئاً فأنا إلهك، ثم ربيتك بنعمي فأنا ربك، ثم عصيتني فلم أُعاجلك بالعقوبة، فأنا الرحمن بك، ثم إذا تبت غفرت لك فأنا الرحيم بك، ثم لابدّ من إيصال الجزاء إليك وأنا مالك يوم الدين، الذي أجازي كلّ نفس بما كسبت.

وقد اختلف القرّاء في هذه الكلمة، فمنهم من قرأها ﴿مَالِكِ﴾، ومنهم من قرأها ﴿مَلِكِ﴾، فالذي قرأها مالك احتج بأمور منها: أن المالكية تشمل مالكية الأجـزاء والجزئيات، بخلاف ﴿مَلِكِ﴾ فإن الملكية هي السيطرة على الكل فقط.

ومنها أن في كلمة ﴿مَلِكِ﴾ حرفاً زائداً على ﴿مَلِكِ﴾ فقراءته أكثر ثواباً؛ لأن ثواب قراءة الحرف الواحد من القرآن الكريم بعشر حسنات.

---

(١) الحمد: ٤.

ومنها، أن الملك ملك الرعية، والمالك مالك العبيد، والعبد أدون حالاً من الرعية، فصار المالك أعلى حالاً من الملك، كما أن العبد أدون حالاً من الرعية. ولذلك فإن مسرف بن عقبة المري لم يرضَ من أهل المدينة المنورة بعد واقعة الحرّة إلّا أن يبايعوا يزيد عبيداً، ولم يرضَ منهم أن يبايعوه رعية، كما هو المشهور في كتب التاريخ والسير[1].

ومنها: أن الملك يجب عليه رعاية حال الرعية كما قال ﷺ: «**كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته**»[2]، ولا يجب على الرعية خدمة الملك إلّا في حدود معيّنة، أما المملوك فإنه وإن وجب على المالك رعايته، ولكنه يجب عليه خدمة المالك دائماً، وألّا يعمل عملاً إلّا بإذن مالكه.

ومنها: أن الملك غاية ما يرجى منه العدل والإنصاف، وأن ينجو الإنسان منه رأساً برأس، أما المالك فإنه يطلب منه الكسوة والنفقة والتربية وغير ذلك.

ومنها: أن الملك وإن كان أغنى منك، إلّا إنه قد يطمع فيك، أما المالك فإنّك تطمع فيه بالعتق وغيره، ولذلك قال الكسائي علي بن محمد الكوفي المتوفى بالري سنة ١٨٩ هجرية: اقرؤوا ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾؛ فإنها الدّالة على الفضل الكثير والرحمة الواسعة.

ومنها: أن الملك إذا احتاج إلى التجنيد فإنه لا يقبل إلّا من كان قوي البدن، صحيح المزاج، أما من كان ضعيفاً أو مريضاً فإنه لا يرضاه لمهمته، بل يتعداه إلى غيره، ولا يهمه ما هو فيه من الضعف والمرض. أما المالك فإنه إذا كان العبد مريضاً عالجه أو ضعيفاً أعانه ويقبل منه الخدمة على قدر استطاعته. فالقراءة بلفظ

---

(١) تاريخ اليعقوبي ٢: ٢٥، المنمق: ٣١٦، لسان الميزان ٦: ٢٩٤ / ١٠٥٠، الإصابة ٦: ٢٣٢ / ٨٤٣٤.

(٢) عوالي اللآلي ١: ١٢٩ / ٣، مسند أحمد ٢: ١١١، صحيح البخاري ١: ٢١٥.

﴿مَالِكِ﴾ أوفق للضعفاء والمذنبين.

ومنها: أن الملك له هيبة ومنه رهبة لا توجد عند المالك، بل ربما تكون عند المالك رأفة ورحمة، وحاجتنا إلى الرأفة والرحمة لا إلى الهيبة والرهبة.

ومنها: أننا إذا وصفناه جلّ وعلا بالملكية، فقد جعلنا لأنفسنا حرية التصرف في أعمالنا، ومالكية ما نملك من أموالنا؛ لأن الرعية تملك، أما إذا وصفناه بالمالكية، فقد جعلنا أنفسنا وما نملك ملكاً له سبحانه، لأنّ العبد وما يملك لمالكه.

ومنها: أنّ شرف العبودية لله جلّ وعلا أعلى من شرف الرعيّة له، وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**كفاني فخراً أن أكون لك عبداً، وكفاني عزاً أن تكون لي ربّاً، أنت كما أحب فاجعلني كما تحب**»(١).

وقد عُرف مما جاء في آيات القرآن الكريم أنه تعالى إذا أراد أن يكرم نبياً من أنبيائه نسبه إلى عبوديته، فقال تعالى عن نبيه نوح: ﴿**ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً**﴾(٢). وقال عنه: ﴿**كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ**﴾(٣).

وقال عنه وعن لوط عليهما السلام: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾(٤).

وقال تعالى عن خليله إبراهيم وولديه عليهم السلام: ﴿**اذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الأَيْدِي وَالأَبْصَارِ**﴾(٥).

---

(١) الخصال: ٤٢ / ١٤، روضة الواعظين: ١٠٩.
(٢) الإسراء: ٣.
(٣) القمر: ٩.
(٤) التحريم: ١٠.
(٥) الصافات: ٤٥.

وقال عن نبيه زكريا عليه السلام: ﴿كهيعص * ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾(١).

وقال عن نبيه داود عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(٢).

وقال عن نبيه سليمان عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(٣).

وقال عن نبيه أيوب عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾(٤).

وقال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾(٥). وقال عنه: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾(٦). وقال عنه تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾(٧).

إلى غير ذلك من الآيات الكريمة. ولكن من المؤسف جداً أن بعض الناس يعتز بعبوديته للمخلوق أكثر مما يعتز بعبوديته للخالق، روي أن رجلاً من الصالحين رأى رجلاً يطوف بالكعبة وهو يختال في مشيته، فقال له: ليس هذا مقام الخيلاء، فقال: لو عرفتني ما أنكرت عليّ ذلك. فقال له: ومن أنت؟ قال: أنا عبد ملك مكة. فقال: إذن أنا أولى بالخيلاء منك؛ لأني عبد مالك الملك.

وأما حجة من قرأ ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، فمنها قولهم: إن كلّ أحد يستطيع أن يكون مالكاً، ولكنه ليس كلّ أحد يستطيع أن يكون ملكاً؛ فالملك أشرف وأعظم من المالك.

ومنها: أنه تعالى قال: ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ولم يقل: «مالك الناس».

---

(١) مريم: ١ ـ٢.
(٢) ص: ١٧.
(٣) ص: ٣.
(٤) ص ٤١.
(٥) الإسراء: ١.
(٦) الأنفال: ٤١.
(٧) النجم: ١٠.

ويرد على هذا القول بقوله تعالى: ﴿**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِـي الرَّحْمَنِ عَبْداً**﴾[١]، فوصف نفسه هنا بالمالكية لا بالملكية.

ومنها: أن الملك إذا لم يُطَع وقع الهرج والمرج في الناس، وربما عاد الأمر إلى خراب البلاد، وفناء العباد، ولذلك فرضت طاعتهم إلاّ في معصية الله جلّ وعلا.

ومنها: أن ﴿**مَلِكِ**﴾ أعم من ﴿**مَالِكِ**﴾؛ لأن تحت حياطة الملك من حيث إنه ملك أكثر مما تحت حياطة المالك من حيث إنه مالك.

ومنها: أن الملك أقدر على ما يريد في أكثر تصرفاته، وأقوى استيلاءً على ما تحت يده من المالك.

ولذلك فقد جوزوا القراءتين وإن كانت الأولى أكثر استعمالاً. وعلى قراءة ﴿**مَالِكِ**﴾ يكون ﴿**مَالِكِ**﴾ وصفاً للفظ الجلالة السابق عليه، وعلى قراءه ﴿**مَلِكِ**﴾ يكون بدلاً منه.

والمالكية والملكية هي الاستيلاء على الشيء والإحاطة به. وقد اتفقوا على أنها في الله جلّ وعلا حقيقية، وفي غيره اعتبارية؛ ولهذا عبَّر القرآن الكريم عن ملكية الناس بأنها إيتاء وتخويل واستخلاف منه جلّ وعلا. فقال تعالى: ﴿**قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء**﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿**وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ**﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ**﴾[٤].

وقال في الحديث الشريف: «**اتّقوا الله فيما خوّلكم**»[٥].

---

(١) مريم: ٩٣.
(٢) آل عمران: ٢٦.
(٣) الحديد: ٧.
(٤) الأنعام: ٩٤.
(٥) الفقيه ٣: ٣٤٩ / ٤٢٢٧، بحار الأنوار ٦١: ١١٩ / ٢.

وفي الدعاء «**اللهّم وأدم لنا ما خولتنا**».

وبذلك يتضح أن ملكية النـاس ومـالكيتهم اعـتبارية تـحصل بـها الحـيازة والتصرف المحدود، أما الملكية الحقيقية التي تحصل بالخلق والإيجاد والتـربية الجسمية والروحية التي يحصل بها الكمال، فهي لله جلّ وعلا.

وتحصل هذه الملكية والمالكية الاعتبارية للإنسان بحصول بعض أسبابها؛ من الوراثة، أو الكسب أو التجارة، أو الهبة، وما شابه ذلك من الأسباب. وتزول بموت صاحبها أو بزوالها عنه ببعض تلك الأسباب. فهي ملكية أو مالكية غير دائمة ولا ثابتة جاءت إليه من غيره، وتنتقل منه إلى غيره. بل وحتى في زمـان وجـودها عنده، لابدّ أن تكون متبعّضة كالتي تكون بين العبد وبين مالكه؛ فإنها تكون فيما يملكه المولى من العبد. أما ما لا يتعلّق به الملك من شؤون خلق العبد وإيجاده، وكونه طويلاً أو قصيراً، أو قوياً أو ضعيفاً، أو أسود أو أبيض، أو غير ذلك، فإنه لا تتعلّق به ملكية المالك، وبهذا يكون شيء منه مملوكاً للمالك وشيء غير مملوك للمالك.

كما أن له حقّ التصرف فيه، بالبيع والاستخدام، وما شابه ذلك، وليس له حق التصرف فيه بالقتل والأذى وما شابه ذلك. ولكن الله جلّ وعـلا يـملك المـوت والحياة والسلامة والعطب وغير ذلك؛ ولذلك خاطب سبحانه كلّ عبد من عباده بقوله: ﴿**قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ**﴾[1].

وبعد ما تقدم لابدّ أن يحصل هذا السؤال، وهو: هـل إن المـلك الذي حـصل ويحصل للظالمين كنمرود وفرعون وأمثالهما من المتأخرين من إيتاء الله لهم أم لا؟

---

(١) الأعراف: ١٨٨.

الجواب: لا ريب أنه من إيتاء الله سبحانه، ولكن ذلك الإيتاء ينقسم إلى نوعين:

الأول: الإيتاء التكويني، وهو انبساط السلطة لهم على الناس بما يحصل من الأسباب الطبيعية التي تحصل لصاحب السلطة، أو فيه أو في شعبه أو حاشيته؛ سواء كان ذلك بالعدل أو بالظلم، وإليه أشارت الآية الكريمة: **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ﴾**، وهو نمرود على القول المشهور[١] في معنى الآية: **﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**[٢].

وأثر هذا الملك نفوذ كلمة صاحبه ومضيُّ أمره، وربما كان ذلك الإيتاء على جهة الإملاء والاستدراج من الله جلّ وعلا.

والنوع الثاني: هو الإيتاء التشريعي، وهو القضاء الإلهي بكون فلان ملكاً تجب طاعته؛ سواء نفذت كلمته ومضى أمره، أم لا. ومن هذا النوع ملك طالوت، قال تعالى: **﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُواْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾**[٣].

ثم ملك داود عليه السلام قال تعالى: **﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾**[٤].

ويشير المقطع الأخير من هذه الآية الكريمة، إلى أن أي مجتمع لا تحصل فيه

---

(١) تفسير العياشي ١: ١٤٠ / ٤٦٥، بحار الأنوار ١٢: ٤٣ / ٣٤.

(٢) البقرة: ٥٨.

(٣) البقرة: ٢٤٧.

(٤) البقرة: ٢٥١.

قوة رادعة لابدّ أن تسوده الفوضى، والانحلال، وأن العقل والشرع من غير قوة تنفيذيّة لا يحققان الأمن والنظام، فوجود السلطة من الضروريات.

لايصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا[١]

ولذا لما قال الخوارج: لا حكم إلّا لله. قال الإمام عليه السلام: «**كلمة حق يراد بها باطل. نعم، إنه لا حكم إلّا لله ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلّا لله وإنّه لابدّ للناس من أمير برّ أو فاجر، يعمل في إمرته المؤمن ويستمتع فيها الكافر، ويبلغ الله فيها الأجل، ويُجمع به الفيء، ويقاتل العدو، وتؤمن به السبل، ويؤخذ به للضعيف من القوي، حتى يستريح به برّ ويستراح من فاجر**»[٢].

ومن ذلك الملك التشريعي ملك سليمان بن داود عليه السلام قال تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي**﴾[٣].

فهذه الممالك وما ماثلها من الإيتاء الشرعي، ومنه قوله تعالى: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً**﴾[٤]، ومن آل إبراهيم محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله.

في كتاب (الدر المنثور)[٥] للسيوطي وغيره[٦]، أن معاوية قال يوماً لابن عباس رضي الله عنه: يا بني هاشم إنكم تريدون أن تستحقوا الخلافة بالنبوة، وهما لا يجتمعان لأحد، وتزعمون أن لكم ملكاً. فقال له ابن عباس: أما قولك: إنا أردنا أن نستحق الخلافة بالنبوة، فإن لم نستحقها بالنبوة فبمَ نستحقها؟ وأما قولك: إن النبوة والخلافة لا يجتمعان لأحد، فأين قول الله تعالى: ﴿**فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ**

---

(١) المزهر ١: ١٢٩، روضة العقلاء ١: ٢٧٠. (٢) نهج البلاغة / الكلام: ٤٠.

(٣) صَ : ٣٥. (٤) النساء: ٥٤.

(٥) الدر المنثور ٢: ١٧٣.

(٦) الأمالي (المفيد): ١٥، كشف الغمّة ٢: ٥١ ـ ٥٥٢.

وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكاً عَظِيماً﴾؟ فالكتاب: النبوة، والحكمة: السنة، والملك: الخلافة، ونحن آل إبراهيم أمر الله فينا وفيهم واحد، والسنة لنا ولهم جارية. فانقطعت حجة معاوية.

وقد تبين من قول ابن عباس ﵁ أن الملك لبني هاشم، وأن بني أمية مغتصبون له.

وقد روي أن عبد الأعلى مولى آل سام سأل الإمام الصادق عليه السلام فقال له: أليس قد آتى الله الملك بني أُمية؟ فقال له الصادق عليه السلام: «**ليس حيث تذهب إليه، إن الله عزّ وجل آتانا الملك وأخذه بنو أُمية، بمنزلة الرجل يكون له الثوب فيأخذه الآخر، فليس هو للذي أخذه**»(١).

وتمثيل الإمام للخلافة مأخوذ أو مشابه لتمثيل جدّه لها بالقميص في قوله عليه السلام: «**لقد تقمصها فلان، وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى**»(٢).

وفي (الإرشاد) للشيخ المفيد ﵀ أنه لما وضعت الرؤوس بين يدي يزيد وفيها رأس الحسين عليه السلام جعل يزيد يقول:

نفلّق هاماً من رجال أعزة ... علينا وهم كانوا أحق وأظلما(٣)

ثم أقبل على أهل مجلسه، فقال: إن هذا كان يفخر عليّ ويقول: أبي خير من أبي يزيد، وأمي خير من أمّه، وجدّي خير من جدّه، وأنا خير منه، فهذا الذي قتله.

فأما قوله: أبي خير من أبي يزيد، فلقد حاجّ أبي أباه فقضى الله لأبي على أبيه. وأما قوله: إن امه خير من أمي، فلعمري لقد صدق إن فاطمة بنت رسول الله ﷺ خير من أمي. وأما قوله: جده خير من جدّي فليس لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر

---

(١) الكافي ٨: ٢٦٦ / ٣٨٩، بحار الأنوار ٧٢: ٣٥٣ / ٦٣.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ٣.

(٣) إرشاد المفيد ٢: ١١٩.

أن يقول إنه خير من محمد صلى الله عليه وآله. وأما قوله: إنه خير مني، فلعله لم يقرأ هذه الآية: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء﴾ إلىٰ آخره[1].

وقد ردت عليه زينب عليها السلام بمثل ما ذكر عن الإمام الصادق عليه السلام في الرواية المتقدمة، فقالت في خطبتها: «أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء، فأصبحنا نساق بين يديك كما تساق الأسارى، أن بنا على الله هواناً وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظم خطرك؛ عنده فشمخت بأنفك، ونظرت في عطفك جذلان مسروراً حيث رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متّسقة، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا؟»[2].

(١) تاريخ الطبري ٤: ٣٥٥، مقتل الحسين: ٢١٧، بحار الأنوار ٤٥: ١٣١.
(٢) الاحتجاج ٢: ٣٥، مثير الأحزان: ٨٠، بحار الأنوار ٤٥: ١٣٣.

﴿١٣﴾

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

اليوم الدنيوي في اللغة عبارة عمّا بين طلوع الفجر إلى غروب الشمس؛ لقوله تعالى، **﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ﴾**[1]. وجمع اليوم: أيام. قال تعالى: **﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾**[2].

وقد جرت سنّة الله وعادة عباده أن تجعل للأشياء أسماء تعرف بها، وأن تكون تلك الأسماء مشتقة من شيء، أو منقولة من شيء إلى شيء، أو مرتجلة كما تقدم في بعض المجالس السابقة.

والأيام من تلك الأشياء، وقد اشتقوا لها أسماء تناسب ما أرادوه منها ولو اعتباراً؛ فلما اعتبروا يوم الأحد أول أيام الأُسبوع سموه الأحد، واعتبروا اليوم الذي بعده اليوم الثاني من أيام الأُسبوع فهو الاثنين، وسموا ما بعده الثلاثاء، وما بعده الأربعاء، وما بعده الخميس. أما يوم الجمعة فإنهم سمّوه يوم الجمعة من تجمعهم فيه، قيل: وكان أول من سماه بهذا الاسم كعب بن مالك الجد السادس

---

(١) البقرة: ١٨٧. (٢) البقرة: ١٨٤.

للنبي ﷺ، وكان قبله يسمى يوم العروبة، ثم سمّاه الجمعة بسبب أنه كان يجمع أهل مكة في ذلك اليوم من كلّ أسبوع ويعظهم ويرشدهم ويحدثهم عن النبي محمد ﷺ، مع أن بينه وبينه نحواً من خمسمئة سنة. وكان يقول لهم فيما يقول: إن لحرمكم هذا نبأً عظيماً، وإنه يبعث منه نبي كريم اسمه محمد ﷺ، وينشد:

على فترة يأتي النبي محمد ... فيخبر أخباراً صدوقاً خبيرها(١)

ثم يذكر لهم ما يصيبه من أهل مكة، وما يجري عليه منهم، وينشد:

يا ليتني حاضر فحواء دعوته ... حين العشيرة تبغي الحق خذلانا(٢)

وقد ذكر القرآن الكريم هذا اليوم بالاسم الذي سمّاه به كعب، وأمر بالاعتناء به، والاهتمام بصلاته المخصّصة به، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلاَةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾(٣).

وأما السبت فإنه سمّي بذلك من السبوت، وهو الراحة وتعطيل العمل. قيل: وكان الله جلّ وعلا قد أمر بني إسرائيل بذلك فيه، ولكنهم خالفوا ما أمروا به، فأصابهم ما أصابهم. قال تعالى مخاطباً لحبيبه محمد ﷺ: ﴿**وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ**﴾(٤).

وتتلخص هذه القصة في أن الله تعالى أمر حبيبه محمداً ﷺ أن يسأل علماء اليهود عن خبر أهل القرية التي كانت حاضرة البحر وهي «أيلة» المجاورة لبحر

---

(١) السيرة النبوية (ابن كثير): ١٦٧.
(٢) مناقب آل أبي طالب ١: ١٦، بحار الأنوار ١٥: ٢٢١ / ٤٢.
(٣) الجمعة: ٩. (٤) الأعراف: ١٦٣.

القلزم. وفي (المنجد) أنَّ أيلة أو أيلات ميناء أردني في شمالي العقبة على البحر الأحمر يقوم على أنقاض أيلة الرومانية.

أمر الله حبيبه ﷺ أن يسألهم عن أهل هذه القرية إذ يعتدون في السبت الذي حرم الله عليهم أن يعملوا فيه، فخالفوا وجعلوا يصطادون الأسماك في ذلك اليوم. وكان الله جلّ وعلا قد عاملهم معاملة المختبر لهم؛ ليعرفهم أنفسهم، وليظهر للناس حقيقتهم، فكان يرسل الحيتان إليهم بكثرة في يوم السبت الذي أمرهم بعدم العمل فيه، ويمنعها عنهم في سائر الأيام بما منحها الله من نسبة عقلية أحست بسببها بأنها لا يعتدي أحد عليها في ذلك اليوم، فكانت تخرج فيه لطلب رزقها آمنة مطمئنّة، فتوصّل جماعة منهم إلى حيلة يحللون لأنفسهم بها ما حرم الله عليهم، فحفروا أخاديد ومسارب تتصل بالبحر، وإذا نفذت إليها الحيتان لا تستطيع الخروج منها، فكانوا يأخذونها يوم الأحد، ويقولون لمن ينهاهم عن ذلك: إننا نصطادها يوم الأحد. فكانت عاقبتهم أن الله سبحانه وتعالى مسخهم قردة، وأنجى الذين ينهونهم عن عملهم.

أما لماذا أمر الله نبيه ﷺ أن يسألهم عن ذلك؟ فلعل ذلك من أجل أن يعلموا أن الله كشف لنبيه حقيقتهم، وأخبره عن نواياهم، فيكون ذلك معجزة علمية تدل على صدق نبوته.

وبذلك فقد اتّضح أن أسماء أيام الأُسبوع كلّها مشتقة أو منقولة. وقد سمى الله جلّ وعلا بعض تلك الأيام ببعض الحوادث التي حدثت فيها، فيوم الجمعة سابع عشر شهر رمضان عندما وقعت فيه واقعة بدر، سمّاه جلّ وعلا ﴿**يَوْمَ الفُرْقَانِ**﴾ قال تعالى: ﴿**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ**﴾[1]. وإنما سمّاه

---

(١) الأنفال: ٤١.

يوم الفرقان، لأنه جلّ وعلا فرق فيه بين الحقّ والباطل بنصر المسلمين على الكافرين، وقتل من قتل من صناديد المشركين.

وسمّى يوم واقعة هوازن، ﴿يَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ نسبة إلى المكان الذي وقعت فيه المعركة، فقال تعالى: **﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنَزلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ﴾**[١]. وقد قيل: إن ذلك اليوم هو الرابع من شهر شوال سنة ٨ من الهجرة بعد ١٥ يوماً من فتح مكة المكرمة.

وسمّى يوم النحر **﴿يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ﴾**، لما يؤدي فيه الحاج من أعمال الحج بمنى، قال تعالى: **﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾**[٢].

ومعنى الأذان هنا هو الإعلان والإعلام، وكان القائم بذلك هو أمير المؤمنين عليه السلام بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد روت بعض كتب المسلمين، أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أرسل الخليفة أبا بكر لتبليغ هذا الأذان، ثم بعد يومين أو ثلاثة أرسل علياً عليه السلام خلفه فأدركه في بعض الطريق، وأخبره أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد أرسله ليبلغ هذا الأذان بدلاً منه.

قال بعضهم: فرجع أبو بكر وسأل النبي صلى الله عليه وآله عن سبب عزله، فأخبره أن جبرئيل قال له عن ربه: إنه لا يبلغ عنه إلّا هو أو رجل منه، وهو علي عليه السلام[٣].

قال شرف الدين رحمه الله في كتابه (أبو هريرة): وليس هذا من النسخ؛ لأنه لا يجوز إلّا بعد العمل، فيظهر من ذلك أنه صلى الله عليه وآله كان مأموراً بإرسال أبي بكر ثم بعزله وإرسال

---

(١) التوبة: ٢٦. (٢) التوبة: ٢.

(٣) الخصال: ٨٧/٣١١، مناقب أمير المؤمنين عليه السلام (ابن المغازلي)١: ٤٦٢، فتح الباري ٨: ٢٤١.

علي عليه السلام مكانه؛ ليظهر بذلك فضل علي على غيره(١).

وسُمّي يوم تنصيب علي عليه السلام في الولاية يوم الغدير نسبة إلى المكان الّذي نصب فيه رسول الله صلى الله عليه وآله علياً في الولاية. وقد قال في ذلك حسان بن ثابت شاعر رسول الله صلى الله عليه وآله:

يناديهُمُ يوم الغدير نبيهم   بخمٍّ وأسمع بالنبي مناديا
وقد جاءه جبريل عن أمر ربه   بأنك معصوم فلا تكُ وانيا
وبلغهُمُ ما أنزل الله ربهم   عليك ولا تخشَ هناك الأعاديا
فقام به إذ ذاك رافع كفه   بكف علي معلن الصوت داعيا
وقال فمن مولاكُمُ ووليكم   فقالوا ولم يبدوا هناك التّماديا
إلهك مولانا وأنت ولينا   ولن تجدن فينا لك اليوم عاصيا
فقال له قم يا علي فإنني   رضيتك من بعدي إماماً وهاديا
هناك دعا اللهمّ والِ وليه   وكن للذي عادى علياً معاديا(٢)

وسمّي أيضاً يوم الدوح نسبة إلى الشجر الكبار التي في ذلك المكان، فقال الكميت بن زيد الأسدي رحمه الله:

ويوم الدوح يوم غدير خم   أبان له الخلافة لو أطيعا
ولكن الرجال تبايعوها   فيالك مثلها خطباً شنيعا
فلم أرَ مثل ذاك اليوم يوماً   ولم أرَ مثله حقاً أُضيعا(٣)

---

(١) كتاب أبو هريرة: ١١٩.
(٢) خصائص الأئمة: ٤٢، روضة الواعظين: ١٠٣، مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٣٠، المناقب (الخوارزمي): ١٣٦.
(٣) مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٢٩، بحار الأنوار ٣٧: ١٥٨.

وسمّي هذا اليوم أيضاً «يوم كمال الدين»، و«يوم تمام النعمة»، و«يوم رضا الربّ»؛ اقتباساً من الآية الكريمة: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾**[١]، فقد روي أن نزولها بسبب ذلك، وأن رسول الله ﷺ قال عند نزولها: «**الله اكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضا الربّ برسالتي وولاية علي بن أبي طالب**عليه السلام»[٢].

وروي أن كعب الأحبار قال للخليفة عمر بن الخطاب: إن في القرآن آية لو نزلت آية مثلها علينا لاتخذنا يوم نزولها عيداً، وهي قوله تعالى: **﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً﴾**. فقال عمر: صدقت، وإني لأعرف اليوم الذي نزلت فيه، إنه يوم عرفة[٣].

وسمّى الله يوم السحرة مع موسى بن عمرانعليه السلام، **﴿يَوْمُ الزِّينَةِ﴾**؛ لأنه يوم عيدهم وزينتهم، قال تعالى: **﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾**[٤].

وسمّى يوم هلاك قوم شعيب **﴿يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾**؛ لما أظلّهم من العذاب، قال تعالى: **﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾**[٥].

وسمّي يوم تكتل الأُمم وتحزبهم ضد أنبيائهم **﴿يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾**، قال تعالى: **﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ﴾**[٦].

ويسمى يوم العاشر من المحرم «يوم الحسينعليه السلام»، وقد روي عن الإمام الرضاعليه السلام أنه قال: «**إن يوم الحسين أقرح جفوننا، وأذلّ عزيزنا، وأورثنا الكرب والبلاء إلى يوم الانقضاء**»[٧].

---

(١) المائدة: ٣.　　(٢) بشارة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم: ٣٢٨.
(٣) صحيح البخاري ٨: ١٣٧، الدر المنثور ٢: ٢٥٨.
(٤) طه: ٥٩.　　(٥) الشعراء: ١٨٩.
(٦) غافر: ٣.
(٧) الأمالي (الصدوق): ١٩٠ / ٢، روضة الواعظين: ١٦٩، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٣٨.

وبناءً على ما جرت به سنة الله جلّ وعلا، وعادة عباده في تسمية بعض الأيام ببعض ما يجري فيها، فقد جاء يوم القيامة في القرآن بعدة أسماء، منتزعة مما يقع فيه؛ فمن تلك الأسماء ﴿**يَوْمِ الدِّينِ**﴾، قال تعالى: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾، وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ**﴾(١).

ومعنى ﴿**يَوْمِ الدِّينِ**﴾: يوم الجزاء، مأخوذ من الإدانة، كما يقول المثل: «**كما تدين تدان**».

ومن أسمائه ﴿**يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾ قال تعالى: ﴿**لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾(٣).

وإنما سمي ﴿**يَوْمِ الْقِيَامَةِ**﴾؛ لقيام الناس فيه من قبورهم، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(٤). أو لقيام الحساب فيه، قال تعالى مخبراً عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه قال: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ**﴾(٥).

ومن أسمائه ﴿**يَوْمَ الْحَسْرَةِ**﴾، قال تعالى: ﴿**وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذ قُضِيَ الأمر**﴾(٦).

ومن أسمائه ﴿**يَوْمَ الْفَصْلِ**﴾، قال تعالى: ﴿**إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾(٧)، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً**﴾(٨).

ومن أسمائه ﴿**يَوْمَ الآزِفَةِ**﴾، قال تعالى: ﴿**وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ**﴾(٩).

---

(١) الانفطار: ١٥ ـ ١٨.
(٢) القيامة: ١.
(٣) آل عمران: ١٨٥.
(٤) المطففين: ٦.
(٥) إبراهيم: ٤١.
(٦) مريم: ٣٩.
(٧) الدخان: ٤٠.
(٨) النبأ: ١٧.
(٩) غافر: ١٨.

«والأزفة» في اللغة بمعنى القريب، فمعنى أزف الشيء يعني قرب، وقال تعالى: ﴿أَزِفَتِ الآزِفَةُ﴾[١]. ومعنى ذلك: قربت القيامة.

ومن أسمائه ﴿الْيَوْمِ الآخِرِ﴾، وقد ذكر بهذا الاسم في القرآن الكريم نحو خمس وعشرين مرة. منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللّهِ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[٢].

ومن أسمائه ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ قال تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾[٣]. ومعنى (التناد): يوم التنادي، وإنما حذفت منها الياء.

روى أهل السير أنه لما صار يوم العاشوراء، ولم يبقَ مع الحسين إلّا نفر يسير، أقبل حنظلة بن أسعد الشبامي الهمداني ووقف بين يدي الحسين يقيه بنفسه، ويستقبل الرماح والسيوف والسهام دونه، وينادي: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[٤]. يا قوم لا تقتلوا حسيناً ﴿فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾[٥]. ثم تقدم إلى القوم يضرب فيهم بسيفه إلى أن قتل[٦].

ومن أسمائه «اليوم المشهود»، قال تعالى: ﴿وشاهد ومشهود﴾[٧]. وفي (التفسير الأمثل) في كلامه عن هذه الآية الشريفة أن رجلاً دخل مسجد رسول الله ﷺ، فاذا

---

(١) النجم: ٥٧.
(٢) التوبة: ١٨.
(٣) غافر: ٣٢.
(٤) غافر: ٣٠ ـ ٣٣.
(٥) طه: ٦١.
(٦) اللهوف في قتلى الطفوف: ٦٥، بحار الأنوار ٤٥: ٢٣.
(٧) البروج: ٣.

رجل يحدث عن رسول الله ﷺ، قال: فسألته عن «الشاهد والمشهود»، فقال: نعم، «الشاهد» هو يوم الجمعة، و«المشهود» يوم عرفة. فجزته إلى آخر فسألته عن ذلك، فقال. أما «الشاهد» فيوم الجمعة، وأما «المشهود» فيوم النحر. فجزتهما إلى غلام كأن وجهه الدنيا، فسألته عن ذلك، فقال: «**نعم، أما «الشاهد» فرسول الله** ﷺ، **وأما «المشهود» فيوم القيامة، أما سمعت الله سبحانه يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾**[١].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[٢]؟». فقال أصبت وأخطؤوا[٣].

ومن أسمائه **﴿يَوْمِ البَعْثِ﴾**، قال تعالى: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾**[٤].

وقد ورد أن أعظم الأيام على الإنسان ثلاثة: يوم ولادته، ويوم موته، ويوم بعثه، وقد سلم الله فيها على نبيه يحيى بن زكريا عليه السلام، فقال تعالى: **﴿وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾**[٥]، وسلم فيها عيسى عليه السلام على نفسه فقال: **﴿وَالسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾**[٦].

---

(١) الأحزاب: ٤٥.
(٢) البروج: ٣.
(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزّل ٢٠: ٧٥٠.
(٤) الروم: ٥٦
(٥) مريم: ١٥.
(٦) مريم: ٣٣.

﴿١٤﴾

معنى ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾

قال تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾.

قالوا: إنما خصّص الله ذلك اليوم بالملكية له سبحانه وتعالى مع أنه مالك كلّ شيء من أجل التهويل والتعظيم، أي لتعظيم شأن ذلك اليوم وتفخيم أمره؛ لأنه يوم مظهر وحدانيّته العظمى وربوبيته الكبرى، ويوم انقهار الجميع تحت قاهريته، فهو يوم انفراده بالحكم والقضاء فيه، كما قال تعالى: ﴿**لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ**﴾[2].

قال الرازي في تفسيره الكبير عند قوله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾: «إن الذي يحمد ويمدح ويعظم إنما يحمد ويمدح ويعظم لأجل وجوه أربعة:

إمّا أن يكون كاملاً في ذاته وصفاته، منزهاً عن جميع النقائص والمعايب، فتحمده وتمدحه وتعظمه لذلك، وإن لم يكن منه إحسان إليك.

---

(١) غافر: ١٦.   (٢) الانفطار: ٢٠.

وإما لكونه محسناً إليك ومنعماً عليك.

وإما إنك ترجو فضله وإحسانه إليك فيما بعد.

وإما أن تكون خائفاً من قهره وقدرته وسطوته.

فهذه هي الجهات الموجبة للمدح والحمد والتعظيم، فهو تعالى يقول: إن كنتم تعظمون وتحمدون وتمدحون من أجل الجلال والكمال، فأنا أهل ذلك؛ لأني أنا الله، وإن كنتم تعظمون وتحمدون وتمدحون من أجل الإحسان والتربية والإنعام، فأنارب العالمين، وإن كنتم تعظمون وتحمدون وتمدحون للطمع في المستقبل فأنا الرحمن الرحيم، وإن كنتم تعظمون وتمدحون وتحمدون للخوف، فأنا مالك يوم الدين»[١].

وقد جاء في القرآن أن هذا اليوم كخمسين ألف سنة، قال تعالى: **﴿تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾**[٢]، أي أن هذا اليوم لو وقع في الدنيا وانطبق على الزمان الجاري فيها لكان مقداره من زمانها خمسين ألف سنة من سنينها.

أما المراد بعروج الملائكة والروح إليه في ذلك اليوم، فإن عروجهم إليه لانقضاء أعمالهم وانتهاء وظائفهم ومهماتهم التي يقومون بها على أهل الأرض، فلما انتهت الدنيا ومن فيها رجعوا إلى معارجهم، وحفوا حول العرش. قال تعالى: **﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾**[٣].

روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «**حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، فإن في القيامة خمسين موقفاً كلّ موقف مثل ألف سنة مما تعدون**»، ثم تلا الآية

---

(١) التفسير الكبير ١: ٢٣.　　(٢) المعارج: ٤ ـ ٧.

(٣) الزمر: ٧٥.

المتقدمة: ﴿الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾..(١).

ولذلك قالوا: إنّ ما جاء في القرآن الكريم من تحديد يوم القيامة بألف سنة، كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾(٢). ومثلها الآية الخامسة من سورة السجدة، فإنما تعني موقفاً واحداً من مواقف ذلك اليوم الذي هو كـ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

وفي كتاب كشكول البهائي: إن أيام الإنسان خمسة: يوم مفقود، ويوم مشهود، ويوم مورود، ويوم موعود، ويوم ممدود؛ فاليوم المفقود أمسك الذي فاتك مع ما فرطت فيه، واليوم المشهود يومك الذي أنت فيه فتزود فيه من الطاعات.

وكان من أدعية زين العابدين عليه السلام في كلّ صباح: «**وهذا يوم حادث جديد وهو علينا شاهد عتيد، إن أحسنا ودعنا بحمد، وإن أسأنا فارقنا بذم. اللهمّ صلّ على محمد وآل محمد وارزقنا حسن مصاحبته، واعصمنا من سوء مفارقته بارتكاب جريرة أو اقتراف صغيرة أو كبيرة، وأجزل لنا فيه الحسنات، وأخلنا فيه من السيئات واملأ لنا بين طرفيه حمداً وشكراً وأجراً وذخراً وفضلاً وإحساناً**»(٣).

واليوم المورود هو غدك الذي لا تدري هل هو من أيامك أم لا، والموعود هو آخر أيامك من الدنيا فاجعله نصب عينيك، والممدود هو يوم آخرتك.

وإنما سمّي الممدود لطوله كما تقدم، فهو كـ﴿خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾..(٤)

وفي (المجمع) عن أبي سعيد الخدري أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله: ما أطول هذا اليوم! فقال: «**والذي نفس محمد صلى الله عليه وآله بيده، إنه ليخف على المؤمن حتى يكون أخفّ عليه من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا**»(٥).

---

(١) الكافي ٨: ١٤٣ / ١٠٨، الأمالي (المفيد): ٢٧٤ / ١، بحار الأنوار ٧: ١٢٦ / ٣.
(٢) الحج: ٤٧.
(٣) الصحيفة السجادية الجامعة: ٥٦ / ٢١.
(٤) الكشكول ١: ١٩٩.
(٥) مجمع البيان ١٠: ١٢٠.

صدق رسول الله ﷺ؛ فإن في الناس من، ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[١]. ولكنه على الكافرين والمذنبين يوم عسير، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً * السَّمَاء مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾[٣].

والولدان هم الذين يموتون قبل التكليف، فهم لم يكونوا في زمان الشيب أولاً، ثم لم يكونوا مكلفين فيخافون العذاب ثانياً، ومع ذلك فإنهم يشيبون لرؤية الهول.

وأما كيف يبعث الله الإنسان بعد موته في ذلك اليوم وقد صار لحمه تراباً وعظمه رفاتاً، فإن الله ينبت أجسامهم في الأرض كما ينبت الزرع، ويخرجهم منها كما يخرج النبات، ولذلك جاء من أسمائه أيضاً ﴿يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾[٤].

وتفصيل ذلك أن الله جلّ وعلا إذا أراد إنهاء الدنيا يأمر إسرافيل فينفخ في الصور «نفخة الفزع»، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللَّهُ﴾[٥]. وبعد أن يمضي زمان لا يعلمه إلّا الله يأمره بـ«نفخة الصعق»، قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللَّهُ﴾[٦].

وقيل: إن الآيتين تعنيان نفخة واحدة، فـ«نفحة الفزع» هي «نفخة الصعق»، ﴿إلا مَا شَاءَ اللهُ﴾ هم حملة العرش، والملائكة الأربعة: جبرئيل وميكائيل وإسرافيل

(١) الأنبياء: ١٠٣.
(٢) الحج: ١.
(٣) المزمل: ١٧ ـ ١٨.
(٤) ق: ٤٢.
(٥) النمل: ٨٧.
(٦) الزمر: ٦٨.

وعزرائيل. ثم يأمر الله عزرائيل فيقبض أرواحهم، وبعد ذلك يموت عزرائيل بأمر ربه جلّ وعلا، وحينئذٍ لا يبقى إلّا الحي القيوم. قال تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ**﴾(١).

وقد قال مولانا الإمام الحسين عليه السلام: «**إن أهل الأرض يموتون، وأهل السماء لا يبقون**»(٢).

قالوا: وحينئذٍ يصدر النداء من قبله جلّ وعلا: «**أين الملوك وأبناء الملوك؟ أين الجبابرة وأبناء الجبابرة؟ أين الذين أكلوا رزقي وعبدوا غيري؟ ﴿لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ﴾** ثم يجيب نفسه جلّ وعلا: ﴿**لِلّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ**﴾(٣)...»(٤).

ويبقى الكون خالياً من الحياة إلى ما شاء الله، ثم يأمر الله الريح فتهب على الأرض فتنسف الجبال، وتزول الأكمات والتلال، وتبدّل الأرض غير الأرض ﴿**لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أمْتاً**﴾(٥)، ثم يُمطر الله السماء فتنبت أجسام الخلائق كما ينبت الزرع. قال تعالى: ﴿**نَزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ**﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿**يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ**﴾(٧)، وقال تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ * رِزْقاً لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ**﴾(٨)، وقال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ**

---

(١) القصص: ٨٨.
(٢) الإرشاد ٢: ٩٤، الأمالي (الطوسي): ٥٤٧، بحار الأنوار ٢٢: ٥٤٣.
(٣) غافر: ١٦.
(٤) بحار الأنوار ٥٧: ٢٥٩.
(٥) طه: ١٠٧.
(٦) الزخرف: ١١.
(٧) الروم: ١٩.
(٨) ق: ١١.

النُّشُورُ﴾[١].

وبناءً على ما في هذه الآيات وأمثالها من الآيات القرآنية الشريفة يُعدّ البعث أمراً وجدانياً لا غرابة فيه.

وروي أن رجلاً طلب من النبيﷺ أن يوصل فكرة النشور إلى عقله، فقال له: «**هل مررت بأرض قاحلة؟**». قال: بلى. قال: «**مررت بها بعد ذلك فرأيتها ملتفة بالنبات؟**». قال بلىٰ. قال: «**فكذلك تبعث**»[٢].

أما الذين استبعدوا النشور بناء على أن الدنيا لا تنتهي لما يرون من زيادة البشر، على الرغم مما تستهلك الحوادث والحروب والكوارث والموت الطبيعي، وقالوا: إذا لم تنتهِ الدنيا فلا آخرة، أما هؤلاء فقد ردّ عليهم القرآن بقوله: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاء اللَّهُ**﴾؛ لأن هذه الآية وأمثالها، بيَّنت أن نهاية الدنيا لا تكون بالموت التدريجي وإنما تكون بنفخة الصور، وحينئذٍ فلا حجّة لهم في ذلك.

فلابدّ من يوم يجازى به الفتى ... ويحصد فيه المرء ما كان زارعا

ولولا ذلك لكانت الحياة عبثاً؛ لأن عدم النشور يدل على أن الله سبحانه خلقنا لنعمل ما نشاء، فليكفر الكافر، وليفسق الفاسق، وليظلم الظالم، فإنه لا شيء بعد هذه الحياة، وهذا هو العبث المحض (تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً)، قال تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ**﴾[٣]. ولا يخفى أن الله سبحانه قادر على مجازاة الناس في الدنيا، ولكنه لو فعل ذلك للزم فيه فناء الدنيا. قال تعالى: ﴿**وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ**

---

(١) فاطر: ١٩. (٢) مسند أحمد ٤: ١١، مجمع الزوائد ١: ٥٣.

(٣) المؤمنون: ١١٥.

إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾(١).

إذن فلابد من المعاد، وقد ورد أنه إذا أراد الله ذلك أحيا بعض الملائكة، ومنهم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل ثم يبعثهم إلى قبر نبيه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فيكون أول من تنشقّ الأرض عنه، فتلبسه الملائكة تاج الكرامة وحلل الفضيلة، ويركب على دابة الشرف وهي البراق، وتزفّه الملائكة إلى مقامه المحمود، ويقول لجبرئيل: «**ما فعل الله بأمتي؟**» فيقول: «**بعد لم يبعث أحد من الناس**».

ثم يأمر الله إسرافيل فينفخ في الصور، فتحشر الخلائق، قال تعالى: **﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾**(٢). وحينئذٍ تفترق الناس فرقتين؛ فرقة يقولون: **﴿يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾**، وفرقة يقولون: **﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾**(٣). وتنشق السماء فتتنزل الملائكة. قال تعالى: **﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاء بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلاَئِكَةُ تَنزِيلاً﴾**(٤). يعني يوم تتفجر الأجرام السماوية، وتتطاير ذراتها في الفضاء، حتى تكون تلك الذرات كالغمام، وتتنزل الملائكة فتحدق ببني آدم، ويكون مع كلّ واحد منهم سائق وشهيد من الملائكة، قال تعالى: **﴿وَجَاءتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾**(٥).

ويخرج عَنَق مظلم من النار فيحلِّق على الخلائق، ويصدر النداء من قبل الله جلّ وعلا: **﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ * هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾**(٦) وما بعدها من سورة (يٓس).

---

(١) النحل: ٦١.
(٢) الزمر: ٦٨.
(٣) يٓس: ٥٢.
(٤) الفرقان: ٢٥.
(٥) ق: ٢١.
(٦) يس: ٦٠ ـ ٦٤.

وحينئذٍ يشتدّ البلاء، وتجثو الأمم، قال تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١].

فإذا شرع الله عزّ وجلّ في حساب الخلائق، حاسب القلم على ما كتب، واللوح على ماحوى، وإسرافيل على ما أخذ من اللوح، وجبرئيل على ما تلقَّى من إسرافيل، والأنبياء على ما أخذوا من جبرئيل، ثم جيء بالأمم ليحاسبوا على ما أخذوا من أنبيائهم، قال تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[٢]، قالوا: ومعنى ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي بعدل ربّها.

وقال صاحب (الميزان): «إن هذا الإشراق هو انكشاف الغطاء، وظهور حقائق الأشياء»[٣]. ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾، ﴿الْكِتَابُ﴾ هنا اسم جنس، ومعناه: ونشرت صحائف بني آدم التي تحتوي على أعمالهم، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾[٤].

وقد روي عن النبيﷺ أنه قال ما معناه: أتدرون من أشد الناس حسرة يوم القيامة؟ فقالوا: من يا رسول الله؟ فقال: من رأى حسناته في كتاب غيره، ورأى سيئات غيره في كتابه، فيقول: إلهي ليس هذا كتابي، فإني لا أرى فيه طاعتي، فيقال له: إن ربك لا يضل ولا ينسى، ذهب عملك باغتياب الناس، اغتبت فلاناً فأُعطي من حسناتك ما يعوضه عن غيبتك، واغتبت فلاناً ولم يكن لك من الحسنات ما يعوضه عن غيبتك، فجيء بشيء من سيئاته عليك، فهذا هو أشدّ

---

(١) الجاثية: ٢٨.
(٢) الزمر: ٦٩.
(٣) الميزان ١٧: ٢٩٥.
(٤) الكهف: ٤٩.

الناس حسرة يوم القيامة[١].

﴿**وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ**﴾، أي وأُحضر النبيون ليسألوا عن أدائهم وتبليغهم. ﴿**وَالشُّهَدَاءِ**﴾، أي وجيء أيضاً بالشهداء، أي الشهود الذين يشهدون على الإنسان من الملائكة، ومن بقاع الأرض، ومن المناظر الساعاتية، التي هي أشبه شيء بالشريط المصور لكل ساعة من ساعات عمر ابن آدم، كما في كتاب (جامع السعادات) (ولآلئ الأخبار) وغيرهما. وتنصب الموازين كما قال تعالى: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾[٢]، وهي موازين تتناسب مع طبيعة الأعمال، كما يتناسب ميزان الحرارة مع الحرارة، وغير ذلك من الموازين الألكترونية المستحدثة، قال تعالى: ﴿**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يظْلِمُونَ**﴾[٣].

وفي (الدر المنثور) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يوضع الميزان يوم القيامة، فتوزن الحسنات والسيئات؛ فمن ثقلت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة دخل الجنة، ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار**». قيل: يا رسول الله فمن استوت حسناته وسيئاته؟ فقال ﷺ: «**أولئك أصحاب الأعراف. ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾**[٤]»[٥].

وروي[٦] أيضاً أنه توزن الأعمال، فربما تنقص الإنسان حسنة واحدة، فيقال

---

(١) جامع الأخبار: ١٧١.
(٢) الأنبياء: ٤٧.
(٣) الأعراف: ٨ ـ ٩.
(٤) الأعراف: ٤٦.
(٥) الدر المنثور ٣: ٨٧، تفسير الثعالبي ٣: ٣٤.
(٦) تفسير القرآن العظيم ٤: ٥٠٥.

له: انظر في المحشر فلعلك تجد من يعطيك هذه الحسنة، فيأتي إلى أخيه فيطلب منه حسنة واحدة، فيقول: إني أخشى أن يصيبني ما أصابك، نفسي نفسي، فيأتي إلى أمّه ثم إلى أبيه ثم إلى زوجته ثم إلى ولده فكلهم يعتذرون منه، فيرجع خائباً خائفاً ما يدري ما يصنع به، وذلك قوله تعالى: **﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾**[(١)].

ثم يمد الصراط على النار، فيكلف الناس بالعبور عليه فيمر الناس كلّ بحسب عمله واستقامته في الدنيا، وسيأتي الكلام عن الصراط في محلّه. وقد سئل النبي صلى الله عليه وآله: هل يذكر أحد أحداً يوم القيامة؟ فقال: «**أما في ثلاثة مواطن فلا:**

١ ـ عند تطاير الكتب حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله.

٢ ـ عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل.

٣ ـ عند المرور على الصراط حتى يعلم أيجوز أم يسقط في النار».

وفي رواية عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: «**من زارني في غربتي زرته يوم القيامة في ثلاثة مواطن حتى أخلصه منها؛ عند تطاير الكتب، وعند الميزان، وعند الصراط**».

وقد ورد في دعاء الوضوء[(٢)] لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام إشارات إلى موقف القيامة، فعندما يقول عند غسل الكفين المستحب في أول الوضوء: «**الحمد لله الذي جعل الماء طهوراً وبالإسلام نوراً ولم يجعله نجساً**»، فإنه يشير إلى أن أعضاء الوضوء تشعّ نوراً يوم القيامة. وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**أمتي يأتون يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء**»[(٣)].

---

(١) عبس: ٣٤ ـ ٣٧.

(٢) الفقه المنسوب إلى الإمام الرضا عليه السلام: ٦٩ ـ ٧٠، وفيه: «غسل قدميه»، المقنع: ٩ ـ ١١.

(٣) دعائم الإسلام ١: ١٠٠، بحار الأنوار ٧٧: ٢٣٧ / ١١.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[١].

وعندما يقول عندالمضمضة: «**اللهمّ لقّني حجتي يوم ألقاك، وأطلق لساني بما يرضيك عني يا أرحم الراحمين**»، فإنه يشير إلى مواقف السؤال يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَسْؤُولُونَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِيْنَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٣].

وعندما يقول عند الاستنشاق: «**اللهمّ أشمني ريح الجنة وروحها وريحانها**»، فإنه يشير إلى أن الناس فيهم من يشمّ ريح الجنة وروحها وريحانها في ذلك اليوم، وفيهم من لا يشم ذلك.

وعندما يقول عند غسل الوجه: «**اللهمّ بيّض وجهي يوم تبيض فيه الوجوه ولا تسود وجهي يوم تسود فيه الوجوه**»[٤]، فإنه يشير عليه السلام إلى أن هناك من يبيض وجهه وفيهم من يسود وجهه. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾[٥].

ورد عن الإمام الصادق أنه قال: «**إن الله خلق الجنة وطيبها وطيب ريحها، وإن ريحها ليشم من مسير خمسمئة عام لا يشمّه عاقّ ولا قاطع رحمه**»[٦].

﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُواْ الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٧].

---

(١) الحديد: ١٢.
(٢) الصافات: ٢٤.
(٣) الحجر: ٩٢ ـ ٩٣.
(٤) الفقيه ١: ٤٢.
(٥) آل عمران: ١٠٦.
(٦) الكافي ٧: ٥٥ / ١٠..
(٧) آل عمران: ١٠٦ ـ ١٠٧.

وعندما يقول عند غسل اليد اليمين: «**اللهمّ آتني كتابي بيميني، والخلد في الجنان بيساري، وحاسبني حساباً يسيراً**»، فإنه يشير إلى أن هناك من تستقبله الملائكة بالبشرى من تلقاء وجهه، ويعطونه كتابه بيمينه ويعطونه بطاقة دخول الجنة بشماله. قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً**﴾(١).

وعندما يقول عند غسل اليسرى: «**اللهمّ لا تؤتني كتابي بشمالي، ولا من وراء ظهري، ولا تجعلها مغلولة إلى عنقي، واكفني شر مقطعات النيران**»، فإنه يشير إلى أن في الناس من تزجره الملائكة من خلفه، وتناوله كتابه بشماله من وراء ظهره، ثم تُغل يداه إلى عنقه ويلقى في النار. وقال تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاء ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً**﴾(٢).

وعندما يقول عند مسح رأسه: «**اللهم غشني برحمتك وعفوك وعافيتك يا أرحم الراحمين**»، فإنه يشير إلى أنه يوجد يوم القيامة من تغشاه رحمة الله جلّ وعلا، ويظله عفوه، وهناك من يغشاه العذاب من فوقه ومن تحته، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ**﴾(٣).

وعندما يقول عند مسح قدميه: «**اللهم ثبت قدمي على الصراط المستقيم واجعل سعيي فيما يرضيك عني ياكريم**»، فإنه يشير إلى أن في الناس من يثبت قدمه على الصراط فيتجاوزه إلى الجنة، ومنهم من تزل قدمه فيهوي في النار، قال تعالى: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً**﴾(٤).

---

(١) الانشقاق: ٨.
(٢) الانشقاق: ٩ ـ ١٠.
(٣) العنكبوت: ٥٥.
(٤) مريم: ٧١ ـ ٧٢.

وفي كتاب (حق اليقين) نقلاً عن كتاب (البصائر)[١] عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**أنا أول قادم على الله ثم يقدم عليّ كتاب الله ثم يقدم علي أهل بيتي، ثم تقدم عليّ أمتي فيسألهم الله: ما فعلتم في كتابي وأهل بيت نبيكم؟**».

وفي كتاب (فريق في الجنة وفريق في السعير) للسيد الجميلي قال: وقد ورد في الحديث المتفق عليه الذي رواه البخاري[٢] ومسلم وغيرهما[٣] عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «**أنا أول من يجثو بين يدي الرحمن يوم القيامة للخصومة**»[٤].

---

(١) بصائر الدرجات: ٤٣٢. (٢) صحيح البخاري ٥: ٦.

(٣) تفسير الثعلبي ٧: ١٣، تفسير البغوي ٣: ٢٧٩، الجامع لأحكام القرآن ١٢: ٢٥.

(٤) كتاب فريق في الجنة وفريق في السعير: ٨٥.

﴿١٥﴾

العبودية

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[١].

قال المفسرون[٢]: إن كلمة ﴿إِيَّاكَ﴾ في الموردين، (مورد العبادة، ومورد الاستعانة)، ضمير منفصل في محل مفعول قُدّم على الفعل؛ وذلك لأمور، منها أنه قدم للاهتمام بمقام المعبود جلّ وعلا، أي لأن ذكر المعبود أهم من ذكر العبد والعبادة فقدم الأهم على المهم.

ومنها: أنه قدم للتعظيم لئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على ذلك المعبود العظيم.

ومنها: أن يكون العبد متوجهاً من الله لعبادته لا متوجهاً من العبادة إليه؛ لأن الأول أرفع من الثاني.

ومنها: إفادة الحصر والاختصاص، ومعناه أني لا أعبد غيرك ولا أستعين بسواك.

وكما يستفاد الحصر والاختصاص من انفصال الضمير وتقديمه، فإنه يستفاد أيضاً من سياق الآية المباركة؛ لأن من كان الإله لعباده، والرب لجميع عوالم

---

(١) الحمد: ٥.

(٢) مجمع البيان ١: ٦٤.

مخلوقاته، والرحمن بهم، والرحيم عليهم، ومالك يوم جزائهم، وهو يوم الدين، فلا وجه لعبادة غيره، والاستعانة بسواه جلّ وعلا. ومن هذا الحصر والاختصاص يظهر سر قولهم عليهم السلام: «**العقل ما عُبد به الرحمن، واكتسب به الجنان**»[١]. ولذلك قال صاحب آل يّس: ﴿**وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[٢].

قال صاحب (البيان)[٣]: والعبادة تأتي على ثلاثة معانٍ:

١ ـ الطاعة، ومنها عبادة الهوى والشيطان. قال تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ**﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾[٥]. فإن عبادة الهوى المندد بها في الآية الأُولى، وعبادة الشيطان المنهي عنها في الآية الثانية هي إطاعتهما، وكل من أطعته في معصية الله جلّ وعلا فقد عبدته من دون الله، حتى ولو كان ممن يعد نفسه من رجال الدين، فإنك إن أطعته فيما أحلّ لك مما حرم الله عليك أو فيما حرم عليك مما أحلّ الله لك، فقد عبدته من دون الله، قال تعالى: ﴿**اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ**﴾[٦]. في (الكافي) عن أبي بصير رحمه الله عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم، ولو دعوهم إلى عبادة أنفسهم ما أجابوهم، ولكن أحلوا لهم حراماً وحرموا عليهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون**»[٧].

٢ ـ ومن معاني العبادة الخضوع والتذلل، ومنه قوله تعالى حكاية عن فرعون وملئه: ﴿**أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ**﴾[٨].

---

(١) المحاسن ١: ١٩٥ / ١٥، الكافي ١: ١١ / ٣.
(٢) يس: ٢٢.
(٣) البيان: ٤٦٦ ـ ٤٦٧.
(٤) الفرقان: ٤٣، الجاثية: ٢٣.
(٥) يّس: ٣٦.
(٦) التوبة: ٣١.
(٧) الكافي ١: ٥٣ / ١.
(٨) المؤمنون: ٢٣.

والمعنى ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾، وهما موسى وهارون عليهما السلام، ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾، بنو إسرائيل، ﴿لَنَا عَابِدُونَ﴾، أي خاضعون متذللون.

٣ ـ ومن معاني العبادة التأله، وهو التعبد لله جلّ وعلا؛ لأنه الخالق والرازق والمحيي والمميت وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾**(١)، ومنه أيضاً قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾**(٢).

وإلى هذا المعنى ينصرف معنى العبادة في العرف العام، أي إذا أطلق بدون قرينة، قالوا: وعلينا أن نعلم أن الله سبحانه لم يكلّف عباده بعبادته لينتفع بها كما ينتفع الموالي باستعباد عبيدهم، وكما ينتفع الملوك باستخدام خدمهم؛ فإن الله غني عن العالمين ولا يؤذيهم ويشق عليهم، فإنه جل وعلا يريد بعباده اليسر ولا يريد بهم العسر، بل كلفهم بالعبادة ليزيل بها أنجاسهم وأرجاسهم وأمراضهم وأغراضهم النفسية وأدرانهم الروحية، قال تعالى: **﴿مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾**(٣).

ألا تراه جلّ وعلا عندما أمرنا بالصلاة أخبرنا لماذا أمرنا بها، فقال تعالى: **﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾**(٤)، وعندما أمرنا بالصوم أخبرنا لماذا أمرنا به، فقال تعالى: **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾**(٥)، وكذلك عندما أمرنا بالحج، قال تعالى: **﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾**(٦)، إلى غير ذلك من الأشياء العبادية؟

---

(١) الرعد: ٣٦.
(٢) الكهف: ١١٠.
(٣) المائدة: ٦.
(٤) العنكبوت: ٤٥.
(٥) البقرة: ١٨٣.
(٦) الحج: ٢٨.

وقد أخبرت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراءعليها السلام ببعض هذه الأشياء عندما قالت في خطبتها المشهورة: «**وقد جعل الله الإسلام تطهيراً لكم من الشرك، والصلاة تنزيهاً لكم عن الكبر، والزكاة تزكية للنفس ونماء في الرزق، والصيام تثبيتاً للإخلاص، والحج تشييداً للدين، والعدل تنسيقاً للقلوب، وطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً من الفرقة، والجهاد عزّاً للإسلام، والصبر معونة على استيجاب الأجر، والأمر بالمعروف مصلحة للعامة، وبر الوالدين وقاية من السخط، وصلة الأرحام منماة للعدد، والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكاييل والموازين تغييراً للبخس، والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً لكم عن الرجس، واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة، وترك السَّرقة إيجاباً للعفة. وحرم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية، فاتقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون، وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾**[1]»[2].

وقد اختلفت مراتب الناس في العبادة، فكانوا ثلاثة أصناف، وقد بينهم مولانا أمير المؤمنينعليه السلام فقال: «**إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار**»[3]، وقد أخبر القرآن بأن هذه الأنواع كلها صحيحة وإن كان النوع الأخير هو الأكمل والأفضل، ولكن الله جلّ وعلا مدح النوعين الأولين أيضاً، فقال: **﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾**[4]، وقال تعالى: **﴿وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾**[5].

---

(١) فاطر: ٢٨.
(٢) دلائل الإمامة: ١١٣، الاحتجاج ١: ١٣٤، بحار الأنوار ٢٩: ٢٢٣.
(٣) نهج البلاغة / الحكمة: ٢٣٧.
(٤) السجدة: ١٦.
(٥) الأعراف: ٥٦.

أما القسم الثالث فإنه لا يحصل دائماً وبصورة مستمرة إلّا ممن امتحن الله قلوبهم للإيمان، وقد روي عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك، ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك**»(١).

وروي أن عيسى بن مريم عليه السلام مرَّ على قوم نحفت أبدانهم واصفرت وجوههم من العبادة، فقال: «**ماذا تطلبون بعبادتكم؟**». فقالوا: نخشى عذاب الله سبحانه. فقال: «**هو أكرم من ألّا يخلصكم من عذابه**». ثم مرّ بقوم آخرين، فرأى عليهم تلك الآثار من شدّة العبادة، فسألهم: «**ماذا تطلبون بعبادتكم لله؟**». فقالوا: نعبده طلباً للجنة. فقال: «**هو أكرم من أن يمنعكم جنته**». ثم مرّ بقوم آخرين فرأى عليهم تلك الآثار من شدة العبادة أيضاً، فسألهم، فقالوا: نعبده لأنه إلهنا ونحن عبيده فقط، ولم نعبده لرهبة أو رغبة، فقال: «**أنتم العبيد المخلصون والمتعبدون المحققون**»(٢).

قال الشيخ البهائي رحمه الله في كشكوله: وقد ذكر المفسرون في قوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ وجوهاً عديدة للإتيان بنون الجمع، والحال أن المتكلم واحد، وربما كان منفرداً في صلاته، ومن أحسن تلك الوجوه ما ذكره الإمام الرازي في تفسيره (الكبير)(٣) وحاصله: أنه قد ورد في أحكام الشريعة المطهرة أن من باع أجناساً مختلفة صفقة واحدة، ثم ظهر في بعضها عيب، فالمشتري مخير بين ردّ الجميع أو إمساكه، وليس له تبعيض الصفقة برد المعيب وإمساك السليم، وهاهنا حيث يرى العبد عبادته ناقصة معيبة بالنسبة إلى عظمة الله وتفضله، لم يعرضها وحدها على حضرة ذي الجلال والإكرام جلّ وعلا، بل ضمّ إليها عبادة جميع العابدين له جلّ وعلا من الأنبياء، والأولياء، والصالحين، وعرض الكل

---

(١) شرح مئة كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام: ٢١٩، عوالي اللآلي ١: ٢٠ و٢: ١١ / ١٨، بحار الأنوار ٦٧: ١٨٦.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٠: ١٥٦.

(٣) التفسير الكبير ١: ٢٤٨.

صفقة واحدة، راجياً قبول عبادته في الضمن؛ لأن الجميع لا يرد البتة، إذ بعضه مقبول قطعاً، ورد المعيب وإبقاء السليم تبعيض للصفقة، وقد نهى الله سبحانه عن ذلك، فكيف يليق بكرمه أن يفعل ما نهى عنه عبادة؟ فبقي قبول الجميع وهو المراد(١).

وفي تفسير (الأمثل) أن استعمال صيغة الجمع في آية: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ تشير إلى أن العبادة ـ وخاصةً الصلاة ـ ذات جانب اجتماعي، يعني أنها ينبغي أن تؤدى بشكل جماعي لا بشكل فرادىٰ. وإن كانت الصلاة فُرادى لا تفقد الصحة، ولكن الإسلام يرفض ألوان الفردية والانعزال، لا سيما في الصلاة، ولذا فقد جاء في صلاة الجماعة من الفضل ما لا يحصى(٢).

وإذا أراد الله من العبد أن يخصّصه بالعبادة والاستعانة، فمعنى ذلك أنه قد أراد منه أن يكون متحرراً من عبادة غيره والاستعانة بسواه، وبذلك تحصل له الحرية الكاملة، فلا عبادة للهوى كما قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾، ولا عبادة للشيطان كما قال تعالى: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾، ولا عبادة للعلماء المزيفين كما قال تعالى: ﴿**اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ**﴾، ولا عبادة للآخرين كما قال تعالى: ﴿**وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ**﴾(٣).

وروي عن بعض العلماء الصالحين أنه إذا قرأ هذه الآية: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ يبكي، فلما سئل عن ذلك، قال: نحن نقول: ﴿**إياك نعبد**﴾ ونحن نعبد أنفسنا؛ لأننا نطيعها في أمرها إذا أمرت، وننتهي بنهيها إذا نهت، وإذا كنا كذلك لم نكن صادقين مع الله جلّ وعلا.

---

(١) الكشكول ١: ١٠ ـ ١١.
(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزّل ١: ٤٩.
(٣) آل عمران: ٩٤.

وأما الاستعانة، فقد روى الطبرسي في (مجمع البيان)، أن يوسف الصديق عليه السلام لما ﴿قَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[١] جاءه جبرئيل فقال له: «**يا يوسف، من جعلك أحسن الناس؟**». قال: «**ربي**». قال: «**فمن حبّبك إلى أبيك دون إخوتك؟**» قال: «**ربي**»، قال: «**فمن أنقذك من الجب؟**». قال: «**ربي**»، قال: «**فمن صرف عنك كيد النسوة؟**». قال: «**ربي**». قال: «**فإن ربك يقول لك: ما دعاك أن تنزل حاجتك بغيري؟ فالبث بما قلت في السجن بضع سنين**». فبكى يوسف وما زال يبكي حتى تأذى ببكائه أهل السجن، فصالحهم على أن يبكي يوماً ويسكن يوماً.

قال الطبرسي رحمه الله بعد أن ذكر ذلك: والقول في ذلك أن الاستعانة بالعباد في دفع المضار والتخلص من المكاره جائز غير منكر ولا قبيح، بل ربما يجب ذلك، وكان نبينا محمد صلى الله عليه وآله يستعين فيما ينويه بالمهاجرين والأنصار وغيرهم، ولو كان قبيحاً لم يفعله صلى الله عليه وآله فلو صحت هذه الرواية، فإنما عوتب يوسف عليه السلام في ترك عادته الجميلة في الصبر والتوكل على الله سبحانه وتعالى، وإنما يكون ذلك قبيحاً لو ترك التوكل على الله جلّ وعلا واقتصر على غيره[٢].

ولا يخفى أن في الآية الكريمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حالة انتقال من عالم الغَيْبة إلى عالم الحضور؛ وذلك لأن العبد بعد إقراره لله سبحانه بالألُوهية، والاعتراف له بالربوبية، وأنه، ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وأنه ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، صار لائقاً بالمخاطبة الحضورية، فعلمه تعالى أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. أو أن الله جلّ وعلا أراد من عبده أن يعتبر صلاته وفادةً عليه سبحانه، ومثولاً بين يديه، وحضوراً في مقام قدسه وجلاله، فعلمه أن يخاطبه مخاطبة الحاضر. ولكن كيف به إذا قالها وهو لم يدرِ أين هو، وفيمَ هو؛ لأن قلبه كان حينئذٍ منصرفاً إلى

---

(١) يوسف: ٤٢.
(٢) مجمع البيان ٥: ٤٠٤ ـ ٤٠٥.

أُمور الدنيا، كما هو حال الكثير منّا، بل ربما كان قلبه منصرفاً إلى معصية من معاصي الله جلّ وعلا؟ وحينئذٍ لابدّ أن تناديه السماء كذبت فيما تقول، ثم يكون يوم القيامة من الذين قال الله فيهم: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً**﴾[١].

ومعنى ذلك أنّ الله جلّ وعلا يكشف عن بعض الأعمال يوم القيامة، فيراها صاحبها وغيره هباء منثوراً؛ لأنها في الأصل كذلك، إلّا إنها كانت مغلّفة بغلاف جيد، فهي في الاسم والصورة صلاة مثلاً، ولكنها في الحقيقة شحنة من الأكاذيب، والله جلّ وعلا لا تخفى عليه خافية. وقد ورد في الدعاء «**اللهمّ إني أعوذ بك من قلب لا يخشع، ومن علم لا ينفع، ومن صلاة لا ترفع**»[٢].

وفي الحديث أنه «**لا يقبل الله من صلاة العبد إلا ما أقبل عليه العبد بقلبه**»[٣]، وسلام الله على من كان يصلي بين الصفوف فلا يشتغل قلبه بغير ربه، وسلام الله على من تصدق بخاتمه راكعاً فلم تشغله الصِّلات عن الصّلاة، ولا الصّلاة عن الصّلات، فهو كما قال سبط ابن الجوزي الحنفي المتوفى سنة ٦٥٤ هـ:

يسقى ويشرب لا تلهيه سكرته	**عن النديم ولا يلهو عن الكاسِ**
أطاعه سكره حتى تمكن من	**فعل الصحاة فهذا أعظم الناسِ**[٤]

(١) الفرقان: ٢٣.
(٢) مفتاح الفلاح: ١٥٤.
(٣) دعائم الإسلام ١: ١٥٨، بحار الأنوار ٨١: ٢٦٤.
(٤) ولم ينسبهما، تفسير الآلوسي ٦: ١٦٩.

﴿١٦﴾

استحقاق العبادة

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[١].

لا شك أن الله جلّ وعلا عندما علَّم عباده أن يخاطبوه بهذا الخطاب أراد منهم أن يكونوا صادقين فيه، فلا يعبدوا غيره، ولو على قصد الشفاعة والزلفى إليه جلّ وعلا، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾[٣].

وكذلك لا يعبدون غيره على سبيل المخالفة، ولو لبعض أو امره، كعبادة الهوى والشيطان وعبادة الآخرين كما تقدم.

أما من عبد الله وحده لا شريك له، إلّا إنه توسّل إليه بمن منحهم الله مقام الوجاهة عنده، واستشفع إليه بمن أعطاهم مقام الشفاعة لديه، أما هذا، فإنه لم

---

(١) الحمد: ٥.
(٢) يونس: ١٨.
(٣) الزمر: ٣.

يخرج بذلك عن حدّ الإيمان بالله عزّوجل، ولم يكن عابداً لغيره؛ لأنه كمن طلب من الرسول ﷺ أن يستغفر له في حياته. قال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً**﴾(١).

ويعتقد الكثير من المسلمين أن رسول الله ﷺ حي عند ربّه يرزق؛ لأن الله سبحانه قال في الشهداء ـ ومنهم الشهداء بين يديه ـ: إنهم أحياء عند ربهم يرزقون. فإذا كان الرسول ﷺ ميتاً، والشهداء ـ ومنهم الذين قتلوا بين يديه ـ أحياء، كانوا بذلك أفضل منه؛ لأن الحي أفضل من الميت، وهذا غير مقبول؛ لأنه لا يمكن أن يكون أحد أفضل من محمد ﷺ ولو في حال من الأحوال.

قالوا: وإنّما أمرنا جلّ وعلا بعبادته وحده؛ لأنه المنعم علينا بأصول النعم وفروعها، ولا منعم علينا غيره، فإذا عبدناه فقد عبدناه بنعمه، أما إذا عبدنا غيره، فقد استخدمنا نعمه لعبادة غيره، وهذا ظلم. ولذا قال لقمان لولده: ﴿**يَا بُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾(٢).

وأصول النعم هي التي توجد مع الإنسان منذ خرج إلى الدنيا، كالعينين للبصر، والأُذنين للسمع، واليدين للتناول والبطش، والرجلين للسعي، واللسان للذوق، والنطق، والفؤاد للوعي، وغير ذلك من الجوارح والعضلات والأطراف، قال تعالى: ﴿**أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿**وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾(٤).

وقد قيل: إن الله سبحانه إنّما بدأ في هذه الآية وأمثالها بذكر السمع قبل البصر، وبذكر البصر قبل الفؤاد؛ لأن أول ما ينفتح من حواس الطفل سمعه، فإنه ينفتح بعد أيام قليلة من ولادته فيبدأ يتطلّع لسماع بعض الأصوات، وبعد ذلك بأيام ينفتح

---

(١) النساء: ٦٤.
(٢) لقمان: ١٣.
(٣) البلد: ٨ ـ ١٠.
(٤) الإسراء: ٧٨.

بصره، فيبدأ في تشخيص بعض المرئيات من الظلمة والضياء وغير ذلك، ثم بعد ذلك بأيام ينفتح فؤاده بشيء من الوعي، فيبدأ بمعرفة أمه وأبيه وبعض من يرفق به، فيقبل هذا ويمتنع عن هذا، ويميل إلى هذا أكثر مما يميل إلى هذا، إلى غير ذلك، فسبحان من جعل كلماته في كتابه مرتّبة للوظائف والغايات في مخلوقاته.

وأما النّعم الفرعية، فهي التي يولد الإنسان خالياً منها، ثم يوجدها الله له بمنّه وفضله، ومنها القوة، فإنه يولد في غاية الضعف حتى إنه لا يستطيع شرب اللبن من الثدي من ثقب واحد، ولذلك جعل الله جلّ وعلا حلمة الثدي مثقبة بنحو ثمانية عشر ثقباً، إذلو خرج اللبن من ثقب واحد لخيف عليه من الشرق. ولكنه بعد سنين قليلة يكون قوياً يتسلق الجبال، ويركب البحار، ويعمل العجائب، ويصنع الغرائب، وإن كان مع ذلك لا يستطيع أن ينكر من نفسه أنه ضعيف حتى في قوته؛ لأنه كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**تؤلمه البقة، وتقتله الشرقة، وتُنتِنُهُ العَرقة**»[1]. ولكنه يجد الفرق بين ضعف الطفولة وقوة الشباب، وأصدق الحديث كلام الله جلّ وعلا، فقد قال تعالى: ﴿**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً**﴾[2]، فالقوة إذن من النّعم الفرعية.

ومنها العلم، فإن الإنسان يخرج إلى الدنيا خالياً من كلّ معرفة، وفارغاً من كلّ علم، قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً**﴾[3]. وما تمضي سنون من عمره، وإذا هو الفقيه، والمهندس، والطبيب، والطيار، والمخترع، والمكتشف، والمنجم، وغير ذلك من أنواع العلوم التي يفتحها الله عليه، فقال تعالى: ﴿**اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[4]. وقال بعض الشعراء:

---

(١) نهج البلاغة / الحكمة: ٤١٩.
(٢) الروم: ٥٤.
(٣) النحل: ٧٨.
(٤) القلم: ٣ ـ ٥.

هو العلم حتى حلّق المرء في الفضا وسابح حيتان البحار أمينا
وحتى وعى سمع المصيخ بروميةٍ خطاباً بأمريكا فصيحاً مبينا

ومنها الشهوة الجنسية، فقد ولد الإنسان خالياً منها، ثم أوجدها الله فيه بعد أعوام، فأفرز الذكر مادته المنوية العجيبة التي منّ الله عليه بها، فقال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ**﴾[1]، وأفرزت المرأة بويضتها الأُنثوية التي يتكون منها الجنين بعد تلقيحها بمادة الرجل، وجعل في كلّ واحد من الجنسين ميلاً لصاحبه؛ من أجل أن يحصل التزاوج، فيتكون البيت، وتتولد الأسرة، وتحصل المودة والرحمة، ويبقى النوع إلى أن يشاء خالقه، وهو لا يزال متماسكاً بالوشائج النسبية، والروابط الصهرية، قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاء بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً**﴾[2] على أن يخلق الإنسان بدون نسب ولا صهر، كما خلق الملائكة، وأن يخلقه بنسب وصهر كما هو عليه الآن. وقد اختار له الثاني دون الأول، ليشد بعضه إلى بعض، فيكون نسباً وصهراً تارة كما كان علي ورسول الله ﷺ، ويكون نسباً فقط كما كان علي عليه السلام ورسول الله ﷺ قبل الزواج، بفاطمة عليها السلام، ويكون صهراً فقط كما كان علي وبنو حنيفة، وعلي وبنو كلاب.

ومن النّعم الفرعية المال، والولد، والجاه، وغير ذلك من النعم، قال تعالى: ﴿**وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا**﴾[3].

---

(١) الواقعة: ٨ ـ ٩. (٢) الفرقان: ٥٤.
(٣) إبراهيم: ٣٤.

﴿١٧﴾

ماهيّة العبادة والإخلاص فيها

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

تقدم أن تقديم الضمير في مقام العبادة والاستعانة يفيد التخصيص له جلّ وعلا بالعبادة والاستعانة، وكما أنه يفيد التخصيص للمعبود في العبادة فإنّه يفيد التعميم له في العبادة، فلا يعبد الله جلّ وعلا بشيء ثم يعبد غيره بشيء آخر، فيصلي ويصوم لله ثم يشهد الزور لغيره مثلاً؛ لأنّه تعالى يقول: **﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾**[1]، فإذا أقام الشهادة لغيره فقد عبد غيره. إلى غير ذلك من الأشياء.

فعلى العبد أن يجعل أعماله لخالقه جلّ وعلا، فلا يعمل شيئاً إلّا له، ولا يترك شيئاً إلّا له، ورحم الله عبد الباقي أفندي العمري حيث يقول في مدح أمير المؤمنين عليه السلام:

وأنت أنت الذي لله ما فعلا ... وأنت أنت الذي لله ما صنعا
وأنت أنت الذي لله ما وصلا ... وأنت أنت الذي لله ما قطعا[2]

---

(١) الطلاق: ٢.

(٢) الباقيات الصالحات: ٥٩.

وشاهد على ذلك قصته مع أخيه عقيل عليه السلام.

فإذا كان العبد هكذا كانت كلّ أعماله وتروكاته، وحركاته وسكناته عبادة، وهذا هو ما أراده الله من حبيبه صلى الله عليه وآله حيث قال له: **﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾**[١].

قالوا: وإن المراد بالصلاة في الآية هي الصلاة المعروفة؛ سواء كانت واجبة، أو مستحبة، وإن المراد بالنسك هي العبادة بصورة عامة؛ ولذا يقال للعابد: ناسك وإن كان النسك يطلق غالباً على أعمال الحج، قال تعالى: **﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾**[٢]، أي فمن كان من المحرمين للحج أو العمرة مريضاً، أو به أذى من رأسه كالقمل، واحتاج بسبب ذلك إلى الحلق وهو في إحرامه **﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ﴾** ثلاثة أيام **﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾** على ستة مساكين، لكل واحد مدان من الطعام **﴿أَوْ نُسُكٍ﴾**. وهو ذبح شاة يتخير بين الأمور الثلاثة إذا كان في ضرورة، ويتعيّن عليه الثالث ـ وهو شاة ـ إذا كان لغير ضرورة.

وقد روى المفسرون أن هذه الآية الكريمة نزلت بسبب رجل من الصحابة اسمه كعب بن عجرة الأنصاري عندما أصابه القمل وهو في إحرامه في غزوة الحديبية، فرآه رسول الله صلى الله عليه وآله والقمل يتساقط من رأسه، فقال له: «**لعلك آذاك هوامك!**». قال: نعم يا رسول الله. فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: «**احلق رأسك، وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين، أو نسك شاة**»[٣].

وكان قوله صلى الله عليه وآله لكعب بن عجرة بعد نزول الآية المذكورة عليه، فكان كعب يقول: نزلت فيَّ هذه الآية.

ويطلق النسك أيضاً على الأُضحيّة، ففي كتاب (الدر المنثور) للسيوطي أن

---

(١) الأنعام: ١٦٢. (٢) البقرة: ١٩٦.

(٣) كنز الدقائق ١: ٤٦٩، جامع البيان ٢: ٣١٩.

رسول الله ﷺ قال لابنته فاطمة عليها السلام: «**يا فاطمة قومي فاشهدي أضحيتك، فإنه يغفر لك بأول قطرة تقطر من دمها كلّ ذنب عملتيه، وقولي: ﴿إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾...**». قالت: «**فقلت: يا رسول الله، هذا لك ولأهل بيتك خاصة أم للمسلمين عامة؟**». قال: «**بل للمسلمين عامة**»[١].

ففي هذه القصة والتي قبلها دليل واضح على أن فدية المحرم بالشاة والأُضحيّة يوم العيد من النسك، ولكنه أعم منها فهو شامل لجميع أنواع العبادة، والصلاة منه، وإنّما خصّصت بالذكر لأهميتها، وعطف النسك عليها من باب عطف العام على الخاص، مثل قوله تعالى: ﴿**قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ**﴾[٢].

والمراد بكلمة ﴿**مَحْيَايَ**﴾ يعني أن كلّ ما يحصل مني من أعمال وتروك وأفعال في هذه الحياة الدنيا فهو لله جلّ وعلا.

وقد أجمع العلماء أن كلّ ما يعمله الإنسان لله أو يتركه لله فهو عبادة، إذا كان ذلك موافقاً لما جاء عن الله جلّ وعلا، فإذا أكل الإنسان وشرب من أجل تقوية جسده على ما أوجب الله عليه كان أكله وشربه عبادة. وإذا ترك الأكل والشرب لأنه صائم، أو لأن ذلك الأكل والشرب كان حراماً، كالخمر والخنزير، وما ذبح على غير الطريقة الإسلامية، كان ذلك الترك عبادة أيضاً. وإذا لبس الإنسان ما يواري به عورته ويؤدي فيه فريضته ويتجمّل به بين الناس كان ذلك اللبس عبادة. وإذا ترك لبس ما يحرم عليه لبسه كالحرير والذهب بالنسبة إلى الرجال، أو ترك لباس الشهرة، فإن ذلك الترك عبادة. وإذا تزوج بنيّة أن يعفّ نفسه، أو بنيّة أن

---

(١) الدر المنثور ٣: ٦٦.

(٢) آل عمران: ٨٣.

يلد ولداً يعبد الله، كان ذلك الزواج عبادة. وإذا قارب أهله لغاية من تلك الغايتين، أوْلَهما معاً، أو من أجل أن يعفّ أهله، كانت تلك المقاربة عبادة. وإذا تزوج أكثر من واحدة لغاية شريفة، كان ذلك الزواج عبادة. وإذا ترك الزواج بأكثر من واحدة، مخافة ألّا يحصل منه العدل كان ذلك الترك عبادة. وإذا كدّ وكدح على نفسه وعياله، ولئلّا يكون عائلاً على الناس كان ذلك الكد والكدح عبادة.

وقد روى زكريا بن آدم عن الإمام أبي الحسن الرضا عليه السلام أنه قال: «**إن الذي يطلب من فضل الله ما يكفّ به عياله أعظم أجراً من المجاهد في سبيل الله**»[1].

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله اجتاز ومعه جملة من أصحابه برجل يعمل، فرأى الصحابة من جدّه ونشاطه ما يعجبهم، فالتفتوا إلى النبي صلى الله عليه وآله، فقالوا: يا رسول الله لو كان هذا العمل في سبيل الله! فقال صلى الله عليه وآله: «**إن كان خرج يسعى على ولده فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه فهو في سبيل الله**»[2].

وروي أن رجلين من أصحابه صلى الله عليه وآله جاءا إليه وهما يحملان أخاً لهما، فسألهما النبي صلى الله عليه وآله عن شأنه فقالا: إنه لا ينتهي من صلاة إلّا إلى صلاة، ولا يخلص من صيام إلّا إلى صيام، حتى أدركه من الجهد ما صيّره إلى ما ترى. قال صلى الله عليه وآله: «**فمن يرعى إبله ويسعى على ولده؟**»، فقالا: نحن يا رسول الله. فقال صلى الله عليه وآله: «**أنتم أعبد منه**». والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

وإذا صلّىٰ الإنسان وصام امتثالاً لأمر الله، كان ذلك الصوم وتلك الصلاة عبادة. وإذا ترك الصوم امتثالاً لأمر الله كالمسافر، وتركت المرأة الصوم والصلاة في حال حيضها ونفاسها امتثالاً لأمر الله كان ذلك الترك منهما عبادة. وإذا سافر حاجّاً، أو

---

(١) الكافي ٥: ٢/٨٨، بحار الأنوار ٧٥: ٢٩/٣٣٩.

(٢) الدر المنثور ١: ٣٣٧.

معتمراً، أو زائراً، أو غازياً، أو غير ذلك من الأسفار الواجبة أو المستحبة، كان ذلك السفر عبادة. وإذا ترك ذلك السفر لأنه يترتب عليه ترك واجب أو فعل محرم، كان ذلك الترك عبادة، كما هو مفصّل في كتب المناسك وغيرها؛ ولذا فقد تذرع الجدّ بن قيس السلمي الأنصاري المنافق بهذه الحجة، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله، عندما أراد الخروج إلى غزاة تبوك، وقال له: يا رسول الله صلى الله عليه وآله، إني رجل أحب النساء، فلو خرجت إلى الروم، ورأيت نساء بني الأصفر، فإني لا آمَن على نفسي أن أفتتن وأقع في الحرام، فائذن لي يا رسول الله بعدم الخروج معك. فأذن له رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنزل الله فيه: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾[١]...[٢].

وإنّما نزلت فيه هذه الآية، لأنه لم يكن صادقاً في قوله، وإنما تذرع بهذه الحجة الشرعية، وهي حجة خوف الوقوع في الحرام، ليتخلف عن الخروج مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما في قلبه من النفاق.

وإذا نام المؤمن من أجل أن يريح نفسه ليقوى جسمه بذلك على تأدية ما فرض الله عليه من العبادة ومن طلب الرزق لنفسه، وعياله، فإن ذلك النوم عبادة. ولذلك جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في حديثه عن شهر رمضان: «**نومكم فيه عبادة**»[٣]؛ لأنه إذا نام الصائم في نهار شهر رمضان، وكانت نيته أن يتقوى بالنوم على الصوم، أو ليكف جوارحه عمّا يجرح الصوم، كان نومه عبادة.

وإذا نام على طهارة، لما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**من نام على وضوء نام وفراشه مصلاه**»[٤]، أو نام مبكراً من أجل أن ينتبه إلى صلاة الفجر أو إلى ما

---

(١) التوبة: ٤٩.
(٢) مجمع البيان ٥: ٦٥ ـ ٦٦.
(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٦٥، الأمالي (الصدوق): ١٥٤.
(٤) مستدرك وسائل الشيعة ١: ٢٩٧، وفيه: «من نام متوضّئاً كان فراشه له مسجداً ونومه له

قبلها في صلاة الليل فلا شك أن نومه عبادة. وإذا أحب لله وأبغض لله كان ذلك الحب والبغض عبادة، ففي كتاب (الواعظ) وغيره عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: **«إن من أوثق عرا الإيمان أن تحب في الله، وأن تبغض في الله وأن تعطي في الله وأن تمنع في الله».**

وعن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: **«إذا أردت أن تعلم أن فيك خيراً فانظر إلى قلبك؛ فإن كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففيك خير والله يحبك، وان كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته، فليس فيك خير والله يبغضك، والمرء مع من أحب»**[١].

وفي الكتاب المذكور وغيره[٢] أيضاً أن الله أوحى إلى موسى عليه السلام: **«هل عملت لي عملاً قط؟». قال: صليت لك وصمت لك، وذكرت لك، وتصدقت لك، فقال تعالى: أما الصلاة فلك برهان، وأما الصوم فجنة، وأما الصدقة فظل، وأما الذكر فنور، فأي عمل عملت لي؟ فقال موسى عليه السلام: فدلني على العمل الذي هو لك فقال: يا موسى هل واليت لي وليّاً؟ أو عاديت لي عدواً؟ فعلم موسى عليه السلام أن أفضل الأعمال لله الحب في الله والبغض فيه».**

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: **«كل من لم يحب على الدين ويبغض على الدين فلا دين له»**[٣].

ولذلك صار حب أهل البيت عليهم السلام عبادة من صميم الدين؛ لأنه لله ولرسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

صلاة حتىٰ يصبح». وفي بعضها: «من نام على وضوء يؤذن لروحه أن تسجد عند العرش». بحار الأنوار ٥٨: ١٠٢، و«غفر الله له»، كنز العمّال ١٠: ١٦٤ / ٢٨٨٥٤.

(١) الكافي ٢: ١٢٦ / ١١، علل الشرائع ١: ١١٧ / ١٦.

(٢) الدعوات (الراوندي): ٢٨ / ٥٠، مشكاة الأنوار: ٢٢٢.

(٣) الكافي ٢: ١٢٧ / ١٦، بحار الأنوار ٦٦: ٢٥٠ / ٢٧.

وقال عبد الله بن عامل الأموي عندما شرده الأمويون وجفوه لحبه لأهل البيت عليهم السلام:

شرّدوا بي عند امتداحي علياً ورأوا أن ذاك داء دويا
فلعمري لا أبرح الدهر حتى تختلي مهجتي بحبي عليا
وبنيه لحب أحمد إني كنت أحببتهم لحبي النبيا
حب دين لا حب دنيا وشر الـ حب حب يكون لي دنيويا(١)

ومن شعر الفرزدق رحمه الله قوله في مدح الإمام زين العابدين عليه السلام:

من معشر حبهم دين وبغضهمُ كفر وقربهمُ منجى ومعتصمُ(٢)

وفي (الكافي) عن الحكم بن عيينة أنه قال: بينما أنا مع أبي جعفر عليه السلام والبيت غاصّ بأهله، إذ أقبل شيخ يتوكأ على عنزة له، حتى وقف على باب البيت، فقال: السلام عليك يابن رسول الله، ورحمة الله وبركاته. فلما ردّ عليه الإمام، أقبل بوجهه على من في البيت، وقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. فلما ردوا عليه، أقبل بوجهه على الإمام عليه السلام، وقال: يا مولاي أدنني منك؛ فإنني أُحبكم وأُحب من يحبكم، والله ما أُحبكم وأُحب من يحبكم لطمع في دنيا، وإني لأُبغض عدوكم وأبرأ منه، ووالله ما أبغضه وأبرأ منه لوتر كان بيني وبينه، والله إني لأُحل حلالكم، وأُحرم حرامكم، وأنتظر أمركم، فهل ترجو لي جعلني الله فداك؟ فقال له الإمام: «**إلي إلي**». حتى أقعده إلى جانبه، ثم قال: «**أيها الشيخ، إن أبي علي بن الحسين عليه السلام أتاه رجل فسأله عن مثل ما سألتني عنه، فقال له أبي: إن تمت على هذا،**

---

(١) المجدي في أنساب الطالبيين: ٣٦٣، مواقف الشيعة ٢: ٣٥٧ / ٥٤١، الوافي بالوفيات ١٧: ٢٠٠.

(٢) روضة الواعظين: ٢٠٠، خزانة الأدب ١١: ١١٧.

ترد على رسول الله ﷺ، وعلى علي، والحسن، والحسين، ويثلج قلبك، ويبرد فؤادك، وتقر عينك، وتستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين»(١).

وأما معنى ﴿**وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ العَالَمِينَ**﴾ فإن المؤمن إذا كانت عقيدته أن الموت قدوم على الله ورجوع إليه جلّ وعلا، فهو يرجو ثوابه، ويخشى عقابه، ويرجو أن يموت على ما يرضيه عنه، حتى ولو كان بالقتل والصلب. كما قال حبيب بن عدي الأوسي الأنصاري الذي قتلته قريش، فقد قتلته وهو يقول:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً … على أي جنب كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ … يبارك على أوصال شلو ممزع(٢)

إذا كان هكذا فإن مماته لله جلّ وعلا، (نسأل الله أن يختم لنا بخير؛ إنه رحيم كريم).

---

(١) الكافي ٨: ٧٦ / ٣٠، بحار الأنوار ٤٦: ٣٦١ / ٣.
(٢) بحار الأنوار ٢٠: ١٥٣. صحيح البخاري ٨: ١٧٠.

﴿١٨﴾

أقسام العبادة

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾

تقدم أن تقديم الضمير في كلمة ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ كما أنه يفيد التخصيص بالعبادة لله جلّ وعلا، فإنه يفيد التعميم له في جميع أنواع العبادة؛ لأن العبادة على أربعة أنواع:

١ ـ العبادة القلبية، ومنها العقائد الخمس.

٢ ـ العبادة الجسمية، ومنها الصوم والصلاة.

٣ ـ العبادة المالية، ومنها الخمس والزكاة.

٤ ـ العبادة، الجامعة، ومنها الحج والجهاد.

وفي كلّ هذه الأنواع وعلى كلها يستمد العبد المعونة من خالقه جلّ وعلا فيقول: ﴿**وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾. وفي استعانة المخلوق بالخالق دليل على حاجته إليه في جميع أحواله، وأن أموره غير مفوّضة إليه كما يقول المفوضة. روى العياشي في تفسيره عن الحسن بن محمد الجمال عن بعض أصحابه قال: ورد على عبد الملك ابن مروان رجل من القدرية ـ أي المفوضة ـ فأحضر له جميع من كان بالشام من

العلماء والمتكلمين، فأعياهم جميعاً، فقالوا: ما لهذا الرجل إلّا محمد بن علي الباقر عليه السلام. فكتب عبد الملك إلى عامله بالمدينة أن يوجهه إليه، ولا يهيجه ولا يريعه. فأتاه عامل المدينة بالكتاب، فاعتذر وقال: «**إني شيخ كبير لا أقوى على حالة السفر، وهذا جعفر ابني يقوم مقامي**».

فوجهه إليه، فلما قدم جعفر على عبد الملك، ازدراه لصغر سنّه، وكره أن يجمع بينه وبين الرجل القدري مخافة أن يظهر عليه. وتسامع الناس بقدوم جعفر لمناظرة القدري، فاجتمعوا الحضور المناظرة، وقال عبد الملك للإمام جعفر عليه السلام: إنه قد أعيانا أمر هذا الرجل، فإنه لم يدع عندنا أحداً إلّا خصمه. فقال الإمام عليه السلام: «**إن الله سيكفينا إياه إن شاء الله**».

فلما اجتمعا لم يزده الإمام عليه السلام إلّا أن طلب منه أن يقرأ له سورة الفاتحة المباركة فقرأها، وعبد الملك يقول في نفسه: وماذا في سورة الفاتحة من حجة؟ فلما بلغ القدري إلى قوله تعالى: ﴿**وإياك نستعين**﴾ قال له الإمام جعفر عليه السلام: «**قف وأخبرنا بمن تستعين؟ وما حاجتك إلى المعونة إذا كان الأمر إليك؟**». ﴿**فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ**﴾...»[1].

ولنا على هذه القصة عدة ملاحظات:

١ ـ أن هذه الحادثة لا تصح أن تكون في زمان عبد الملك بن مروان، وإنما تصح أن تكون في زمان ولده هشام بن عبد الملك الذي سمّ الإمام الباقر عليه السلام في السنة التاسعة من خلافته، فتوفي الإمام بتاريخ ٧/١٢/١١٤ وعمره (٥٧). وحينئذٍ يكون قد قارب الشيخوخة، فيجوز أن يحتج بها.

٢ ـ أن الإمام الباقر عليه السلام إنما احتجّ بالشيخوخة، وجعل البديل منه ولده

---

(١) تفسير العياشي ١: ٢٣ / ٢٤.

جعفراً عليه السلام؛ لأنه أراد أن ينبّه الناس إلى إمامة ولده بعده، كما فعل جدّه الإمام علي عليه السلام لولده الحسن عليه السلام، في قصة بيض النعام. وهذا من باب النص العملي المتعارف عند الأيمة والأنبياء عليهم السلام، ومنه قصة آصف بن برخيا عندما طلب منه سليمان بن داود عليه السلام أن يحضر عرش بلقيس.

٣ ـ لماذا اهتمّ الخليفة المرواني هذا الاهتمام البالغ بقطع حجة هذا المتكلم القدري؟ أكل ذلك غيرة من الأمويين على الدين؟ كلّا، ولكن السبب في ذلك أن بني أمية ومن على شاكلتهم لا يعجبهم أن تكون ذنوبهم منسوبة إليهم، كما تزعم القدرية، وإنما يعجبهم أن تكون ذنوبهم منسوبة إلى الله كما هو مذهب الجبرية الذين ينسبون كلّ أعمال العبد إلى الله سبحانه وتعالى؛ ليكونوا بذلك عادلين في رعيتهم، لأنهم مجبورون من الله على ما يعملونه بهم وفيهم، ولا يهمهم لو كان الله بعد ذلك ظالماً لعباده. ألا تراهم يقتلون المؤمن، ثم يقولون: قتله الله! تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً. نعم، هذا هو الذي يعجب بني أمية ومن على شاكلتهم.

وقد روي أن أبا حنيفة سأل الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام، فقال له: أخبرني ممن المعصية؟ فقال له الإمام: «**لا تخلو من إحدى ثلاث:**

إما أن تكون من الله ـ وليست منه ـ فلا ينبغي له أن يعذب عبده على مالم يصدر منه. وإما أن تكون من الله ومن العبد، فلا ينبغي للشريك القوي أن يؤاخذ الشريك الضعيف. وإما أن تكون من العبد ـ وهي منه ـ فللّه أن يعفو ولله أن يعاقب»[١].

وقد نظم ذلك القول الذي قاله الإمام عليه السلام بعض الشعراء فقال:

لم تخلُ أعمالنا اللاتي نذم بها ... إحدى ثلاث معانٍ حين نأتيها
أما تفرد بارينا بصنعتها ... فيسقط اللوم عنا حين نأتيها

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٢٦ / ٣٧، الأمالي (الصدوق): ٤٩٥ / ٤.

أو كان شاركنا فيها فيلحقه ... ما كان يلحقنا من لائم فيها
أو لم يكن لإلهي في جنايتها ... ذنب فما الذنب إلّا ذنب جانيها[١]

وهذا هو الصحيح؛ فإن الذنب ذنب جانيها، لا كما يقول الجبرية: إن العبد مجبور على ما يعمل من الخير والشر، ولا كما يقول القدرية بأن الله لا يقدر على منع العبد من أي شيء يريد أن يعمله، فإن هذا تضعيف لله جل وعلا، وهو على كلّ شيء قدير، إلّا إنه تعالى لا يريد أن يمنع العبد، مما يريد أن يفعله وان كان جلّ وعلا قادراً على ذلك؛ لأنه إذا منعه بالقوة، تَرَكَ الذنب مجبوراً، فرجع الحال إلى الجبر، والجبر يبطل الثواب والعقاب.

قالوا: وفي تقديم العبادة على الاستعانة في الآية الكريمة عدة وجوه، منها أن العبادة هي الغاية المقصودة، وأن الاستعانة وسيلة لأدائها. ومن العادة أن يتصور الإنسان ما هو مقصود بالذات أولاً، ثم يتحرك إلى تحصيل الوسيلة التي يصل بها إلى الغاية المقصودة ثانياً، كما إذا أراد الإنسان أن يفعل شيئاً، فإنه يتصور الفعل أولا، ثم إذا رأى نفسه عاجزاً عن القيام به، قصد من يعينه عليه، أو طلب ما يعينه عليه من الوسائل الآلية وغيرها، حتى جاء عن بعضهم أنه قال: «استعينوا على حوائجكم بحسن الآلة».

ومنها أن العبادة حاجة مقصودة كما تقدم، والاستعانة وسيلة، وتقديم الحاجة لمن تطلب منه الوسيلة أدعى للإجابة.

ومنها أن تقديم العبادة على الاستعانة فيه تقديم لحق الله سبحانه على حق العبد، وتقديم حق المسؤول على حقّ السائل مدعاة للإجابة.

ومنها أن قول العبد: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾، يقتضي حصول رتبة عالية لنفس العبد، فلعل

---

(١) روضة الواعظين: ٤٠، الفصول المختارة: ٧٣.

ذلك يورثه العجب والتبجح، والاعتداد بالنفس، فقال له تعالى: لا تغترّ، فإن ذلك إنما يحصل بعوني، فقل: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ومنها أن الفاتحة سر القرآن، وسر الفاتحة هاتان الجملتان، فالأولى، تبرّئ العبد من الشركين الجلي والخفي ـ وهي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ـ والثانية، تبرئه من الحول والقوة المستقلتين عن حول الله وقوته ـ وهي ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ـ فلا حول للعبد عن معصية الله، ولا قوة له على طاعة الله جلّ وعلا إلّا بعونه، وفضله، ورحمته؛ ولذلك جاءت كلمة «**لا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم**».

ومنها أن من لا يعبد الله لا يستعين به، ولو استعان به لم يكن له حق الإعانة منه؛ لأنه لا يعبده، فكأن العبادة له سبحانه وسيلة لحصول العون منه، كما أن العون منه وسيلة لحصول العبادة له. وعلى هذا يكون كلّ واحد منهما وسيلة لحصول الآخر؛ ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾(١). ومن الصبر الصوم، وقد ورد أنه يستعان به؛ فقد جاء عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة ـ أو الباه ـ فليتزوج؛ فإنه أعف للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم؛ فإنه له وجاء**»(٢).

والباءة كما في (مجمع البحرين) هي مؤن الزواج، والباه هو الجماع(٣)، والوجاء رض عروق الخصيتين، أو رضهما بالذات. وقد شبه الرسول صلى الله عليه وآله الصوم بالوجاء؛ لأنه يكسر الشهوة كالوجاء.

وفي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٤)، إشارة إلى أن الصوم وسيلة من الوسائل التي توصل

---

(١) البقرة: ٤٥.

(٢) مكارم الأخلاق: ١٩٧، عوالي اللآلي ٣: ٢٨٩ / ٤٤.

(٣) مجمع البحرين ١: ٢٦٢ ـ بوأ.

(٤) البقرة: ١٨٣.

الإنسان إلى التقوى.

وأما الصلاة ـ وما أدراك ما الصلاة ـ فإن من فعاليتها ما ذكره جلّ وعلا فقال: **﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾**(١)، وقال الأُستاذ الكبير أحمد أمين رحمه الله في كتابه النافع (**التكامل في الإسلام**): شكا لي شاب جامعي قبل حوالي أربعين عاماً أنه قد ابتلى بكبيرة من الكبائر لا يقوى على التخلّي عنها، وقد أثرت على صحته وسلوكه كثيراً، فقلت له: عليك بصلاة الليل. وعلمته إياها، وأخبرته أنها تؤثر كثيراً في كفّ النفس عن المحرمات، وفي جلب الرزق، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله كان مأموراً بها طول حياته.

فذهب عني ثم جاءني بعد أُسبوع، فقال لي: رأيت شيئاً عجيباً، وهو أني أرى كأن قوة سحرية عجيبة تمنعني من ارتكاب ذلك المحرم، فلم أقدر على الوصول إليه. ثم جاءني بعد شهر، وشكرني على تعليمي إيّاه صلاة الليل، وأخبرني أنه قد صلحت سريرته، وتقدمت صحته، ونجح في الامتحانات، وحسن حاله، ببركة تلك الصلاة المباركة(٢).

فهذه القصة وأمثالها من مصاديق قوله تعالى: **﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى﴾**. وليس هذا كل ما في الصلاة، فإن فيها أكثر من ذلك، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: **﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إِلاَّ الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ دَائِمُونَ﴾**(٣) وما بعدها من سورة (المعارج).

---

(١) العنكبوت: ٤٥.
(٢) التكامل في الإسلام ٤: ٧٥.
(٣) المعارج: ١٩ ـ ٢٣.

﴿١٩﴾

الهداية الإلهية

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ﴾[١].

هذه الآية الكريمة دعاء شريف علمه الله عباده ليدعوه به، فيمنحهم الهداية الخاصة زيادة على ما منحهم من الهداية العامة؛ لأن الهداية على نوعين: هداية عامة، وهداية خاصة، والهداية العامة على نوعين أيضاً: هداية تكوينية، وهداية تشريعية:

فأمّا الهداية التكوينية، فهي التي أوجدها الله تعالى في جميع مخلوقاته حتى الحيوان والنبات. ألا ترى كيف يهتدي النبات إلى نموّه فيسير إلى جهة لا يصده فيها شيء عن سيره؟ وكيف يهتدي الحيوان إلى بناء بيوته، وتربية صغاره، ويميز بين ما يؤذيه وما لا يؤذيه؛ فالفأرة تفر من الهرة، ولا تفر من الشاة، والشاة تفر من الذئب، ولا تفر من الناقة؛ وكيف يهتدي النمل والنحل إلى تشكيل جمعية عاملة، وحكومة حاكمة، وقوة قاهرة؟ وصدق الله سبحانه حيث يقول: ﴿**وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي**

---

(١) الحمد: ٦.

الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(١).

أي أن لديها إدراكاً وفهماً بمقدار ما تطيق؛ ولذلك فإن حياتها تجري وفق نظام دقيق يثير العجب؛ مما يدل على إدراكها وفهمها؛ ولذلك فإنها تحشر لربها كما ذكرت الآية المذكورة: **﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾** وكما تقول الآية: **﴿وَإِذَا الوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾**(٢) وإنما تحشر لأمر يراد بها.

وفي كتاب (الدر المنثور)(٣) وغيره(٤)، عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال: بينا أنا عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ انتطحت عنزان، فقال صلى الله عليه وآله: «**أتدرون فيما انتطحتا؟**». فقلنا: لا ندري. فقال: «**ولكن الله يدري، وسيقضي بينهما**».

وعنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «**إنه جلّ وعلا يحشر هذه الأُمم يوم القيامة ويقتصّ من بعضها لبعض حتى يقتصّ للجمّاء من القرناء، ثم يقال لهم: كونوا تراباً. فحينئذٍ يقول الكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً﴾**(٥)...»(٦).

وإن في هدهد سليمان ونملته دليلاً قاطعاً على فهم هذه المخلوقات، وإدراكها، وإن لم يكن ذلك بالمقدار الذي عند الإنسان.

قالوا: ومن عجيب ما هدى الله جلّ وعلا إليه النحل انقيادها إلى ملكها اليعسوب الذي لا يتم لها ذهاب ولا إياب ولا عمل ولا مرعى إلّا به، فهي مؤتمرة بأمره، منتهية بنهيه، يدبرها كما يدبر الملك رعيته، حتى إنها إذا رجعت إلى خليتها من المرعى يقف على باب الخلية، فتمر عليه واحدة واحدة، فإذا شم في واحدة

---

(١) الأنعام: ٣٨.
(٢) التكوير: ٥.
(٣) الدر المنثور ٣: ١١.
(٤) مجمع الزوائد ١٠: ٣٥٢.
(٥) النبأ: ٤٠.
(٦) مجمع البيان ١٠: ٢٤٩، بحار الأنوار ٧: ٢٥٦.

منها رائحة كريهة ـ كما لو وقعت على جيفة أو أكلت من النباتات النتنة ـ منعها من الدخول إلى الخلية؛ لئلّا تزق عسلها النتن فيها، فتفسد به عسل غيرها. ولو أصرت على الدخول قتلها هو وجنوده؛ ولذلك فهي لا تأكل إلّا طيباً.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**المؤمن كالنحلة يأكل طيباً ويخرج طيباً**»(١).

ولا يزال اليعسوب واقفاً على باب الخلية يشم روائحها، ويمنعها من التزاحم مع بعضها، كما يفعل الأمير القائد إذا انتهى بعسكره إلى مضيق، حتى تدخل كلها. ومن عجيب أمرها أنه لا يجتمع أميران في خلية واحدة، فإذا ولد جديد وكبر، وصار في سن الإمارة والقيادة، رحل عنه الأمير الأول، ولحق به من أراد اللحوق به، فكوَّن له مكاناً آخر ودولة أُخرى، فسبحان من ﴿**أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾.

وقد روي عن النبي ﷺ أنه سمى علياً عليه السلام يعسوب المؤمنين(٢).

وجاء في كتاب (التكامل في الإسلام) للأُستاذ الكبير أحمد أمين، أنه يوجد طائر يسمى (اكسيكلوب) تموت أمه بعد إلقائها البيض، فلا ترى الفراخ ولا تراها الفراخ، وإذا أرادت أن تبيض تطلب لها قطعة من الخشب، وتحفر فيها ثقباً عميقاً، ثم تطلب الغذاء لأفراخها الذين لا تراهم ولا يرونها، وتجمع لهم من ورق الشجر وورودها، وتضع ذلك في قعر الثقب الذي ثقبته في الخشبة، فإذا جمعت للفرخ الواحد ما يكفيه مدة بقائه في ذلك الثقب ـ وهي مدة تقرب من سنة ـ باضت عليه

---

(١) بحار الأنوار ٦١: ٢٣٨ باختلاف، وقريب منه في السنن الكبرى (النسائي) ٦: ٣٧٦ / ١١٢٧٨.

(٢) الأمالي (الصدوق): ٣٨٢ / ١٤، الجامع الصغير ٢: ١٧٨ / ٥٦٠٠، كنز العمّال ١١: ٦١٦ / ٣٢٩٩٠.

بيضة واحدة، ثم بنت عليه سقفاً محكماً من عجين الأخشاب. وتجمع على ذلك السقف قوت سنة للفرخ الثاني، وتبيض عليه بيضة، ثم تبني عليها سقفاً ثانياً. وتجمع على ذلك قوت سنة للفرخ الثالث، وتبيض عليه بيضة. وهكذا كلما أحست أن عندها بيضة بنت لها سقفاً، وجمعت لها قوتاً. فإذا باضت آخر بيضة، وبنت عليها السقف الأخير، ماتت، ويبقى ذلك البيض في تلك البيوت إلى أن يفقس عن فراخ أشبه شيء بالديدان، فلا تزال تأكل من رزقها الذي جمعته لها الأم، وتنمو شيئاً فشيئاً، حتى تكبر وتستطيع الخروج من تلك البيوت بعد ما يقرب من سنة[1].

فسبحان الخلاق العليم.

ومن عجيب الهداية أيضاً هداية النعامة، والكركند، وغيرهما:

فمن الأشياء التي تتجلى فيها هداية النعامة، أنها إذا أرادت أن تفرخ قسمت بيضها إلى ثلاثة أثلاث: فثلث تدفنه في منخفض من الأرض؛ ليتجمد ببرودتها، وقسم تأخذه إلى مرتفع من الأرض؛ لتصهره الشمس فيتميَّع بحرارتها، وقسم تحضنه، فإذا فرَّخ دحرجت لها بيضة من المصهّر بالشمس، ثم تنقرها لها فتشرب منها، وكلما انتهت واحدة جاءت لهم بأُخرى. حتى إذا خلص البيض المصهرج بحرارة الشمس وقد كبرت أفراخها حينئذٍ شيئاً ما وقويت حناجرها على أكل الشيء الليّن فتأتيهم حينئذٍ ببيضة من البيض المتجّمد ببرودة الأرض، ثم تنقرها لها، فتأكل منها. وكلما انتهت واحدة جاءتهم بالأُخرى، إلى أن ينتهي ذلك البيض. وكانت أفراخها قد كبرت حينئذٍ، وقدرت على السعي فتسعى معها لطلب الرزق من حشرات الأرض ونباتاتها، فسبحان من هداها.

ومن الأشياء التي تتجلى فيها هداية الله جلّ وعلا للكركند أنه إذا خرج من بطن

(١) التكامل في الإسلام ٤: ٥٥.

أمّه فرَّ هارباً منها، كالبرق الخاطف، حتى لا تدركه أمه، فتلحسه بلسانها، كما تفعل الحيوانات بأولادها، لأن لسانها أشد من المبرد فلو لحسته حينئذٍ لأزالت جلده، وخدشت لحمه. فمن الذي أخبره عن لسان أمه؟ ومن الذي هداه إلى الفرار منها وهو في أول لحظه من لحظات الحياة؟

ثم لا يزال هارباً منها، خائفاً من لسانها، وهي تطلبه بدافع من حنانها، ولا يزالان هكذا حتى يقوى جلده، ويتصلّب لحمه، فيهدأ من هربه، ويعود يطلبها، كما هي تطلبه، حتى إذا التقيا، عاشا متحابين كما تعيش الأُم مع ولدها، والولد مع أمه، فسبحان من أعطى كلّ شيء خلقه، ثم هدى.

وأمَّا الهداية التشريعية العامة التي بمعنى إراءة الطريق فقد تفضل الله بها على الإنسان، بإفاضة العقل عليه أولاً؛ فبه يميز بين الحق والباطل، قال تعالى: ﴿**إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إمَّا شَاكِراً وَإمَّا كَفُوراً**﴾[١]، وقال تعالى: ﴿**وهديناه النجدين**﴾[٢].

ثم هداه بإرسال الرسل ثانياً، فقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أرْسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ**﴾[٣].

ثم بإنزال الكتب عليه، ثالثاً، قال تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ**﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿**إنَّا أنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ**﴾[٥]، وقال تعالى عن نبيه عيسى عليه السلام: ﴿**وَآتَيْنَاهُ الإنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[٦]، إلى غير ذلك من الآيات. ولولا ما حصل في هذه الكتب السابقة علىٰ القرآن من التحريف لكانت ما تزال هدى ونوراً.

ثم بتعيين الأوصياء والأيمة من بعد الأنبياء، رابعاً، قال تعالى: ﴿**إنَّمَا أنْتَ مُنذِرٌ**

---

(١) الدهر: ٣.
(٢) البلد: ١٠.
(٣) التوبة: ٣٣.
(٤) البقرة: ١٨٥.
(٥) المائدة: ٤٤.
(٦) المائدة: ٤٦.

وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾[١].

وقد روت كتب المسلمين عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أنا المنذر وعلي الهادي وبك يا علي يهتدي المهتدون بعدي**»[٢].

وفي رواية عن ابن عباس أيضاً أنه قال: وضع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده على صدره، فقال: «**أنا المنذر**»، ثم أومأ إلى منكب علي وقال: «**وأنت الهادي، بك يا علي يهتدي المهتدون بعدي**»[٣].

قال صاحب (الميزان) رحمه الله: ومعنى قوله صلى الله عليه وآله: «**أنا المنذر وعلي الهادي**» أني مصداق للمنذر، والإنذار هداية مع دعوة، وعلي مصداق للهادي من غير دعوة؛ هو الإمام. وليس المراد أن رسول الله صلى الله عليه وآله منذر بدون هداية، وأن الهادي هو علي عليه السلام فقط، من دون رسول الله صلى الله عليه وآله. فإن ذلك منافٍ لظاهر الآية الكريمة، ومباين للعقيدة السليمة.

وقد روي عنهم عليهم السلام أن الآية جارية فيهم خلفاً عن سلف، ففي (الكافي) عن أبي بصير رحمه الله أنه قال: سألت الإمام الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾** فقال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أنا المنذر وعلي الهادي**». ثم قال: «**يا أبا محمد، هل من هادٍ اليوم؟**». فقلت: جعلت فداك، ما زال منكم هادٍ بعد هادٍ، حتى رفعت إليك، فقال: «**رحمك الله يا أبا محمد، لو كانت إذا نزلت آية في رجل، ثم مات ذلك الرجل، ماتت الآية مات الكتاب، ولكنه يجري فيمن بقي، كما جرى فيمن مضى**»[٤].

---

(١) الرعد: ٧.

(٢) مجمع البيان ٦: ١٥، تاريخ مدينة دمشق ٤٢: ٣٥٩، كنز العمّال ١١: ٦٢ / ٣٣٠١٢، نظم درر السمطين: ٩٠.

(٣) مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٨١، شواهد التنزيل ١: ٣٨٥، عن حسن بن حسين.

(٤) الكافي ١: ١٩٢ / ٣.

قالوا: وعلى هذا يكون معنى الآية الكريمة: ﴿**إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ**﴾: ولكل قوم من أمتك هادٍ من عترتك، وهم الأيمة الطاهرون عليهم السلام.

وجاء في المراجعة العاشرة من كتاب (المراجعات) لشرف الدين الموسوي رحمه الله نقلاً عن بعض كتبهم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**في كلّ خلف من أمتي عدول من أهل بيتي، ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»[١].

فهاتان الهدايتان التكوينية والتشريعية ـ بما في الثانية من الأنواع الأربعة: العقل، والرسل، والكتب المنزلة، والأيمة عليهم السلام ـ يتفضل الله بها على مخلوقاته ابتداء، وبدون سبب من المخلوق؛ لأنها من اللطف والرحمة التي أوجبها الله على نفسه، فقال تعالى: ﴿**كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ**﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى**﴾[٣].

وهناك هداية خاصة يمنّ الله بها على بعض عباده بأسباب تحصل منهم، وهي الهداية التي ذكرها الله بقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾[٤]، وذكرها تعالى بقوله: ﴿**قُلْ إِنَّ اللّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ**﴾[٥]، وذكرها تعالى بقوله: ﴿**يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ**﴾[٦].

وهذه هي الهداية المطلوبة من الله سبحانه وتعالى في الآية المباركة: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾؛ فإن العبد بعد أن جاهد نفسه بإقامة الصلاة، وأناب إليه بالعبادة، وطلب منه الإعانة عليها، جاز له أن يسأله الهداية الخاصة التي هي بمعنى الإيصال إلى المطلوب، وهو الاستمرار على الطاعة والملازمة للإنابة، والزيادة في

---

(١) المراجعات: ٨١.
(٢) الأنعام: ٥٤.
(٣) الليل: ٩.
(٤) العنكبوت: ٦٩.
(٥) الرعد: ٢٧.
(٦) السجدة: ٢٤.

مقام الهداية؛ لأن للهداية مراتب، فيصح للعبد وإن كان في مرتبة من الهداية أن يطلب المرتبة التي هي أرقى منها، قال تعالى في أهل الكهف: ﴿**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾[(١)].

أما من لم تحصل منه المجاهدة والإنابة وطلب العون من الله جلّ وعلا، فإنه لا يصل إلى تلك الهداية الخاصة، قال تعالى: ﴿**وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿**وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿**وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾[(٤)]، إلى غير ذلك من الآيات.

قالوا: وهذا هو الذي يفرضه العدل، ويحكم به العقل؛ لأنه جلّ وعلا إنما يهدي من استهداه، ويعين من استعانه، أما من لا يستعينه ولا يستهديه، فإنه يدعه وشأنه الذي اختاره لنفسه. وهذا هو الضلال المنسوب إلى الله جلّ وعلا في قوله: ﴿**كَذَٰلِكَ يُضِلُّ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ**﴾[(٥)]، وغيرها من الآيات الكثيرة المماثلة[(٦)]، فهو ضلال سلبي معناه أنه يكل العبد إلى نفسه. أما الهداية المنسوبة إليه جلّ وعلا فإنّها هداية إيجابية، إلّا إنها غير قهريّة؛ لأن الجبر والإلجاء لا يجوزان على الله في حق عبده؛ لأنهما يبطلان الثواب والعقاب، ولذلك قال تعالى: ﴿**وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا**﴾[(٧)]، وقال تعالى: ﴿**أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً**﴾[(٨)]، إلى غير ذلك من الآيات.

---

(١) الكهف: ١٣. (٢) البقرة: ٢٦٤.
(٣) البقرة: ٢٥٨. (٤) المائدة: ١٠٨.
(٥) المدثر: ٣١.
(٦) كقوله جلّ وعلا: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ غافر: ٣٣، وقوله عزّ من قائل: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللّهُ أَنْ يَهدِيَهُ... يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾ الأنعام: ١٢٥، وقوله جل شأنه: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلّا الْفَاسِقِينَ﴾ البقرة: ٢٦.
(٧) السجدة: ١٣. (٨) الرعد: ٣١.

فهو جلّ وعلا قادر على أن يهدي عباده على سبيل القهر والإلجاء، ولكنه لا يفعل ذلك، ولا يأمر أنبياءه به، قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ**﴾(١). ومعنى الآية: قل يا محمد للناس: ﴿**قَدْ جَاءَكُمُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ**﴾ من الله على جبركم على الهدى؛ لأنه لا يريد أن يجبر عباده على شيء من أعمالهم، فمن طلب منه الهدى أوصله إلى ما يطلبه منه، كما يوصل القائد الأعمى إلى المكان الذي طلب منه أن يوصله إليه، ومن لم يطلب منه الهدى تركه وشأنه. ولذلك فهو لا يرضى لأنبيائه وأوليائه أن يجبروا الناس على شيء من أعمالهم، حتى ولو كان ذلك الشيء من أهدى الهدى وأعلى القربات.

ومن أجل ذلك أذن الحسين عليه السلام لأصحابه في الانصراف ليلة العاشر من المحرم، وقال لهم: «**هذا الليل قد أرخى سدوله، فاتخذوه جملاً**»(٢)، مع أنه في أمسّ الحاجة إلى نصرتهم، ولكن هكذا سبيل الصالحين.

---

(١) يونس: ١٠٨.

(٢) الأمالي (الصدوق): ٢٢٠، مناقب آل أبي طالب ٣: ٢٤٨.

﴿٢٠﴾

معنى الصراط

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ**﴾[١]

قال المفسرون: إن الصراط المستقيم هو الطريق المعتدل الذي لا ينحرف إلى اليمين ولا إلى الشمال؛ ولذلك قال تعالى: ﴿**فَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[٢].

وغالباً يكون هذا الطريق معنوياً كما في قولهم: «الاحتياط طريق النجاة»[٣]، و«إطاعة الله طريق الجنة». وروي عن محمد بن الحنفية رضي الله عنه أنه قال: «الصراط المستقيم هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره»[٤].

ويتضح هذا المعنى في قوله تعالى مخاطباً لحبيبه محمد صلى الله عليه وآله: ﴿**وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[٥]؛ لأنه صلى الله عليه وآله إنما يدعو الناس إلى الإسلام.

---

(١) الحمد: ٧. (٢) الملك: ٢٢.

(٣) الحدائق الناضرة ٩: ١٠، مستند الشيعة ١٥: ٣١٤.

(٤) الجامع لأحكام القرآن ١: ١٤٧. (٥) المؤمنون: ٧٣.

ويتمثل الصراط المستقيم في الإيمان بالله، واليوم الآخر:

فأمّا في الإيمان بالله فقد صرّحت به الآية الكريمة: **﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾**[١].

وأما في الإيمان باليوم الآخر فقد صرحت به الآيـه الكـريمة: **﴿وَإِنَّ الَّـذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَـنَاكِبُونَ﴾**[٢].

ويتمثل الصراط المستقيم أيضا في عبادة الله، قال تعالى: **﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾**[٣]، وقال تعالى: عن لسان نبيه عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال لقومه: **﴿إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾**[٤].

ويتمثل أيضاً في متابعة الأنبياء، قال تعالى عن بعض أنبيائه أنه قـال لقـومه: **﴿وَاتَّبِعُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْـتَقِيمٌ﴾**[٥]، وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه قـال لأبـيه آزر: **﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ العِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾**[٦].

وقد بينت الآية المذكورة من سورة الفاتحة المباركة أن **﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾** هو صراط الأنبياء؛ لأنها قالت: **﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾**، والأنبياء هم النمط الأعلى، والشريحة الأُولى من الذين أنعم الله عليهم، قال الله تعالى: **﴿وَمَنْ يُـطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِن النَبِيّين﴾**، ثم قال: **﴿الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾**[٧].

و**﴿الصِّدِّيقِينَ﴾** جمع الصديق، وهي صيغة مبالغة تطلق على كثير الصـدق، أو على الذي يشمل الصدق جميع وجوده فلا يكذب أبداً؛ لا في شيء من أقواله، ولا

---

(١) آل عمران: ١٠١.
(٢) المؤمنون: ٧٤.
(٣) يونس: ٦١.
(٤) آل عمران: ٥١.
(٥) الزخرف: ٦١.
(٦) مريم: ٢٤.
(٧) النساء: ٦٩.

في شيء من أفعاله. وقد مدح الله سبحانه بهذه الصفة بعض أنبيائه، ومنهم خليله إبراهيم عليه السلام؛ قال تعالى: **﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إبْرَاهِيمَ إنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾**[١]. ومنهم نبيه إدريس عليه السلام قال تعالى: **﴿وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إدْرِيس إنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾**[٢]. ومنهم نبيه يوسف بن يعقوب عليه السلام، قال تعالى: **﴿يُوسُفُ أيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾**[٣].

وقد اشتهر يوسف بهذا اللقب حتى لا يكاد يذكر إلّا ويذكر معه.

وقد مدحت به من النساء في القرآن مريم بنت عمران عليها السلام، قال تعالى: **﴿مَا المَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾**[٤]. واشتهرت به الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام.

وقد بين تعالى أن هناك جماعة من غير الأنبياء عليهم السلام يصدق عليهم هذا اللقب الشريف أيضاً، فقال: **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾**[٥].

قيل: والمراد منهم أهل الدرجات العالية في الإيمان، وأهل السبق إلى الإسلام. وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**الصديقون ثلاثة: حبيب النجار مؤمن آل يَس، وحزقيل مؤمن آل فرعون، وعلي بن أبي طالب عليه السلام، وهو أفضلهم**». رواه جماعة منهم الرازي[٦] وغيره[٧].

وفي كتاب (كنز العمال)[٨]، وفي (الإصابة)[٩] لابن حجر بترجمة أبي ليلى الغفاري عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**تكون بعدي فتنة، فإذا كان ذلك فالزموا علي بن أبي طالب عليه السلام، فإنه أول من آمن بي، وهو أول من يصافحني يوم القيامة، وهو الصديق الأكبر، وهو فاروق هذه الأُمّة يفرق بين الحق والباطل، وهو يعسوب الدين، والمال**

---

(١) مريم: ٤١.
(٢) مريم: ٥٦.
(٣) يوسف: ٤٦
(٤) المائدة: ٧٥.
(٥) الحديد: ١٩.
(٦) التفسير الكبير ٢٧: ٥٧.
(٧) الأمالي (الصدوق): ٥٦٣ / ٧٦٠، الأربعون حديثاً (منتجب الدين بن بابويه): ٥٠.
(٨) كنز العمال ١١: ٦١٢ / ٣٢٩٦٤.
(٩) الإصابة ٧: ٢٩٤ / ١٠٤٨٤.

يعسوب الظالمين». قال الفرطوسي رحمه الله:

وعــلـي صِــدِّيق أُمّــة طـه وهو فاروقها بيوم القـضاءِ

وروى الحاكم في (المستدرك) عن عباد بن عبد الله الأسدي عن علي عليه السلام أنه قال: «**إني عبد الله وأخو رسوله، وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلّا كاذب**»(١).

قال صاحب التفسير (الكاشف) رحمه الله عند كلامه عن الآية (٦٩) من سورة (النساء): «والأليق بالواقع أن نفسر الصديقين بالأيمة المعصومين عليهم السلام، فإنهم الكاملون في أنفسهم، المكملون لغيرهم؛ لأن الله جلّ وعلا جعلهم في المرتبة الثانية من النبيين بلا فاصل»(٢).

وهذه المرتبة لا تكون إلّا لمن لا يجوز عليه الخطأ؛ لأن من جاز عليه الخطأ لا يكون مكملاً لغيره كمالاً حقيقيّاً، بل هو يحتاج إلى كامل حقيقي يردّه عن خطئه، وهذا الكامل هو المعصوم.

وبتعبير آخر: الصادق على نوعين:

١ ـ ألّا يتعمد الكذب، ولكن يجوز عليه الخطأ والاشتباه، كمن يخبر بشيء، وهو يؤمن بصدق ما أخبر به، ثم يتبين له أن خبره غير مطابق للواقع، فيكون هو صادقاً في قصده، ولكنَّ الذي أخبر به كذب، إلّا إنه لا يعلم به أنه كذب، وهذا كثير.

٢ ـ ألّا يتعمّد الكذب، ولا يجوز عليه الخطأ، بحيث لا يخالف قوله الواقع بحال من الأحوال. وهذا هو الصدّيق وهو المعصوم.

ولا يوجد في الأُمّة من يشهد القرآن والسنة بعصمتهم إلّا الأئمة من أهل

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٣: ١١٢، وتمامه: «صليت قبل الناس بسبع سنين قبل أن يعبده أحد من هذه الأُمة». وانظر: سنن ابن ماجة ١: ٤٤/١٢٠، المصنف (ابن أبي شيبة) ٧: ٤٩٨ / ٢١.

(٢) الكاشف ٢: ٣٧١.

البيت عليهم السلام الذين قرنهم النبي صلى الله عليه وآله بالقرآن، فقال صلى الله عليه وآله: «**كتاب الله وعترتي**»[١].

و﴿**الشُّهَدَاءِ**﴾، هي إمّا جمع شهيد من الشهادة في سبيل الله، أو جمع شاهد من الشهادة على الأعمال، كما في الآية الكريمة: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**﴾[٢]. وقد روي في (تفسير العياشي) عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال عن هٰذه الآية الكريمة: «**فإن ظننت أن الله تعالى عنى بهذه الآية جميع أهل القبلة من الموحدين، أفترى أن من لا تجوز شهادته في الدنيا على صاع من تمر يطلب الله شهادته يوم القيامة ويقبلها منه بحضرة جميع الأمم الماضية؟ كلّا لم يعنِ الله مثل هذا في خلقه، وإنما يعني الأُمّة التي وجبت لها دعوة الخليل عليه السلام**»[٣].

قالوا: ولعلّ المراد من دعوة إبراهيم الخليل عليه السلام هنا قوله عندما قال له ربه: ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي**﴾[٤].

وفي المناقب عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**لا يكون شهداء على الناس إلّا الأئمّة والرسل، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين**»[٥].

و﴿**الصَّالِحِينَ**﴾، قال صاحب (التفسير الكاشف رحمه الله): «وهم الذين صلحت عقائدهم وأعمالهم.

وعن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «**بالإيمان يستدل على الصالحات، وبالصالحات يستدل على الإيمان**»[٦]. أي أنهما شيئان متلازمان[٧].

قال: «وليس من شك أن المعرفة بحلال الله وحرامه اجتهاداً أو تقليداً شرط

---

(١) ورد هذا الحديث بصيغ كثيرة وطرق أكثر، انظر: فضائل الصحابة (أحمد بن حنبل): ١٥، ٢٢، مسند أحمد ٣: ١٤ وغيرها، سنن الدارمي ٢: ٤٣٢، وغيرها.

(٢) البقرة: ١٤٣.

(٣) تفسير العياشي ١: ٦٣ / ١١٤.

(٤) البقرة: ١٢٤.

(٥) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣١٤.

(٦) نهج البلاغة / الكلام: ١٥٦.

(٧) الكاشف ١: ٢٢٣.

أساسي في الصلاح؛ لأن الجهل يفسد الاعتقاد والعمل»[١].

قال صاحب تفسير (الأمثل): «والجدير بالذكر أن هذه المراحل الأربع المذكورة في الآية الكريمة يمكن أن تكون إشارة إلى أنه لا بدّ لبناء المجتمع الإنساني الصالح أن يبدأ بالأنبياء، فهم القادة والهداة للحق، ثم يتبعهم المبلغون الصادقون بالقول والعمل، وهم الصديقون ـ أي الأئمة عليهم السلام ـ ثم بعد مرحلة البناء الفكري والاعتقادي التي يقوم بها الأنبياء والصديقون، يقوم جماعة في وجه العناصر الفاسدة، ومن يريدون الوقوف عقبة في طريق الحق، فيضحون بأنفسهم، ويقدمون أجسادهم قرابين للحق والعدل، وهم الشهداء.

ثم يكون حصيلة هذه المساعي والجهود ظهور الصالحين، ويأتي بعدهم من تكون لهم مرافقتهم في الدار الآخره، وهم ﴿**الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾[٢]...»[٣].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**قولوا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ بالتوفيق لدينك وطاعتك، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً﴾[٤]. وليس هم المنعم عليهم بالمال والصحة وإن كان ذلك من نعم الله، ولكن ألا تدرون أن هؤلاء قد يكونون كفاراً أو فساقاً، فما نُدبتم بأن تدعوا بأن ترشدوا إلى صراطهم، وإنما أمرتم بالدعاء بأن ترشدوا إلى صراط الذين أنعم الله عليهم بالإيمان بالله والتصديق برسوله، وبالولاية لمحمد وآله الطاهرين وأصحابه الخيّرين المنتجبين**»[٥].

---

(١) الكاشف ١: ٢٢٣.
(٢) التوبة: ١٠٠.
(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزّل ٣: ٢٨٠.
(٤) النساء: ٦٩.
(٥) معاني الأخبار: ٣٦ / ٩.

وفي (الميزان) عن (البرهان)[١] عن ابن شهرآشوب[٢] عن أنس بن مالك عن ابن عباس أنه قال: **﴿وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾**، يعني رسول الله ﷺ، **﴿وَالصِّدِّيقِينَ﴾** يعني علياً عليه السلام؛ فقد كان أول من صدق، **﴿وَالشُّهَدَاءِ﴾**، يعني علياً وجعفراً وحمزة والحسن والحسين عليهما السلام، **﴿وَالصَّالِحِينَ﴾**، أي وهم المحبون لهم، والمقتدون بهم، والسائرون على نهجهم[٣].

وفي (الميزان) عن أمالي الطوسي رحمه الله[٤] عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «**جاء رجل من الأنصار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني لا أستطيع فراقك، وإني لأذكرك فأترك ضيعتي، وأقبل حتى أنظر إليك حبّاً لك، فذكرت إذا كان يوم القيامة، فأُدخلتَ الجنة، ورفعتَ إلى أعلى عليين، فكيف لي بك يا رسول الله؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمْ﴾** إلىٰ آخرها، **فاستدعى النبي ﷺ بالرجل وقرأ عليه وبشره بذلك**»[٥].

ومن الملاحظ أن الرجل الأنصاري شكا إلى رسول الله ﷺ محبته له، وأن الآية ذكرت الطاعة لله وللرسول ﷺ، وما ذاك إلّا لأنّ الطاعة مصداق المحبّة ودليلها وبرهانها. وقد روي أن الإمام الصادق عليه السلام كان كثيراً ما ينشد:

تعصي الإله وأنت تزعم حبّه ... هذا لعمرك في القياس بديعُ
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع[٦]

---

(١) البرهان ٥: ٣٩٣ / ٩.
(٢) مناقب آل أبي طالب ٢: ٢٨٦.
(٣) الميزان ٤: ٤١٤.
(٤) الأمالي: ٦٢١ / ١٢٨٠.
(٥) الميزان ٤: ٤١٣ ـ ٤١٤.
(٦) الأمالي (الصدوق): ٥٧٨ / ٧٩٠.

﴿٢١﴾

العبور على الصراط

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿صِراطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَالضَّالِّينَ﴾

في كتاب تفسير (الميزان) عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «**الصراط المستقيم في الدنيا ما قصر عن الغلو وارتفع عن التقصير، وفي الآخرة هو طريق المؤمنين إلى الجنة**»(١).

وقد ورد في معنى الآية الكريمة **﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إلا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً﴾**(٢) أن ورود الناس النار هو مرورهم عليها عند جوازهم على الصراط؛ لأنّه جسر ممدود على النار يؤمر الناس بالعبور عليه؛ البر والفاجر، فمن المؤمنين من يمر عليه كالبرق الخاطف، ومنهم من يمر عليه كهب الريح، ومنهم من يمر عليه كركض الفرس، ومنهم من يمر عليه كشد الرجل ومنهم من يمر عليه كمشيتة ومنهم ومنهم، وأمّا غير المؤمنين فيتساقطون منه في النار، وذلك قوله تعالى: **﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾**(٣).

---

(١) الميزان ١: ٣٩.

(٢) مريم: ٧١.

(٣) مريم: ٧٢.

قالوا: والعبور على الصراط يوم القيامة إلى الجنة أمر وضعي وليس بتكليفي حيث لا تكليف يوم القيامة، فهو أشبه شيء بالنتيجة عن العمل الدنيوي الذي هو صراط الدنيا، والذي بيّنته الآية الأخيرة من سورة الفاتحة، وقسمته إلى ثلاثة أنواع:

١ ـ صراط الذين أنعم الله عليهم.

٢ ـ صراط المغضوب عليهم.

٣ ـ صراط الضالين.

فأمّا الذين أنعم الله عليهم فقد تقدم الكلام عليهم في المجلس السابق، فمن هم **﴿المَغضُوبِ عَلَيهِمْ﴾** ومن هم **﴿الضَّالِّينَ﴾**.

نعم ورد في المأثور أن **﴿المَغضُوبِ عَلَيهِمْ﴾** هم اليهود وأن **﴿الضَّالِّينَ﴾** هم النصارى. ولا شك أن القرآن الكريم قال عن اليهود والنصارى إنهم كذلك، فقال عن اليهود: **﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللّهِ﴾**. ثم بين الأسباب التي حصل لهم ذلك بسببها، فقال: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾**[1]. وقال عن النصارى: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾** يعني من أسلافكم **﴿وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾**[2].

ولكنه جلّ وعلا لم يُقصر غضبه على اليهود فقط، ولم يُقصر الضلال على النصارى فقط، ولعل المفسرين إنما خصّوهم بالذكر؛ لأنهما فيهم أكثر مما في غيرهم؛ فهو فيهم بصورة عامة، وفي غيرهم بصورة خاصة، وإلّا فقد قال تعالى: **﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ**

---

(١) البقرة: ٦١. (٢) المائدة: ٧٧.

لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾(١).

وقد جاء في (المجمع) أن سبب نزول هذه الآية الكريمة أن مقيس بن صبابة الكناني وجد أخاه هشاماً قتيلاً في حي لبني النجار، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فأرسل معه قيس بن هلال الفهري، وقال له: «**قل لبني النجار: إن علمتم قاتل هشام فادفعوه إلى أخيه ليقتصّ منه، وإن لم تعلموه فادفعوا إليه ديته**».

فمضى معه الفهري، وبلّغ لبني النجار مقالة رسول الله ﷺ. فلمّا لم يعلموا القاتل أعطوه دية أخيه. فلمّا انصرف ومعه الفهري وسوس له الشيطان فقال: ما صنعت شيئاً؛ أخذت دية أخيك وتركت دمه فسيكون ذلك سبّة عليك، اقتل الذي معك لتكون نفس بنفس، والدية فضل. فرماه بصخرة فقتله، ثم ركب بعده ورجع إلى مكة كافراً، وأنشد يقول:

قتلت به فهراً وحملت عقله ... سراة بني النجار أرباب فارعِ
فأدركت ثأري واضطجعت موسّداً ... وكنت إلى الأوثان أول راجعِ

فنزلت فيه هذه الآية الكريمة.

وقال النبي ﷺ: «**لا أُومنه في حلّ ولا حرم**»(٢).

وبما أن «النزول لا يمنع الشمول»، و«المورد لا يخصّص الوارد»، فإن الآية الكريمة تشمل كلّ من قتل مؤمناً متعمداً.

وقد روى السيد البحراني رحمه الله في (مدينة المعاجز) وفي غيره من الكتب أن الحسن البصري المتوفى بالبصرة سنة ١١٠ هجرية دخل يوماً على الحجاج بن يوسف الثقفي المتوفى سنة (٩٥) هجرية، فقال له الحجاج: ما تقول في أبي تراب؟ أفي الجنة أم في النار؟ فقال: إني لم أدخلهما فأعرف أهلهما، ولكني أرجو لعلي أن

---
(١) النساء: ٩٣.
(٢) مجمع البيان ٣: ١٥٩.

يكون من أهل الجنة؛ فإنه وإنه. وذكر علياًعليه السلام ببعض ما فضّله الله به من السبق إلى الإسلام والجهاد في سبيل الله، فغضب الحجاج وقال: كيف يكون علي من أهل الجنة والله جلّ وعلا يقول: **﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾**، وعلي قتل المؤمنين بالبصرة وصفين؟

قيل: وكان هناك حينئذٍ أنس بن مالك الأنصاري المتوفى بالبصرة سنة ٩٣هـ، فتحرك في مجلسه وقال: أعوزتني يا حجاج. فقال: وما ذاك؟ فقال: إني كنت بواباً لرسول الله صلى الله عليه وآله، فأُهدي إليه طائر مشوي على رغيفة بيضاء، فوضعه بين يديه، وقال: «**اللهمّ ائتني بأحبّ خلقك إليك يأكل معي من هذا الطائر**». فطرق الباب طارق وإذا هو عليعليه السلام، فقلت له: إن النبي مشغول. فرجع، وهكذا ثلاث مرات كلّما استبطأ النبي صلى الله عليه وآله من يأتيه، وعاد إلى الدعاء عاد علي إلى الباب، فأقول له: إن النبي صلى الله عليه وآله مشغول. فلمّا كان في المرة الثالثة رفع علي صوته وقال لي: «**وإلى متى تحجبنا عن رسول الله صلى الله عليه وآله؟**». فسمع النبي صلى الله عليه وآله صوته فقال: «**من هذا يا أنس؟**». فأخبرته به، فقال: «**أدخله**». فلمّا أدخلته رفع النبي صلى الله عليه وآله يديه إلى السماء وجعل يقول: «**اللهمّ وإليّ، اللهم وإليّ، اللهم وإليّ**»؛ ثم قال: «**أبطأت عليّ يا علي؟**». فقال: «**جئت ثلاثاً فيردّني أنس**». فقال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لمَ رددت عليا؟**». فقلت: سمعت دعوتك، فأحببت أن تكون لرجل من قومي، فقال: «**ما أنت بأول من أحب الخير إلى قومه**».

وأكل عليعليه السلام معه من ذلك الطائر، فإذا كان علي أحبّ الناس إلى الله وإلى رسوله، وأُدخل النار، فلمن تكون الجنة؟ فغضب الحجاج وقال: إنك شيخ قد خرفت، ولولا أن يقول الناس: إني قتلت رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله لقتلتك،

وأخرجه من مجلسه[١].

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ* وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾[٢]، إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تشهد أن غضب الله شامل لكل من يستحقه، سواء كان من اليهود، أو من غيرهم. وقد روي عن الإمام الحسين عليه السلام أنه قال يوم العاشوراء: «**اشتد غضب الله على اليهود؛ إذ جعلوا لله ولداً، واشتد غضبه على النصارى؛ إذ جعلوه ثالث ثلاثة، واشتدّ غضبه على قوم اجتمعت كلمتهم على قتل ابن بنت نبيهم** صلى الله عليه وآله»[٣].

وأمّا بالنسبة إلى الضلال فإنه جلّ وعلا لم يخصّصه بالنصارى، بل قال: ﴿**وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً**﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ**﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ**﴾[٦].

وقد نزلت هذه الآية في حاطب بن أبي بلتعة اللخمي المتوفى بالمدينة سنة ٣٠ هجرية عندما كتب إلى قريش يخبرهم أنّ النبي صلى الله عليه وآله قد عزم على فتح مكة،

---

(١) مدينة معاجز الأئمة عليهم السلام ١: ٣١٨ ـ ٣٢١ / ٢٠٢.

(٢) الأنفال: ١٥ ـ ١٦.

(٣) روضة الواعظين: ١٨٦.

(٤) الأحزاب: ٣٦.

(٥) الحجر: ٥٦.

(٦) الممتحنة: ١.

فليأخذوا حيطتهم. وجاء جبرئيل فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله، فبعث علياً عليه السلام والزبير ليأتياه بالكتاب من عند الجارية التي جاءت من مكة إلى المدينة تسأل الناس، فاستأجرها حاطب لإيصال ذلك الكتاب بما يغنيها عن سؤال الناس، وأخبرهم النبي صلى الله عليه وآله بالطريق الذي سلكته الجارية. فلحقها علي عليه السلام والزبير، ولما أدركاها تقدم إليها الزبير، فسألها عن الكتاب، فأنكرت ذلك وجعلت تبكي، فرقّ لها الزبير وصدقها.

فقال له علي عليه السلام: «**يخبرنا رسول الله صلى الله عليه وآله عن ربّه أن معها كتاباً، ويأمرنا بأخذه منها، وأنت تقول: أن لا شيء معها؟**». وجرّد سيفه وقال لها: «**أخرجي الكتاب وإلّا أخذ السيف منك مأخذه**». فلما رأت الجدّ من عليّ أخرجت الكتاب من عقيصتها.

فلمّا رجعا بالكتاب إلى النبي صلى الله عليه وآله صعد المنبر وقال: «**أيها الناس، إن رجلاً منكم كتب إلى قريش يخبرهم بخبرنا، فليقم صاحب الكتاب وإلّا فضحه الوحي**». فقام حاطب وهو يرتعش كالسعفة في الريح، فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله أنا صاحب الكتاب، ووالله ما أحدثت نفاقاً بعد إيماني، ولا شكّاً بعد يقيني، ولكنْ لي أهل بمكة وليس لي بها عشيرة، وأشفقت أن تكون لهم الدائرة علينا، فيكون كتابي هذا كفّاً لهم عن أهلي، ويداً لي عندهم. فقال الخليفة عمر: يا رسول الله مُرني بقتله، فأبى النّبي صلى الله عليه وآله وقال: «**إنه من أهل بدر، ولكن أخرجوه**». فجعل الناس يدفعونه في ظهره وهو يلتفت إلى النبي صلى الله عليه وآله ليرقّ له، فرقّ له رسول الله صلى الله عليه وآله، وأمر بردّه، وقال له: «**قد عفوت عنك، فاستغفر ربّك ولا تعد إلى مثلها**»[1]. إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تشهد أن الضلال موجود عند غير النصارى أيضاً.

وقد تواتر عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**أيها الناس إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله**

---

(١) الإرشاد ١: ٥٧ ـ ٥٩، كشف الغمة ١: ٢١٦ ـ ٢١٧.

وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً»[١]. ومعنى ذلك أن من لم يتمسّك بكتاب الله وعترته صلى الله عليه وآله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً.

وقد تكلّم العلماء عن (الغضب والرضا)، و(الضلال والهدى) المنسوبين[٢] إلى الله سبحانه، فقالوا: إنها من صفات الفعل، لا من صفات الذات؛ لأن كلّ ما يصحّ توصيف الله به وبنقيضه أو ضده، فهو من صفات الفعل، وكل ما لا يصحّ فيه ذلك فهو من صفات الذات. فالأول كالغضب والرضا، والضلال والهدى، قال تعالى: ﴿**وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى**﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿**رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ**﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿**فَمَن يَهْدِي الله فَهوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً**﴾[٥].

وإذا علمنا أن الغضب والرضا، والضلال أو الإضلال والهدى من صفات أفعاله لا من صفات ذاته جلّ وعلا، علمنا أن نسبتها إليه ليست كنسبتها إلى المخلوق؛ فالغضب من المخلوق انفعال في النفس، وغليان في القلب، وتغير في الوجه، واحمرار في العين وغير ذلك، والرضا منه بعكس ذلك. وأما بالنسبة إلى الله جلّ وعلا فغضبه عقابه، ورضاه ثوابه. وقد روي أن عمرو بن عبيد البصري التيمي بالولاء شيخ المعتزلة في عصره ومفتيها، والمتوفى بالبصرة سنة (١٤٤) هجرية سأل الإمام الباقر عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى**﴾[٦]، فقال: ما هو غضب الله؟ فقال عليه السلام: «**غضب الله: عقابه يا عمرو، من ظن أن الله يغيره شيء فقد كفر**»[٧].

---

(١) بصائر الدرجات: ٤٣٣ / ٣، كفاية الأثر: ١٣٧، مسند أحمد ٣: ١٤ ـ ١٧ و٢٦ و٥٩.
(٢) أي مجموعتي الضدين.
(٣) طه: ٨١.
(٤) البينة: ٨.
(٥) الكهف: ١٧.
(٦) طه: ٨١.
(٧) الإرشاد: ١٦٥.

وكذلك الإضلال من الإنسان فإنه يوسوس لغيره بما يحمله على الضلال في عقيدته وعمله والهدى عكس ذلك. وأمّا بالنسبة إلى الله جلّ وعلا فقد تقدم في المجلس (١٨) أن هدى الله إيجابي، وأن الضلال أو الإضلال المنسوب إليه سلبي، أي أن الله جلّ وعلا يعين من أراد الهداية منه على الوصول إليها، كما يعين القائد الأعمى على الوصول إلى مقصده. وأمّا في الضلال أو الإضلال فإنه لا يعين من أراد الضلال لنفسه على ذلك، ولكنه يدعه وما أراد، يعني أنه يكله إلى نفسه. ولا يكون ذلك منه جلّ وعلا إلّا بعد أن تصدر من العبد أعمال لا تتناسب مع الهداية، كاتّباع الشياطين، قال تعالى: ﴿**فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ**﴾[١]. أمّا من هم الشياطين؟ فإنهم أعداء الأنبياء، قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً**﴾[٢].

ولا ندري من هم أعداء الأنبياء إذا لم يكونوا هم الذين قتلوا ذريتهم، وأبادوا عترتهم، وذبحوا أطفالهم، وسبوا عيالهم.

وأمّا الضلال المنسوب إلى الأنبياء عليهم السلام فإنّه لابدّ أن يكون من غير النوع الذي ينسب إلى غيرهم، فإذا قال أولاد يعقوب عليه السلام: ﴿**لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ**﴾[٣].

وقيل له مرة أُخرى: ﴿**تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ القَدِيمِ**﴾[٤]، لابدّ أن يكون هذا الضلال الذي أرادوه لم يكن الضلال الديني؛ لأنهم يعتقدون نبوّة أبيهم، وإنّما أرادوا الخطأ في تعامله معهم في الآية الأُولى، وأرادوا الخطأ في الإفراط في محبته ليوسف، وفي رجاء لقائه بعد الزمن الطويل والعهد البعيد في الآية الثانية.

---

(١) الأعراف: ٣٠.
(٢) الأنعام: ١١٢.
(٣) يوسف: ٨.
(٤) يوسف: ٩٥.

وإذا قال موسىعليه السلام: ﴿**فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ**﴾[١]، فقد أراد بأني فعلت الوكزة التي وكزت بها الفرعوني، فغضبت وأنا لا أظنّ أنها تصل به إلى الموت، وإنّما أردت ردعه وتأديبه عن الظلم. وإذا قال تعالى عن نبيه وحبيبه محمدصلى الله عليه وآله: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى**﴾[٢]، فإنه ليس المراد من الضلال المذكور في الآية نفي الإيمان عنهصلى الله عليه وآله وإنّما المراد نفي علمهصلى الله عليه وآله بطرق هداية قومه إلى الله جلّ وعلا، وعدم معرفتهصلى الله عليه وآله بوسائل توعيتهم إلى معرفة الحق، فهداه الله جلّ وعلا إلى ذلك بالنبوة والقرآن الذي أنزله ﴿**هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنْ الهُدَى وَالفُرْقَانِ**﴾[٣].

أما الضلال الديني فهو منفي عنه بقوله تعالى: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى**﴾[٤].

---

(١) الشعراء: ٢.
(٢) الضحى: ٧.
(٣) البقرة: ١٨٥.
(٤) النجم: ١ ـ ٢.

سورة الناس

﴿٢٢﴾

مقامات القدس ومعنى الإنسان وأفضليته

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَـهِ النَّاسِ﴾[1].

الخطاب في هذه الآيات الكريمة موجّه إلى الرسول محمد صلى الله عليه وآله تشريفاً وتكريماً له؛ لأنه همزة الوصل بين الخالق والمخلوق، ولكنه لم يكن خطاباً خاصاً به كقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ﴾[2]، أو قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ﴾[3]، فإن هذه الخطابات وأمثالها خطابات خاصة له صلى الله عليه وآله لا تتعداه إلى غيره، ولا تصل إلى أحد سواه.

أما ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدُ﴾[4]، وأمثالها، فإنها خطابات عامة تتعداه إلى غيره حتى ولو كان هو المخاطب بها صلى الله عليه وآله. فمعناها: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، وليقل كلّ مسلم: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، و﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿هُوَ اللّهُ أَحَدُ﴾.

ومعنى ﴿أعوذ﴾ يعني ألجأ وأستجير ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾؛ فهو الّذي ﴿يُجِيرُ وَلا

---

(١) الناس: ١ ـ ٣.
(٢) الجن: ١.
(٣) الأحقاف: ٩.
(٤) الإخلاص: ١.

يُجَارُ عَلَيْهِ﴾[١].

والربّ له معانٍ كثيرة، كما تقدم في تفسير سورة (الفاتحة)، ومنها: السيّد، والمالك، والمربي بالنعم الروحية والجسمية.

قال بعضهم: فإن جاء بمعنى السيّد، فهو من أسمائه الذاتية.

وإن جاء بمعنى المالك، فهو من أسمائه الصفاتية.

وإن جاء بمعنى المربي بالنعم، فهو من أسمائه الأفعالية.

وإذا كانت كلمة رب قد تأتي بمعنى السيد وليس كلّ سيد ملكاً، فقد رفع مقامه جلّ وعلا من مقام الربوبية إلى مقام الملكية فقال: ﴿**مَلِكِ النَّاسِ**﴾. ولما لم يكن كلّ ملك إلهاً، فقد رفع مقامه جل وعلا من مقام الملكية إلى مقام الألوهية، فقال تعالى: ﴿**إِلَهِ النَّاسِ**﴾. وهذا هو المقام الّذي لا يليق إلّا به جلّ وعلا؛ لأن الإله لا يكون إلهاً حتى يكون معبوداً، ولا يكون معبوداً يستحقّ العبادة حتى يكون خالقاً ورازقاً ومدبراً لعابده، ومقتدراً عليه في جميع أحواله. ولا تنطبق هذه الصفات إلّا عليه سبحانه.

ولكن فرعون تمادى في غيّه؛ فادّعى ذلك لنفسه، فقال ـ وما أعظم ما قال ـ: ﴿**يَا أَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي**﴾[٢]. وقال لموسى بن عمران عليه السلام: ﴿**لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ**﴾[٣]. ولما حشر قومه ليدعوهم إلى ربوبيته، دعاهم إلى أن يعتقدوا له مقام الربوبية الأعلى، وهو مقام الألوهية، قال تعالى: ﴿**فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى**﴾[٤].

وهكذا يصل الجهل والغرور بالإنسان المسكين الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

---

(١) المؤمنون: ٨٨.
(٢) القصص: ٣٨.
(٣) الشعراء: ٢٩.
(٤) النازعات: ٢٣.

والسؤال الذي يفرض نفسه حول هذه الآية وأمثالها هو أنه سبحانه وتعالى ربّ لجميع الموجودات والعوالم، كما قال تعالى: ﴿**الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾، وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا هذا التخصيص للناس دون غيرهم في الآيات الثلاث؟ ولماذا أضاف ذكرهم إلى مقام ربوبيته وملكه وأُلوهيته دون من سواهم؟ وجاء الجواب على ذلك بقولهم: أما تخصيصهم بالذكر في الآيات الثلاث، فـ:

أوّلاً: لأن الخطاب الذي يتضمّن الأمر بالاستعاذة موجّة لهم دون غيرهم من المخلوقين، فلمّا خصّصوا بالخطاب خصّصوا بالذكر.

ثـانياً: أنه خصّهم بالذكر في الآيات الثلاث تعريضاً بهم، وتوبيخاً لهم؛ فـإنهم دون من سواهم من المخلوقين قد اتخذوا أرباباً من دونه، وفراعنة يطيعونهم في معصيته، وآلهة يعبدونهم سواه، فذكَّرهم في الآيات الثلاث أنّـه ربـهم ومـالكهم وإلهُهُم الذي لا ربّ لهم دونه، ولا مالك لهم غيره، ولا إله لهم سواه.

ثالثا: أنه خصهم بالذكر في الآيات الثلاث تكريماً لهم على من دونهم وتفضيلاً لهم على من سواهم، كما قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾[1].

وأما أنه جلّ وعلا أضافهم إلى ربوبيتة وملكه وأُلوهيته، فلأن مظاهر ربوبيته وملكه وأُلوهيته فيهم أظهر منها في غيرهم:

فبالنسبة إلى ربوبيته التي تظهر في تربيته الجسمية لهم، فإنّه خلقهم في أحسن تقويم وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة.

وبـالنسبة إلى ربوبيته التي تظهر في تربيته الروحية لهم، فإنه بعث لهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وعلمهم من العلم مالم يصل إليه غيرهم، قال تعالى: ﴿**عَلَّمَ**

---

(١) الإسراء: ٧٠.

الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[١].

وأمّا بالنسبة إلى مظاهر ملكه جلّ وعلا فيهم، فإن أظهر مظاهره يوم القيامة وما يجري فيه، ولذلك قال تعالى: **﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾**[٢]، وقال تعالى: **﴿يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ للّهِ﴾**[٣].

ومدار حركة يوم القيامة على الإنسان؛ ولذلك قال تعالى: **﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللّهِ﴾**[٤]، وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾**[٥]، وقال، وقال... .

وأمّا بالنسبة إلى مظاهر أُلوهيته جلّ وعلا فيهم، فإن أكبر مظاهره في الأرض تتمثّل في حياة الإنسان، فهو الذي يعمر المساجد بالعبادة، وهو الذي يقيم المناسك في المشاعر المقدسة، وهو الذي يدير معارك الجهاد للدفاع عن أديان السماء ومقدسات الأرض، وهو وهو... .

ومن أجل ذلك استحق الإضافة إلى ربوبيته وملكه وأُلوهيته، فإنه وإن لم يكن أفضل من جميع المخلوقات، فإنه أفضل من أكثرهم، كما قال تعالى: **﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾**[٦]. ومما ينسب إلى مولانا أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

أتحسب أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبرُ

وأنت الكتاب المبين الذي ... بأحرفه يظهر المضمرُ[٧]

وقد قالوا عن الإنسان: إنه أفضل من الجنّ. واستدلوا على ذلك بأُمور، منها أن

---

(١) القلم: ٥.
(٢) الفاتحة: ٤.
(٣) الانفطار: ١٩.
(٤) البقرة: ٢٨١.
(٥) الحج: ١.
(٦) الإسراء: ٧٠.
(٧) التفسير الصافي ١: ٩٢، رياض السالكين ٧: ٢١٩.

رسالة الأنبياء من الإنس نفذت على عالم الجن، كما جاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً﴾(١).

كما دلت الآيات الكريمة من سورة الأحقاف أنهم كانوا قبل ذلك مؤمنين برسالة موسى عليه السلام. قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ القُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٢).

فدلت كلّ هذه الآيات الكريمة على أن رسالة أنبياء الإنس نفذت على عالم الجن، ولم يوجد دليل يدل على أن رسالة الجن نفذت على عالم الإنس مع أن كثيراً من المفسرين قالوا: إن منهم أنبياء. واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾(٣)، فلمّا بعث منهم أنبياء ولم تنفذ رسالتهم على أحد من البشر كما نفذت رسالة أنبياء البشر عليهم، استدلوا على أن البشر أفضل منهم. وإذا لم يبعث نبي منهم، وكان الأنبياء كلهم من الإنس ـ كما يقول بعض المفسرين ـ كان ذلك أقوى دليل على أن الإنس أفضل منهم أيضاً.

ومنها ـ كما دلّ القرآن عليه ـ أن الجن سُخروا لسليمان عليه السلام ولم يدل على أن أحداً من البشر سخر لملك من الجن.

أما تقدُّم ذكر الجن على الإنس في أكثر الآيات القرآنية ومنها الآية السابقة

---

(١) الجن: ١ ـ ٢. (٢) الأحقاف: ٣٩ ـ ٤١.
(٣) الأنعام: ١٣٠.

ومنها قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ**﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿**يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإنسِ إنِ اسْتَطَعْتُمْ أنْ تَنفُذُوا مِنْ أقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إلا بِسُلْطَانٍ**﴾[٢]، إلى غير ذلك من الآيات فقد قيل: إن ذلك من أجل الوجود لا من أجل الفضيلة، فإن وجود الجن أسبق من وجود الإنس. ودليل ذلك أن وجود إبليس كان قبل وجود آدم عليه السلام، وقد نصَّ القرآن على أن إبليس من الجنّ قال تعالى: ﴿**وَإذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلا إبْلِيسَ كَانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أمْرِ رَبِّهِ**﴾[٣].

وأما بالنسبة إلى الملك، فقد أجمعوا على أن فضيلته على الإنسان نوعية وليست فردية؛ لأن بعض أفراد البشر أفضل من الملائكة وكفى بمحمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته المعصومين دليلاً على ذلك، وقد كشف حديث المعراج عن أفضليته صلى الله عليه وآله على جميع الملائكة، فقد وصل إلى مكان لم يصل إليه ملك مقرّب ولا نبي مرسل.

وقد روي أن الملكين فطرس وصلصائيل توسّلا إلى الله بالحسين عليه السلام فردهما إلى مقامهما من الملائكة[٤]، قال الشيخ الدمستاني رحمه الله:

كم له من ملك في الملأ الأعلىٰ عتيقْ — وبيمناه يسار لدم العسر بريقْ
وله عهد من الله على الخلق وثيقْ — إنه الحجّة في الأرض ومولى الثقلين[٥]

وقال رحمه الله:

ذبح الشمر حسيناً ليتني كنت وقاه — وغدا الأملاك تنعاه خصوصاً عتقاه
ما درى الملعون شمر أي صدر قد رقاه — رأسه رأس فخار فوق هام الفرقدين[٦]

---

(١) الذاريات: ٦٩.
(٢) الرحمن: ٣٣.
(٣) الكهف: ٥٠.
(٤) بحار الأنوار ٤٣: ٢٥٨.
(٥) ديوان الدمستاني: ١٩٣ ـ ٢٠٣.
(٦) ديوان الدمستاني: ١٩٣ ـ ٢٠٣.

أمّا أصل هذا الاسم وهو (الناس)، فقد قيل: إن أصله من الأُناس، فحذفت منه الهمزة أو الألف للتخفيف فبقيت (الناس)[١]. وأصل الأُناس والإنسان والإنس من الأُنس، فإن الإنسان يأنس بنوعه، ويأنس بغيره ويأنس به غيره.

وقيل: إن أصله من الإيناس وهو الظهور، كما أن أصل اسم الجن من الاستجنان وهو الاستتار، ولذلك قال تعالى: **﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾**[٢].

وقيل: إن اسم الناس أصله من التناسي والنسيان، فإن من طبع الإنسان أن ينسى ويتناسى. ومعنى أنه ينسى: أنه قد تنمسح بعض المعلومات من حافظته إلّا من عصم الله، كما قال تعالى: **﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ * إِلا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾**[٣]. فقد ورد في كثير من التفاسير أن **﴿لَا﴾** في الآية الشريفة للنفي لا النهي[٤]؛ لأنه لا يصحّ أن يُنهى الإنسان عن النسيان؛ لأنه ظاهرة قهرية لا يستطيع الإنسان أن يدفعها عن نفسه، ولذلك فإنه توجد للناسي في الفرائض والأعمال أحكام خاصة، وكثيراً ما يكون أهون من أحكام الجاهل فضلاً عن العامد؛ لأنه من الممكن أن يقال للجاهل: لمَ لا تعلّمت؟ وليس من الممكن أن يقال للناسي: لماذا نسيت؛ لأنه ظاهرة قهرية. ومن العجيب أن الإنسان قد ينسىٰ أعماله، قال تعالى: **﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾**[٥].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**ويلي إن قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها وأنت محصيها، فتقول: خذوه. فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته!**»[٦].

---

(١) شرح كلمات أمير المؤمنين: ٥، مجمع البيان ١٠: ٤٩٦، بحار الأنوار ٥٨: ٦٦ / ٥٢، تفسير النسفي ١: ٥، العين ٧: ٣٠٣ ـ نوس.
(٢) الأعراف: ٢٧.
(٣) الأعلى: ٦ ـ ٧.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ١٩.
(٥) المجادلة: ٦ .
(٦) مناقب آل أبي طالب ١: ٣٨٩.

أما معنى التناسي فإن الإنسان يتناسى ما لا يريد أن يعمله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾(١). والعهد المذكور في الآية الكريمة هو ما عهد الله إليه من عدم الاقتراب من تلك الشجرة، فتناسى ما عهد الله إليه، وأكل من الشجرة، فعوقب بالخروج من الجنة، ولو كان ناسياً لما عوقب بذلك. ولا تزال هذه الظاهرة موجودة في ذريته؛ فإن الكثير منهم يتناسون ما عهد الله لهم به من طاعته ليعملوا ما يشاؤون من معصيته، وليكتموا من الشهادة ما أوجب عليهم ألّا يكتموه، حتى قال بعضهم كبرت ونسيت(٢).

وفي الحقيقة إن كلّ هذه الصفات والمعاني ـ وهي الأُنس والظهور والنسيان والتناسي ـ موجودة في الإنسان. ولكن المرحوم فوزي معلوف اللبناني الذي عاش من سنة (١٣١٧) إلى سنة (١٣٤٨) هجرية بالغ في شعره، فقال:

ما دعوه الإنسان من أُنسه	بل دعوه الإنسان من نسيانهْ
نسي الخير حين أوغل في الشـ	ـرّ وداس الضمير في عصيانهْ
حسد ناهش بقية ما في	قلبه من إبائه وحنانهْ
وأنانية تبيح له القتـ	ـل لتحقيق غاية في كيانهْ

---

(١) طه: ١١٥.

(٢) هو أنس بن مالك، حيث إنه لم يشهد لأمير المؤمنين عليه السلام وقد سمعه خطيباً في جامع الكوفة يقول: «أُنشد الله رجلاً سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه؛ اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، والعن من نصب له العداء والبغضاء»، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «لِم لم تشهد؟». فقال: كبرت سني ونسيت. فقال له عليه السلام: «إن كنت كاذباً فضربك الله ببيضاء لا تواريها العمامة».

فضربه الله ببرص لازمه حتى موته. انظر: المعارف (ابن قتيبة): ٥٨٠، حلية الأولياء ٥: ٢٧، محاضرات الأُدباء ١: ٤٩٠، ٢: ٣١٨. ونقل شاذان بن جبرئيل في الروضة: ٢٠٤ ـ ٢٠٧ حديثاً فيه جملة من مناقب أمير المؤمنين عليه السلام برواية أنس هذا، ومنها هذه المنقبة.

وقال آخر:

نسي الطين ساعة أنه طيـ ـن حقير فصال تيها وعربدْ
لبس الخز جسمه فتباهى وحوى المال كيسه فتمردْ
يا أخي لاتمل بوجهك عني ما أنا فحمة ولا أنت فرقدْ
أنت مثلي من الثرى وإليه فلماذا ياصاحبي التيه والصدْ

﴿٢٣﴾

وسوسة إبليس

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾[1].

قال بعض المفسرين: إن مما يلفت النظر هنا:

أولاً: أن المستعاذ به في سورة الفلق مذكور بصفة واحدة، وهي أنه **﴿رَبِّ الْفَلَقِ﴾**، والمستعاذ منه أربعة أشياء: **﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾**[2]

وأما في هذه السورة فإن المستعاذ به مذكور بثلاث صفات، وهي: **﴿رَبِّ النَّاسِ مَلِكِ النَّاسِ* إِلَهِ النَّاسِ﴾**، والمستعاذ منه شيء واحد وهو **﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾**.

وسبب ذلك أن المطلوب في السورة الأُولى هو سلامة النفس والبدن، والمطلوب في هذه السورة (الناس) هو سلامة الدين والعقيدة، ومضرّة الدين وإن

---

(١) الناس: ٤ ـ ٦. (٢) الفلق: ٢ ـ ٥.

قلّت أعظم من مضرة الدنيا وإن عظمت.

ثانياً: أنه لما كان الأمر المطلوب في سورة الناس أجل من الأمر المطلوب في سورة الفلق، لزم أن يكون الثناء علىٰ المطلوب منه أكثر؛ لأن الثناء يجب أن يقدَّر بقدر المطلوب.

ثالثاً: أنه لما كان الله جلّ وعلا يعلم من عباده أن أحدهم عندما يُعتدىٰ عليه فإنه يفزع في صغره إلى مربيه وفي كبره إلى ملكه، وإذا اعتدى عليه ملكه أو من لم يجد ناصراً له عليه من الناس، فإنه يفزع إلى إلهه، فقال تعالى لعبده في هذه الآيات الثلاث: أنا مربيك وأنا ملكك وأنا إلهك، فافزع إلي في جميع أُمورك، ومنها: ﴿**مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ**﴾.

و﴿**الْوَسْوَاسِ**﴾ هو الذي يوجد الوسوسة في نفس من يوسوس إليه، وحينئذٍ يفزع المؤمن منه إلى ربه، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنْ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**﴾(١). أما غير المؤمن فلا، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ**﴾(٢).

و﴿**الْخَنَّاسِ**﴾ ـ بصيغة المبالغة ـ هو كثير الخنوس. والخنوس هو الرجوع والتأخّر عن الإنسان الذي يوسوَس له عندما يلجأ إلى الله جلّ وعلا. وهذا من مصاديق قوله تعالى: ﴿**إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً**﴾(٣).

﴿**الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ**﴾، أي الذي يلقي خواطر السوء ونوايا الشرّ في قلوب الناس. وإنما عبّر عن القلوب بالصدور؛ لأنها تحتوي عليها، روى صاحب كتاب (قبسات من حياة الرسول ﷺ) أن النبي ﷺ كان معتكفاً في المسجد، فأتته زوجته صفية بنت حيي بن أخطب اليهودي تزوره ليلاً، فلما أرادت

---

(١) الأعراف: ٢٠١. (٢) البقرة: ٢٧٥ .

(٣) النساء: ٧٦.

أن تنصرف قام معها ليوصلها إلى البيت، وكان مسكنها في دار أُسامة بن زيد، فمرَّ به رجلان من الأنصار وهو يمشي معها،فاستوقفهما وقال: «**إنها صفية بنت حيي**». فقالا: سبحان الله يا رسول الله. فقالﷺ: «**إن الشيطان يجري في الإنسان مجرى الدم في العروق، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شراً**»[١].

قيل: وقد استجاد الزمخشري في كشافه أن يكون المراد من كلمة ﴿**النَّاسِ**﴾ في هذه الآية هو الناسي[٢] بالياء، وإنما حذفت منه الياء كما حذفت من قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَدْعُوْ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ**﴾[٣].

أقول: وكما حذفت من قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ**﴾[٤]، وكما حذفت من قوله تعالى: ﴿**مَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ**﴾[٥]، وكما حذفت من قوله تعالى: ﴿**الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ**﴾[٦]، فإن الياء في كلّ هذه الآيات محذوفة من ﴿**الدَّاعِ**﴾ و﴿**الْمُهْتَدِ**﴾ و﴿**الْمُتَعَالِ**﴾، وحينئذٍ يكون المعنى ﴿**الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ**﴾ الذي نسي ربه ﴿**مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ**﴾. وهذا المعنى قد يتناسب مع ماجاء عن النبيﷺ أنه قال: «**إن الشيطان واضع خطمه على قلب ابن آدم، فإذا ذكر الله خنس عنه، وإذا نسي التقم قلبه، فذلك هو ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾**»[٧].

وقد يتناسب أيضاً مع ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «إن الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإن سها وغفل وسوس له، وإن ذكر الله خنس عنه، فذاك هو الوسواس الخناس»[٨].

---

(١) قبسات من حياة الرسولﷺ: ٣٥. (٢) الكشاف ٤: ٨٢٤.
(٣) القمر: ٦، ففي الرسم القرآني كتب ﴿الدَّاعِي﴾ بحذف الياء: ﴿الدَّاعِ﴾.
(٤) البقرة: ١٨٦. (٥) الإسراء: ٩٧.
(٦) الرعد: ٩. (٧) مجمع البيان ١٠: ٤٩٨.
(٨) جامع البيان ٣٠: ٤٦١.

ولكن البعض أشكل على الزّمخشري بأمرين:

١ـ أن الصدور جاءت بلفظ الجمع، فإذا كان ﴿النَّاسِ﴾ بمعنى «الناسي» فإنه جاء بلفظ المفرد حتى ولو كان للجنس، وحينئذٍ فإنه يفقد بلاغة المجانسة اللّفظية.

٢ـ أن التخنيس يكون حينئذٍ للناسي، وأنه من الجنة تارة ومن الناس تارة أُخرى، ولا يكون لـ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾، والحال أن المشهور أن التخنيس للوسواس الخناس، وأنه موجود من النوعين. والوجدان أصدق برهان فإن من أفراد الإنسان من هو أشد خطراً على أخيه الإنسان من إبليس الرجيم، فإن لم ينتبه لنفسه من مكائده؛ أهلكه باسم الصداقة تارة، وباسم النصيحة أُخرى. وقد أخبر القرآن الكريم أن هذا النوع موجود في الإنسان، فقال تعالى: **﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ القَوْلِ غُرُوراً﴾**[1].

ولعلّ من تقديم ذكر الإنس على ذكر الجنّ في هذه الآية دون غيرها من الآيات إشارة إلى أن خطر شياطين الإنس أشدّ من خطر شياطين الجن. وقد حذرنا القرآن الكريم من الوقوع في حبائلهم، وألّا يكون حالنا كحال من أهلكوه قبلنا من أصحابهم، فقال تعالى: **﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾**[2].

وقد قيل: إن هذه الآيات نزلت في عقبة بن أبي معيط، وأُبي بن خلف الجمحي؛ وذلك لأن عقبة دعا النبي صلى الله عليه وآله على طعام فأبى النبي صلى الله عليه وآله أن يأكل من طعامه حتى يشهد الشهادتين، فلما فعل ذلك عاتبه أُبي بن خلف على ذلك وقال: لا أرضى

---

(١) الأنعام: ١١٢. (٢) الفرقان: ٢٩.

منك إلّا أن تفعل به كذا وكذا من الشر. ففعل ما أمره به، وبقيا على الكفر وقتلا عليه يوم بدر[١].

وأخبرنا القرآن الكريم أيضاً في حديثه عن أهل الجنة فقال: ﴿**فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ * يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ * قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ * قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ**﴾[٢]. وما أحسن ما قيل:

اصحب أخا ثقة تحظَ بصحبته ... فالطبع مكتسب من كلّ مصحوب
كالريح آخذة مما تمرّ به ... نتناً من النتن أو طيباً من الطيبِ[٣]

وقد جاء في كلام الحكمة: «ليس عدوك من قتلك، ولكن عدوك من سلبك عقيدتك».

وفي الحديث: «**شرّ الأصدقاء من زين لك معصية الله**».

وقال بعض الحكماء: «لا تصحب من لا يُحمد حالُه، ولا يدلّك على الخير فعالُه»[٤].

وقال مولانا الإمام الحسن بن علي عليهما السلام: «**وإذا أعوزتك إلى صحبة الرجال حاجة، فاصحب من إذا صحبته زانك**»[٥].

ذكر ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة) أن النجاشي شاعر أمير المؤمنين عليه السلام ـ واسمه قيس بن عمرو بن مالك الحارثي ـ خرج في أول يوم من

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١١٨.
(٢) الصافات: ٥٠ ـ ٥٧.
(٣) الخصائص الفاطمية ١: ١٠٠.
(٤) في فيض القدير ٦: ٥٢٥: «لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلّك الله على مقاله».
(٥) كفاية الأثر: ٢٢٨.

شهر رمضان فمر بصديقه أبي سمال الأسدي وهو جالس بفناء داره، فقال له: أين تريد؟ فقال: أريد الكناسة. فقال: هل لك في رؤوس وإليات قد وضعت في التنور من أول الليل، فأصبحت قد أينعت وتهرّت؟ فقال: ويحك في أول يوم من شهر رمضان فقال: دعنا مما لا يعرف. قال النجاشي: ثم مه؟ قال: ثم أسقيك من شراب كالورس، يطيب النفس، يجري في العرق، ويزيد في الطرف، يهضم الطعام ويسهل للفم الكلام. فنزل به النجاشي، فتغديا، ثم شربا الخمر فعلت أصواتهما.

وكان لهما جار من شيعة علي عليه السلام، فأتاه فأخبره بقصتهما، فأرسل لهما قوماً فأحاطوا بالدار، فأما أبو سمال فوثب إلى دور بني أسد فأفلت، وأما النجاشي فجيء به إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فأمر به إلى السجن؛ لأن وقت صلاة المغرب قد حضر حينئذٍ، ولما صار الصباح ضربه أمير المؤمنين عليه السلام حد الخمر ثمانين جلدة، ثم زاده عليها عشرين جلدة، فقال: أما الحد فقد عرفته، فما هذه الزيادة؟ فقال عليه السلام: **«لجرأتك على الله، وإفطارك في شهر رمضان»**.

قالوا: فغضبت اليمانية لذلك، وجاء طارق بن عبد الله النهدي، فقال: يا أمير المؤمنين، ما كنا نرى أن أهل المعصية والطاعة، وأهل الفرقة والجماعة عند ولاة العدل ومعادن الفضل سيان في الجزاء، حتى رأينا ما كان من صنيعك بأخي الحرث، فأوغرت صدورنا، وشتّتّ أُمورنا، وحملتنا على الجادة التي كنا نرى سبيل من سلكها النار. يعني بذلك اللحوق بمعاوية.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: **«﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[1]، يا أخا نهد، وهل هو إلّا رجل من المسلمين انتهك حرمة من حرمات الله فأقمنا عليه حداً كان كفارته، وإن الله تعالى يقول: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ**

(١) البقرة: ٤٥.

أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾؟»[١].

قالوا: فخرج طارق من عند الإمامعليه السلام، وجاء مالك الأشتر فأخبروه بما قال طارق لأمير المؤمنينعليه السلام، فلقيه فقال له: أنت القائل لأمير المؤمنينعليه السلام: أوغرت صدورنا وشتّتّ أُمورنا؟ قال: نعم. فقال مالك: والله ما ذاك كما قلت، وإنّ صدورنا لسامعة، وإن أُمورنا لجامعة. فغضب طارق وقال: ستعلم يا أشتر أنه غير ما قلت. ثم لما جن عليه الليل خرج هو والنجاشي ولحقا بمعاوية. وجعل النجاشي يهجو علياًعليه السلام، فقال فيما قال:

ألا من مبلغ عني علياً ... فإني قد أمنت فلا أخافُ
عمدت إلى مقرّ الحقّ لمّا ... رأيت أُموركم فيها اختلافُ[٢]

وكان قبل ذلك يقول في شعره مخاطباً لأهل الشام:

جعلتم علياً وأشياعه ... نظير ابن هند أما تستحونا
إلى أول الناس بعد الرسول ... وصنو الرسول من العالمينا
وصهر الرسول ومن مثله ... إذا كان يوم يشيب القرونا[٣]

قيل: وهلك النجاشي سنة ٤٠ هجرية بهذه الخاتمة السيئة إن صحّت الرواية بسبب صديق السوء ﴿**الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ**﴾. ولم يكن هو الأول ولا الأخير، فقد هلك كثير من الناس بمثل هذه الأسباب.

---

(١) المائدة: ١.
(٢) شرح نهج البلاغة ٤: ٨٧.
(٣) شرح نهج البلاغة ٣: ٩٠.

سورة الفلق

﴿٢٤﴾

معنى الفلق والغاسق والوقب

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾.

المعنى: قل يا محمد صلى الله عليه وآله، وليقل كلّ مسلم؛ لأنه من الخطابات العامة كما تقدم: **﴿أَعُوذُ﴾** يعني ألجأ وأستجير **﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾** أي بخالق الفلق. قالوا: و**﴿الْفَلَقِ﴾** يصدق على أكثر مخلوقات الله جلّ وعلا، فهو تعالى: **﴿فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى﴾**[١].

قال الشيخ مغنية رحمه الله في تفسيره (الكاشف): «إذا وضع الفلاح حبة من الحنطة أو نواة من نوى التمر في الأرض انفلقت كلّ من الحبة والنواة بعد حين من الزمن من أسفلها وأعلاها وخرجت من الأسفل عروق تهبط في الأرض، ومن الشقّ الأعلى شجرة تمتد في الهواء، ثم تذهب الحبّة والنواة ويصير المجموع جسماً واحداً بعضه في الأرض وبعضه في الهواء. وليس من شك أن هذه العملية تمّت بصلة مباشرة إلى أسبابها الطبيعية كالتربة والماء والهواء، ولكنها تنتهي إلى الله وحده؛ لأنه خالق الطبيعة وموجد المادة جلّ ربي وعلا»[٢].

---

(١) الأنعام: ٩٥.

(٢) الكاشف ٣: ٢٣١.

ولذا فقد قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ**﴾[١].

وهو تعالى: ﴿**فَالِقُ الإِصْبَاحِ**﴾[٢]، يعني: فالق ظلام الليل، ومخرج ضوء الصباح، كما قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء الصباح: «**ألفت بقدرتك الفرق، وفلقت بلطفك الفلق، وأنرت بكرمك دياجي الغسق**»[٣]. ولذلك فإن أكثر ما يفسر ﴿**الْفَلَقِ**﴾ بالفجر؛ لأن الانفلاق والانفجار بمعنى واحد، فـ﴿**الْفَلَقِ**﴾ هو الفجر، والفجر هو ﴿**الْفَلَقِ**﴾.

في كتاب (الدر المنثور) أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس رضي الله عنه فقال له: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ**﴾. فقال رضي الله عنه: قل: أعوذ برب الصبح إذا انفلق من ظلام الليل. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت زهير ابن أبي سلمى يقول:

الفارج الهم مسدولاً عساكره ... كما يفرج هم الظلمة الفلقُ[٤]

أقول وكذلك الانفتاق؛ فإنه بمعناهما أيضاً، روى المفيد رحمه الله أن عمرو بن عبيد سأل الإمام الباقر عليه السلام فقال له: جعلت فداك ما معنى قوله تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا**﴾[٥]؟ ما هذا الرتق والفتق؟ فقال أبو جعفر عليه السلام: «**كانت السماء رتقاً لا تنزل القطر، والأرض رتقاً لا تخرج النبات**»[٦].

فهو جلّ وعلا فالق الحبّة عن شجرتها، وفالق النواة عن نخلتها، وفالق الظلمة عن فجرها، وفالق الأرض عن نباتها، وفالق الأُم عن جنينها، وفالق البيضة عن

---

(١) الواقعة: ٦٣ ـ ٦٤.
(٢) الأنعام: ٩٦.
(٣) بحار الأنوار ٩١: ٢٤٢ / ١٠.
(٤) الدر المنثور ٦: ٤١٨.
(٥) الأنبياء: ٣٠.
(٦) الإرشاد ٢: ١٦٥.

فرخها، وهو وهو... .

وقد ورد في كثير من الكتب المعتبرة أن عبد الله الديصاني المكنّى بأبي شاكر دخل على الإمام الصادق فقال له: دلّني على معبودي، فقال له الإمامعليه السلام: «**ما اسمك؟**». فخرج عنه ولم يخبره باسمه، فقال له أصحابه: لم لا تخبره باسمك؟ فقال لهم: لو قلت له: إن اسمي عبد الله لقال لي: معبودك من أنت عبده.

قالوا: فعد إليه وقل له يدلّك على معبودك، ولا يسألك عن اسمك. فرجع إليه وقال له ذلك، فقال له الإمامعليه السلام: «**اجلس**». فجلس، وإذا بغلام صغير في يده بيضة، فأخذها الإمام منه وقال: «**انظر يا ديصاني، هذا حصن حصين له جلد غليظ، وتحت الجلد الغليظ جلد رقيق، وتحت الجلد الرقيق ذهبة مايعة وفضة ذائبة؛ فلا الذهبة المايعة تختلط بالفضة الذائبة، ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهبة المايعة، فهي على حالها لم يخرج منها خارج مصلح فيخبر عن صلاحها، ولا دخل فيها مفسد فيخبر عن فسادها، لا يدرى أَلِذكر خلقت أم لِأُنثىٰ، تتفلّق عن مثل ألوان الطواويس. أترى أن لهذا مدبّراً؟**».

قالوا: فأطرق ملياً ثم قال: أشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأنّك إمام وحجّه على خلقه[1].

وبمعنى الانفلاق والانفجار والانفتاق: الانشقاق أيضاً، قال تعالى: ﴿**ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً**﴾[2].

وقدر روي عن النبيصلى الله عليه وآله أنه قال: «**خلقتم من سبع ورزقتم من سبع**». فأما السبع التي خلقنا منها؛ فالتراب، والنطفة، والعلقة، والمضغة، والعظام، ثم كسا العظام

---

(١) الكافي ١: ٧٩ / ٤، التوحيد: ١٢٢ / ١. (٢) عبس: ٢٦ ـ ٣١.

لحماً، ثم أنشأه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسن الخالقين. وأما السبع التي رزقنا منها، فهي السبع التي ذكرتها الآيات الكريمة: ﴿**حَبّاً * وَعِنَباً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْباً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً**﴾...[١].

أما قوله تعالى: ﴿**مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**﴾، فمعناه من شرّ كلّ ذي شرّ من إنسان وغيره؛ لأنه ما من مخلوق إلّا وفيه أهلية للخير والشر، ولا يحفظ المخلوق من شرّ المخلوق إلّا الخالق. ولو سلط بعضهم على بعض لعجزوا عن ردّها عن أنفسهم، كما عجز فرعون وقومه عن رد الجراد والقُمّل والضفادع، ولكنه كما قال تعالى: ﴿**فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾[٢].

في كتاب (حياة الحيوان) عن ذي النون المصري المتوفى سنة ٢٤٦هجرية أنه خرج ذات يوم يريد غسل ثيابه بالنيل، فإذا بعقرب قد أقبل يريد النيل، وكان كأعظم ما يكون في العقارب، ففزع منها وجعل يراقبها فرآها قد أقبلت حتى وصلت إلى النيل، فخرج إليها ضفدع من الماء فاحتملها على ظهره وسار بها على وجه الماء؛ فلا الضفدع ينغمس في الماء فيغرق العقرب، ولا العقرب يلدغ الضفدع فيقتله، وهكذا كلّ منهما مسخر للثاني.

قال ذوالنون: فاتّزرت بمئزري ونزلت في الماء ولم أزل أتبعهما إلى أن وصلا إلى الجانب الآخر، فقفزت العقرب إلى البرّ، وسارت وأنا أتبعها إلى أن وصلت إلى شجرة كبيرة في البرّ، وإذا بغلام أمرد أبيض نائم تحتها، فقلت في نفسي: ياسبحان الله، ما أتت هذه العقرب من ذلك الجانب إلى هذا الجانب، وما سخرت لها هذه الضفدع إلّا لتلدغ هذا الفتى المسكين، ولكني سوف لا أُحدث شيئاً حتى أنظر ما هي عاقبة هذا التسخير الإلهي وما هي نتائجه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٩: ٢٢٣.
(٢) يوسف: ٦٤.

يقول: وبينما أنا أتبعه وهو متّجه إلى ذلك الشاب، وإذا بتنين قد أقبل من جهة أُخرى يريد ذلك الشاب، فقفز العقرب إلى رأس التنين وشبك عليه وجعل يلدغه إلى أن قتله، وبعد ذلك رجع إلى النيل فإذا بالضفدع ينتظره، فحمله إلى الجانب الذي جاء منه.

قالوا: ورجع ذو النون إلى الشابّ ووقف ينظر إليه وهو غارق في نومه، وينظر إلى التنين مقتولاً إلى جانبه، إلى أن استقام له القول، فأنشد رافعاً صوته:

يا راقداً والجليل يحرسه   من كلّ سوء يكون في الظلمِ
كيف تنام العيون عن ملك   تأتيك منه جلائل النعمِ

فانتبه الغلام بصوت ذي النون، وسأله عن شأنه فأخبره بخبر العقرب والتنين، وأراه جسم هذا وأثر ذاك، فبكى الشاب وقال: يحصل لي كلّ هذا منه جلّ وعلا وأنا في معصيته، إنني سكران، ثم تاب ونزع عمّا كان عليه(١).

أما قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ**﴾. فـ﴿**الغَاسِقِ**﴾ هو الليل المظلم، وقد سمى الله جلّ وعلا نصف الليل غسقه؛ لأنه وقت شدّة ظلامه. قال تعالى: ﴿**أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً**﴾(٢).

وقد جاء في التفاسير والروايات أن دلوك الشمس زوالها، وأن غسق الليل منتصفه، وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إن الله جلّ وعلا افترض أربع صلوات أول وقتها زوال الشمس إلى منتصف الليل، منها صلاتان أوّل وقتهما من عند زوال الشمس إلى غروبها إلّا إن هذه قبل هذه**»(٣) أي أن الظهر قبل العصر

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ٢: ٣.   (٢) الإسراء: ٧٨.
(٣) تهذيب الأحكام ٢: ٢٥ / ٧٢.

«ومنها صلاتان أول وقتهما من غروب الشمس إلى انتصاف الليل، إلاّ أن هذه قبل هذه». أي أن المغرب قبل العشاء.

قالوا: ولم يبقَ بعد هذه الصلوات الأربع إلاّ ﴿**قُرْآنَ الفَجْرِ**﴾ وهو صلاة الفجر. وقد سميت قرآناً من باب تسمية الشيء باسم بعضه.

ومعنى ﴿**إِذَا وَقَبَ**﴾، يعني إذا نفذ ظلامه. في (الدر المنثور) أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس رضي الله عنه فقال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ**﴾، فقال عليه السلام الغاسق: الظلمة، والوقب شدّة سواده إذا دخل في كلّ شيء. قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت زهير بن أبي سلمى يقول:

ظلت تجوب يداها وهي لاهية … حتى إذا جنح الإظلام والغسقُ

وقال في الوقب:

وقب العذاب عليهُمُ فكأنهم … لحقتهُمُ نار السماء فأخمدوا[1]

والمراد بالشر المنسوب لليل هو ما يحدث فيه من مكروه، كتنفيذ الدسائس والمؤامرات، والسرقة والاغتيالات، والملاهي والخلاعات، والفجور والغارات، وغير ذلك من الأشياء، فهو من باب تسمية الظرف باسم المظروف. وقد جاء في أمثال العرب: «الليل أخفى للويل»[2]، يعني أخفى لأُمور الشرّ، فقد كانت أكثر غارات العرب بالليل، وبسبب بعض تلك الغارات جاء مثلهم المشهور: «لو ترك القطا ليلاً لنام». وأصله أن قوماً من العرب أغاروا ليلاً على قوم آخرين فأهاجوا القطا من أوكارها، فطار أمامهم، فرأته امرأة من القوم المغار عليهم يقال لها «حذام» فأيقظت زوجها وقالت: انظر ما هذا؟ فقال: إنما هو القطا. فقالت: نعم، إنه

---

(١) الدر المنثور ٦: ٤١٨.
(٢) جمهرة الأمثال ٢: ١٨١ / ١٤٩٦.

القطا، ولكنه لو ترك القطا ليلاً لنام. قال: فما الرأي؟ قالت: أن ترتحلوا عن هذا المكان قبل أن تصل إليكم الغارة، وأنشدت:

ألا يا قومنا ارتحلو وسيروا   فلو ترك القطا ليلاً لناما

فلما أخبر زوجها قومه بذلك تثاقلوا عن المسير، ولم يكونوا على ثقة من قولها، ولكن زوجها أكّد لهم أن قولها صائب واستدلالها صحيح وأنشد:

ولولا المزعجات من الليالي   لما ترك القطا طيب المنام

إذا قالت حذامِ فصدقوها   فإن القول ما قالت حذامِ

وقد بني حذامِ على الكسر على لغة أهل الحجاز.

قيل: فنفر القوم وارتحلوا من منزلهم والتجؤوا إلى وادٍ قريب منهم، فاعتصموا به حتى أصبحوا وقد نجوا من عدوهم[1].

ولا ريبَ أننا لا نعدم ـ ونسأل الله ألّا نعدم ـ وجود من يتّخذ الليل مسجداً له، ولكنهم بالنسبة إلى من سواهم قليل، بل وأقل من القليل، ولذا قال تعالى لحبيبه محمدﷺ **﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾**[2]. والطائفة تعبير عن القلة كما قال تعالى: **﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾**[3].

مع العلم أن القرآن يقول عن أهل قيام الليل: **﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**[4]. وفي (مجمع البيان) عن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال: «**ما من حسنة إلّا ولها ثواب مبين في القرآن إلّا صلاة الليل فإن الله عز اسمه**

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ٢: ١١١.   (٢) المزمل: ٢٠.

(٣) التوبة: ١٢٢.   (٤) السجدة: ١٧.

لم يبين ثوابها لعظم خطرها، فقال تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾...»[١].

وعنه أنه عليه السلام قال لسليمان الديلمي أحد أصحابه: «**لا تدع قيام الليل؛ فإن المغبون من حرم قيام الليل**»[٢].

وعن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**أشراف أُمّتي حملة القرآن، وأصحاب الليل**»[٣].

وعنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «**ركعتان في جوف الليل أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها**»[٤].

وسلام الله على مولانا الإمام زين العابدين عليه السلام؛ فقد كان يقوم أكثر الليل، فإذا طلع الفجر بكى وقال: «**إلهي تقشّع الظلام ولم أقضِ من خدمتك وطراً، ولا من حياض وردك صدراً**»[٥].

وفوائد صلاة الليل كثيرة، وقد تقدم في المجلس (١٧) من هذا الكتاب ما يناسب المقام فراجع.

ولو لم يكن من صلاة الليل إلّا أنها علامة الحبّ لله لكفى، فقد جاء في الحديث القدسي: «**كذب من زعم أنه يُحبني فإذا جنه الليل نام عني، أليس كلّ حبيب يحب الخلوة بحبيبه؟**»[٦].

وقد ضرب لنا الإمام الحسين عليه السلام المثل الأعلى في هذا الباب، فبات هو وأصحابه ليلة العاشر من المحرم، ولهم دوي كدوي النحل ما بين قائم وقاعد وراكع وساجد[٧].

ولكننا مع ما عندنا من الأعمال والأقوال المرغبة في قيام الليل فإننا

---

(١) مجمع البيان ٨: ١٠٩.
(٢) معاني الأخبار: ٣٤٢ / ١.
(٣) بحار الأنوار ١١٠: ٢٣٠، تاريخ مدينة دمشق ٨: ١٨٣.
(٤) علل الشرائع ٢: ٣٦٣ / ٦.
(٥) الصحيفة السجادية الجامعة: ١٦٥.
(٦) الأمالي (الصدوق): ٤٣٨ / ١.
(٧) بحار الأنوار ٤٤: ٣٩٤.

ـ وياللأسف! ـ نجد أهل غرامه أكثر من أهـل قـيامه، روي عـن كـتاب (حـياة الحيوان) نقلاً عن (تاريخ ابن خلكان)[١] أن الرشيد ولّى الفضل بن يحيى البرمكي خراسان، فأقام بها مدّة، ثم وصل إلى الرشيد كتاب يخبره أن الفضل قد اشـتغل بالصيد وإدمان اللذّة عن النظر في أُمور الرعية، فقال لأبيه يحيى: اقرأ هذا الكتاب واكتب إليه بما يردعه. فلما قرأ الكتاب وعرف ما فيه كتب إلى ولده الفضل كتاباً يقول فيه:

انـصب نـهاراً فـي طـلاب العـلا | واصـبر عـلى فـقد لقـاء الحـبيبْ
حـتى إذا اللـيل أتـى مـقبلاً | واكتحلت بالغمض عـين الرقـيبْ
فـاستقبل اللـيل بـما تشـتهي | فـإنما اللـيل نـهار الأريبْ
كـم مـن فـتى تـحسبه نـاسكاً | يسـتقبل اللـيل بأمـر عـجيبْ
أرخـى عـليه اللـيل أسـتاره | فـبات فـي لهـو وعـيش خـصيبْ
ولذة الأحـمق مكشـوفة | يسـعى بـها كـلّ عـدو مـريبْ

قالوا: فلمّا وصل الكتاب إلى الفضل، غيَّر من نفسه بعض ما كان عليه[٢].

وقد قيل: إن هذه القصة كانت لمعاوية وولده يزيد، وذلك عندما أراد أن يجعله وليّ عهده، فأشار عليه بعض نصحائه ألّا يتعجّل في الأمر، وأن ينصح يزيد بأن يغيّر بعض ما هو عليه من تعاطي المسكـرات، وأعـمال المـجون والخـلاعات، فكتب إليه هذه الأبيات[٣].

وسواء صحّ هذا القول أو لم يصح، فإن الشواهد على قبائح يزيد لا تحتاج إلى مزيد، وما نقول فيمن يقول فيه الشاعر المسيحي بولس سلامة:

---

(١) وفيات الأعيان ٤: ٢٨.

(٢) حياة الحيوان الكبرىٰ ١: ٤٤٣.

(٣) تاريخ مدينة دمشق ٦٥: ٤٠٣.

رافــعَ الصــوت مــعلناً بــالفلاحِ ... اخفض الصوت في أذان الصـباحِ
وتــرفق بـصاحب القـصر مشـغو ... لاً عـــن الله بـــالقيان المـــلاحِ
ألف «الله أكـــــبر» لا تســـاوي ... بـــين كـــفي يــزيدَ نــهلة راحِ[1]

(١) الغدير ١٠: ٣٢.

﴿٢٥﴾

السحر والحسد

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

النفث في اللغة هو النفخ بالفم مع ريق يخرج منه.

و﴿**الْعُقَد**﴾ جمع عقدة؛ سواء كانت تلك العقدة مادية كعقدة الخيط أو الحبل، أو معنوية كعقدة المودّة. وقد فسرت ﴿**النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**﴾ بأنها النساء ذوات الغنج والجمال والدلال اللاتي يملن بآراء أزواجهن إلى ما يردنه. فالمراد بالعقد على هذا المعنى هو العزم والتصميم على الخير الّذي يريده الرجل، والنفث في العقد كناية عن المحاولات التي يبذلنها ـ أُولئك الزوجات ـ لحل ذلك العزم والتصميم. وقد جاء في شعر أبي تمام:

السالبات الفتى عزيمته بالسحر والنافثات في عقده[1]

قالوا: وأراد بالسحر: الجمال والدلال والغنج الّتي تنهار عندها عزائم الرجال.

---

(١) جميع دواوين الشعر العربي على مرّ العصور ١٣: ٢٨٥ / القصيدة: ١٥٧٤٧.

ولكن التفسير المشهور لهاتين الكلمتين ﴿**النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ**﴾، أنهن بنات لبيد ابن الأعصم اليهودي الساحرات اللاتي سحرن رسول الله ﷺ ومعهن أبوهن، وكان ساحراً أيضاً، فمرض رسول الله ﷺ، فجاءه جبرئيل بالمعوذتين، وأخبره بما فعل لبيد اليهودي وبناته من السحر، وأنه في بئر دروان في بستان بني زريق في قشر طلعة من طلع ذكر النخل تحت حجر في أسفل البئر.

فبعث النبي ﷺ علياً والزبير بن العوام وعمار بن ياسر، فجاؤوا به إلى النبي ﷺ، وإذا فيه وتر معقّد إحدى عشرة عقدة، فأمره جبرئيل عليه السلام أن يحلّ عقده ويقرأ آية من آيات المعوذتين، فكان ﷺ كلّما حل عقدة وقرأ آية يجد خفة من مرضه حتى انتهى منها، حتى إذا انتهى من قراءة الآيات وحلّ العقد، فكأنما نشط من عقال. وكانت آيات المعوذتين إحدى عشرة آية على عدد العقد[1].

فكان ذلك من العلوم الغيبية والمعاجز العلمية التي أيد الله جلّ وعلا بها حبيبه محمداً ﷺ.

وقد اختلف المفسرون في هذه القضية، فبين مصدّق وبين مكذّب، والذي قاله صاحب (الميزان) رحمه الله هو أن هناك روايات كثيرة في هذا المعنى عن أهل البيت عليهم السلام وغيرهم، وأن ما قاله بعضهم عن النبي ﷺ أنه كان مصوناً من تأثير السحر، محتجّين بقوله تعالى: ﴿**إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلا رَجُلاً مَسْحُوراً**﴾[2]، وأن قبول ما جاء من تأثير سحر لبيد وبناته عليه تصديق لقول الظالمين المذكورين في الآية الكريمة. قال رحمه الله: «إن قولهم هذا يدفعه أن مرادهم بالمسحور هو المسحور بفساد العقل بحيث يخيل إليه أنه يفعل الشيء وهو لا يفعله، أو يتخيل أنه يوحى إليه وهو لا شيء عنده من ذلك. وأما تأثّره بالسحر في مرض بدنه فلا دليل على

(١) مناقب آل أبي طالب ٢: ٦٥، أسباب نزول الآيات: ٣١٠.
(٢) الإسراء: ٤٧.

مصونيته من ذلك، فكما أن السلاح والأحجار تؤثّر في جسمه ويتأثر ببعض الأُمور في صحته فيصير مريضاً، فكذلك يكون السحر موثّراً في صحته وجسمه صلى الله عليه وآله».

قال: «وفي الآيات القرآنية دليل على تأثير السحر في الجملة كما في آيات هاروت وماروت، قال تعالى: ﴿**فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ**﴾(١)، وكما في آيات سحرة فرعون، قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاؤُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ**﴾(٢).

ومن الأدلة على تأثير السحر أن المعاندين عندما يأتيهم الأنبياء بما يلزمهم الحجة ينسبون ذلك إلى السحر؛ سواء في ذلك نبينا محمد صلى الله عليه وآله، وغيره من الأنبياء، قال تعالى: ﴿**كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ**﴾(٣).

وهؤلاء قريش لما تأثّروا بالقرآن قالوا: ﴿**إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ**﴾(٤).

وكذلك كلّ معاجز الرسول صلى الله عليه وآله ،كالصحيفة وانشقاق القمر وغيرهما، فإنهم نسبوا كلّ ذلك إلى السحر، قال تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ**﴾(٥)...»(٦).

إذن فالسحر له أثره، ولذلك أجمع العلماء على حرمة تعلّمه وتعليمه.

وقد روي في كتاب (فقه الإمام جعفر عليه السلام) وغيره(٧) عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «**من تعلم شيئاً من السحر كان آخر عهده بربه، وحدّه القتل إلّا أن يتوب كما تاب سحرة فرعون**».

---

(١) البقرة: ١٠٢.
(٢) الأعراف: ١١٦.
(٣) الذاريات: ٥٣.
(٤) المدثر: ٢٤.
(٥) القمر: ١ ـ ٢.
(٦) الميزان ٢٠: ٣٩٤.
(٧) قرب الأسناد: ١٥٢ / ٥٥٤، تهذيب الأحكام ١٠: ١٤٧ ـ ١٤٨ / ٥٨٦، وليس فيهما ذيل الحديث.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن من عمل بالسحر يقتل إن كان مسلماً، ويؤدّب إن كان كافراً**»(١).

ولما سألوه: لماذا لا يقتل ساحر الكفار كما يقتل ساحر المسلمين؟ قال: «**لأن الكفر أعظم من السحر**»(٢).

وقد اشتهر عنه ﷺ أنه لم يقتل لبيد بن الأعصم اليهودي الذي عمل له السحر، ولمّا حفّزوه على قتله قال: «**أما أنا فقد شافاني الله، وأكره أن أُثير على الناس شراً**»(٣).

وأما قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**﴾، فإن المشهور عن الحاسد أنه الذي يتمنّى زوال النعمة عن المحسود، ولكنهم أدمجوا فيه العائن، وقالوا عنه: إن عينه نوع من الحسد النفساني يتحقّق منه إذا عاين ما يستكثره، أو ما يتعجب منه. وهو أمر متسالم عليه، ولا سبيل إلى إنكار وجوده، وقد جاء أن هذه الآية ـ وهي قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**﴾(٤) ـ تشير إلى العين، وأن معناها ﴿**وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ ليصيبونك بأعينهم. ورووا أن يعقوب عليه السلام لما قال لأولاده: ﴿**يَا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ**﴾، إنما قال لهم ذلك لأنه خشي عليهم العين.

وقد ورد أن «**العين حق، وأنّها لتضع الرجل في القبر والجَمَل في القِدر**»(٥). وورد أيضاً: «**كادت العين أن تسبق القدر**»(٦).

---

(١) لم ينقله أحد على أنه حديث شريف، بل هو مؤدى كلام جملة من الفقهاء اعتماداً على بعض الأحاديث النبوية الشريفة، ومنها الحديث السابق، والحديث اللاحق.

(٢) تهذيب الأحكام ١٠: ١٤٧ / ٥٨٣.

(٣) صحيح مسلم ٧: ١٤.

(٤) القلم: ٥١ ـ ٥٢.

(٥) الجامع الصغير ٢: ١٩٦ / ٥٧٤٨.

(٦) عوالي اللآلي ١: ٧٧٠ / ١٥٩.

وروي أن النبي صلى الله عليه وآله كان يعوّذ الحسنين عليهما السلام كلّ يوم بأن يقرأ عليهما المعوّذتين، ثم يقول: «**أُعيذكما بكلمات الله التامّة، من شر كلّ شيطان وهامّة، ومن شرّ كلّ عين لامَّة**»[١].

ويقولون: إن العين تنتقل من العائن إلى المعيون بسبب سائل مغناطيسي ينتقل من نفس هذا إلى ذاك، فيصاب بما يضرّه، أو بسبب إشعاع أشبه شيء بأشعة «ليزر» ينتقل من عين هذا إلى جسم ذاك، فيصاب بما يضرّه، وهو أمر مشهور بين الناس.

ومن العجيب أنه قد يصيب الإنسانُ بالعينِ نفسَه، أو من هو كنفسِه، وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**العين حقّ، وليس تأمنها منك على نفسك ولا منك على غيرك؛ فإذا خفت شيئاً من ذلك فقل: ما شاء الله لا قوة إلّا بالله العلي العظيم**»[٢].

وأما قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ**﴾ فإن معناه ﴿**مِنْ شَرِّ**﴾ الحاسد إذا أظهر حسده، وعمل بما يمليه عليه حسده وما يأمره به. وأمّا إذا ألزم نفسه بخلاف ما يأمره به حسده من قول أو فعل؛ فكلّما دفعه الحسد إلى أن يتكبّر على المحسود ألزم نفسه بالتواضع له، وكلّما دفعه حسده على غيبة المحسود والوقوع فيه ألزم نفسه بمدحه والثناء عليه، وكلّما دفعه حسده أن يعمل للمحسود ما يضرّه عمل له ما ينفعه ويسرّه، فإن استمرّ على ذلك فإنه وإن كان حاسداً لكنه لم يحسد، وحصل له بذلك الأجر والثواب؛ لأن هذا هو العلاج الناجع، والدواء النافع لردع آفة الحسد، وهو من أعظم مجاهدة النفس الأمّارة بالسوء، (وهنيئاً لمن وُفّق له).

روي في (الدر المنثور) عن أنس بن مالك قال: كنّا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «**يطلع عليكم من هذا الفجّ رجل من أهل الجنة**». فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، وقد علق نعليه في يده الشمال، فسلَّم ولما كان من الغد

---

(١) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٥٥.
(٢) مكارم الأخلاق: ٣٨٦.

قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع الرجل نفسه، ولما كان اليوم الثالث قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل نفسه.

فلما قام الرجل تبعه عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال له: إني لاحيت أبي، فأقسمت ألّا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث. فقال: نعم. فبات عنده ثلاث ليالٍ فلم يرَه يقوم إلّا صلاة الفجر، وإذا انقلب على فراشه ذكر الله وكبّره ولا يقول إلّا خيراً.

قال عبد الله: فكدت أحتقر عمله، وقلت له: يا عبد الله، إنه لم يكن بيني وبين والدي شيء، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يطلع عليكم من هذا الفجّ رجل من أهل الجنة**». فطلعت أنت، ثم قالها ثانية وثالثة فطلعت أنت، فأردت أن آوي إليك فأنظر ما عملك، فلم أرَك تعمل كثيراً. فقال: ما هو إلّا ما رأيت، غير أني لم أجد في نفسي غشاً لأحد من الناس، ولم أحسد أحداً على خير أعطاه الله إيّاه. فقال عبد الله: فهذه التي بلغت بك وهي التي لا تطاق[١].

وأما إذا استرسل الإنسان مع حسده وعمل ما تأمره به نفسه الأمّارة بالسوء، فإن حسده سيأكل حسناته كما تأكل النار الحطب، وسيحلق دينه كما يحلق الموسى الشعر، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إياكم والحسد؛ فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**»[٢].

وعنه ﷺ أنه قال: «**ألا إنه قد دبّ إليكم داء الأُمم من قبلكم وهو الحسد، ليس بحالق الشعر ولكنه حالق الدين**»[٣].

وكيف لا يكون الحسد كذلك، وهو اعتداء على من لا ذنب له، وعداء لنعمة الله

---

(١) الدر المنثور ٦: ٤١٩.

(٢) عوالي اللآلي ١: ١٠٤ / ٣٦، سنن أبي داود ٢: ٤٥٧ / ٤٩٠٣.

(٣) الجعفريات: ٣٣٧ / ٨٣٠، الأمالي (الطوسي): ١١٧ / ٣٦.

التي تفضل بها على عبده؟ قال تعالى: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾[١].

وربما كان ذلك الفضل دينياً، فيحاول الحاسد أن يردّ المحسود عن دينه الصحيح وعقيدته السليمة، ويستعمل في سبيل ذلك ما يستطيع أن يستعمل من الوسائل والأسباب السيئة في سبيل إقناع ذلك المحسود في التخلي عن دينه وعقيدته. روي أن يهود المدينة كانوا قد استغلّوا فرصة عدم انتصار المسلمين في واقعة أُحد، فكانوا يدعون شباب المسلمين إلى بيوتهم، ويشكّكونهم في الدين، ويقدّمون لهم المآكل الشهية، ويغرونهم بشرب الخمر وممارسة الفاحشة مع نسائهم كما يفعلون اليوم وفي كلّ يوم، فلما أحسّ النبي ﷺ بهذا التدبير الخبيث شدّد النكير على من يفعل ذلك من المسلمين، وتلا عليهم ما أنزل الله فيهم من قوله تعالى: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ**﴾[٢]. راجع كتاب (حياة الحيوان) تجد قصة بولس اليهودي[٣].

صفات الحسود

١ ـ أن الحاسد يفرح إذا أصابت المحسود محنة، ويستاء إذا حصلت له نعمة. قال تعالى: ﴿**إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا**﴾[٤]. وهذا خلاف ما يريده الله من المؤمن لأخيه المؤمن. ولذا قال بعض العارفين: تعوذوا من كلّ قدر وافق رغبة الحاسد.

٢ ـ أنه يقول في المحسود ما ليس فيه، وهذا هو البهتان العظيم. قال أبو الأسود الدؤلي رحمه الله:

---

(١) النساء: ٥٤.
(٢) البقرة: ١٠٩.
(٣) حياة الحيوان الكبرى ٢: ٧٤.
(٤) آل عمران: ١٢٠.

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا فضله فـالكل أعـداء له وخـصومُ

كـضرائر الحسناء قلن لوجهها حسـداً وبـغياً إنـه لدمـيمُ[١]

٣ ـأنه يعمل الذنب ويرمي به المحسود، كما فعل الذين قتلوا الخليفة عثمان، ثم نسبوا قتله إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام، وحاربوه على دمه لا لشيء إلّا ليفسدوا عليه أمره، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً**﴾[٢].

٤ ـأنه يقدم على عمل الكبائر من الذنوب من أجل أن ينال غرضه في المحسود، كما أقدم أولاد يعقوب على ما فعلوه بأخيهم وأبيهم عليهما السلام.

٥ ـأنه ربما أقدم على ما يضرّ به نفسه من أجل أن يضرّ المحسود. روي في (البحار) أنه كان رجل من أهل النعمة، وكان له جار يحسده ويسعى إليه بكل مكروه، فلما لم يستطع أن يبلغ فيه أمنية أمر غلامه أن يقتله ويطرحه على سطح دار جاره، لعلّه يقتل به، فامتنع الغلام من ذلك وقال له: وما فائدتك في قتله بعد أن تقتل أنت؟ فأصر الرجل على ذلك، فذبحه الغلام وألقاه على سطح ذلك الجار، وهرب إلى اصفهان.

ورؤي الرجل مذبوحاً على سطح دار جاره، فأُخذ الجار وقُرّر، فأخبر أنه لا علم له بشيء من ذلك، فحُبس. وما زال في الحبس إلى أن رأى رجل من قرابته ذلك الغلام بأصفهان، فسأله عن قضية مولاه المقتول، فأخبره الغلام بالقضية، فأشهد على مقالته وحمله إلى بغداد، فاعترف بذلك عند موسى الهادي العباسي، وكانت القضية في زمنه، فأطلقه وأطلق الجار المحبوس، ولم ينله سوء. ولذلك قيل: قاتل الله الحسد ما أعدله! بدأ بصاحبه فقتله[٣].

---

(١) شرح نهج البلاغة ١: ٣١٩. (٢) النساء: ١١٢.

(٣) بحار الأنوار ٧٠: ٢٥٩.

٦ ـ أن الحاسد حتى ولو قدّر له أن ينال من المحسود بعض ما يسره، فإنه لا يرضى بذلك حتى يتتبَّعه في ذريته بلا ذنب صدر منهم إليه، وبالأولى إذا لم ينل في المحسود شيئاً يسره، فإنه يصبّ وابل غضبه على ذريته، فيكون بذلك من نوع إبليس حيث قال لربه: ﴿**قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً**﴾[1].

ومعنى ﴿**لَأَحْتَنِكَنَّ**﴾ أي لأقودن، وهو مأخوذ من تحنيك الدابة إذا شُدّ على حنكها الأسفل حبل تقاد به.

وهذا ما حصل من أعداء الرسول ﷺ وقد شهدوا على ذلك بأنفسهم، فقال قائلهم غير متأثّم ولا مستعظم:

لست من خندف فإن لم أنتقم   من بني أحمدَ ما كان فعلْ[2]

(١) الإسراء: ٦٢.

(٢) الاحتجاج ٢: ٣٤، الخرائج والجرائح ٢: ٥٨١، تاريخ الطبري ٨: ١٨٧.

سورة الإخلاص

﴿٢٦﴾

التوحيد الخالص

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

**﴿قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ * اللّهُ الصَّمَدُ *
لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً
أَحَدٌ﴾**

هذه السورة الكريمة تسمى سورة التوحيد؛ لأن من قرأها مؤمناً بمعانيها فقد وحّد الله جلّ وعلا، وفي تفسير (الصافي) عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه سئل عن التوحيد، فقال: «**كل من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ﴾ وآمن بها فقد عرف التوحيد**»[1].

وتسمى سورة الإخلاص؛ لأنها تتحدّث عن التوحيد الخالص؛ فمن قرأها مؤمناً بمضامينها فقد أخلص لله جل وعلا في توحيده.

وقد ورد أن ثواب قراءتها مرة واحدة يعادل ثواب قراءة ثلث القرآن[2].

قيل: وذلك لأن الإسلام الذي جاء القرآن لبيانه بني على ثلاث دعائم: التوحيد والنبوّة والمعاد.

---

(١) تفسير الصافي ٥: ٣٩٣.

(٢) تفسير الصافي ٥: ٣٩٤.

أما العدل، فإنه فرع عن التوحيد، وأمّا الإمامة، فهي فرع عن النبوّة.

وقد تكفلت هذه السورة المباركة ببيان التوحيد الذي هو ثلث الإسلام، فصارت قراءتها تعدل قراءة ثلث القرآن الكريم. روى الإمام أحمد(١) والنسائي(٢) والترمذي(٣) عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «**أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فإنه من قرأ سورة ﴿قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ﴾ في ليلة فقد قرأ ليلتئذٍ ثلث القرآن**».

وفي كتاب (سلمان المحمدي رضي الله عنه) للشيخ المظفّر رحمه الله نقلاً عن مناقب ابن شهر آشوب(٤) أن النبي صلى الله عليه وآله قال يوماً لأصحابه: «**من منكم يصوم الدهر كلّه، ويحيي الليل كلّه، ويختم القرآن كلّه في ليلة واحدة؟**». فقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: أنا يا رسول الله. قال: فغضب بعضهم، وقال: إن سلمان رجل من الفرس، ويريد أن يفتخر علينا.

فقال النبي صلى الله عليه وآله: «**مه، أنَّى لك بمثل لقمان الحكيم؟ سَلْه فإنه ينبئك**». فقال: إني رأيتك في أكثر أيامك تأكل، وفي أكثر لياليك نائماً، وفي أكثر أيامك صامتاً، فكيف قلت ما قلت؟ فقال سلمان: ليس حيث تذهب، ولكني أصوم ثلاثة أيام من كلّ شهر، وقد قال تعالى: ﴿**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا**﴾(٥)، وأُوصل رجب وشعبان بشهر رمضان، فذاك صيام الدهر، وسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «**من بات على طهر فكأنما أحيا الليل كله**». وأنا لا أبيت إلّا على طهر، وسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لعلي عليه السلام: «**يا أبا الحسن، مثلك في أُمّتي مثل ﴿قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ﴾ في القرآن، فمن قرأها مرة فكأنّما قرأ ثلث القرآن، ومن قرأها مرتين فكأنما قرأ ثلثي**

(١) مسند أحمد ٣: ٨.
(٢) السنن الكبرىٰ ٦: ١٧٣ / ١٠٥١٥.
(٣) سنن الترمذي ٤: ٢٤١ / ٣٠٦٠.
(٤) مناقب آل أبي طالب ٣: ٤.
(٥) الأنعام: ١٦٠.

القرآن، ومن قرأها ثلاث مرات فكأنما ختم القرآن. وأنت يا علي من أحبّك بقلبه فقد كمل له ثلث الإيمان، ومن أحبّك بقلبه ولسانه فقد كمل له ثلثا الإيمان، ومن أحبّك بقلبه ولسانه ونصرك بيده فقد استكمل الإيمان».

قالوا: وكان علي عليه السلام يحبّ هذه السورة، ويكثر من قراءتها في فرائضه. ولعل ذلك بسبب هذه المماثلة. روي في تفسير (البرهان)(١) وغيره(٢) من الكتب أن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث علياً عليه السلام أميراً على سرية من سراياه، فلما رجعوا سأل النبي صلى الله عليه وآله رجال السرية عنه، فقالوا: كلّ خير فيه غير أنه قرأ بنا في كلّ الصلوات بـ﴿**قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ**﴾. فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**لِمَ فعلت ذلك؟**»، فقال: «**لحبي لها**». فقال له النبي صلى الله عليه وآله: «**ما أحببتها حتى أحبّك الله عزّ وجلّ**».

وقد قال الفقهاء: إنه يكره ترك سورة التوحيد في جميع الفرائض الخمس(٣) ويكره أن يقرأ المصلّي سورة واحدة في الركعتين إلاّ سورة التوحيد(٤)، ويستحبّ لقارئها أن يقول بعدها ولو في الصلاة: «**كذلك الله ربّنا**»(٥).

وقد روي عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: «**إن الله عزّ وجلّ علم أنه سيكون في آخر الزمان أقوام متعمّقون ـ أي في التوحيد ـ فأنزل الله هذه السورة المباركة**»(٦).

وعلى هذا تكون هذه السورة جاءت لأمر غيبي حقّقه الزمن بعد نزولها، كما روي في سبب نزولها أن جماعة من المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وآله: انسب لنا ربك. فأنزل الله عليه هذه السورة المباركة مصدَّرة بـ﴿**قُلْ**﴾، ليعلم أن الجواب من الله جلّ

---

(١) البرهان ٤: ٥٢٠ / ١١. (٢) التوحيد: ٩٤ / ١١.
(٣) العروة الوثقى ٢: ٥٣٣ / المسألة: ١، رسائل فقهية: ١٠٦.
(٤) العروة الوثقى ٢: ٥٣٣ / المسألة: ٣. (٥) مدارك الأحكام ٣: ١٨.
(٦) الكافي ١: ٩١ / ٣، التوحيد: ٢٨٣ / ٢، وفيهما: «فأنزل الله عزّوجلّ: ﴿قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ﴾....».

وعلا، وما هو ﷺ إلّا واسطة بين السائل والمجيب. وكثيراً ما جاءت الأجوبة مصدَّرة بهذه الكلمة ليُعلم بذلك أن محمداً رسول الله ﷺ، والمبلغ عنه ﴿**وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**﴾[١].

﴿**هُوَ**﴾: ضمير الشأن، والهاء منه تشير إلى تـثبيت الثـابت، والواو تشـير إلى الغائب عن درك الأبصار ولمس الحواسّ.

﴿**اللّهُ**﴾: اسم علم له جلّ وعلا.

(١) النور: ٥٤.

﴿٢٧﴾

أحدية الله سبحانه وتعالى

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ﴾

﴿أَحَدٌ﴾: مأخوذ من الوحدة، ولكنه لا يقبل العدّ ولا يدخل في العدد، فلا يكون له ثانٍ ولا ثالث ولا غيرهما، ولا يستعمل لغير الله جلّ وعلا إلّا في النفي، فإذا قيل: (ما جاءني أحد) أفاد النفي الكلي، أي ما جاءني أي عدد لا قليل ولا كثير. أما في الإثبات فإنه لا يستعمل إلّا لله جلّ وعلا؛ فإنه لا يوصف بالأحدية غيره؛ لأن الأحد هو الفرد الذي لم يزل ولا يزال واحداً في ذاته وصفاته وأفعاله:

أحدية الذات

فأما وحدته في ذاته، فتنقسم إلى نوعين:

١ ـ *الوحدة الأحدية*، وهي عبارة عن بساطة الذات، فلا تركيب فيه ولا تأليف؛ لأن المركّب المؤلّف محتاج إلى أجزائه، والله سبحانه لا يحتاج إلى شيء، ويحتاج إليه كلّ شيء: ﴿وَاللّهُ الغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الفُقَرَاءُ﴾[1].

٢ ـ *الوحدة الواحدية*، وهي عبارة عن أنه جلّ وعلا لا شبيه يماثله، ولا نظير

---

(١) محمد: ٣٨.

يعادله، وليس كمثله شيء في كلّ شيء. يقول مولانا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**كل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك**»(١).

ويقول مولانا الإمام الباقر عليه السلام: «**كل ما تصوَّره وهمك فهو مخلوق مثلك مردود عليك، فلا يعلم أحد كيف هو إلّا هو**»(٢).

وفي الحديث: «**إن أهل السماوات السبع ليطلبون معرفة الله كما تطلبونها أنتم**».

ومن أبيات ابن أبي الحديد في هذا المعنى قوله:

كـلّا ولا مـوسى الكليـ ـم ولا المسيح ولا محمدْ
عـلموا ولا جـبريل وهـ ـو إلى محلّ القدس يصعدْ
عـن كـنه ذاتك غير أنـ ـك أوحديّ الذات سرمدْ(٣)

ولبعضهم:

اعتصام الورى بمغفرتكْ عجز الواصفون عن صفتكْ
تب علينا فإننا بشر ما عرفناك حقّ معرفتكْ(٤)

وقال آخر:

كلّ ما ترتقي إليه بوهم من جلال وعزّة وسناءِ
فالذي أبدع البرية أعلى منه سبحان منشئ الأشياءِ(٥)

أحدية الصفات

وكما أنه جلّ وعلا واحد في ذاته، فإنه واحد في صفاته؛ لأن صفاته عين ذاته، قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به،**

---

(١) التغرير بمن عدد التوحيد: ٦٥. (٢) التوحيد: ١٠٦ / ٦.
(٣) شرح نهج البلاغة (٤) شرح فصوص الحكم: ٣٤٦.
(٥) المستطرف في كلّ فن مستظرف ١: ١٦.

وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه؛ لشهادة كلّ صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنه غير الصفة»[1].

ومعنى ذلك أنّ أوّل هذا الدين أن تعرف بأن لهذا الكون صانعاً؛ لأن الشيء لا يصنع نفسه فلابدّ أن يكون له صانع غيره، والصدفة أعجز من أن تصنع حتى صورة الشيء، فكيف تصنع ذاته وجوهره؟ روي أن ملكاً من الملوك العظام كان يعتقد أن الكون وما فيه قد تكوَّن بالصدفة، وكان له وزير مؤمن ولكنه لا يجرؤ على محاورة الملك في ذلك خوفاً على نفسه منه، ولكنه جعل يفكّر في أن يوجد شيئاً يقنع به الملك ويجعله يعدل به عن عقيدته، فأدّى إليه فكره بأن يبني عدّة قصور في صحراء بعيدة عن البلد، ولما فعل ذلك وأجرى إليها الأنهار، وغرس فيها الأشجار، وزينها بكل ما يقدر عليه، حبَّب إلى الملك أن يخرجا إلى الصيد والنزهة، فلما خرجا مر به على تلك القصور، فتعجّب الملك من حسنها، وسأل الوزير عن مالكها وبانيها، فتجاهل عليه الوزير وقال: لعلها بنت نفسها أو بنتها الصدفة،فاستجهله الملك وقال: إن كنت تقول هذا القول بجد فأنت جاهل؛ لأن الشيء لا يخلق نفسه والصدفة لا تستطيع أن تخلق أقل من هذا. فقال: أيها الملك كيف استجهلتني فيما قلت لك وأنت تقول: ما هو أعظم منه؟ قال: وما الذي أقول أنا؟ قال: إنك تقول: إن هذا الكون وما فيه إنّما وجد بفضل الصدفة. فانتبه الملك لخطئه، وعدل إلى الإيمان بالله جلّ وعلا.

ولكن الإنسان حتى ولو عرف بأن لهذا الكون صانعاً صنعه، فإن هذه المعرفة لا تزال ناقصة، وكمالها «**التصديق به**»، أي بأنه موجود، واجب الوجود، قديم أزلي، دائم أبدي؛ لأنه لو لم يكن قديماً أزلياً لما أوجد الوجود؛ لأن إيجاد الوجود

---

(١) نهج البلاغة / الخطبة: ١.

يحتاج إلى قديم أزلي. روي أن رجلاً سأل عالماً فقال له: من خلقنا؟ قال: الله جلّ وعلا. قال: فمن خلق الله؟ فعرف أنه أراد أن يسخر به، فقال: له خلقه الله الذي قبله. فقال: ومن خلق الله الذي قبله؟ قال: أيضاً خلقه الله الذي قبله. فقال له السائل: هذا أمر لا ينتهي إلى أن نصل إلى واحد كائن بذاته. قال: نعم، ذاك هو الله الذي خلقنا وخلق كلّ شيء.

ولو لم يكن جلّ وعلا دائماً أبدياً لما استمرّ وجود الوجود، ولما حدث في الوجود موجود؛ لأن الحياة أمر لا يقدر على إيجاده غيره.

ولكن هذا التصديق سيبقى ناقصاً أيضاً: «**وكمال التصديق به توحيده**»؛ لأن واجب الوجود لا يتعدّد؛ لأنه لو تعدّد، لكان كلّ واحد من المتعدّدين مركّباً مما به الاشتراك ومما به الامتياز، وكل مركّب فهو ممكن الوجود لا واجب الوجود.

ولكن هذا التوحيد سيبقى ناقصاً أيضاً؛ فـ«**كمال توحيده الإخلاص له**»، أي جعله تعالى خالصاً من النقائص، كالجسمية والعرضية. قالوا: وهذا المعنى هنا أظهر من كون الإخلاص بمعنى الإخلاص له في العمل؛ لأن كلامه عليه السلام مسوق لبيان صفاته لا لبيان عبادته.

ولكن هذا الاخلاص سيبقى ناقصاً أيضاً: «**وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه**»، أي نفي الصفات الخارجة عن ذاته عنه «**لشهادة كلّ صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنه غير الصفة**». وهذا واقع؛ فنحن عندما نراجع أنفسنا نرى أنا كنا في أول العمر نفتقد الكثير من صفاتنا الموجودة عندنا في حال الشباب، ومنها القوة. وقد ذكر الله ذلك في كتابه، فقال: ﴿**اللّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً**﴾[١]. وكالعلم، وقد ذكر الله أيضاً ذلك، فقال: ﴿**وَاللّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً**﴾[٢].

---

(١) الروم: ٥٤. (٢) النحل: ٧٨.

وغير ذلك من الصفات الكثيرة ولكنها حصلت لنا فيما بعد، ومن الممكن أن نصل إلى اليوم الذي نفقدها فيه، قال تعالى: ﴿**ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً**﴾[١]. وقال تعالى: ﴿**وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً**﴾[٢].

فلو كانت هذه الصفات هي نحن ونحن هي، لما وجدنا من دونها ولما بقينا بعد ذهابها، ولكن الله جلّ وعلا على خلاف ما نحن عليه، فصفاته عين ذاته وذاته عين صفاته؛ فهو علمه وعلمه هو، وهو قوته وقوته هو. وعلمه وقوته وقدرته وكل صفاته شيء واحد بخلاف الإنسان فإن كلّ صفة من صفاته غير الثانية؛ ولذلك تختلف مراكز صفاته؛ فمركز علمه عقله، ومركز قوته عضلاته، ومركز بصره عينه، ومركز سمعه أذنه. لكن صفات الله سبحانه ليست كذلك، فليست منفصلة عن بعضها البعض، فكلها شيء واحد، وهو هي وهي هو؛ ولذلك لا يعلم أحد كيف هو إلّا هو، ولذلك قال عليه السلام: «**فمن وصف الله فقد قرنه**»، أي أن «**من وصفه**» بصفة خارجة عن ذاته «**فقد قرنه**» إلى شيء غير ذاته، وهي الصفة، «**ومن قرنه فقد ثناه**»[٣]، أي جعلة اثنين: صفة، وموصوفاً؛ وبذلك يكون قد نفى الوحدانية عنه جلّ وعلا.

قال صاحب كتاب (منهاج البراعة) ما معناه: إنه قد تحصل مما ذكر أن مراتب العرفان خمس:

١ ـ *مرتبة التصوّر*، وهي إدراك أنه لابدّ أن يكون لهذا الكون مكون كوّنَه، وصانع صنعه؛ لأن الشيء لا يوجد نفسه. وهذه المرتبة هي المعبّر عنها بالفطرة التي فطر الله الناس عليها، قال تعالى: ﴿**فِطْرَةَ اللّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾[٤]. وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**كل مولود يولد على الفطرة، وإنما يهوّدانه أو ينصّرانه**

---

(١) الروم: ٥٤.
(٢) النحل: ٧٠.
(٣) نهج البلاغة ١: ١٥.
(٤) الروم: ٣٠.

أو يمجّسانه أبواه»[١].

٢ ـ ***مرتبة التصديق والإذعان***، أي بوجوده تعالى بالبراهين الساطعة، والأدلّة القاطعة، ومنها ما أرشدنا إليه القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾[٢].

جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: «**ويل لمن قرأ هذه الآيه فمجّ بها**»[٣]. والمجّ: قذف الريق ونحوه من الفم، والمراد من «**مجّ بها**»: لم يعتبر بها.

٣ ـ ***مرتبة التوحيد والتفريد عن الشركاء***، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ**﴾.

٤ ـ ***مرتبة الإخلاص***، وهي جعله جلّ وعلا خالصاً عن النقائص، فهو ﴿**اللّهُ الصَمَدْ**﴾ الذي ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ**﴾.

٥ ـ ***مرتبة نفي الصفات عنه جلّ وعلا***، وهي غاية العرفان، ومنتهى علم الإنسان.

وقد دلّ كلامه عليه السلام أن كلّ سابقة من هذه المراتب مبدأ لما بعدها، وكلّ لاحقة منها تمام لما قبلها[٤].

أحدية الأفعال

وكما أن الله سبحانه وتعالى واحد في ذاته وصفاته، فهو واحد في أفعاله، يفعل ما يشاء ولا يفعل ما يشاء غيره. فكلما أراد أن يكون كان، فإذا أراد النار أن تكون

(١) الفقيه ٢: ٤٩ / ١٦٦٨. (٢) البقرة: ١٦٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٢: ٢٠١، تاج العروس ٢: ٩٧ ـ مجّ .

(٤) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة ١: ٣٢٢ ـ ٣٢٣.

برداً وسلاماً كانت، وإذا أراد ألّا تؤثر السكين الحادة في عنق الطفل الصغير كان ذلك، وإذا أراد أن تكون العصا ثعباناً كانت، وإذ أراد أن يكون في البحر طريقاً يبساً ويكون الماء عن جانبيه كلّ فرق كالطود العظيم كان، وإذا أراد أن يلين الحديد لان، وإذا أراد أن تلد العجوز العقيم ولدت، وإذا أراد أن تحمل المرأة بدون زوج حملت، وإذا وإذا إلى ما لا نهاية. فهو تعالى لا شبيه له في ذاته، ولا نظير له في صفاته، ولا مثيل له في أفعاله: **﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾**(١).

ومن أعجب العجب، وليس من قدرته عجب، أنّه يوجد الشيء من غير نوعه؛ فيوجِد الناقة من الجبل، ويوجد الماء من الصخرة ومن جسم الإنسان كما فجّر الماء من بين أصابع الرسول محمدصَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ، بل ويوجِد الشيء من لا شيء، قالت الصديقة الطاهرةعليها السلام في خطبتها المشهورة: «**ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها**».

وإذا كان غيره يحتذي في صنعه صنع من سبقه فإنه سبحانه وتعالى «**أنشأها بلا احتذاء أمثلة أمتثلها**»، وإذا كان غيره يصنع الصنعة بوسائل وأسباب ومعامل وعمّال، فإنه سبحانه «**كونها بقدرته وذرأها بمشيئته**»، وإذا كان غيره يصنع الشيء لحاجته إليه حتى قيل: «الحاجة أُم الاختراع»، فإنه تعالى «**من غير حاجة منه إلى تكوينها، ولا فائدة له في تصويرها إلّا تبييناً لحكمته، وإظهاراً لقدرته، وإعزازاً لدعوته، وتعبّداً لبريته**»(٢)، يعني إلّا إن ذلك الوجود يكون بطبيعة الحال سبباً لتجلّيات كماله وجلاله، وسبباً لظهور قدرته وحكمته، من باب أن الصنعة تدلّ على الصانع، والتدبير يدلّ على المدبّر، ثم يكون ذلك التجلّي والظهور سبباً طبيعياً لمعرفته وعبادته.

---

(١) يس: ٨٢.

(٢) انظر: الاحتجاج ١: ١٣٣، الصحيح من السيرة ١: ١٥٨.

وهذا معنى ما جاء في الحديث القدسي: «**كنت كنزاً مخفيّاً لا أُعرف، فخلقت الخلق لكي أُعرف**»[١]، ومعنى ما جاء في القرآن الكريم: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ**﴾[٢]، فمعرفته وعبادته غاية مترتبة على وجودهم لا مسببة لوجودهم. أما الغاية المسببة لوجودهم فهي من أجل أن يحييهم حياة دائمة، وفي نعيم مقيم إن عملوا ما يستحقّون به ذلك من الأعمال الصالحة التي أمرهم بها، وتجنبوا الأعمال السيئة التي نهاهم عنها، قال تعالى: ﴿**إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**﴾[٣]. يعني وللرحمة خلقهم.

أمّا العبادة فإنها وسيلة فرضها عليهم لتوصلهم إلى الغاية التي خلقهم لها، وهي الرحمة والسعادة في الحياة الدائمة، والنعيم المقيم، فنفعها لهم لا له جلّ وعلا؛ لأنه الغني المطلق، قال تعالى: ﴿**إنْ تَكْفُرُوا أنْتُمْ وَمَنْ فِي الأرْضِ جَمِيعاً فَإنَّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ**﴾[٤]، وقال وقال وقال.

فهو جلّ وعلا أمرهم بالعبادة لا لحاجة، واستقرضهم من أموالهم لا لفقر، واستنصرهم بقوّتهم لا لضعف. ألا تراه جلّ وعلا يقول: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أجْرٌ كَرِيمٌ**﴾[٥].

ويقول: ﴿**إنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أنفُسَهُمْ وَأمْوَالَهُمْ بِأنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإنجِيلِ وَالقُرْآنِ وَمَنْ أوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ**﴾[٦].

---

(١) عوالي اللآلي ١: ٥٥.
(٢) الذاريات: ٥٦.
(٣) هود: ١١٩.
(٤) إبراهيم: ٨.
(٥) الحديد: ١١.
(٦) التوبة: ١١١.

﴿٢٨﴾

الصَّمَدية

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿**اللّهُ الصَّمَدُ**﴾[١].

للصمد في التفاسير معانٍ كثيرة؛ فمنها أنه خمسة حروف (ا ـ ل ـ ص ـ م ـ د)، وكلّ حرف منها يدلّ على صفة من صفاته:

فالألف من أُلوهيته المطلقة. قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَهٌ**﴾[٢].

واللام من أن الخلق والأمر له. قال تعالى: ﴿**أَلا لَهُ الخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ العَالَمِينَ**﴾[٣]. وعالم الخلق هو عالم المادّة، كالأجسام والأجرام، وعالم الأمر: عالم ما وراء المادّة، كالأرواح والنفوس، قال تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾[٤].

والصاد من صدقه جلّ وعلا، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ حَدِيثاً**﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللّهِ قِيلاً**﴾[٦].

---

(١) الإخلاص: ٢.
(٢) الزخرف: ٨٤.
(٣) الأعراف: ٥٤.
(٤) الإسراء: ٥٨.
(٥) النساء: ٨٧.
(٦) النساء: ١٢٢.

والميم من ملكه جلّ وعلا، قال تعالى: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[١].

والدال من دوامه جلّ وعلا، قال تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلا وَجْهَهُ**﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإكْرَامِ**﴾[٣].

والوجه في الآيتين الكريمتين بمعنى الذات لا بمعنى الوجه المعروف عندنا، وإلّا لزم من ذلك أن يكون تعالى جسماً، وأنه يشمله الفناء والهلاك بحيث لا يبقى منه إلّا وجهه (تعالى الله عمّا يقولون علواً كبيراً). روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**إن الألف واللام من كلمة ﴿الصَّمَدُ﴾ لا يظهران على اللسان، ولا يقعان على السمع**»، وذلك دليل على خفاء ذاته التي لا تقع على ألسنة الواصفين ولا على آذان السامعين، «**وإنما يظهران في الكتابة**»[٤]. وذلك دليل على أنه سبحانه أظهر ربوبيته في إبداع الخلق، وفي تركيب الأرواح اللطيفة في الأجساد الكثيفة. فمتى تفكّر العبد في كيفيته جلّ وعلا تحيّر عقله ولم تحط فكرته بشيء. قال بعضهم:

فيك يا أُعجوبة الكو ... ن غدا الفكر كليلا
أنت حيّرت ذوي اللـ ... ـبّ وبلبلت العقولا
كلّما أقدم فكري ... فيك شبراً فرَّ ميلا[٥]

وإذا نظرت إلى خَلقه ثبت لك أنه خالقهم ومركِّب أرواحهم وأجسادهم، قال تعالى: ﴿**هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ**﴾[٦]. قال الشاعر:

فواعجباً كيف يعصى الإلـ ... ـه أم كيف يجحده الجاحدُ
وفي كلّ شيء له آية ... تدل على أنه واحدُ

---

(١) الملك: ١.
(٢) القصص: ٨٨.
(٣) الرحمن: ٢٧.
(٤) التوحيد: ٩٢ / ٦.
(٥) شرح نهج البلاغة ١٣: ٥١.
(٦) لقمان: ١١.

ولله في كلّ تحريكة وتسكينة في الورى شاهدُ[١]

ومن معاني الصمد أنه الّذي ﴿**لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ**﴾[٢]. وقد روي أن بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام: هل ينام ربّنا أم لا؟ وأراد موسى عليه السلام أن يقنعهم بأنه ﴿**لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ**﴾ فلم يستطع، وأصرّوا عليه أن يسأل ربّه عن ذلك، فقال: «**يا ربّ، أنت أعلم بما سألني عبادك، فأنزل عليّ ما أُقنعهم به**». فأنزل عليه ملكاً يأمره أن يرفع بيديه قارورتين، وألّا ينام ما دامتا في يديه لئلّا تقعا من يديه، ففعل موسى عليه السلام ما أمره به ربه، وجعل كلّما أراد أن يغلبه النوم أيقظه الملك، حتى إذا استحكم النعاس في رأسه تركه الملك وشأنه، فنام من دون أن يضطجع، لأن القارورتين مرفوعتان بيديه، فوقع على جانبه فوقعت القارورتان على بعضها البعض فتكسّرتا. قالوا: وقال له الملك: «**قل لقومك: هذا جواب سؤالكم**»[٣].

قالوا: ومعنى ذلك أنه جلّ وعلا لو غلبه النوم، لاصطدمت كواكب الفضاء واندكّت أجزاؤه بعضها على بعض.

ومن معاني ﴿**الصَّمَدُ**﴾ أنه الذي لا يؤوده حفظ شيء، قال تعالى: ﴿**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ وَلا يَؤودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ**﴾[٤].

في كتاب (التكامل في الإسلام) للمرحوم أحمد أمين أن في سنة ١٠٠٠ ميلادية قرب نجم من المذنبات من الأرض حتى غلب على ظن الفلكيين أنه سيصطدم بالأرض لا محالة، وإذا حصل ذلك فإنها ستكون نهاية الأرض ومن عليها؛ لأن النجم أكبر من الأرض بملايين المرّات، فاتّجه الناس إلى المساجد والكنائس تائبين من ذنوبهم، خاشعين إلى ربهم، يدعون ويتضرّعون بأن يدفع الله عنهم هذه البلية. ولمّا قرب النجم من الأرض ولم يبقَ بينه وبين الاصطدام بها

---

(١) ديوان أبي العتاهية: ٤٥.
(٢) البقرة: ٢٥٥.
(٣) تفسير القرآن (الصنعاني) ١: ١٠٢.
(٤) البقرة: ٢٥٥.

إلّا وقت يسير، وإذا كأن يداً قادرة أخذته عن مسار الأرض فتجاوزها بسلام، وخرج الناس من مساجدهم وكنائسهم وبيعهم كأنما بعثوا من القبور.

ومن معاني ﴿**الصَّمَد**﴾ أنه الذي لا يوصف بالتغير، فهو يغير الحول والأحوال ولا يتغير له حال. وقد تقدم في المجلس الحادي والعشرين من هذا الكتاب أن عمرو بن عبيد المعتزلي سأل الإمام الباقر عليه السلام عن قوله: ﴿**وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى**﴾، فقال له الإمام عليه السلام: «**غضبه عقابه، ومن ظن أن الله يتغير فقد كفر**»[1]. وكأن الإمام وضع بهذا الجواب قاعدة تعرف منها وبها جميع صفات الله جلّ وعلا؛ فكل صفة يفهم منها التغيّر، فهي مؤوّلة؛ فغضبه: عقابه، ورضاه: ثوابه، وكلامه: إيجاده للكلام، لا أنه تعالى يتكلّم ويسكت، ويسكت ويتكلّم؛ لأن ذلك تغيّر والتغيّر لا يجوز عليه. فقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[2]، إنما أراد به التصوير لسرعة نفوذ الإرادة.

ومن معاني ﴿**الصَّمَدُ**﴾ أنه الذي لا يعزب عنه شيء، قال تعالى: ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ ولا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾[3].

ومعنى ﴿**مَا يَعْزُبُ**﴾ يعني لا يبتعد ولا يغيب عنه جلّ وعلا ﴿**مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ**﴾. وكانت الذرة في القديم تطلق على النملة الصغيرة، وعلى الهباءة المنبثة في الكوة التي يدخل منها شعاع الشمس، وأُطلقت في الأخير على أصغر جزء من المادّة، والتي تبلغ من الصغر بحيث لاترى بالعين المجردة، بل لا يمكن أن ترى حتى بأقوى الميكروسكوبات الألكترونية، وإنما يُحس بوجودها من خلال القوانين والمعادلات العلمية، والتصوير بالآلات الألكترونية المزوّدة بأدقّ الأجهزة

---

(١) كشف الغمة ٢: ٣٣٨. (٢) آل عمران: ٤٧.

(٣) يونس: ٦١.

وأقواها.

و﴿**مِثْقَالِ ذَرَّةٍ**﴾ يعني ثقلها.

وأصغر من الذرة أجزاؤها، وهي البروتونات والنيوترونات والألكترونات، فكلمة أصغر في هذه الآية تشير إلى كلّ جزء من هذه الأجزاء التي ما عرفها العلم إلّا من عهد قريب. فهذه الآية الكريمة من أكبر معاجز القرآن العلمية التي علمت الإنسان ما لم يعلم من تعداد أجزاء الذرة، وإمكان تجزئتها التي لم يتوصل لها الإنسان إلّا بعد جهد كبير، وقبل زمن قصير. مضافاً إلى ما أخبرت به الآية من أن أدنى حركة في خفايا السماوات والأرض فإنها لا تخفى على الله جلّ وعلا، بل تثبت عنده في كتاب مبين. وقد روى صاحب تفسير (الأمثل) عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا قرأ هذه الآية بكى**»[1].

ومن معاني ﴿**الصَّمَدُ**﴾ أنه المستغني عن كلّ شيء، والمحتاج إليه كلّ شيء، وهذا هو معنى الغنيّ المطلق، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللّهِ وَاللّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾[2].

ومن معاني ﴿**الصَّمَدُ**﴾ أنه المقصود في الرغائب والمستعان في المصائب. وقريب من هذا القول أنه الذي يُصمد إليه في الحاجات. وقد كانت العرب تسمّي من تقصده لقضاء حوائجها بهذا الاسم، قال الشاعر:

لقد بكر الناعي بخير بني أسدْ ... بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمدْ[3]

وقال آخر:

علوته بحسام ثم قلت له ... خذها إليك فأنت السيد الصمدُ[4]

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزّل ٦: ٣٦١.

(٢) فاطر: ١٥.

(٣) مجمع البيان ١٠: ٤٨٣، زاد المسير ٨: ٣٣١.

(٤) الكافي ١: ١٢٤، التوحيد: ١٩٧.

أي الذي يصمد إليه في الحوائج. وروى الرازي عن ابن عباس أن الناس سألوا رسول الله ﷺ عن الصمد: ما هو؟ فقال: «**هو السيد الذي يصمد إليه في الحوائج**»[١].

وقد جاء الصمود إلى الله جلّ وعلا في الحوائج التي لا يستطيع قضاءها غيره في كثير من الآيات، ومنها قوله جلّ وعلا: ﴿**وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللّـهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ**﴾[٢].

والجأر: هو الصوت الذي يحصل من المخلوقين عند البلاء والألم مع الاختيار وعدمه. والمعنى أن الإنسان عندما تهبّ عليه عواصف البلاء تنقشع عنه حجب الغرور والغفلة، ويتجلّى فيه نور الفطرة التي فطر الله الناس عليها، فيصرخ إلى ربّه، ويدعوه بكامل وجوده. ولكنه ويا للأسف بعد أن يستجيب الله دعوته، ويكشف بليته، يعود إلى حاله الأول، قال تعالى: ﴿**وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[٣].

وكثيراً ما تحصل هذه الحالة لمن يركب البحر، ولذلك قال تعالى: ﴿**وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُوراً * أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً * أَمْ أَمِنتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً**﴾[٤].

والحاصب: الهواء الذي يحرّك معه الأحجار الصغيرة.

---

(١) التفسير الكبير ٣٢: ١٦٦.
(٢) النحل: ٥٣.
(٣) يونس: ١٢.
(٤) الإسراء: ٦٧.

والقاصف: الهواء المحطّم، أي العاصفة الشديدة التي تقلع الأشياء من مكانها.

والتبيع: بمعنى التابع، وهو الذي ينهض للمطالبة بالدم والثأر.

وروي في كتاب (حقّ اليقين) وغيره[1] أن رجلاً سأل الإمام الصادقعليه السلام، فقال له: دلّني على الله. فقال له الإمامعليه السلام: «**هل ركبت البحر؟**». قال: نعم. قالعليه السلام: «**فهل كسرت بك السفينة وبقيت حيث لا سفينة تنجيك، ولا سباحة تغنيك؟**». قال: نعم. قال: «**فهل تعلّق قلبك هناك بشيء أنه قادر على أن ينجيَك حيث لا منج، ويؤويَك حيث لا مؤوٍ؟**». قال: نعم. قال الإمامعليه السلام: «**فذاك هو الله سبحانه**». فقال الرجل: أريتني الله عيناً.

وهكذا قالت الزيارة الجامعة: «**إلى الله تدعون، وعليه تدلّون**»[2].

ومن معاني ﴿**الصَّمَدُ**﴾ ما روي في (مجمع البيان)[3] وغيره[4] أن أهل البصرة كتبوا إلى الإمام الحسينعليه السلام يسألونه عن ﴿**الصَّمَدُ**﴾ ما هو؟ فكتب إليهم:

بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أما بعد:

فلا تخوضوا في القرآن، ولا تجادلوا فيه، ولا تتكلّموا فيه بغير علم؛ فقد سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: من قال في القرآن بغير علم فليتبوّأ مقعده من النار. وإنه سبحانه قد فسر ﴿الصَّمَدُ﴾ فقال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾...».

واستفاد بعضهم من كلمة ﴿**الصَّمَدُ**﴾ نفي الجسمية عنه جلّ وعلا؛ لأن أحد معاني الصمد اللغوية أنه الذي لا جوف له، والأجسام كلها حتى الصخرة الصمّاء تتكوّن من ذرات والذرات مجوفة؛ لأنها من نواة تدور حولها الألكترونات، وبين النواة وهذه الأجزاء مسافة كبيرة نسبياً بحيث لو أزيلت هذه الفواصل لصغر حجم

---

(١) التوحيد: ٢٣١ / ٥.
(٢) الفقيه ٢: ٦١٣.
(٣) مجمع البيان ١٠: ٤٨٧.
(٤) التوحيد: ٩٠ / ٥.

الأجسام كلها إلى حدّ كبير؛ لأنها من الذرات والذرات مجوفة، فكل شيء مجوف إلّا ﴿**الصَّمَدُ**﴾؛ لأنه ليس بجسم بل ولا عرض، فلا يعلم أحد كيف هو إلّا هو.

وقد وردت كلّ هذه التفاسير أو أكثرها عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، فدلّ ذلك على أنهم يعرفون من كلمة الصمد معاني لا يمكن أن يعبّر عنها بلفظ واحد أو جملة واحدة، فعبَّروا عنه بما تستلزمه تلك المعاني؛ لأنهم أعرف الناس بخالقهم، فمن أراد الله بدأ بهم، قال بعض الشعراء رحمه الله:

إليكم وإلّا لا تشد الركائبُ ... ومنكم وإلّا لا تُنال الرغائبُ

وفيكم وإلّا فالحديث مزخرف ... وعنكم وإلّا فالمحدّث كاذبُ[1]

وقد خمَّس المؤلف هذين البيتين، فقال:

بني أحمد أنتم كرامٌ أطائبُ ... وقد أنجبتكم أُمّهات نجائبُ

وكلكُمُ عكساً وطرداً مناقبُ ... (إليكم وإلّا لا تشد الركائبُ

ومنكم وإلّا لا تُنال الرغائبُ)

حماة إلى قرآننا لا يحرفُ ... حماة إلى إسلامنا لا يزيفُ

بحبكُمُ الإيمان بالله يعرفُ ... (وفيكم وإلّا فالحديث مزخرفُ

وعنكم وإلّا فالمحدث كاذبُ)

---

(١) الأنوار اللامعة في شرح الزيارة الجامعة: ١٨٩.

﴿٢٩﴾

معنى ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾(١)

قال ابن خالويه النحوي اللغوي الإمامي المتوفى بحلب سنة ٣٧٠هجرية في كتاب (إعراب ثلاثين سورة) بأن أصل ﴿لَمْ يَلِدْ﴾: (لم يَوْلِد) ـ بكسر اللام ـ فحذفت الواو؛ لأنها متوسطة بين الياء والكسرة، وذلك جائز عندهم في هذا المورد.

قالوا: وإنما قال ذلك؛ لأنّ الأب لا يلد وإنما يولد له، قال تعالى: ﴿**وَالوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى المَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلا وُسْعَهَا**﴾(٢)، فقد بينت هذه الآية الكريمة أن التي تلد هي الأمّ، فقالت: ﴿**وَالوَالِدَاتُ**﴾، وبينت أن الأب لم يلد وإنما يُولد له، فقالت: ﴿**وَعَلَى المَوْلُودِ لَهُ**﴾، وقال تعالى: ﴿**لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ**﴾(٣).

وإذا كان الأب لا يلد وإنما تلد له زوجته لزم من ذلك أن تكون للأب زوجة

---

(١) الإخلاص: ٣.
(٢) البقرة: ٢٣٣.
(٣) البقرة: ٢٢٣.

قبل أن يكون له ولد، ولذلك فقد احتج الله سبحانه بذلك على من ادّعى أنه له ولد، فقال تعالى: ﴿**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ**﴾[١]، والصاحبة أي الزوجة، وكأن بعض المشركين من العرب أدركوا أن الزوجة هي التي تلد، فقالوا: إن الله سبحانه وتعالى خطب من الجن فزوّجوه سروات بناتهم، فأولد منهن الملائكة؛ فالملائكة بنات الله[٢]، قال تعالى: ﴿**وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ**﴾[٣].

وإنّما عبّروا عن المصاهرة بالنسب كما تقول الآية الكريمة، لأن الزوجة إذا ولدت من الزوج انقلب الصهر نسباً. ومن اللطيف أن المؤمنين من الجن ينفون عن أنفسهم ما زعمه لهم المشركون من تزويج الله جلّ وعلا ببناتهم، وينزهونه عن ذلك فقالوا: ﴿**وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَداً**﴾[٤].

والجد: هو الحظ والمقام، فالله (سبحانه وتعالى) تعالى حظه ومقامه من أن تكون له صاحبة أو ولد. وهذا هو الحقّ؛ لأنه لو كان لله زوجة لكانت من نوعه؛ لأن زوجة كلّ شيء من نوعه لا فرق بينهما إلّا الذكورة والأُنوثة، ولو كان لله ولد لكان ولده من نوعه أيضاً؛ لأن ولد كلّ شيء من نوعه وبذلك ينتفي ما وصف الله به نفسه حيث قال جلّ وعلا: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[٥].

قال الرازي في تفسيره (الكبير): وإنما قدم جلّ وعلا ﴿**لَمْ يَلِدْ**﴾ على ﴿**وَلَمْ يُولَدْ**﴾ مع أن الشيء يكون مولوداً قبل أن يكون والداً؛ لأن الناس ادّعوا أن له ولداً، فقال المشركون من العرب: إن الملائكة بنات الله[٦]. قال تعالى: ﴿**وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ البَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ**﴾[٧]. والمعنى أنهم جعلوا لله البنات؛ لأنهم لا

---

(١) الأنعام: ١٠١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٥: ١٣٥.
(٣) الصافات: ١٥٨.
(٤) الجن: ٣.
(٥) الشورى: ١١.
(٦) التفسير الكبير ٣٢: ١٦٨.
(٧) النحل: ٥٧.

يرغبون بهن، بل كانوا يئدونهن. **﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾** يعني البنين. **﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾**(١). أي يشابهون قول الذين كفروا من قبل، وهم الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله. فلما قالت هذه الطوائف ذلك ولم يقل أحد منهم: إن له والداً بداً جلّ وعلا بنفي ما نسبوه إليه أولاً، فقال: **﴿لَمْ يَلِدْ﴾** ثم أشار إلى الحجة فقال: **﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾**، فكأنه تعالى قال: والدليل على امتناع وجود الولد له أنه جلّ وعلا لم يكن ولداً لغيره حتى يكون له ولد.

وأما أنه تعالى اقتصر على ذكر الماضي، فقال: **﴿لَمْ يَلِدْ﴾** ولم يذكر المستقبل بشيء من ذلك، فلأن قوله تعالى جاء جواباً على قولهم الماضي الذي ذكره تعالى بقوله: **﴿أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ اللّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾**(٢).

فلما كان القول ماضياً كان الجواب ماضياً. ولما كان الولد على ثلاثة أنواع:

أحدها: أن يتوالد من الشيء شيء من نوعه كالولد من أبيه والبنت من أُمها، وهذا هو الولد الحقيقي الذي هو عبارة عن جزء من والديه.

وثانيها: أن يتولّد من الشيء شيء من غير نوعه ـ كما يتولّد القمل من عفونة الأجسام، والدود من بعض الفاكهة أو من الغائط ـ وهذا هو الولد المجازي.

ثالثها: ألّا يكون متولّداً أو متوالداً منه، ولكنه اتخذه ولداً، أي تبنّاه، وهو الولد المجازي.

فقد ردّ لله جلّ وعلا على من قال: إن له ولداً حقيقياً، كالذين قالوا: إن الملائكة بنات الله، والذين قالوا: عزير ابن الله، والذين قالوا: المسيح ابن الله ردّ عليهم بقوله تعالى: **﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾**(٣)، وبـ**﴿لم يلد﴾**؛ لأن

---

(١) التوبة: ٣٠. (٢) الصافات: ١٥٢.
(٣) الزخرف: ١٥.

معنى الجزء في الآية الكريمة هو الولد،كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أولادنا أكبادنا إن عاشوا فتنوا، وإن ماتوا أحزنوا**»[١].

وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام: «**وجدتك بعضي بل وجدتك كلّي حتى كأن شيئاً لو أصابك أصابني، وكأن الموت لو أتاك أتاني، فعناني من أمرك ما يعنيني في نفسي**»[٢].

وردّ على من قال: إن له ولداً مجازياً، يعني بالتبني بقوله تعالى: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ**﴾[٣]، وبقوله تعالى: ﴿**وَقُلِ الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي المُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنْ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً**﴾[٤].

وشدّد النكير على الفريقين بقوله: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدّاً * أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً * وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً**﴾[٥].

فهو تعالى منزّه أن يكون له ولد بأي نوع من الأنواع التي يحصل بها الولد، وهي التولّد والتوالد والادّعاء، حتى إن بعض العلماء شقّ عليه أن يتقبلّ قول الفلاسفة بأن الله سبحانه وتعالى لا يصدر عنه إلّا واحد؛ لأن الواحد البسيط لا يصدر عنه إلّا واحد طبقاً لوجود السنخية بين العلّة والمعلول ووجود علاقة بينهما؛ إذ لو فقدت العلاقة والارتباط بين العلّة والمعلول لما استدعت العلّة وجود معلول معين، ولاختلّ نظام العلية والسببية. فأشكلوا عليهم بأن هذا يشبه التولّد، فهو كتولّد

---

(١) جامع الأخبار: ١٢٣.

(٢) مناقب آل أبي طالب ٣: ١٩٩، شرح نهج البلاغة ١٦: ٥٧.

(٣) الأنبياء: ٢٦. (٤) الإسراء: ١١١.

(٥) مريم: ٨٨ ـ ٩٤.

الحرارة من النار، والبرودة من الثلج أولاً، ويستلزم نسبة العجز إلى الله ثانياً؛ لأنه يحدّد قدرته في إيجاد الأشياء.

ولكنهم أجابوا عن ذلك بأنه ليس من نوع التولّد؛ لعدم مشابهة البسيط للكثيف، والواجب للممكن، ولا يستلزم نسبة العجز إلى الله؛ لأنّ العجز هنا ليس في الفاعل وإنما هو في القابل؛ لأنّ القدرة لا تتعلّق إلّا بالممكن، وأما المحالات الذاتية كإدخال الدنيا في بيضة من دون أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة فإنه لا تتعلّق به القدرة؛ ولذلك فإنه لما سئل الإمام علي عليه السلام: هل يستطيع ربك أن يدخل الدنيا في بيضة من دون أن تصغر الدنيا أو تكبر البيضة؟ أجاب بأن الله جلّ وعلا لا ينسب إلى عجز، والذي ذكرته لا يكون[1].

إذن فلا إشكال عندهم بأن الواحد البسيط ـ وهو الله جلّ وعلا ـ لا يصدر عنه إلّا واحد، فهو تعالى أفاض الوجود الثاني وهو العقل الأول وهو جوهر غير جسمي، ولا هو في مادّة، وهو يعقل ذاته ويعقل الوجود الأول الذي أفاض عليه الوجود. وبما يعقل عن الوجود الأول يلزم عنه وجود ثالث وهو العقل الثاني المدبّر لشؤون الأفلاك، ثم صدر عن العقل الثاني العقل الثالث وهو المدبّر لكرة زحل، ثم صدر عن العقل الثالث العقل الرابع وهو المدبّر لكرة المشتري، ثم صدر عن العقل الرابع العقل الخامس وهو المدبّر لكرة المريخ، ثم صدر عن العقل الخامس العقل السادس وهو المدبّر لكرة الشمس، ثم صدر عن العقل السادس العقل السابع وهو المدبّر لكرة الزهرة، ثم صدر عن العقل السابع العقل الثامن وهو المدبّر لكرة عطارد، ثم صدر عن العقل الثامن العقل التاسع وهو المدبّر لكرة القمر، ثم صدر عن العقل التاسع العقل العاشر وهو المدبّر لكرة ما تحت القمر.

---

(١) مشكاة الأنوار: ٤٥٤.

فهذه هي العقول العشرة التي تتولّد بعضها من بعض، والتي أشار إليها بعض من مدح أمير المؤمنين عليه السلام فقال:

تــحير بــمعناك عشــر العــقولْ ولولا ابــن عــمك كنت الرسـولْ

ولولاك لا بــعل يــغشى البـتولْ (ولولا النـــبوة كـــنت أقـــولْ

جميع صفات ابن عمك لك)

وقد شقّ قبول هذا القول على بعض العلماء كما تقدم وقالوا: إنما يصحّ قـول الفلاسفة هذا في الفاعل المضطرّ كالنار، فإنها لا تستطيع أن توجد إلّا الحـرارة، وكالثلج فإنه لا يستطيع أن يوجد إلّا البرودة، وأما بالنسبة إلى الله جلّ وعلا فلا: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَـقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[1].

وعلى أي حال فإنه جلّ وعلا ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَم يـولَدْ**﴾، وقد روي أن عـالماً مـن علماء اليهود جاء إلى المدينة بعد موت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فسأل الخليفة الأول فقال: أخبرني عمّا ليس لله، وعمّا ليس عند الله، وعما لا يعلمه الله. فقال: هذه مسائل الزنادقة. وهمَّ به المسلمون، ثمّ حولوه إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فأجابه عمّا ليس لله: ليس له شريك في ملكه، وعما ليس عند الله: ليس عند الله ظلم للعباد، وعمّا لا يعلمه الله: قولهم إن لله ولداً.

قالوا: فكانت النتيجة أن أسلم اليهودي لما علم من صحّة الجواب وواقـعيته، فإن الله ليس له شريك في ملكه، وليس عنده ظلم لعباده، ولا يعلم أن له ولداً؛ لأن من ليس له ولد لا يعلم أن له ولداً وإنما يعلم أن ليس له ولد. وهكذا في كلّ شيء، فمن لم يكن له مليون من المال لا يعلم أن له مليوناً، ومن لم يكن له مقام الاجتهاد من العلم لا يعلم أنه مجتهد، ولذلك لما قال المشركون: إن للأصنام مقام الشفاعة

---

(١) يس: ٨٢.

عند الله، قال تعالى: **﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**[١].

ولما جعلوا لله سبحانه وتعالى شركاء من أصنامهم قال تعالى: **﴿وَجَعَلُوا لِلّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ﴾**[٢]، والاستفهام في الآيتين إنكاري، ومعناه أنه لو كان لله شفعاء أو شركاء من هذا النوع أو من غيره لعلمهم وأخبر عنهم، لكنه تعالى أخبر أن لا شريك له، وأخبر عن الشفعاء أنهم من غير هذا النوع، وأنهم (صلوات الله عليهم) من عباده المكرمين الذين **﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾**[٣]، وأنهم **﴿لا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾**[٤].

---

(١) يونس: ١٨.
(٢) الرعد: ٣٣.
(٣) الأنبياء: ٢٧.
(٤) الأنبياء: ٢٨.

﴿٣٠﴾

الكفاءة

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ**﴾.

هذه هي الآية الأخيرة في سورة التوحيد المباركة التي نفى الله فيها الكثرة عن نفسه، فقال: ﴿**قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ**﴾. وهذا هو المعقول؛ إذ ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِـهَةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتَا**﴾[1]؛ سواء اتفقا[2]، أو اختلفا:

دليل التمانع

أمَّا الثاني فظاهر؛ لأنهما إذا اختلفا ومنع كلّ واحد منهما الآخر عن إيجاد ما أراد أن يوجده، فإمّا أن يغلب أحدهما الآخر فيكون الإله هو الغالب، والمغلوب لا أُلوهية له، وإما أن تتكافأ القوّتان فيلزم عدم ذلك الشيء؛ لأن كلّ واحد منهما لا يقدر أن يوجده نتيجة لمنع الآخر.

دليل التنافس

وأما الأوّل فلأن تأثير كلّ واحد منهما في الشيء يغني عن تأثير الآخر فيه مرة ثانية بالتأثير نفسه، الذي حصل من المؤثر الأول، والذي يستغنى عنه لا يكون

---

(١) الأنبياء: ٢٢.

(٢) أي الله تعالىٰ من جهة، والآلهة المفترضة من جهة أُخرىٰ.

إلهاً. ومثال على ذلك أن أحدنا لو كتب صفحة ثم أراد الآخر أن يكتبها هي نفسها فإنه لا يجد حاجة إلى كتابته، ولو حاول عبثاً أن يكتب عليها ما هو مكتوب فيها فإنه سيفسدها. هذا إذا اختلفا في زمن الكتابة، وأما إذا اتفقا في الزمن فإنه سيحصل من ذلك توارد الخلق الواحد من خالقين على مخلوق واحد في زمان واحد، وهذا باطل؛ لأن اجتماع العلتين المتّحدتين على معلول واحد في وقت واحد يؤدّي إلى المستحيل، وما أدّى إلى المستحيل فهو مستحيل، كما لو أراد اثنان منا أن يكتبا صفحة واحدة بعبارة واحدة في زمن واحد وبشكل واحد، فإنه يلزم فساد ذلك الشيء لو حصل، وعدمه لو لم يحصل، ويستحيل وجوده بالشكل المطلوب.

نعم، لو كتب أحدنا صفحة والآخر صفحة ثانية فإن هذا ممكن، ولكن يلزم من ذلك أن تكون كلّ صفحة منسوبة لكاتبها ومتميزة بفوارقها، وهذا معنى قوله تعالى: **﴿مَا اتَّخَذَ اللّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَنْ لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾**(١).

ويسمي البعض هذا الدليل دليل التنافس أو التمايز أو الاختصاص، وهو غير الدليل الأول الّذي يستلزم الفساد، فإنه يسمّى دليل التصادم والتمانع. وحيث لا فساد، ولا تنافس، ولا تصادم، ولا تمايز، ولا اختصاص، ولا تمانع، والأمر كما تقول الآية الكريمة **﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ﴾**(٢)، عُلم أنه لا يوجد إلّا إله واحد لا إله غيره، ولا معبود سواه:

فواعجباً كيف يعصى الإلـ ـه أم كيف يجحده الجاحدُ
وفي كلّ شيء له آية تدل على أنه واحدُ
ولله في كلّ تحريكة و تسكينة في الورى شاهدُ(٣)

---

(١) المؤمنون: ٩١. (٢) الملك: ٣.
(٣) مرّ تخريجها في مجلسي: (العوالم مرئية وغير مرئية)، و(الصَّمَدية)، فراجع.

دليل التناسق

ومن الأدلة على ذلك دليل التماسك والتناسق، أو دليل وحدة الكون، فإنه يدل على أن الكون لربّ واحد ليس فيه إله غيره، قال تعالى: ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**﴾[1]، ومعنى ذلك أن كلّ ما نأكل من الأرض فقد شاركت السماء في إيجاده وتسويته بشمسها وقمرها ورياحها ومطرها وغير ذلك، ولذلك لما قيل للإمام الحسن بن علي عليه السلام: حدثنا بنعت الرطب قال: «**الريح تلقحه، والقمر يصبغه، والشمس تنضجه، والبرودة تحليه وتطيبه**»[2].

فلو كانت السماء لربّ غير ربّ الأرض لما سمح لها بأن تشتغل بما فيها وبصورة دائمة لإيجاد وتسوية أرزاق أهل الأرض التي هي لربّ غيره وإله سواه.

ومن ذلك أن أهل الأرض عندما تقحط أرضهم يفزعون لربهم، فيسقيهم غيث السماء، والحال أنهم سألوا ربهم ولم يسألوا غيره، فدلّ ذلك على أن ربهم وربّ السماء واحد لا إله غيره.

دليل عدم الدليل علىٰ وجود إله سواه

ومن الأدلّة على أنه لا إله غيره ولا ربّ سواه عدم الدليل على وجود إله غيره. قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام لولده الإمام الحسن عليه السلام: «**يابني لو كان لربك شريك، لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه لا يضارّه في ملكه أحد، ولا يزول أبداً**»[3].

وبعد أن نفى الله سبحانه الكثرة عن نفسه بقوله: ﴿**قُلْ هُوَ اللّهُ أَحَدٌ**﴾[4] نفى النقص والمغلوبية عن نفسه بقوله تعالى: ﴿**اللّهُ الصَّمَدُ**﴾ وقد تقدم الكلام عنها.

---

(١) الذاريات: ٢٢.

(٢) الاحتجاج ١: ٤١٩، مناقب ابن شهر آشوب ٣: ١٧٨.

(٣) نهج البلاغة / الوصية: ٣١.

(٤) الإخلاص: ١.

ثم نفى عن نفسه الولدية والوالدية اللتين هما أشبه شيء بالعلة والمعلول، فقال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، لأنه لو وُلِدَ لكان وارثاً، وكل وارث حادث، ولو وَلَدَ لكان موروثاً، وكل موروث هالك، وكلاهما لا يليق به سبحانه وتعالى.

ثم نفى الأضداد والأنداد عن نفسه، فقال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، فلا كفؤ له ولا نِدّ، ولا عديل له ولا ضدّ، فمن غالبه غُلب، ومن نازعه نُكب. وقدر روي أن كعب بن مالك الخزرجي شاعر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الثاني المتوفى سنة ٥٣ هـ وهو ابن ٧٧ سنة لما قال في شعره:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها ... وليُغلَبنَّ مغالبُ الغَلَّابِ

قال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**لقد شكرك الله يا كعب على قولك هذا**»[1].

وقد أراد بقوله رحمه الله:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها

أي زعمت قريش أن ستغلب ربها؛ لأن قريشاً عُيِّرت بأكل السخينة حتى سمّيت بها، وهي طعام من دقيق وسمن. جاء في كتاب (شرح نهج البلاغة) لابن أبي الحديد المعتزلي نقلاً عن ابن قتيبة[2] أنه قال: تمازح معاوية يوماً مع الأحنف بن قيس، فما رؤي مازحاً أوقر منهما، فقال معاوية للأحنف: يا أبا بحر، ما الشيء الملفف في البجاد؟ فقال: السخينة يا أمير المؤمنين. وإنما كنّى معاوية بالشيء الملفف في البجاد عن النّهم وحبّ الأكل الذي تُعيَّر به تميم، حتى قال فيها القائل:

إذا ما مات ميْت من تميم ... فَسَرّك أن يعيش فجئ بزادِ
بخبزٍ أو بتمرٍ أو بسمنٍ ... أو الشيء الملفف في البجادِ[3]

---

(١) عيون الأخبار ٢: ٧٧، بحار الأنوار ٤٨: ١٥٢.
(٢) أدب الكاتب ١: ١٢.
(٣) شرح نهج البلاغة ٥: ١٦.

والبجاد: كساء مخطط من أكسية الأعراب.

قيل: وأراد به الشاعر: وطب اللبن، فلما عير معاوية الأحنف بذلك الشيء قال له الأحنف: هو السخينة يا أمير المؤمنين. فعيره بما تعير به قريش، وهو أكل السخينة. وبذلك كان كلّ واحد منهما قد عيّر صاحبه بما يعيَّر به قومه، وفهم كلّ واحد منهما ما أراد صاحبه، ولم يفهم الحاضرون ما دار بينهما.

والشاهد هنا أن كعب بن مالك أراد قريشاً بقوله:

زعمت سخينة أن ستغلب ربها

فإنها أرادت أن تغلب ربها بمحاربتها لرسول الله ﷺ، فغُلبت ومكّن الله نبيه ﷺ من رقابها حتى أصبحوا في قبضته يوم فتح مكة، فما كان منه ﷺ إلّا أن منَّ عليهم بالعفو وشملهم بالرحمة، وقال لهم: «**لا أقول لكم إلّا ما قال أخي يوسف** عليه السلام: ﴿**لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ**﴾[1]، **اذهبوا فأنتم الطلقاء**»[2]. قال البوصيري رحمه الله:

صرعت قومه حبائل بغي ... مدّها المكر منهُمُ والدهاءُ
فعفا عفو قادر لم ينغصـ ... ـه عليهم بما مضى إغراءُ
فعله كله جميل وهل ينـ ... ـضح إلّا بما حواه الإناءُ[3]

ولكن كلّ ما فعله رسول الله ﷺ من العفو والإحسان والعطاء والامتنان لم يغيّر شيئاً مما كان عليه أبو سفيان وأُسرته. فقد روي في كتب السير أن رسول الله ﷺ خرج على أبي سفيان يوم فتح مكة وهو جالس في المسجد، فلما رآه أبو سفيان قال في نفسه: ليت شعري ـ أو ما أدري ـ بأي شيء غلبني محمد؟

---

(١) يوسف: ٩٢.
(٢) فيض القدير ٥: ٢١٨ / ٦٨٣٧.
(٣) السيرة الحلبية ٣: ٥٠.

فضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال: «**بالله غلبتك**»(١).

وروي ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: رأى أبو سفيان رسول الله ﷺ يوم الفتح يمشي والناس يطؤون عقبه من الزحام حوله، فقال في نفسه: لو عاودت هذا الرجل القتال، وجمعت له جمعاً. فجاء النبي ﷺ حتى ضرب في صدره، وقال: «**إذن يخزيَك الله**».

ولمّا صار الظهر من يوم الفتح أمر النبي ﷺ بلالاً رضي الله عنه أن يؤذن على ظهر الكعبة، فلما أذّن قال خالد بن أُسيد: لقد أكرم الله أُسيداً ألّا يكون يسمع هذا العبد، فيسمع منه ما يغيظه.

وقال الحرث بن هشام: وما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود؟

وقال آخر: لقد أكرم الله أبي إذ قبضه قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة.

وقال آخر: هذا والله الحدث العظيم أن يصبح عبد بني جمع ينهق على بيته.

فقال أبو سفيان: أما أنا، فلا أقول شيئاً؛ فلو تكلّمت لأخبرت عني هذه الحصباء(٢).

فخرج عليهم رسول الله ﷺ، فقال لهم: «**علمت الذي قلتم؛ أما أنت يا فلان فقد قلت كذا، وأما أنت يا فلان فقد قلت كذا**». فقال أبو سفيان: أما أنا، فلم أقل شيئاً. فضحك النبي ﷺ(٣).

ولما خرج رسول الله ﷺ لحرب هوازن بعد فتح مكة بأيام خرج معه أبو سفيان، فلما وقعت الهزيمة على المسلمين فرح أبو سفيان وقال: لا تنتهي هزيمتهم دون البحر، لقد غَلَبتَ هوازن وبطل السحر اليوم. وما زال على هذه العقيدة.

---

(١) بغية الباحث: ٢٨٤ / ٩٤٣.

(٢) ويلاخظ هنا على قوله: لأخبرت عني هذه الحصباء، وعدم قوله: السماء، أنه فيه إشارة إلى أنه حتى تلك اللحظة لم يكن يؤمن بأن السماء هي التي توحي لرسولنا الأكرم ﷺ، أي أنه لم يؤمن بأنه ﷺ نبي مرسل قطّ.

(٣) عيون الأثر ٢: ٢٠٠، السيرة الحلبية ٣: ٥٤.

ولذلك فإنه لما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قام بعدة أعمال أراد أن يوهن بها قوة الإسلام، ويوجد الفتنة بين المسلمين؛ منها أنه جاء إلى الإمام علي عليه السلام، بعدما بايع الناس أبا بكر، وقال له: ابسط يدك حتى أبايعك. فأبى علي عليه السلام، فجعل أبو سفيان يتمثل بشعر المتلمّس:

ولن يقيم على خسف يراد به — إلّا الأذّلان عير الحي والوتدُ
هذا على الخسف معكوس برمته — وذا يشجّ فلا يبكي له أحدُ

فزجره علي عليه السلام وقال: «**إنك والله ما أردت بهذا إلّا الفتنة، وإنك والله طالما بغيت الإسلام شرّاً، لا حاجة لنا في نصيحتك**»(١).

ومنها أنه أراد من أهل مكة أن يرتدّوا عن الإسلام بعد موت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولولا موقف سهيل بن عمرو العامري القرشي لحصل له ما أراد، وقد جاء ذلك في (السيرة الحلبية)(٢)، وفي كتاب (نور اليقين في سيرة سيد المرسلين)(٣) للشيخ محمد الخضري، وفي غيرهما من كتب السير والتراجم(٤)، قالوا جميعاً: إنه لما أُسر سهيل بن عمرو العامري يوم بدر، وكان من خطباء قريش وفصحائها، وطالما آذى المسلمين بلسانه، قال الخليفة عمر: دعني يا رسول الله أنزع ثنيتي سهيل، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**لا أُمثّل فيمثّلَ الله بي وإن كنت نبياً، وعسى أن يقوم مقاماً لا تذمّه**».

وقد حقّق الله قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في سهيل بن عمرو، فإنّه لما توفّي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أراد أهل مكة وبمحاولة من أبي سفيان أن يرتدّوا عن الإسلام، فقام

---

(١) تاريخ الطبري ٢: ٤٤٩. (٢) السيرة الحلبية ٢: ٤٥٦.
(٣) نور اليقين: ٩٩.
(٤) الاستيعاب ٢: ٦٧١، إمتاع الأسماع ٢: ١٧٦، النصائح الكافية: ١١١، وانظر أحكام القرآن ٢: ٥٢٧.

سهيل هذا خطيباً وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وصلى على رسوله ﷺ: أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ألم تعلموا أن الله قال: ﴿**إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ**﴾[١]، وقال: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ**﴾[٢]؟

ثم قال: إني لأعلم أن هذا الدين سيمتدّ امتداد الشمس في طلوعها، فلا يغرّنكم هذا (يريد أبا سفيان) من أنفسكم، فإنه يعلم من هذا الأمر ما أعلم، لكنه قد ختم على صدره حسد بني هاشم، فتوكلوا على ربكم فإن دين الله قائم وكلمته تامّة وإن الله ناصر من نصره.

قالوا: فتراجع الناس عمّا كانوا عزموا عليه من الردّة[٣].

ولما تولّى الخليفة عثمان، مضى أبو سفيان إلى قبر حمزة بأُحد، وجعل يضرب عليه بيده ويقول: أبا يعلى، إن الملك الذي حاربتنا عليه أصبح في أيدينا[٤]. وقيل: إنه قال: تلقّفوها يا بني أُميّة تلقّف الكرة، فوالذي يحلف به أبو سفيان، ما من جنة ولا نار[٥].

ولا تزال هذه العقيدة موروثة في أولاده، وقد أخبر حفيده يزيد عن ذلك فقال:

لعبت هاشم بالملك فلا　　　خبر جاء ولا وحي نزل[٦]

(١) الزمر: ٣٠.　　　(٢) آل عمران: ١٤٤.

(٣) الاستيعاب ٢: ٦٧١، أحكام القرآن ٢: ٥٢٧، إمتاع الأسماع ١٢: ١٧٦.

(٤) حليف بني مخزوم: ١٩٢.

(٥) انظر: تاريخ الطبري ٨: ١٨٥، شرح نهج البلاغة ٢: ٤٤، ٩: ٥٣، ١٥: ١٧٥، النصائح الكافية: ٢٦١.　　　(٦) الاحتجاج ٢: ٣٤.

سورة المسد

﴿٣١﴾

جزاء من يحارب الله ورسوله

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ﴾[1].

تبت يداه: أي خسرت يداه؛ لأن التباب هو الخسران، قال تعالى: **﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾** أي غير تخسير[2].

وقيل: إنها بمعنى الهلاك، أي هلكت يداه. قال تعالى: **﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ﴾**[3]، أي إلاّ في هلاك. ولا مانع من اجتماع الأمرين.

قال بعضهم: ولعل **﴿تَبَّتْ﴾** الأُولى دعاء عليه بالخسران والهلاك، و**﴿تَبَّتْ﴾** الثانية إخبار وتأكيد أنه خاسر وهالك، كما يقال: أهلكه الله وقد هلك. وبذلك تكون الآية تحمل علماً غيبياً حقّقه الزمن بعد نزولها وهو موت أبي لهب على الكفر. وقد قيل: إنما جاء الدعاء عليه بهذه الكلمة دون غيرها؛ لأنه كان يدعو بها على النبي ﷺ، فعندما كان ﷺ يجمع الناس ويدعوهم إلى الله جلّ وعلا كان

(١) المسد: ١ ـ ٣.
(٢) هود: ١٠١.
(٣) غافر: ٣٧.

يقول له: تباً لك، ألهذا جمعتنا؟ فلما خاطب الرسولﷺ بها أكثر من مرّة، دعا عليه الله بها للمقابلة، فقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾.

وأبو لهب: كنيته التي كني بها؛ لجماله والتهاب وجنته بالحمرة وإشراقها بالبياض، وكان يعرف بها أكثر مما يعرف باسمه، فذكره الله بها.

وقيل: إنه سبحانه إنما ذكره بهذه الكنية نسبة إلى لهب النار، كما يُنسب صاحب الفضل إلى الفضل فيقال: أبو الفضل.

وقيل: إن اسمه عبد العزّى، فلم يرد الله سبحانه أن يذكره بالعبودية لغيره فذكره بكنيته.

وقيل: إنما ذكره بذلك؛ لأن الاسم أشرف من الكنية، فأراد الله جلّ وعلا أن يحطّه من الأشرف إلى الأدنى؛ لحقارته عنده. وبالمناسبة فقد روي في كتاب (ثمرات الأوراق) وغيره[1] أن هشام بن عبد الملك جاء إلى مكة حاجّاً، فقال: اطلبوا لي رجلاً من الصحابة أنتفع به. فقالوا له: لم يبقَ أحد منهم. قال: فمن التابعين. فجاؤوه بطاووس بن كيسان اليماني الخولاني الهمداني بالولاء المتوفّى بمكة المكرمة سنة ١٠٦ من الهجرة، فلما أدخلوه عليه لم ينزع نعله إلّا على رأس بساطه، وسلّم عليه بما يسلم به على غيره، وجلس إلى جانبه بغير إذنه، وقال له: كيف حالك يا هشام؟ ولم يكنّه فغضب هشام لذلك وعاتبه على فعله وقال له: إنك لم تخلع نعلك إلّا على رأس بساطي، ولم تسلّم عليّ بإمرة المؤمنين، وجلست معي بغير إذني، وخاطبتني باسمي ولم تكنني. فقال طاووس: أما أنّي نزعت نعلي على رأس بساطك، فإنني أنزعه على رأس بساط ربي كلّ يوم خمس مرات فلم يعاتبني على ذلك. وأما أنني لم أُسلم عليك بإمرة المؤمنين، فليس كلّ المؤمنين

---

(١) الكنى والألقاب ٢: ٤٤٠ ـ ٤٤١.

راضين بإمرتك. وأما أني جلست معك بغير إذنك، فقد روي لنا عن علي بن أبي طالبعليه السلام أنه قال: «**إن من أحبّ أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل جالس والناس وقوف على رأسه**». فكرهت أن تكون أنت كذلك. وأما أنني خاطبتك باسمك، فإنني رأيت الله جلّ وعلا سمّى أنبياءه وكنّى أعداءه، فقال تعالى: ﴿**وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**﴾[١]، وقال تعالى: ﴿**وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً**﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ**﴾[٣]، وقال عن عدوه: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**﴾.

قال: فعظني بموعظة أنتفع بها، قال: نعم، روي لنا عن علي بن أبي طالبعليه السلام أنه قال: «**إن في النار حياتٍ كالتلال، وعقاربَ كالبغال، تلدغ كلّ ملك لا يعدل في رعيته**». ثم قام وخرج.

وربما يسأل البعض فيقول: لماذا صرحت هذه السورة بذكر أبي لهب وزوجته مع أن من عادة القرآن عدم التصريح بأسماء أعداء الرسولصلى الله عليه وآله وسلم والمستهزئين به كالوليد بن المغيرة وأبي جهل بن هشام وغيرهما؟

والجواب على ذلك من وجوه:

١ ـ أن رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم مع شدّة عداوة عمه وتكذيبه إياه كان يعامله معاملة الولد لأبيه، فلا يسيئه بقول ولا فعل، فلما نزلت هذه السورة عليهصلى الله عليه وآله وسلم وتلاها على الناس حسب الأمر الصادر من ربه جلّ وعلا: ﴿**وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ**﴾[٤]، وكان في السورة ما فيها من القدح والذم والتهديد والوعيد الذي لم يسبق لرسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم مثله لأبي لهب ولا لغيره، علم الناس بذلك أن محمداًصلى الله عليه وآله وسلم رسول من ربه، وأنه لا يسعه إلاّ التبليغ عنه، وإلاّ فكيف خالف عادته لولا أنه

---

(١) النساء: ١٦٥.　(٢) النساء: ١٦٤.
(٣) آل عمران: ١٤٤.　(٤) الكهف: ٢٧.

رسول ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾[١].

فكانت هذه السورة المباركة من علامات صدق رسالته صلى الله عليه وآله وسلم.

٢ ـ أن موقف أبي لهب مع ابن أخيه صلى الله عليه وآله وسلم ومخالفته له وتكذيبه إياه ـ وهو كأحد أولاده، ولم يكن بينه وبينه قبل ذلك شيء من العداوة والوحشة ـ كان أشبه شيء بسلاح ذي حدّين؛ حيث كان له الأثر السيّئ في نفس الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومن أحبّه، وكان له الأثر الطيّب في نفوس أعدائه.

إذن الروح القبلية كانت حينئذٍ سائدة في مجتمعهم، وكانوا يدينون بنصرة الأقارب ظالمين كانوا أو مظلومين، وعلى فرض أن يكون بين أحدهم وبين بعض أقاربه وحشة، فإنه وإن هجره ولكنه لا يمالئ عليه عدوّه، وقد قال شاعرهم:

ولو كنت أكّالاً للحم بني أبي ... فما كنت مهديه إلى كلّ جازِرِ

ولذلك استطاع أبو طالب عليه السلام أن يجمع بني هاشم كلّهم على نصرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ مسلمهم لإسلامه، وكافرهم لنسبه، وما شذّ منهم إلّا أبو لهب (لعنه الله) وإلّا أبو سفيان بن الحرث بن المطلب رحمه الله؛ فقد[٢] ختم الله له بخير فأسلم سنة ٨ من الهجرة، وجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فلما وقف أبو لهب هذا الموقف من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أتاح الفرصة للآخرين في تكذيبه والاستخفاف به؛ لأنهم جعلوا لأنفسهم ولغيرهم من موقفه العدائي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حجة واضحة وبرهاناً قاطعاً على عدم صدقه صلى الله عليه وآله وسلم؛ ولذلك عزز أعداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبا لهب وعظموه وأجلّوه؛ لأنهم وجدوا فيه ضالّتهم المنشودة، فكان ذلك مما يشقّ على أبي طالب ومن تابعه من بني هاشم، وعلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أشدّ وأشدّ:

---

(١) المائدة: ٩٩.

(٢) أي رحمه الله؛ لأن الله تعالىٰ ختم له بالهداية.

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من ضرب الحسام المهندِ[١]

فأراد الله سبحانه أن ينتصر لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم بهذا التصريح من ذلك الرجل القبيح، وأن يخبرهم وجميع الناس سوء عاقبته وعاقبة زوجته.

٣ ـ أن من القواعد الأساسية في الإسلام إعلان المساواة وإلغاء جميع الامتيازات، فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلّا بالتقوى قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾[٢].

فلو لم تنزل هذه السورة في أبي لهب مع شدّة عداوته للرسول صلى الله عليه وآله وسلم وتكذيبه له وجرأته عليه لظنّ الناس أن الله جلّ وعلا قد جامله من أجل قرابته لنبيه. ولكنه لما أنزل فيه هذه السورة، وتلاها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على الناس، علم الناس بذلك أن الله ورسوله لا يلحظان في الإنسان إلّا عمله. قال تعالى: ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى**﴾[٣]. وقال الشاعر:

لعمرك ما الإنسان إلّا ابن دينه فلا تترك التقوى اتّكالاً على النسبْ
فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك الحسيبَ أبا لهبْ[٤]

٤ ـ أن هذه الصراحة في هذه السورة المباركة كانت رادعاً لغير أبي لهب من أعداء الإسلام ليخففوا من غلوائهم، ويتنازلوا عن بعض أهوائهم؛ حذراً من أن ينزل فيهم مثل ما نزل في أبي لهب؛ لأن بيتاً من الشعر في ذلك الزمان وحتى الآن يرفع القبيلة أو يضعها فضلاً عن الإنسان الواحد، وأقل ما للقرآن في اعتبار بعضهم أنه شعر، وأن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم شاعر، قال تعالى: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ**﴾[٥]. فهم يخافون أن ينزل فيهم مثل ما نزل في أبي لهب، فيؤثر على

(١) ديوان طرفة بن العبد: ٨.
(٢) الحجرات: ١٣.
(٣) النجم: ٣٩.
(٤) ديوان علي بن أبي طالب عليه السلام: ١٢.
(٥) الطور: ٣٠.

سمعتهم وشخصياتهم، فكان في نزول هذه السورة المباركة وبهذه الصراحة ترهيب لهم وتأديب، من قبيل قولهم: «اضرب الكلب يتأدّب الأسد».

أما متى كان نزول هذه السورة المباركة؟

فالجواب: أنها بلا شكّ نزلت بعد أن واصل أبو لهب وزوجته أذاهما لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مواقف متعددة؛ ومن ذلك أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**﴾[1]، ودعا النبي صلى الله عليه وآله وسلم عشيرته إلى منزله، وقدّم لهم طعاماً قليلاً لا يزيد على ذراع شاة، وعلى صاع من البُرّ، وعسّ من اللبن، وإن أحدهم ليأكل الشاة والصاع ويشرب العس؛ فأكلوا حتى شبعوا، وشربوا حتى رووا، وكانوا نحو أربعين يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً.

وكأن أبا لهب أحسّ بأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنما جمعهم لأمر أراده منهم، فأراد أن يفسد عليه أمره فقام وقال: إن محمداً قد سحركم فقوموا. وخرج، فتبعه القوم، ولم يستطع النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يعمل معهم شيئاً. وبعد أيام دعاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرة ثانية وعمل لهم من الطعام مثل ما عمل لهم في المرة الأُولى، وبعد أن أكلوا حتى شبعوا، وشربوا حتى رووا، بادر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لدعوتهم إلى الله.

قيل: وكان فيما قال لهم: «**إن الرائد لا يكذب أهله، فلو أني كذبت الناس ما كذبتكم، إني رسول الله إلى الناس عامّة وإليكم خاصّة، وما أعلم أحداً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، فقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة. وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي**». فأحجم القوم، وقال علي: «**أنا يا رسول الله**». فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعنقه وقال: «**هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا**». فقام القوم

---

(١) الشعراء: ٢١٤.

يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لولدك وتطيع[١].

ومنها أنه صلى الله عليه وآله وسلم لما نزلت عليه آية **﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾**[٢]، صعد على الصفا ونادى: «**يا صباحاه!**». وهي الصرخة التي تفزع بها قريش، ففزعوا إليه وسألوه: ما وراءك؟ قال: «**أرأيتكم لو أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أكنتم تصدقونني؟**». قالوا: نعم، فلست عندنا بمتّهم. قال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. قولوا: لا إله إلّا الله تفلحوا**». فقال أبو لهب: تباً لك، ألهذا جمعتنا[٣]؟

وواصل أبو لهب وزوجته مسيرتهما في أذى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، واستطاعا بواسطة القرابة والجوار أن يوصلا إليه من الأذى ما لا يستطيع أن يوصله إليه غيرهما من الناس، وكان أبو لهب يتابع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حتى في منى وسوق ذي المجاز وغيرهما من المواسم والأسواق، وكلما أعلن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعوته أعلن أبو لهب تكذيبه ونسبته إلى الجنون، حتى ضاق به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذرعاً، ولذلك أنزل الله فيه: **﴿تَبَّتْ يَدَا أبي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾**.

وتدلّ هذه الآية أن لأبي لهب ثروة من المال، وقد روي عنه أنه قال: إن كان ما يقوله ابن أخي حقاً، فإني سأفتدي نفسي بأموالي، وسأمتنع بأولادي. قال: بعض المفسرين: ولذلك قالت الآية الكريمة: **﴿وَمَا كَسَبَ﴾** إشارةً إلى أولاده الذين ذكرهم بقوله السابق. واستشهدوا على صحّة هذا التفسير بقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**أطيب ما يأكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه**»[٤].

وقيل: إن كلمة **﴿وَمَا كَسَبَ﴾** إشارة إلى بعض أعماله الطيبة التي منها أنه لما

---

(١) الهداية الكبرى: ٤٧، شرح الأخبار ١: ١٠٦، الأمالي (الطوسي): ٥٨٢ / ١١، تفسير البغوي ٣: ٤٠٠.

(٢) الحجر: ٩٤.

(٣) مناقب ابن شهر آشوب ١: ٤٣.

(٤) سنن الدارمي ٢: ٢٤٧.

بشرته جاريته ثويبة (رضي الله عنها) بمولد النبيﷺ أعتقها.

ومنها أنه لما سمع قريشاً تتآمر على قتل أبي طالب؛ لحمايته لرسول اللهﷺ، قال لهم: دعوا عنكم هذا الشيخ؛ فإنه مغرم بابن أخيه؛ فلا يقتل محمدﷺ حتى يقتل دونه؛ ولا يقتل هو حتى يقتل بنو هاشم. فأمسكوا عنه وإلّا ملنا معه. فخاف القوم أن يفعل، وكفّوا عن أبي طالبعليه السلام.

ولما بلغ أبا طالب موقفه من القوم طمع في نصرته، فأرسل إليه شعراً يقول فيه:

عجبت لحلم بابن شيبة حادث ... وأحلام أقوام لديك ضعافِ

يقولون شايع من أراد محمداً ... بسوء وقم في أمره بخلافِ

فلا تركبن الدهر منه ظلامة ... وأنت امرؤ من خير عبد منافِ

وزاحم جميع الناس عنه وكن له ... وزيراً على الأعداء غير مجافِ

فإن له قربى إليك قريبة ... وليس بذي حلف ولا بمضافِ

ولكنه من هاشم في صميمها ... إلى أنجم فوق النجوم ضوافِ

فإن غضبت فيه قريش فقل لهم ... بني عمّنا ما قومكم بضعافِ[1]

ولكنه ويا للأسف لم يتأثر بهذه النصائح الطيبة، واستمر على مقاطعته وعدائه وبغضه وجفائه: ﴿**وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ خَيْراً لأسْمَعَهُمْ**﴾، يعني ﴿**وَلَوْ عَلِمَ اللّهُ فِيهِمْ**﴾ حسن النية، وصفاء السريرة الذي يتحصّل به الاستعداد لقبول الحق ﴿**لأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ**﴾، ولم يكن لديهم قابلية لقبول الحق ﴿**لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ**﴾[2].

فبقي على حاله إلى أن هلك كافراًكما ذكرت السورة الكريمة التي أخبرت عن خسارته في الآية الأُولى، وأخبرت عن عدم انتفاعه بماله وأعماله وأولاده في

---

(١) أبو طالب حامي الرسولﷺ: ١٠٣، تاريخ مدينة دمشق ٣٨: ٢٤٧.

(٢) الأنفال: ٢٣.

الآية الثانية، وأخبرت عن هلاكه على الكفر في الآية الثالثة. وقد حصل كلّ ما ذكرته تلك الآيات الكريمة.

وقد كان هلاكه بعد واقعة بدر بأيام، ففي الكتب المعتبرة عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: كنت غلاماً للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد دخل علينا أهل هذا البيت، فأسلم العباس وأسلمت أُمّ الفضل وأسلمت أنا، وكان العباس يهاب قومه ويكره أن يخالفهم، ويخاف على ماله فقد كان ذا مال كثير متفرّق في قومه فكان يكتم إسلامه.

وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة، وكذلك صنعت قريش في خروجها إلى بدر لم يتخلف منها رجل إلّا بعث مكانه آخر، فلما جاء الخبر عن قتلى قريش وجدنا في أنفسنا قوة وعزّاً، ووجد أبو لهب ومن كان على طريقته كبتاً وذلّاً.

قال: وكنت أعمل القداح في قبّة زمزم (والقداح إناء يشرب فيه الماء)، فوالله إني لجالس أنحت القداح، وأمّ الفضل جالسة في ناحية إذ جاء أبو لهب يجرّ رداءه، حتى جلس عند طنب القبة، فكان ظهره إلى ظهري، وبينما نحن كذلك إذ قال الناس: هذا أبو سفيان بن الحرث بن المطلب قد أقبل من بدر. فقال له أبو لهب: هلم يابن أخي وأخبرني كيف كان أمر الناس؟ فقال: والله ما هو إلّا أن لقيناهم فمنحناهم أكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاؤوا، وأيم الله ما لمت قومي على ذلك، فقد لقينا رجالاً بيضاً على خيول بلق بين السماء والأرض لا يقوم لهم شيء.

قال أبو رافع: فرفعت طرف القبة بيدي، وقلت: تلك والله الملائكة. قال: فرفع أبو لهب يده، وضربني، على وجهي ضربة شديدة، فثاورته، فاحتملني وضرب بي الأرض، ثم برك عليّ يضربني، وكنت رجلاً ضعيفاً، فقامت أُمّ الفضل إلى عمد من أعمدة القبة، فأخذته وضربت به أبا لهب ضربة منكرة، فشجت رأسه، وقالت:

تستضعفه أن غاب عنه سيده؟ فقام عني مولياً ذليلاً، فوالله ما عاش بعدها إلّا سبع ليالٍ حتى رماه الله بالعدسة، فمات بها، والعدسة: الجدري أو الحصبة.

وكانت قريش تتّقي العدسة، فتركه ولداه ليلتين أو ثلاثاً بدون مواراة حتى أنتن، فقال لهما رجل من قريش: ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن في بيته؟ ألا تغيّبانه؟ فقالا: إنا نخشى هذه القرحة. قال: فانطلقا وأنا معكما.

فانطلقوا إلى جنازته وغسلوه قذفاً بالماء عليه من بعيد، ثم احتملوه في فراشه الذي مات عليه ووضعوه إلى جانب جدار خارج مكة، وجعلوا يرمون عليه الرمال والحجارة من بعيد حتى غيبوا جنازته[1].

وولداه المذكوران هما عتبة ومعتب اللذان روي أن رسول الله ﷺ سأل عمّه العباس عنهما يوم الفتح، فقال له العباس: لعلهما قد تنحّيا فيمن تنحى من قريش. فأمره النبي ﷺ أن يأتيه بها. قال العباس: فطلبتهما، فوجدتهما قد استترا في غرفة من بيتهما، فأتيته بهما فعرض عليهما رسول الله ﷺ الإسلام، فأسلما، فسرّ رسول الله ﷺ بإسلامهما، وأخذ بيديهما وانطلق بها إلى الملتزم، فدعا ساعة ثم انصرف والسرور يرى في وجهه، فقيل له: سرك الله يا رسول الله، إننا نرى السرور في وجهك، فقال: «**إني استوهبت ابني عمي هذين من ربي فوهبهما لي**»[2].

وشهدا معه حنيناً، وثبتا معه عند الهزيمة حتى فقئت عين معتب، ثم شهدا معه الطائف، ولم يخرجا من مكة. قيل: ولهما بها عقب.

وكان له ولد ثالث اسمه عتيبة هلك كافراً في زمان أبيه، وهو الذي قيل عنه: إنه وأخاه عتبه كان قد عقد لهما على ابنتي رسول الله ﷺ رقيه وأُمّ كلثوم، فلما أعلن رسول الله ﷺ دعوته وعاداه أبو لهب قال لولديه المذكورين: لا يجتمع رأسي

---

(١) مجمع الزوائد ٦: ٨٨ ـ ٨٩.
(٢) الطبقات الكبرى ٤: ٦٠، الإصابة ٤: ٣٦٥.

ورأساكما تحت سقف حتى تطلقا ابنتي محمدﷺ. فطلّقاهما وتعدّى عتيبة على رسول اللهﷺ بالقول والفعل، فدعا عليه رسول اللهﷺ بأن يسلّط الله عليه كلباً من كلابه يفترسه.

وبعد ذلك سافر أبو لهب وولده هذا مع بعض تجار قريش إلى الشام في تجارة، فنزلوا في طريقهم تحت دير راهب، فحذرهم الراهب من سباع الوادي، فوجل أبو لهب على ولده، وقال لأصحابه: إني أخشى عليه من دعوة محمد، فأعينوني على حراسته، فجعلوه في وسطهم، فلما جاء الأسد قفز عليه وافترسه. وفي ذلك يقول حسان بن ثابت الأنصاري شاعر رسول اللهﷺ:

لا وســـــع الله له قـــبره	بـل ضـيّق الله عـلى القـاطعِ
رمـــى رسـول الله مـن بـينهم	دون قـــريش رمـــية القـــادعِ
فـاستوجب الدعـوة مـنه بـها	بـــين للـــناظر والســـامعِ
أن ســـلط الله بـــه كـــلبه	يمشي الهوينى مشية الخـادعِ
حـــتى أتـــاه وسـط أصـحابه	وقـــد عـــلتهم سِـنة الهـــاجعِ
فـــالتقم الرأس بـــيافوخه	والنـــحر مـــنه فـغرة الجـايعِ
وغـــــادر الرجس بأنـــيابه	مـــنعفراً وســـط دم نـــاقعِ
مـــن يـــرجـع العـام إلى أهـله	فما أكـيل السـبع بـالراجـعِ[1]

وفي (الدرّ المنشور) أن لأبي لهب بنتاً تسمى درة، كانت شاعرة، ولها أبيات في يوم الفجار، تزوجها الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، فقتل مع من قتل من المشركين يوم بدر. وبعد أن هاجرت إلى المدينة تزوّجها دحية بن خليفة الكلبي، فقال لها يوماً بعض نساء المدينة: أنت ابنة أبي لهب؟ يعيّرنها بذلك، فذكرت ذلك

(١) مناقب ابن شهر آشوب ١: ٧١، دلائل النبوة: ٢٢٠.

لرسول الله ﷺ، فخطب الناس وقال: «**لا يؤذَينّ مسلم بكافر**»(١).

نعم، هذه هي عدالة الإسلام، قال تعالى: ﴿**لاَ تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ**﴾(٢).

---

(١) الدر المنثور ٦: ٤٠٩. (٢) البقرة: ٢٣٣.

﴿٣٢﴾

موقف أُمّ جميل من الإسلام

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَامْـرَأَتُهُ حَـمَّالَةَ الْـحَطَبِ * فِـي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾(١).

قرأ بعضهم ﴿حَمَّالَةَ﴾ بالرفع على أنها خبر، وقرأها الأكثرون بالنصب على إضماركلمة أعني أو أذمّ ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾.

وهي أُمّ جميل، وقيل: إن اسمها أروى بنت حرب بن أُمية، أُخت أبي سفيان، وعمة ولده معاوية. وقد روي أن معاوية قال لعقيل بن أبي طالب يوماً: في أي مكان ترى عمك أبا لهب من النار يا أبا يزيد؟ فقال عقيل: إذا دخلت النار، فخذ على يسارك تجد عمي أبا لهب مفترشاً عمتك ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾(٢).

وقد قيل في السبب الذي حصل لها به هذا اللقب عدة أقوال، منها أنها كانت تحمل الشوك والحسك وتضعه في طريق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومنها أنها كانت نمامة، وكانت العرب تلقب النّمام بهذا اللقب (حمَّال الحطب)؛ لأنه يوقد نار الفتنة بين الناس بنميمته.

---

(١) المسد: ٤ ـ ٥. (٢) الغارات ٢: ٥٥٣.

ومنها أنها دائماً توقد نار الحرب والعداوة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ومنها أنها حمالة الخطايا والذنوب.

ومنها ومنها[١]. ولعلّها جمعت كلّ هذه الأُمور؛ فإنها من أهل ذلك. وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد موت عمّه أبي طالب عليه السلام وقف يوماً بالحرم، ودعا الناس إلى الله، فاعتدت عليه قريش، وكان هناك أبو لهب، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**هكذا يفعل بي يا عمّ، وأنت ترى؟**»، فأخذته حمية النسب، فجرد سيفه ووقف إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقال: لا ينال أحد منك مثل هذا بعد اليوم. فكفت عنه قريش وهابته لموقف أبي لهب منه، وجعل الناس يقول بعضهم لبعض: فرحنا بموت أبي طالب، وظننا أننا سننال من محمد ما أردناه، فقام هذا بحمايته والدفاع عنه؟ فقال أحدهم: لا يسؤكم ما ترون منه؛ فإنه لا يستطيع أن يكون كأبي طالب. قالوا: أما ترى موقفه من ابن أخيه؟ قال: إن أردتم أن آخذه عنه فعلت ذلك. قالوا: فافعل. فمضى إلى زوجته ﴿**حَمَّالَةَ الْحَطَبِ**﴾ وأخبرها بموقف زوجها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فجاءت تشتدّ كأنّها لبوة، فأخذته من موقفه، وما رئي بعد ذلك في مثل ذلك الموقف الشريف أبداً، بل عاد إلى أكثر مما كان عليه من قبل ذلك من عداوة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأذاه.

روي في تفسير ابن كثير عن ربيعة بن عباد الديلي قال: إني لغلام شاب مع أبي بمنى، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يتبع القبائل، فيقول لكل قبيلة: «**يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تصدّقوني وتمنعوني حتى أُبلّغ عن الله جلّ وعلا ما بعثني به**». ووراءه رجل أحول وضيء الوجه ذو جمعة ـ وهو شعر الرأس الساقط على المنكبين ـ يصيح من خلفه: إن هذا يريد منكم أن

---

(١) مجمع البيان ١٠: ٤٧٦.

تسلخوا اللّات والعزى؛ فلا تصدّقوه. فقلت لأبي: من هذا؟ فقال: هذا عمه أبو لهب[١].

وفي تفسير القرطبي عن طارق بن عبد الله المحاربي أنه قال: إني بسوق ذي المجاز وإذا أنا برجل يقول: «**أيها الناس قولوا: لا إله إلّا الله تفلحوا**». ومن خلفه رجل يرميه، وقد أدمى ساقيه وعرقوبيه، وهو يقول: أيها الناس إنه كذّاب؛ فلا تصدقوه. فقلت: من هذا؟ فقالوا: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب يزعم أنه نبي، وهذا عمه أبو لهب بن عبد المطلب يزعم أنه كذاب[٢].

وقوله تعالى: ﴿**فِي جِيدِهَا**﴾، أي في عنقها ﴿**حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ**﴾، أي حبل من ليف مفتول،كناية عن سلاسل النار.

وفي تفسير القرطبي عن سعيد بن المسيب أنها كانت لها قلادة فاخرة من جوهر، فأقسمت باللّات والعزّى أن تنفق ثمنها في عداوة محمدﷺ[٣].

ثم باعتها وجعلت تنفق من ثمنها في سبيل أذى الرسولﷺ حتى أنهت ثمنها، فكان جزاؤها عن ذلك أن جعل الله سبحانه وتعالى: ﴿**فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ**﴾، أي قلادة من سلاسل النار.

وجاء في كتب السير والتفاسير أنها لما نزلت هذه السورة المباركة وبلغها ذلك أخذت الفهر ـ وهو حجر رقيق تسحق به الأدوية ـ وجاءت تطلب رسول اللهﷺ حتى دخلت الحرم، ورسول اللهﷺ جالس هناك، ومعه الخليفة أبو بكر، فقال: يا رسول الله، إني أخاف أن تراك، فينالك منها شيء، فلو نجوت بنفسك. فقالﷺ: «**إنها لن تراني**». قيل: وقرأ شيئاً من القرآن فلم تره، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً**﴾[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤: ٦٠٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ٢٣٦.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠ / ٢٤٢.
(٤) الإسراء: ٤٥.

فجاءت حتى وقفت على رأس أبي بكر ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى جانبه، فقالت: أين صاحبك؟ بلغني أنه هجاني، فإن رأيته لأعلونه بهذا الفهر، ولأهجونه كما هجاني، وستعلم قريش أني ابنة سيّدها ثم ولّت وهي تقول:

مذمّماً أبينا   وأمره عصينا

ودينه قلينا[١]

قال البوصيري رحمه الله في همزيته الغرّاء:

وأعدّت حمالة الحطب الفهـ   ـر وجاءت كأنها الورقاءُ

ثم جاءت غضبى تقول أفي مثـ   ـليَ من أحمد يقال الهجاءُ

ثم ولّت وما رأته ومن أيـ   ـن ترى الشمسَ مقلة عمياءُ[٢]

وهذه الغيبة وأمثالها من غيبات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ـ كغيبته عن أعين قريش ليلة خروجه إلى الغار ـ هي نفس ما تعتقده الشيعة في غيبة إمامهم المنتظر عليه السلام؛ إذ غُيّب عمّن يغيب عنه. وأما إذا قالوا: إنه مغيب بمعنى أنه يُرى بغير معرفة، فهو كيوسف الصديق عليه السلام وإخوته قال تعالى: ﴿**وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ**﴾[٣].

ومن قال عنهم: إنهم يعتقدون في غيبته غير ذلك ـ كالذين يقولون عنهم: إنهم يعتقدون غيبته في السرداب ـ فقد تكلّم عنهم بغير علم.

قال الشيخ محمد عبده في تفسيرة: وكل من قال لك: لا يجوز أن تستند في حكم من الأحكام إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بالغاً ما بلغ من العلم، بل يجب عليك أن ترجع إلى رأي فلان أو فلان، وتستند إلى قول فلان أو فلان، كلّ من قال

---

(١) مسند أبي يعلى ١: ٥٣ / ٥٣، تفسير القرآن العظيم ٣: ٤٧.

(٢) السيرة الحلبية ١: ٤٦٧.

(٣) يوسف: ٥٨.

لك هذا فهو أبو لهب. وكلّ امرأة تمشي بين الناس بالنميمة والفساد، كالتي تحمل زوجها على مخالفة الحقّ، وكعقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، وإساءة الجار فهي حمالة الحطب.

و﴿**فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ**﴾، أي في عنقها حبل ممسود، أي مفتول من حديد النار يوم القيامة، جزاءً على أعمالها السيئة، لا على كونها زوجةً لأبي لهب؛ لأن الأمر كما قال تعالى: ﴿**كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ**﴾[١].

ولو لم يكن الأمر كذلك لراعى الله زوجتي نوح ولوطعليهما السلام من أجل زوجيهما، ولكنه جلّ وعلا قال: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَاِمْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلاَ النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾[٢].

ولا يخفى أن الخيانة المذكورة في الآية لامرأتي نوح ولوط إنما هي خيانة عقيدة وعمل، وليست خيانة عرض وشرف، فزوجة نوح كانت تسخر منه وتتّهمه في عقله، وزوجة لوط كانت تدلّ قومه على أضيافه. أما خيانة العرض والشرف فكلّ نساء الأنبياء منزّهات عنها؛ لأنّها تخدش شرف الزوج وحاشا الأنبياء أن ينخدش شرفهم.

هذه عقيدة الشيعة في زوجات جميع الأنبياءعليهم السلام، حتى قال بعض علمائهم:

وزوجة الرسول ليس تُشتمُ   **لأجل عين ألف عين تكرمُ**[٣]

إلّا إنهم لا يعتقدون أن زوجاتِ الأنبياء في الدنيا زوجاتُهم في الآخرة، كما يقول البعض من غيرهم؛ لأن هذه العقيدة لا تتناسب مع الآية السابقة، في زوجتي

---

(١) الطور: ٢١.   (٢) التحريم: ١٠.

(٣) أعيان الشيعة ١: ١٢١، نور الأفهام ٢: ٦٤.

نوح ولوط، ولا مع غيرها من الآيات،كقوله تعالى: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى﴾(١). أما قوله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾(٢)، فإنه إذا كان المعنيّ بالآية الكريمة هم النساء والرجال فإنما هو على سبيل الأولى لا على سبيل الحتم، وإلا فكيف نفعل بامرأة نوح ولوط اللتين صرحت الآية السابقة بدخولهما النار؟ وكيف نفعل بامرأة فرعون التي قال الله عنها: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(٣)؟ وكيف نفعل بأمثالهن من النساء؟

---

(١) النجم: ٣٩.

(٢) النور: ٢٦.

(٣) التحريم: ١١.

سورة النصر

﴿٣٣﴾

التسمية وسبب النزول

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾.

قال كثير من المفسرين: إن هذه السورة الكريمة جاءت بشارة من الله العظيم جلّ وعلا لنبيه الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بفتح مكة، والنصر على أعداء الله وأعداء رسوله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فنزولها بعد صلح الحديبية وقبل فتح مكة المكرمة؛ لأن ﴿إِذَا﴾ للمستقبل، ومن أجل بشارتها للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بالنصر سمّيت سورة (النصر).

وقال آخرون: إنها نزلت بعد فتح مكة وإن ﴿إِذَا﴾ التي للمستقبل إنما جاءت تشعر الرسول بقرب أجله صلى الله عليه وآله وسلم، ولذلك سمّيت سورة (التوديع).

وقد روي في تفسير (الأمثل) أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما قرأها وسمعها عمّه العباس بن عبد المطلب بكى، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما يبكيك ياعم؟**». قال: أظن أنه قد نعيت إليك نفسك. فقال: «**نعم**»[1].

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزّل ٢٠: ٤٦٩.

وفي (الدر المنثور) عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: إن هذه السورة علم وحدّ حدّه الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، ونعى إليه نفسه فيها، أي إنك لن تعيش بعدها إلّا قليلا[١].

ومن المفسّرين من يرجّح القول الأول.

وعلى كلا الأمرين فإن السورة الكريمة قد تضمنت علماً غيبياً حققه الزمن بعد نزولها؛ سواء كان ذلك الأمر هو فتح مكة، أو قرب أجل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قالوا: وكان سبب فتح مكة المكرمة ما جاء في صلح الحديبية، من أن الحرب موضوعة بين الفريقين ـ أي النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقريش ـ إلى مدّة عشر سنوات، وأن من أراد أن يدخل في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فليدخل، ومن أراد أن يدخل في عهد قريش فليدخل، فدخلت خزاعة في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وكان بين بني خزاعة وبني بكر شرّ قديم وثارات سابقة، فسكن كلّ ذلك بصلح الحديبية وانحياز كلّ واحدة من القبيلتين إلى فريق من المتصالحين؛ لأنه لو تقاتلت القبيلتان ونصر كلّ فريق من المتصالحين حلفاءه لعادت الحرب بين المتصالحين، ولم يُبقوا للصلح أي أثر، ولذلك فقد ألقت الحرب أوزارها بين الفريقين وبين القبيلتين: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقريش، وبكر وخزاعة.

ولمّا صارت غزوة مؤتة ـ وذلك في شهر جمادى سنة ٨ من الهجرة ـ ولم ينتصر بها المسلمون، خيّل لبعض رجالات قريش أن المسلمين قد قضي عليهم، فحرّضوا بني بكر على أن يبيّتوا بني خزاعة، وأكّدوا لهم أن الفرصة قد سنحت لهم ليأخذوا منهم بثأرهم، وساعدوهم بالمال والسلاح والرجال. فبينما خزاعة ذات ليلة على ماء لهم يدعى الوتير، وهم آمنون وادعون، إذ فاجأهم بنو بكر ومعهم رجال من قريش منهم عكرمة بن أبي جهل، فأوقعوا فيهم الوقيعة حتى قتلوا منهم

(١) الدر المنثور ٦: ٤٠٦.

عدّة من الرجال، ففرّت خزاعة إلى مكّة لاجئين إليها؛ لأنها الحرم الذي لا يستبيح الناس القتال فيه، ولكن بني بكر لم يحترموا حرمتها فيهم، فتبعوهم يقتلون فيهم حتى قتلوا منهم على باب سيدهم بديل بن ورقاء الخزاعي، وعلى باب رافع مولى خزاعة ـ وكانا يسكنان مكة ـ نحو عشرين رجلاً من خزاعة.

ووعظ بعض بني خزاعة معاوية بن نوفل الدؤلي البكري قائد بني بكر أن يتوقّف عن القتل داخل مكة، وقال له: إلهك إلهك! فقد دخلنا الحرم يابن نوفل، خف إلهك. فقال لا إله اليوم. وأمر قومه بالاستمرار في القتال، وجعل يقول: يا بني بكر، أصيبوا ثأركم، فلعمري إنكم لتسرقون الحاج في الحرم، أفلا تصيبون ثأركم فيه؟ فلاحقوا خزاعة يقتلون فيهم، وقريش تساندهم وتساعدهم.

فمضى رجال من خزاعة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة، فشكوا إليه ما أصابهم من بني بكر، وكان فيمن مضى إليه عمرو بن سالم الخزاعي، فوقف على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو جالس في مسجده مع أصحابه وأنشد:

لاهمّ إني ناشد محمدا	**حلف أبينا وأبيه الأتلدا**
إن قريشاً أخلفوك الموعدا	**و نقضوا ميثاقك المؤكّدا**
وبيّتونا بالوتير هجّدا	**وقتّلونا ركّعا وسجّدا**

وراح يكرّر البيت الأخير؛ ليستثير مشاعر النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين، فتألم صلى الله عليه وآله وسلم، ودمعت عيناه، وأشاره إليه أن أمسك، ثم قال: «**نصرت يا عمرو بن سالم**».

قالوا: وقام صلى الله عليه وآله وسلم يجر رداءه وهو يقول: «**لا نُصرت إن لم أنصر خزاعة**». ثم أمرهم أن يرجعوا إلى مكة متفرقين لئلّا تشعر قريش بقدومهم عليه.

ثم لم يلبث أن قدم عليه بديل بن ورقاء الخزاعي سيد بني خزاعة وأكبرهم سنّاً، فقد بلغ من العمر حينئذٍ ٩٧ سنة، وأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بما جرى عليهم،

فوعده النصر، وأمره بالرجوع متستراً فرجع. فلما صار بعسفان لقيه أبو سفيان قادماً إلى المدينة، فقد أحسَّ بخطر الغدرة التي فعلها قومه، فجاء يتغفَّل النبيﷺ ويجدّد معاهدة صلح الحديبية الذي جرى بينه وبين قريش؛ ليكون ذلك التجديد حاجزاً لرسول اللهﷺ عن غزوهم ومؤاخذتهم على ما صدر منهم مع خزاعة.

فلما لقي بديلاً أشفق أن يكون قد مضى إلى رسول اللهﷺ وأخبره بما كان، فسأله: من أين أقبلت يا بديل؟ قال سرت في بلاد كعب وخزاعة في قتيل كان بينهم فأصلحت بينهم. وتركه وانصرف عنه.

ولكن أبا سفيان لم يصدقه، وقال في نفسه: إن يكن قادماً من المدينة فقد علف النوى، وجاء يفت أبعار إبله، فلما رأى فيها النوى أيقن أنه قادم من المدينة، وأنه أخبر رسول اللهﷺ بما جرى عليهم. ولكنه مع ذلك رأى أن قدومه على النبيﷺ ومحاولته معه في تجديد الصلح أولى من رجوعه إلى مكّة، فسار حتى قدم المدينة. فلما دخل على رسول اللهﷺ وكلّمة في تجديد الصلح، قال له: «**أغدرتم يا أبا سفيان؟**». فكذب وقال: لا. فقالﷺ: «**إذن فنحن على ما كنّا عليه**».

يعني إذا لم تحدثوا شيئاً فنحن على ما كنّا عليه، ولا داعي لتجديد الصلح. وحاول أن يتوسّط له أحد الصحابة فيغيّر موقف الرسولﷺ منه فلم يفلح، ورجع خائباً، وكان ذلك في شعبان من سنة ٨ من الهجرة.

وعزم رسول اللهﷺ على فتح مكة، فكتب إلى المسلمين في شبه الجزيرة: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يصومنّ شهر رمضان إلّا بالمدينة**». فاجتمعت إليه القبائل من جهينة ومزينة وأسلم وغفار وغيرهم من قبائل العرب الذين دخلوا في الإسلام، فسار بهم رسول اللهﷺ قاصداً إلى مكة وهو يسأل الله جلّ وعلا أن يعمي أخبارهم على قريش حتى يأتيهم بغتة.

وكلما تقدّم رسول الله ﷺ بأصحابه نحو مكة انضمّ لهم من سائر القبائل من زاد عددهم وضاعف منعتهم، وما زالوا كذلك حتى وصل عددهم إلى عشرة آلاف، وقد فتح بهم مكة في يوم ٢٠ / ٩ / ٨هجرية[١].

وهكذا جاء نصر الله والفتح الذي فتح صفحة جديدة في تاريخ الإسلام، فتلاشى به مركز الشرك، وتبدّدت به آمال المشركين، وأُزيلت به السدود والموانع التي تمنع من دخول الناس في الإسلام.

ولا يخفى أن بين هذه الأُمور الثلاثة ارتباط علة ومعلول، فبنصر الله تحقق الفتح، وبالفتح زالت الموانع والحواجز من طريق الناس، وبإزالة الموانع والحواجز عن طريق الناس دخلوا في دين الله أفواجاً. وقد نسب الله جلّ وعلا النصر في هذه الحادثة التي أخبرت عنها هذه السورة الكريمة إلى نفسه، كما نسبه إلى نفسه في آيات أُخرى ومنها قوله تعالى: **﴿أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾**[٢]، ومنها قوله تعالى: **﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ﴾** ومنها قوله تعالى: **﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ﴾**[٣]. وهذا يعني أن النصر في أي حال لا يحصل إلّا بإرادته جلّ وعلا وإن كان لابدّ للمحارب أن يعدّ للنصر عدّته الطبيعية، كما قال تعالى: **﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾**[٤].

ولكنه مع ذلك فإن النصر لا يكون إلّا من قبله جلّ وعلا **﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ﴾**[٥]. ولهذا فقد روي عن الرسول ﷺ أنه لما دخل مكة في ذلك اليوم دخلها على ناقته العضباء وعليه عمامة سوداء[٦]، وقد أرخى رأسه حتى

---

(١) إمتاع الأسماع ١: ٣٥٤، السيرة الحلبية ٣: ١٠.
(٢) البقرة: ١١٤.
(٣) الأنفال: ١٢٦.
(٤) الأنفال: ٦٠.
(٥) البقرة: ٢٤٩.
(٦) مكارم الأخلاق: ١١٩، صحيح مسلم ٤: ١١١، ١١٢.

صارت لحيته الشريفة على صدره، وحتى كادت عمامته أن تسقط عن رأسه، لشدة إطراقه شكراً لربّه الذي تفضَّل عليه بهذا النصر المبين. وقيل: إنه سجد على قتب ناقته شكراً لربه.

ثم عفا عن أهل مكة شكراً لربه أيضاً، فقد جاء عنهم عليهم السلام: **«إذا قدرت على عدوك، فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه»**.

وفي غداة يوم الفتح عثرت خزاعة على رجل من هذيل لا يزال مشركاً، فقتلوه بقتيل قتله منهم قبل ذلك، فغضب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقام في الناس خطيباً. وكان فيما قال: **«أيها الناس إن الله حرم مكّة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام من حرام من حرام إلى يوم القيامة، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، أو يعضد ـ أي يقطع ـ فيها شجراً، أو ينفّر فيها صيداً، وإنها لم تحل لأحد قبلي ولا تحلّ لأحد بعدي، ولم تحلل لي إلّا ساعة من نهار، ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فهي محرمة إلى أن تقوم الساعة، فليبلغ الشاهد الغائب.**

ومن قال لكم: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قاتل فيها، فقولوا له: إن الله قد أحلها لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ غضباً على أهلها، ولم يُحلّها لكم.

يا معشر خزاعة، ارفعوا أيديكم عن القتل، فقد كثر أن يقع، وقد قتلتم قتيلاً لأدينّه ـ أي لأُسلمن ديته ـ ومن قُتل بعد هذا فأهله بخير النظرين ؛ إن شاؤوا فدم قاتله، وإن شاؤوا فعقله»[١]، أي فديته.

(١) مسند أحمد ٤: ٣٢، شرح معاني الآثار ٢: ٢٦٠، السيرة النبوية (ابن هشام) ٤: ٨٧٣.

﴿٣٤﴾

عام الوفود

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾

روى كتّاب السير والتواريخ أنه لما فتح النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكة، وذلك بتاريخ ٢٠ / ٩ / ٨، قالت العرب: إذ ظفر محمد صلى الله عليه وآله وسلم بأهل الحرم فإنه لابدّ أن يكون على الحق؛ لأن الله سبحانه منعهم من أصحاب الفيل ومن كلّ من أرادهم بسوء، فلو كان محمد صلى الله عليه وآله وسلم مثلهم لكان حاله كحالهم. ثم أخذوا يدخلون في دين الله أفواجاً[1].

فجاء له وفد هوازن وهو بعد في الجعرانة يقسم غنائم حنين،فأسلموا ورد عليهم عوائلهم، ثم ورد عليه سبعمئة من أهل اليمن يكبرون ويهللون، فسرّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم بذلك، ثم توالت عليه الوفود وذلك قوله تعالى: **﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾**.

---

(١) بحار الأنوار ٢١: ٩٩، تفسير الثعلبي ١٠: ٣٢٠، الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ٢٣٠، زاد المسير ٨: ٣٢٤.

ومن المخيف ما روي في تفسير القرطبي(١) وفي (الدر المنثور)(٢) عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**إن الناس دخلوا في دين الله أفواجاً، وسيخرجون منه أفواجاً**».

وقد روي في بعض الكتب أن شاباً مؤمناً دخل على الحجاج أيام ولايته على العراق، فسأله الحجاج: من أين أنت؟ فقال: من أبي وأُمّي. قال: فأين ولدت؟ قال تحت شجرة في البرية. قال: فهل حفظت القرآن؟ قال: ما خفت عليه الضياع حتى أحفظه. قال: فهل جمعت القرآن؟ قال: ما كان متفرّقاً حتى أجمعه. قال: فهل استظهرت القرآن؟ قال: ما شاء الله أن أجعل كتاب الله وراء ظهري. قال: فماذا أقول؟ قال: قل أوعيت القرآن؟ قال: فهل وعيت القرآن؟ قال: نعم. قال: فاقرأ عليّ شيئاً منه، قال: ﴿**بسم الله الرحمن الرحيم * إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَاسَ**﴾ يَخْرُجُونَ مِنْ ﴿**دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً**﴾. قال: ويلك إنها ﴿**يَدْخُلُونَ**﴾. قال: كان ذلك قبل أن تكون أميراً على الناس، أما بعد أن صرت أميرهم فإنهم يخرجون من دين الله أفواجاً(٣).

وقد صدق هذا الأعرابي، فقد كان الحجّاج كما قال فيه العبد الصالح عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كلّ أُمة بخبيثها، وجئنا بالحجاج لغلبناهم. روى ذلك ابن الأثير بتاريخه(٤).

كما روي في المورد نفسه عن مولانا أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال لرجل كان معه: «**إنك لا تموت حتى تدرك فتى ثقيف**». فقيل له: يا أمير المؤمنين، ومن فتى ثقيف؟

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ٢٣١. (٢) الدر المنثور ٦: ٤٠٨.

(٣) عقلاء المجانين ١: ٦٠.

(٤) الكامل في التاريخ ٤: ٥٨٦، وانظر: تاريخ مدينة دمشق ١٢: ١٨٦، تهذيب التهذيب ٢: ١٨٥ / ٣٨٨، البداية والنهاية ٦: ٢٦٧، ٩: ١٥٢، ١٥٦.

فقال: «**رجل يملك عشرين أو بضعاً وعشرين سنة، لا يدع لله معصية إلّا ارتكبها، حتى لولم تبقَ إلّا معصية واحدة وبينه وبينها باب مغلق لكسره حتى يرتكبها، يقتل بمن أطاعه من عصاه**»[١].

وقال المسعودي في (مروج الذهب): وكان ممن أطاع الحجاج وشهد معه مشاهده كلها حتى تحريق البيت الحرام عبد الله بن هاني الأددي، وأدد بطن من كهلان من قحطان اليمن، فقال له الحجاج يوماً: والله ما كافأناك بعد، ثم أرسل إلى أسماء بن خارجة الفزاري أن زوّج عبد الله بن هاني ابنتك. فقال: لا والله، ولا كرامة. فدعا الحجاج بالسياط، فقال: إذن أُزوّجه. وزوّجه ابنته.

ثمّ بعث إلى سعيد بن قيس المهداني رئيس اليمانية، أن زوّج عبد الله بن هاني ابنتك. فقال: ومن أدد؟ والله لا أُزوّجه ولا كرامة. فقال الحجاج: عليّ بالسيف. فقال سعيد: فدعني حتى أُشاور أهلي. فلما شاورهم قالوا: زوّجه وإلّا قتلك. فزوّجه.

ثم قال الحجاج يوماً لعبد الله بن هاني: قد زوجتك ابنة سيد فزارة وابنة سيد همدان وعظيم كهلان، وما أدد هنالك. فقال: لا تقل ذلك أصلح الله الأمير، فإن لنا مناقب ما هي لأحد من العرب. قال: وما هذه المناقب؟

قال: ما سب أمير المؤمنين عثمان في نادٍ لنا قط. فقال الحجاج: هذه والله منقبة.

قال: وشهد منا صفين مع أمير المؤمنين معاوية سبعون رجلاً، وما شهدها مع أبي تراب إلّا رجل واحد، وكان والله على ما علمته امرأ سوء. قال: وهذه والله منقبة.

قال: وما منّا أحد تزوّج امرأة تحبّ أبا تراب وتتولّاه. قال: وهذه والله منقبة.

قال: وما منّا امرأة إلّا ونذرت إن قتل الحسين أن تنحر عشر جزر، ثم لما قتل

---

(١) الكامل في التاريخ ٤: ٥٨٧.

فعلن ذلك. قال: وهذه والله منقبة.

قال: وما منّا رجل عرض عليه شتم أبي تراب ولعنه إلّا فعل ذلك، وقال: وأزيدكم ابنيه الحسن والحسين وأُمّهما فاطمة. قال: وهذه والله منقبة.

قال: ما من أحد من العرب له من الملاحة والصباحة ما لنا. فضحك الحجاج[١].

قالوا: وإنما ضحك الحجاج لأن عبد الله كان قبيح الوجه وحش المنظر.

قيل: وكان الحجاج كثيراً ما يقول لجلاوزته: اطلبوا لي ترابياً أتلذّذ بسفك دمه. وقد قتل الكثير من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام، ومنهم كميل بن زياد النخعي، وقنبر مولى أمير المؤمنين، وسعيد بن جبير، وغيرهم[٢].

وعلى الرغم من كلّ هذه الشواهد والمشاهد فقد حصل من كتاب المسلمين من يعتبر الحجاج وجهاً حضارياً للإسلام، وعدّه فقيهاً في الدين، ومن حفظة القرآن، وصاحب أمانة ووفاء، وصدق وعفو. وكل ما قالت عنه كتب المسلمين من أنه ضرب الكعبة، وقتل الأبرياء، وأبغض الأولياء، فإن ذلك مختلق عليه، وأنه بريء منه، (حشره الله معه).

قوله تعالى: ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾، التسبيح: هو التنزيه لله جلّ وعلا من كلّ ما لا يليق به. والحمد: هو الثناء على الله. والباء في الحمد للمصاحبة، والمعنى: فسبح بحمد ربك تسبيحاً مصاحَباً بالحمد على ما أعطاك من الفتح والنصر.

﴿**وَاسْتَغْفِرْهُ**﴾، أي اطلب منه المغفرة، وهي الستر على الذنوب والتجاوز عن الخطايا، وإنما أُمر صلى الله عليه وآله وسلم بالاستغفار في هذه الآية وفي غيرها ـ كقوله تعالى: ﴿**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾[٣] ـ لأنه قدوة المسلمين، أو لأنه قد يكون مرت عليه لحظة كان مشغولاً فيها عن الذكر، أو مضطرّاً فيها إلى ترك

---

(١) مروج الذهب ٣: ١٥١. (٢) شرح نهج البلاغة ٤: ٦١.

(٣) محمد: ١٩.

الأولى، من باب قولهم: «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ التوّاب: من صيغ المبالغة، وهو الّذي يقبل التوبة بكثرة. ومثله قوله تعالى: **﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً﴾**[1]؛ فإن الغفار هو الّذي يغفر الذنوب بكثرة، فهي من صيغ المبالغة أيضاً؛ فهي والتوّاب من نوع واحد؛ فمَن تاب الله عليه فقد غفر له، ومن غفر له فقد تاب عليه، ومن تاب فقد استغفر، ومن استغفر فقد تاب، فلا فرق بينهما إلّا أن التوبة بالقلب والاستغفار باللسان؛ ولذا صحّ أن تعطف عليه، فيقال: «استغفر الله ربي وأتوب إليه».

وفي كتاب (نهج البلاغة) أن أمير المؤمنين عليه السلام سمع رجلاً يقول ذلك فقال: **«أتدري ما الاستغفار؟ الاستغفار درجة العليين، وهو اسم واقع على ستة معانٍ: أولها الندم على ما مضى. والثاني العزم على ترك العود إليه أبداً. والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة. والرابع أن تعمد إلى كل فريضة ضيعتها فتؤدّي حقها. والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان، حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد. والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية. فعند ذلك تقول: أستغفر الله»**[2].

أقول: وربما احتاجت التوبة إلى بذل النفس، كما قال تعالى: **﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾**[3].

وقد روي عن أُمّ سلمة (رضي الله عنها) قالت: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد نزول هذه السورة لا يقوم ولا يقعد ولا يجيء ولا يذهب إلّا قال: **«سبحان الله وبحمده،**

---

(١) نوح: ١٠.
(٢) نهج البلاغة / الحكمة: ٤١٧.
(٣) البقرة: ٥٤.

أستغفر الله وأتوب إليه»(١).

وفي رواية أُخرى أنهﷺ كان يقول: «**سبحانك اللهمّ وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك**»، فسألناه عن ذلك، فقال: «**إني أُمرت بها**»، ثم قرأ السورة المباركة(٢).

قالوا: وسياق السورة يلوّح إلى فراغ مهمتهﷺ، وإلى تمام أمره الذي جاء به، وعند الكمال يُرتقب الزوال، كما قال الشاعر:

إذا تم شيء بدا نقصه ... ترقّب زوالاً إذا قيل تمْ(٣)

ولذلك أحسَّﷺ من نزولها بقرب أجله، كما أحسّ منها بذلك عمّه العباسرضي الله عنه فبكى، كما تقدم.

وقد روي عن سعيد بن جبيررضي الله عنه قال: كان الخليفة عمر يدني ابن عباسرضي الله عنه، فكأن رجالاً من أصحاب النبيﷺ وجدوا في أنفسهم، فقال: لأُرينكم اليوم منه شيئاً تعرفون به فضله. فسألهم عن هذه السورة، فقالوا: أُمر نبيناﷺ إذ رأى مسارعة الناس في الإسلام، ودخولهم فيه أن يحمد الله ويستغفره. فقال ابن عباس: أعلمه متى يموت، فقال تعالى: **﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً﴾**، فهي آيتك من الموت. فقال: صدقت والذي نفس عمر بيده، ما أعلم منها إلّا ما علمت(٤).

في كتاب (المستطرف) في باب البيان والبلاغة أن امرأة دخلت على الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه، فقالت: يا أمير المؤمنين، أقرَّ الله عينيك، وفرحك بما آتاك، وأتمّ سعدك، لقد حكمت فقسطت. فقال: من تكونين أيتها

(١) نور الثقلين ٥: ٦٨٩ / ٤.
(٢) مجمع البيان ١٠: ٤٦٧.
(٣) المستطرف في كلّ فن مستظرف ١: ١٠١.
(٤) الدرّ المنثور ٦: ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

المرأة؟ فقالت: من آل برمك، ممّن قتلت رجالهم، وأخذت أموالهم، وسلبت نوالهم.

فقال: أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ونفذ فيهم قدره، وأمّا المال فمردود إليك. وبعد أن انصرفت قال لأصحابه: أتدرون ما قالت هذه المرأة؟ فقالوا: ما نراها قالت إلّا خيراً. فقال: ما أظنكم فهمتم ما قالت؛ فأمّا قولها: أقر الله عينيك، فإنها أرادت: أسكن الله عينيك من الحركة، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت. وأما قولها: وفرحك الله بما آتاك، فأخذته من قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ**﴾[1]. و﴿**مُبْلِسُونَ**﴾ أي يائسون من كلّ خير. وأمّا قولها: أتمّ الله سعدك، فأخذته من قول الشاعر:

إذا تم شيء بدا نقصه ... ترقّب زوالاً إذا قيل تمْ

وأما قولها: لقد حكمت فقسطت، فأخذته من قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً**﴾[2]. فتعجّب القوم من ذلك[3].

كما أن في السورة المباركة دلالة على أن الإنسان إذا أحس بقرب أجله وتلاشي عمره أن يبادر إلى التوبة من ذنبه والاستغفار إلى ربه؛ فلعل الله أن يختم له بخير، (اللهم اختم لنا بخير).

---

(١) الأنعام: ٤٤. (٢) الجن: ١٥.

(٣) المستطرف في كلّ فن مستظرف ١: ١٠١ ـ ١٠٢.

سورة الكافرون

﴿٣٥﴾

مصير الكافرين يوم القيامة

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَاتَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾[1].

قال المفسرون: إنها تعدل ربع القرآن[2]، وقالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قرأها في ركعتي الفجر وركعتي الطواف. وقال فقهاء الإمامية: يجوز عدول المصلي في صلاته اختياراً من سورة إلى سورة ما لم يبلغ النصف على الأحوط لزوماً في غير سورة (الجحد) و(التوحيد)، وأمّا فيهما فلا يجوز العدول منهما إلى غيرهما، ولا حتى من إحداهما إلى الأُخرى.

نعم، إذا لم يتمكّن المصلي من إتمام السورة التي بدأها لضيق الوقت عن إتمامها، أو لنسيانه جملة أوكلمة منها ولم يتذكرها، جاز له أن يعدل إلى أي سورة شاء وإن كان قد بلغ النصف، أو كانت السورة التي شرع فيها هي سورة (الجحد) أو (الإخلاص)؛ لأن عدوله حينئذٍ لم يكن اختيارياً.

---

(١) الجحد: ١ ـ ٦.

(٢) الكافي ٢: ٦٢١ / ٧، مسند أحمد ٣: ١٤٧، ٢٢١.

وروى الطبراني عن جبلة بن حارثة أخي زيد بن حارثة عن النبيﷺ أنه قال: «**إذا أويت إلى فراشك فاقرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ حتى تمر بآخرها؛ فإنها براءة من الشرك**»(١).

قالوا: وكان سبب نزولها أن جماعة من شياطين قريش ـ ومنهم العاص بن وائل السهمي، والوليد بن المغيرة المخزومي، وأُمية بن خلف الجمحي ـ جاؤوا إلى رسول اللهﷺ فقالوا: هلمّ فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد، ونشترك نحن وأنت في أمرنا كله، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا فقد شاركناك فيه وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما بيدك كنت قد شاركتنا فيه وأخذت بحظك منه. فأنزل الله عليه هذه السورة المباركة: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**﴾...(٢).

﴿**والْكَافِرُونَ**﴾: جمع للكافر من الرجال، أما الكافرة من النساء فجمعها كوافر، قال تعالى: ﴿**وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ**﴾(٣)، أي أن الرجل إذا أسلم لا يجوز له أن يتمسك بعصمة زوجته الكافرة، أي بعقدها وبزواجه منها، بل عليه أن يفارقها بعد إسلامه وبقائها على الكفر؛ فإن الإسلام قد حرمها عليه كما حرم المسلمة على الكافر أيضاً.

قال بعض المفسرين: وإنما أمر الله رسولهﷺ أن يخاطبهم بصفة الكفر في السورة المذكورة للتوبيخ والتشنيع؛ ولذلك رفع الحرج عنه بكلمة ﴿**قُلْ**﴾؛ لأنها تدل على أن الكلام الذي خاطبهم به لم يكن من عنده، وإنما هو مأمور أن يبلغه إليهم: ﴿**وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إلا البَلاغُ المُبِينُ**﴾(٤). ويدل هذا العرض على أنهم لم يكونوا على برهان من آلهتهم، ولا على ثقة من أمرهم، وإنما هم كما قال الله عنهم: ﴿**إنَّا**

---

(١) المعجم الكبير ٢: ٢٨٧.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ٢٢٥.
(٣) الممتحنة: ١٠.
(٤) النور: ٥٤.

وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[١]، وكما قال تعالى: **﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا﴾**[٢]، وظنّوا أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثلهم كما جاء في المثل: «كل يرى الناس بعين طبعه»، فعرضوا عليه ذلك، ورغبوه في العافية، وحبّبوا إليه الراحة. فلما أنزل الله عليه هذه السورة المباركة، وقرأها عليهم علموا أنه على غير شاكلتهم، وأنه وكل مسلم ـ مع علمهم بأن الصلح خير، والعافية من بلاء الناس نعمة ـ لا يتركون دينهم لشيء؛ لأن الدين فوق كلّ شيء.

فلما سمعوا ذلك منه ساوموه بالمال والسلطان، فقالوا لأبي طالب عليه السلام: قل لابن أخيك إن كان يريد مالاً جمعنا له من المال ما يكون به أغنى رجل في قريش، وإن كان يريد السيادة فإنّا نسوّده عليها على أن يكفّ عمّا هو فيه، فقد سبّ آلهتنا، وضلل آباءنا، وسفّه أحلامنا. فلما بلّغه عمّه ما قالوه، قال: «**والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته، حتى يظهره الله أو تنفرد سالفتي**»[٣]. فيالعظمة الحق وجلال الإيمان.

ثم أخبرتهم السورة الكريمة عن أنفسهم، فقالت: **﴿وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾**، وإنما كانوا كذلك؛ لأن كفرهم كفر عناد، بدليل قوله تعالى: **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾**[٤]، وبدليل قوله تعالى: **﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾**[٥].

وهذا هو ما أخبرت عنه الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام في خطبتها

---

(١) الزخرف: ٢٢. (٢) البقرة: ١٧٠.

(٣) تفسير القمي ٢: ٢٢٨، شرح نهج البلاغة ١٤: ٥٤، السيرة النبوية (ابن كثير) ١: ٤٧٤، وليس فيها: «تنفرد سالفتي». (٤) العنكبوت: ٦١.

(٥) العنكبوت: ٦٣.

المشهورة، حيث قالت عن أبيهاﷺ: «**فرأى الأُمم فرقاً في أديانها، وعكّفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها**».

فآية ﴿**وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾، وما بعدها من هذه السورة الكريمة من العلوم الغيبية، والمعاجز العلمية التي جاء بها القرآن الكريم؛ لأن الله جلّ وعلا أخبر بها عن أولئك النفر الذين عرضوا ذلك العرض على رسول اللهﷺ بأنهم لا يصلون إلى عبادة الله سبحانه. وكان الأمر كذلك، فما تواكلهم على الكفر.

فلو كان هذا القرآن من عند غير الله لما استطاع أن يطرح هذا القرار الغيبي خوفاً من أن يكذّبه الزمن فيما أخبر به؛ لأن الإنسان قابل للتغيُّر، فربما أسلم الكافر، وربما كفر المسلم، وفي التاريخ ألف شاهد وشاهد على ذلك.

فممّن كفر بعد إسلام عبد الله بن أبي سرح، فإنه أسلم قبل الفتح وهاجر إلى المدينة، فقرّبه النبيﷺ وجعله أحد كتاب الوحي، ولكن ذلك لم يدم، فإنه ما أسرع أن ارتد وعاد إلى مكة، وجعل يقول لقريش: إن محمداًﷺ لا يعلم ما يقول، وإني كنت أُصرّفه كيف شئت، كان يملي عليّ «عزيز حكيم»، فأقول: أو «عليم حكيم»، فيقول: نعم، كله صواب. وهكذا، كلّما قلت شيئاً قال: نعم اكتب، فكله صواب، ولو شئت أن أقول مثل ما يقول لقلت.

قال بعضهم: وفيه وفي مسيلمة الكذاب وأمثالهما من الناس أنزل الله تعالى قوله: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللّهِ كَذِباً أَوْ قَالَ أُوْحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنَزلَ اللّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلآئِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُواْ أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ**﴾[١].

وممن كفر بعد إسلامه أيضاً جبلة بن الأيهم الغساني آخر الملوك الغساسنة

---

(١) الأنعام: ٩٣.

بالشام، فإنه قدم على الخليفة عمر وأسلم على يده، وخرج معه إلى الحج، فبينما هو يطوف بالكعبة إذ وطئ إزاره رجل من بني فزارة فحلّه، فالتفت إليه جبلة مغضباً، ولطمه لطمة هشّم بها أنفه، فشكاه الفزاري إلى عمر، فقال له عمر: إما أن ترضيه وإلّا أقدته منك. فقال: أتقيده مني وأنا ملك وهو سوقة؟ فقال عمر: قد جمعك وإياه الإسلام، فلا تفضله بشيء إلّا بالتقوى. فقال جبلة: والله لقد رجوت أن أكون في الإسلام أعزّ مني في الجاهلية. فقال له عمر: دع هذا عنك، فإنك إن لم ترضِه أقدته منك. قال: فأخّرني إلى غدْ.

فأخره، فلما جنح الليل خرج جبلة وأصحابه من مكة وسار إلى ملك الروم بالقسطنطينية، ودخل في دينه ـ وهو النصرانية ـ وعاش مع ملك الروم إلى أن مات.

ولكنه أدرك في آخر عمره خطأه وسوء اختياره في ارتداده عن الإسلام، فأنشد قبل موته:

تنصرت الأشراف من أجل لطمة ... وما كان فيها لو صبرت لها ضررْ
تكنفني فيها لجاج ونخوة ... فبعت لها العين الصحيحة بالعورْ
فيا ليت أُمي لم تلدني وليتني ... رجعت إلى الأمر الذي قاله عمرْ[1]

وعلى العكس من هؤلاء عمر الأُصيرم بن ثابت بن وقش، من بني عبد الأشهل الأوسي الأنصاري، فقد كان شديد النفور من الإسلام، وكان يعيب قومه على متابعة الرسول ﷺ والإيمان برسالته، وظلّ مشركاً غير مقتنع بالإسلام حتى كان يوم أُحد، فأدركته الهداية، فأسلم بينه وبين ربه، وحمل سلاحه واتّجه إلى المعركة، فقاتل حتى أُثخن بالجراحات، وخرّ صريعاً بين القتلى.

---

(١) النص والاجتهاد: ٣٦٠، شرح نهج البلاغة ١: ١٨٣.

فلما ألقت الحرب أوزارها، جاء رجال من بني عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة، وإذا هم يرونه صريعاً، فقال بعضهم لبعض: والله إن هذا للأصيرم، فما جاء به، ولقد تركناه منكراً للإسلام؟ فسألوه وقالوا: ما الذي جاء بك يا عمر الأصيرم؟ أحدبٌ على قومك، أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، وقد آمنت بالله ورسوله. ولم يلبث أن مات. فلما ذكروه للرسول ﷺ قال: «**إنه من أهل الجنة**». وكان أبو هريرة يقول في حقّ الأصيرم: أتعرفون عن رجل دخل الجنة ولم يصلّ لله صلاة واحدة؟ إنه الأُصيرم[١].

ومثله مخيرق اليهودي على رواية من قال بإسلامه، واستدل على ذلك بوصيته بمتروكاته للرسول ﷺ. وكان من متروكاته سبعة بساتين أوصى بها وبغيرها للرسول ﷺ، ثم دخل المعركة يوم أُحد وقاتل حتى قتل. (اللهمّ اختم لنا بخير).

---

(١) مسند أحمد ٥: ٤٢٨، ٤٢٩.

﴿٣٦﴾

الثبات على المبدأ

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1].

لا يخفى أن ظاهرة تكرار الألفاظ موجودة في السورة الكريمة، حتى إن أبا شاكر الديصاني أحد الزنادقة في عصر الإمام الصادق عليه السلام سأل محمد بن النعمان المعروفَ عند الشيعة بمؤمن الطاق، وعند أعدائهم بشيطان الطاق، ويعرف أيضاً بأبي جعفر الأحول، سأله عن سبب هذا التكرار، وهل يرد في كلام الحكيم مثل هذا التكرار، فأعياه الجواب، ولم يدرِ ماذا يقول، فتوجه إلى المدينة ودخل على الإمام الصادق عليه السلام وسأله عن ذلك، فأجابه الإمام عليه السلام أن سبب ذلك التكرار «**أن قريشاً قالت لرسول الله صلى الله عليه وآله: تعبد آلهتنا سنة وتعبد إلهك سنة، ونعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فأجابهم الله بمثل ما قالوا**».

فذهب أبو جعفر بالجواب إلى أبي شاكر الديصاني، فلما سمع الجواب قال: هذا

---

(١) الجحد: ٤ ـ ٦.

ما حملته الإبل من الحجاز[١]. يشير بذلك إلى أن هذا مـن كـلام الإمـام جـعفر الصادق عليه السلام.

وقال بعضهم: إنما تكررت هذه الألفاظ لأنها لا تعني زماناً واحداً، وإنما تعني الحال والاستقبال، فقوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾، تعني الزمن الحاضر، وقوله تعالى: ﴿**وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾، تعني الزمن المستقبل. فهي من قبيل قوله في سـورة التكاثر: ﴿**كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمون**﴾ على رأي من قال: إن معنى الآية الأُولى ﴿**كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾: ماذا ترون في قبوركم، ومعنى الآية الثانية ﴿**ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمون**﴾: ماذا ترون بعد نشوركم.

ولذلك فإن هذه الآيات لا تعدّ تكراراً معنوياً وإن عـدت تكـراراً لفـظياً؛ لأن بعضها للحال وبعضها للاستقبال، ولولا ذلك لما عدّت من المعاجز العلمية والعلوم الغيبية كما تقدم.

وقال بعضهم: إنها لا تعد تكـراراً أيـضاً؛ لأن الآيـتين الأُولـيـين تشـيران إلى الاختلاف في المعبود، والآيتين الأخيرتين تشيران إلى الاختلاف فـي العـبادة. فمعنى الآيتين الأوليين ﴿**لاَ أَعْبُدُ**﴾ آلهتكم التي تعبدونها ﴿**وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ**﴾ إلهي الذي أعبده، ومعنى الأخيرتين ﴿**وَلاَ أَنَا عَابِدٌ**﴾ عبادتكم التي تعبدونها ﴿**وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ**﴾ عبادتي التي أعبدها؛ فعبادتي شكر وعبادتكم شرك، وعبادتي خشوع ودعاء وعبادتكم تصدية ومكاء، قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً**﴾[٢].

والمكاء: الصفير، والتصدية: التصفيق.

---

(١) تفسير القمي ٢: ٤٤٥ ـ ٤٤٦.
(٢) الأنفال: ٣٥.

وعلى هذا المعنى تكون ﴿وَمَا﴾ في الآيتين الأُوليين نافية، وفي الآيتين الأخيرتين مصدرية.

وقال بعضهم: إنها للتكرار الذي يراد منه التأكيد، ومعنى ذلك أنه لا مساومة ولا مهادنة في الدين، وأنه لا لقاء بيني وبينكم لا في العبادة ولا في المعبود. والكلمة الفاصلة هي ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾ فدينكم مزاعم وأقوال، وديني عقائد وأعمال.

قال السيد أحمد الفهري في كتابه (دروس في التفسير): وبقي شيء آخر وهو: أن معبود الكفار جاء في هذه السورة الكريمة تارة بصيغة المضارع ﴿**لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ**﴾، وتارةً بصيغه الماضي ﴿**وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ**﴾، ولعل ذلك إشارة إلى أن معبودهم يتغير بتغير الزمان والمكان، فقوم يعبدون هذا وقوم يعبدون هذا، وربما تركوا عبادة صنم من أصنامهم إلى عبادة آخر، وربما تلف صنمهم بسرقة أو بغيرها، فيأتون بغيره، وربما سافر الرجل منهم فيصحب معه صنماً آخر غير الصنم الذي كان يعبده في بيته أو في بلده.

وربما خصّص بعضهم عبادته بصنم خاص يصنعه لنفسه على نفقته فلا يعبد غيرَه، ولا يقبل أن يعبده معه غيرُه. ومن أولئك عمرو بن الجموح، فقد روي أنه اتخذ صنماً لنفسه وجعله في مكان خاصّ من بيته، وسماه منافاً، وعكف على عبادته. ولما أرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة مصعب بن عمير العبدري، وأسلم على يده أكثر أهل المدينة، وكان منهم أولاد عمرو بن الجموح، أرادوا منه الإسلام فأبى، وأصرّ على عبادة ذلك الصنم، فجعل بعض أبنائه يتواطؤون مع بعض بني عمومتهم المسلمين على أن يدخلوا البيت ويسرقوا صنم والدهم، ويلقوه في بعض حضائر النجاسات؛ لعله ينتبه إلى أن هذا الصنم الذي يعبده جماد لا يستطيع حتى أن يستصرخ الناس للدفاع عنه، فضلاً من أن يكون هو المدافع عن نفسه. فلمّا فعل بنو عمومتهم ذلك وفقد والدهم صنمه، خرج لطلبه، فإذا به يجده في

بعض حضائر النجاسة فأخذه ونظفه وطيّبه وسجد له، وهو يردد كلمات الاعتذار له من غفلته عنه وعدم حراسته له.

فلما كثر عليه ذلك قلده سيفه وقال له: ادفع به عن نفسك. فجاء بنو عمومتهم وسرقوه وسرقوا السيف معه، وربطوه مع جيفة كلب وطرحوهما في بئر، فلما خرج يطلبه ووجده كذلك أدركه رشده، فجعل ينظر إليه ويقول:

والله لو كنت إلهاً لم تكنْ أنت وكلب وسط بئر في قرنْ

ثم تركه وذهب إلى مصعب بن عمير وأسلم على يده وحسن إسلامه، وقد استشهد رضي الله عنه بين يدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم أُحد(١).

ومنهم أبو طلحة الأنصاري؛ فإنه كان قد خصّص لنفسه صنماً من خشبة يعبده. وقد روي أن أُمّ سليم بنت ملحان بن خالد الأنصاري أُم أنس بن مالك كانت من القانتات لله والمجاهدات في سبيل الله، ومن السابقات إلى الإسلام، وكان زوجها مالك بن النظر والد أنس بن مالك يؤذيها في دينها، فكانت تدعو الله أن يريحها منه، فخرج إلى الشام فلقيه عدو له في الطريق فقتله.

فلما هلك جاء أبو طلحة المذكور واسمه زيد بن سهل الأنصاري يخطبها، وكان له فيها هوىً ومودّة سابقة، فقالت له: ما بي عنك رغبة، ولكن هل علمت أن إلهك الذي تعبده خشبة نجرها عبد بني فلان لو أشعلت فيها النار لاحترقت، فإن أنت تركت عبادته إلى عبادة الله وحده كان ذلك صداقي منك(٢).

قالوا: وكان في المدينة عبد نجار يحسن نجارة الأصنام، فكان الناس من أهل المدينة وغيرهم مزدحمين عنده ليصنع لهم أرباباً كما يحبون، فلما قالت له ذلك امتنع عن إجابتها وامتنعت هي عن موافقته. ومازال يعاودها وهي تأبى عليه حتى

---

(١) أسد الغابة ٤: ٩٤. (٢) المستدرك على الصحيحين ٢: ١٧٩.

أخضعته إلى الإسلام فتزوجت به، ولكنه لم يدخل الإيمان في قلبه حتى هاجر الرسول ﷺ وصحبه، فحينئذٍ دخل الإيمان في قلبه، وقد توفي بالمدينة سنة ٣٢ أو سنة ٣٤هجرية.

أقول: وإن من العجب أن يكون رجال من أمثال عمرو بن الجموع وأبو طلحة الأنصاري وغيرهما من السادات يؤمنون بأصنام من الخشب والحجر كلّ هذا الإيمان العميق، وكيف لم تصنهم عقولهم عن أمثال هذه الخرافات والترّهات، وهم من عظماء الرجال؟

وأعجب من ذلك عيبهم لتوحيد الله سبحانه وتعالى، وعيبهم على رسول الله ﷺ بأنه يدعوهم إلى الإيمان بألوهيته ووحدانيته، ويقولون: ﴿**أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**﴾(١). وأعجب من ذلك ما نراه في هذا الزمان الذي يسمى زمان النور وزمان الذرّة وزمان الفضاء، فإن فيه رجالاً يُعدون من قادة الشعوب وزعماء العالم وسادات الأُمم يحملون الشهادات العليا، ويحسنون كثيراً من العلوم، ويخترعون ويكتشفون؛ وإذا منهم من يؤلّه البقرة، ومنهم من يحمل الصليب، ومنهم من يعبد الفيل، ومنهم من ينكر وجود الخالق جلّ وعلا بأقواله وأفعاله! (نسأل الله أن يعصمنا من ذلك، وأن يثبت قلوبنا على دينه وسنة نبيه، حتى نقول لهم ما أمره الله أن يقوله لكفار قومه: ﴿**لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ**﴾...).

وليس معنى ذلك أنه ﷺ أقرّهم على دينهم، ورخّص لهم في كفرهم، كلّا، ولكن هذا القول من باب التهديد كقوله تعالى: ﴿**قُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ**﴾(٢)، ومثل قوله تعالى: ﴿**وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ**﴾(٣).

---

(١) صٓ: ٥.
(٢) هود: ١٢١.
(٣) يونس: ٤١.

وغير ذلك من الآيات المباركة التي تحمل هذا النوع من الجهاد المنطقي عن طريق عدم الاهتمام مقابل الأشخاص المعاندين الحاقدين.

سورة الكوثر

﴿٣٧﴾

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾.

قال أهل التفاسير: إن كلمة ﴿**إِنَّا**﴾ تارةً يراد بها الجمع، وتارة يراد بها التعظيم، فأما الجمع فإنه منفي عنه جلّ وعلا؛ لأنه واحد لا شريك له ولا عديل، فإذا انتفى الأول بقي الثاني وهو التعظيم، فهو أهل الكبرياء والعظمة، وأهل الجود والجبروت، وأهل العفو والرحمة، وأهل التقوى والمغفرة. وفي تعظيمه لنفسه جلّ وعلا بكلمة ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ**﴾ تنبيه علىٰ عظمة العطية وهي ﴿**الْكَوْثَرَ**﴾ للمخاطب بالكاف، وهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقد خاطبه فيها بلفظ الماضي، فقال: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ**﴾ وذلك لأمرين:

١ ـ أنه تعالى يقول له: قد هيّأنا لك هذا العطاء قبل دخولك في هذا الوجود، ولهذا جاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**كنت نبياً وآدم بين الماء والطين**»(١).

وجاء عن ابنته الطاهرة فاطمة عليها السلام أنها قالت في خطبتها المشهورة: «**وأشهد أن أبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم عبده ورسوله، اختاره وانتجبه قبل أن أرسله، وسماه قبل أن**

---

(١) مناقب آل أبي طالب ١: ١٨٣.

اجتبله، واصطفاه قبل أن ابتعثه، إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة، علماً من الله تعالى بمآيل الأُمور، ومعرفة بحوادث الدهور، وإحاطة بمواقع المقدور»(١).

٢ ـ أنه تعالى أراد أن يطمئن النبيﷺ بأن هذا العطاء محقّق الوقوع، وكل ما يكون محقّق الوقوع في المستقبل يصحّ أن يعبر عنه بلفظ الماضي.

وأمَّا أنه جلّ وعلا خاطبهﷺ بكاف الخطاب ولم يذكره باسمه ولا بلقبه، ولا بصفته وكنيته، فقد قيل: إن ذلك لثلاثة أُمور:

١ ـ أنه جلّ وعلا فعل ذلك تشريفاً لنبيه بالمخاطبة بكاف الخطاب.

٢ ـ ليعلم أن هذا العطاء ليس من جهة مقامه أو نسبه أو نبوته، بل هو تفضل منه جلّ وعلا؛ لأن تعليق العطاء على الوصف مشعر بالعليّة.

٣ ـ أن ضمير المخاطب يعطي خصوصية في الحب، ويستعمل في المحاضرات بين الحبيب وحبيبه للتدليل على المحبة، فخاطبه الله سبحانه بذلك؛ لأنه حبيبه، واتّباعه يوجب محبته، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ**﴾(٢).

وأما ما هو ﴿**الْكَوْثَرَ**﴾ الذي أعطاه إياه، فقد قيل: إن الكوثر صفة مأخوذة من الكثرة، وتفيد المبالغة التي تقال فيما يتجاوز عن الحد في الكثرة من الأُمور الحسنة والسيئة، فالكوثر الذي في هذه الآية الكريمة يعني الكثرة في الأُمور الحسنة. كيف لا والمعطي هو الله، والمعطى هو حبيبه محمدﷺ؟

ويذكرون من تلك الأُمور الحسنة الكثيرة أُموراً ثلاثة:

١ ـ كثرة النسل.

٢ ـ كثرة الأتباع.

---

(١) الاحتجاج ١: ١٣٣.
(٢) آل عمران: ٣١.

٣ـ حوض الكوثر.

وكل هذه الأُمور الثلاثة من الأُمور الغيبية التي لم يحصل منها شيء بعدُ حينئذٍ، فقد روي أنه لما مات عبد الله بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو الولد الثاني لخديجة، قال العاص بن وائل السهمي: إن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أبتر فلا يهمكم أمره، إنه يموت فتموت دعوته، وينقطع أمره؛ لأنه لا عقب له. فأنزل الله هذه السورة: ﴿**إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ**﴾[1]. يعني كثرة النسل فلا ينقطع نسلك، وكثرة الأتباع فلا تنقطع دعوتك، وكثرة الخير فلا تنقطع بركتك ولا ينقطع عطاؤك حتى في ساحة المحشر يوم القيامة؛ فإن لك المقام المحمود والحوض المورود. والمقام المحمود هو مقام الشفاعة، والحوض المورود هو حوض الكوثر.

إذن فالآية الكريمة قابلت الانقطاع الذي زعمه له شانئه بالامتداد الذي تفضل عليه به بارئه، ويتمثل ذلك الامتداد في تلك الأُمور الثلاثة التي كانت كلها حين نزول هذه الآية الكريمة من الأمور الغيبية التي لم يحصل منها شيء بعدُ كما تقدم.

وقد حقق الزمن حصول واحدة منها، وهي كثرة نسله الذي جاء من حبيبته فاطمة عليها السلام التي كانت حين نزول هذه الآية طفلة صغيرة، ولهذا قال بعضهم: إن من معاني ﴿**الْكَوْثَرَ**﴾ فاطمة عليها السلام[2]؛ نظراً إلى أنّها أُمّ الذرية الطاهرة التي انحصرت فيها ذرية الرسول صلى الله عليه وآله، ولذلك كنيت عليها السلام أُمّ أبيها.

وقد جاء عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**ذرية كلّ نبي من صلبه، وذريتي من صلب علي** عليه السلام»[3]. وقد لعب السيف والسم والتقتيل والتشريد في هذه الذرية الطاهرة إلى حد لو حصل مثله في غيرهم لما بقي منهم نافخ ضرمة، ولكن الله جلّ وعلا ـ وعلى الرغم من

---

(١) التبيان ١٠: ٤١٨.
(٢) التفسير الكبير ٣٢: ١١٧.
(٣) الاحتجاج ١: ٧٧.

أعدائهم ـ حقق فيهم وعده، واستجاب فيهم دعوة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا لعلي وفاطمة عليهما السلام، فقال: «**اللهمّ أخرج منهما الكثير الطيّب**»[١].

وهذا ما حصل، فلا أكثر ولا أطيب من نسلهما عليهما السلام. وقد خمَّس المؤلف أبياتاً جاءت في مدحهم (صلوات الله وسلامه عليهم) فقال:

بني طه لكم طابت أُصولُ ... وأنتم للورى ظل ظليلُ
لسامي قدركم عزّ الوصولُ ... (إليكم كلّ مكرمة تؤولُ
إذا ما قيل جدُّكُمُ الرسولُ)

صلاة الله في الصلوات تترى ... عليكم ضحوةً وعشاً وفجرا
وذا كافٍ لكم في الناس فخرا ... (كفاكم من مديح الناس طرّا
إذا ما قيل أُمُّكُمُ البتولُ)

بني الزهرا لكم مني سلامُ ... وليس لخصمكم عندي مقامُ
وفي القرآن بغضكُمُ حرامُ ... (فلا يبقى لمادحكم كلامُ
إذا تمّ الكلام فما يقولُ)[٢]

قالوا: وسيحقّق الزمن كثرة أتباعه صلى الله عليه وآله وسلم عند ظهور ولده الإمام المهدي عليه السلام الذي قال عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «**لو لم يبقَ من الدنيا إلّا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج رجل من ولدي اسمه اسمي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً**»[٣].

قالوا: وإن من الظلم والجور الذي يمحقه الإمام المهدي عليه السلام تلك الديانات الزائفة الجائرة، وإن من القسط والعدل الذي يملأ به الأرض دين الإسلام.. دين

---

(١) كشف الغمة ١: ٣٥٩.

(٢) انظر الأصل في: مناقب آل أبي طالب ٣: ١٧٦، روضة الواعظين: ٢٤٣.

(٣) الإمامة والتبصرة: ١٥٣.

السعادة والسلام.. دين الألفة والوئام.. دين المودّة والاحترام. وقد بشرت بذلك عدة من الآيات، ومنها قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾(١).

فإن من معاني ﴿**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾ أي ليظهر الإسلام على الأديان كلها، فلا يبقى على الأرض دين غيره.

ومنها قوله تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ**﴾(٢).

قال العلماء: ويكون انتقال أكثر الناس إلى الإسلام في زمان الإمام عليه السلام برضا وقناعة؛ لأن الله جلّ وعلا يوجد لهم الأسباب التي يحصل لهم بها ذلك؛ لأن القوة وحدها لا تكفي في هذا المقام، فلابدّ من وجود الأسباب المقنعة، ومنها نزول عيسى بن مريم عليه السلام وانضمامه إلى الإمام المهدي عليه السلام.

قالوا: وقد أشارت الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ**﴾(٣) فقد جاء في تفسير هذه الآية الكريمة أن من أهل الكتاب حتى من اليهود وغيرهم فضلاً عن المسيحيين من يؤمن بالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام عندما ينزل على الإمام المهدي عليه السلام، ويصلّي خلفه، ويكون وزيراً له، فيأخذهم إلى الإسلام برضاً وقناعة منهم(٤).

وفي (الميزان) عن (تفسير القمي)(٥) بسنده عن شهر بن حوشب قال: قال لي الحجّاج: ياشهر، آية في كتاب الله قد أعيتني. فقلت: وأي آية هي يا أمير؟ فقال:

---

(١) التوبة: ٣٣.

(٢) القصص: ٥ ـ ٦.

(٣) النساء: ١٥٩.

(٤) التبيان ٣: ٣٨٦، وانظر ينابيع المودّة ٣: ٢٣٧.

(٥) تفسير القمّي ١: ١٥٨.

هي قوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ**﴾، والله إني لأمرّ باليهودي والنصراني فتضرب عنقه ثم أرمقه بعيني فما أراه يحرك شفتيه بشيء حتى يخمد. قال: فقلت له: يا أمير ليس هي على ما أوّلت. قال: فكيف هي؟ قلت: إن عيسى بن مريم ينزل قبل يوم القيامة إلى الدنيا فلا يبقى أهل ملّة يهودي ولا غيره إلّا آمن به قبل موته، ويصلي خلف المهدي عليه السلام. قال: ويحك أنّى لك هذا؟ ومن أين جئت به؟ قال: فقلت: حدثني به محمد بن علي بن الحسين عليهما السلام، فقال: والله لقد جئت بها من عين صافية[1].

وفي (الميزان) أيضاً عن (الدر المنثور)[2] أنه قال: أخرج أحمد[3] والبخاري[4] ومسلم[5] والبيهقي في (الأسماء والصفات)[6]، قالوا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**كيف أنتم إذا نزل فيكم ابن مريم وإمامكم منكم**»[7].

ومن تلك الأسباب التي تحصل بها للناس القناعة والرضا يومئذٍ رجوعُ بعض المؤمنين ليكونوا من أنصاره عليه السلام. وقد روى السيد الأمين رحمه الله في الجزء الخامس من (المجالس السنية) عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**يخرج مع الإمام القائم عليه السلام خمسة عشر من قوم موسى عليه السلام، الذين كانوا يهدون بالحق وبه يعدلون، وسبعة من أهل الكهف ويوشع بن نون وسلمان أو ـ سليمان ـ وأبو دجانة الأنصاري والمقداد ومالك الأشتر، فيكونون بين يديه أنصاراً وحكاماً**»[8].

وذكر رحمه الله أن واحداً من الربذة في أنصار الإمام المهدي، ولعله أبو ذر الغفاري رضي الله عنه.

---

(١) الميزان ٥: ١٤٣.
(٢) الدر المنثور ٢: ٢٤٢.
(٣) مسند أحمد ٢: ٣٣٦.
(٤) صحيح البخاري ٤: ١٤٣.
(٥) صحيح مسلم ١: ٩٤.
(٦) الأسماء والصفات ٢: ٤٣٢ / ٨٥٥.
(٧) الميزان ٥: ١٤٤.
(٨) المصدر غير متوفّر لدينا، انظر الإرشاد ٢: ٣٨٦.

ومن تلك الأسباب التي يحصل بها الرضا والقناعة لكثير من الناس إحياء بعض المعاندين الذين يعتمد عليهم بعض أهل الكفر والضلال، فيحشرون لهم ليخبروهم بسوء ما حصل لهم ليقتنعوا بما يسمعونه منهم، قال تعالى: **﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾**(١)، فإن هذه الآية ـ على قول من قال: إن **﴿مِن﴾** التي فيها للتبعيض ـ تدل على ذلك، أي تدل على أن الله جلّ وعلا يحشر بعض المكذبين قبل يوم القيامة؛ لأن حشر يوم القيامة للجميع، كما قال تعالىٰ: **﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾**(٢).

وفي (الميزان) عن (تفسير القمي)(٣) عن حماد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**ما يقول الناس في هذه الآية: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً﴾؟**». قلت: يقولون: إنه في القيامة. قال: «**ليس كما يقولون، إنها في الرجعة، أيحشر الله يوم القيامة من كل أُمّة فوجاً ويدع الباقين؟ إنما هو يوم القيامة: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾**...»(٤).

وفي كتاب (شاعر العقيدة السيد الحميري) للسيد محمد تقي الحكيم وفي غيره(٥) أيضاً أنه دخل سوار بن عبد الله العنبري التميمي ـ قاضي البصرة من قبل المنصور؛ والمنصوب في مسجدها من قبله ليؤمّ الناس، المتوفى سنة ٢٤٥ هـ ـ دخل على المنصور يوماً وعنده السيد إسماعيل الحميري المتوفى سنة ١٧٩ هـ، وهو ينشده قصيدته التي منها قوله:

إن الإله الذي لا شيء يشبهه ... أعطاكُمُ الملك للدنيا وللدينِ

---

(١) النحل: ٨٣. (٢) الكهف: ٤٧.

(٣) الفصول المختارة: ٩٢ ـ ٩٥، أخبار القضاة ٢: ٧٤ ـ ٧٥، وانظر ذيلها في ص ٧٠ ـ ٧١ منه. (٤) الميزان ١٥: ٤٠٦.

(٥) تفسير القمي ١: ٢٤.

أعـــطاكُـمُ الله مـلكاً لا زوال له　　حتى يقاد إليكم صاحب الصينِ
وصــاحب الهـند مأخـوذ بـرمته　　وصاحب الترك مأخوذ على هـونِ

والمنصور في نشوة مما يسمع، فلم يهن على سوار ذلك؛ لبغضه للسيد الحميري من أجل ولائه لأهل البيت عليهم السلام، فاربدّ وجهه، وجعل يدلك إحدى يديه بالأُخرى، فاستنكر المنصور ذلك منه وسأله: مالك؟ أرابك شيء؟ فقال: نعم، إن هذا الرجل يعطيك بلسانه ما ليس في قلبه، والله يا أمير المؤمنين ما صدقك ما في نفسه وإن ولاءه لغيرك. فقال المنصور: والله ما عرفت منه إلّا صدق مودّة وإخلاص، وإنـه لشاعرنا ولينا. فقال الحميري: والله يا أمير المؤمنين، ما تحملت بغضكم لأحد، وما وجدت أبوي عليه فافتتنت به (يعرض بسوار بأنه مقلد لأبـويه)، ومـازلت مشهوراً بولائكم في أيام أعدائكم. فقال المنصور: صدقت. فقال الحميري وقـد شجّعه تصديق المنصور له: ولكن هذا وأهليه ـ يعني سواراً القـاضي ـ أعـداء الله ولرسوله قديماً وحديثاً، وهم الذين نادوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مـن وراء الحـجرات، فنزلت فيهم آية من القرآن ـ يعني قوله تعالى ـ: ﴿**إِنَّ الَّـذِينَ يُـنَادُونَكَ مِـن وَرَاء الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[1].

ثم أنشد الحميري رحمه الله:

يـــا أمــين الله يـا مـنـ　　ـــصورُ يـا خـير الولاةِ
إن ســوّار بـن عـبد اللـ　　ــــه مـن شـرّ الـقـضاةِ
نـــــعثلي جـــــملي　　لكُـــمُ غـــير مــواتِ
جــــدّه ســـارق شـــاة　　فـــجرة مــــن فـــجراتِ

(١) الحجرات: ٤ ـ ٥.

لرســـــول الله والقـــا ذفـــــه بـــــالمنكراتِ
وابــن مــن كــان يــنادي مــــن وراء الحـــجراتِ
فـــاكـــفنيه لاكـــفاه الــ ــــله شـــرّ المـعضلاتِ

فأراد سوار أن يرميه بآخر سهم في كنانته، فقال للمنصور: يا أمير المؤمنين، إنه يؤمن بالرجعة. فقال الحميري: نعم، إني أقول بالرجعة على ما قاله الله جلّ وعلا ﴿**وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِّمَّن يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾، وقد قال تعالى في موضوع آخر: ﴿**وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً**﴾، فعلمنا أن هناك حشرين؛ أحدهما عام والآخر خاص، وقال تعالى: ﴿**فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ**﴾[2].

فهذا كتاب الله، وقد قال رسول الله ﷺ: «**لم يجرِ في بني إسرائيل شيء إلّا ويكون في اُمّتي مثله حتى المسخ والخسف والقذف**». فالرجعة التي أذهب إليها هي ما نطق بها القرآن وجاءت بها السنة، وإنني أعتقد أن يرد الله هذا ـ وأشار إلى سوار ـ كلباً أو قرداً أو خنزيراً؛ فإنه والله متجبر متكبر كافر. فضحك المنصور ثم أصلح بينهما.

قالوا: وهذا الحشر إذا حصل في زمان الإمام المهدي عليه السلام تحصل به قناعة لكثير من الناس، فيدخلون في دين الله أفواجاً. أما القوّة فإنها تأتي بعد فشل هذه الوسائل والأسباب، وبعد عدم تأثيرها في نفوس المعاندين، وبذلك يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً، ولا يبقى على الأرض إلّا دين الإسلام. (اللهمّ عجلّ فرجه، وسهل مخرجه، وأوسع منهجه)[3].

(١) البقرة: ٢٥٩. (٢) البقرة: ٢٤٣.
(٣) واسلك بنا محجّته.

أما حوض الكوثر فإن الله جلّ وعلا سيحقّقه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم في ساحة المحشر، فقد أخرج مسلم[١] والترمذي[٢] عن أنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أتدرون ما الكوثر؟**». قلنا: الله ورسوله أعلم. فقال: «**إنه نهر وعدنيه ربي عزّ وجل، فيه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أُمّتي يوم القيامة، آنيته عدد نجوم السماء، فيختلج العبد منهم** ـ أي يُنتزع ويقتطع ـ **فأقول: إنه من أُمتي، فيقال لي: إنك لا تدري ما أحدث بعدك**».

وورد في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «**يرد عليّ يوم القيامة رهط من أصحابي، فيحلؤون عن الحوض، فأقول: يا ربّ أصحابي. فيقول: إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك**»[٣]. ومن قصيدة للسيد الحميري رحمه الله:

لا هم عليه يردوا حوضه	**غداً ولا هوْ فيهُمُ يشفعُ**
حوض له ما بين صنعا إلى	**أيلة والعرض به أوسعُ**
يفيض من رحمته كوثر	**أبيض كالفضة أو أنصعُ**
بطحاؤه مسك وقِدحانه	**يذبّ عنها البطل الأنزعُ**
يذبّ عنها ابن أبي طالب	**ذبّاً كجربا إبل شرَّعُ**[٤]

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لعلي عليه السلام: «**أعطيتُ لواء الحمد وأنت حامله، وأعطيتُ الكوثر وأنت ساقيه**»[٥].

وكما أن هذه الأُمور الثلاثة ـ وهي كثرة النسل، وكثرة الأتباع، وحوض الكوثر ـ التي كانت ولا يزال بعضها حتى الآن أمراً غيبياً في الآية الأُولى من هذه السورة المباركة، فإن في الآية الثانية ـ وهي قوله تعالى: ﴿**فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ**﴾ ـ

---

(١) صحيح مسلم ٢: ١٢. (٢) الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ١: ٢٠٣.

(٣) صحيح البخاري ٧: ٢٠٨، صحيح مسلم ٨: ١٥٧. وفيه: عن ابن عباس.

(٤) بحار الأنوار: ٤٧ / ٣٣٠. (٥) فضائل ابن شاذان: ١١١.

أمراً غيبيّاً أيضاً وهو الإخبار له ﷺ بالغنى ونفي الفقر عنه؛ لأنه أمره بالنحر، وهو تزكية الإبل على المعنى المشهور، والإبل أعلى الأنعام ثمناً، فلا يستطيع التضحية بها أو الهدي بها إلاّ الغني. فلو لم يضمن له الغنى لما أمره بما يحتاج إلى الغنى؛ لأنه لا يكلّف نفساً إلّا وسعها. على أننا لا ننفي أن لكلمة ﴿**وَانْحَرْ**﴾ معنى آخر، فقد روي أنه لما نزل جبرئيل عليه السلام على رسول الله ﷺ بهذه السورة، سألة: «**ما هذه النحيرة التي أمرني بها ربي؟**». فقال جبرئيل: «**ليست بنحيرة، ولكنه يأمرك إذا تحرَّمت للصلاة أن ترفع يديك إذا كبرت، وإذا ركعت، وإذا رفعت رأسك من الركوع، وإذا سجدت؛ فإنها صلاتنا وصلاة الملائكة في السماوات السبع، وإن لكل شيء زينة، وزينة الصلاة رفع اليدين بالتكبير**»(١).

ولكن الأمر المشهور والمعنى المتبادر إلى الذهن لأول وهلة من سماع الكلمة هو نحر الهدي أو الأُضحيّة، وإذا كان الرد على المشركين الذين كانوا يصلّون لغير الله، وينحرون لغيره هو المقصود من الآية فإن تفسير النحر بالهدي والأُضحيّة أنسب؛ فإنها التي ﴿**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ**﴾(٢).

ولا مانع من أن تكون الآية تعني الأمرين معاً، والله أعلم.

فأما الهدي فهو الذي يذبح بمنى من أجل حجّ التمتّع أو القران في يوم العيد أو ما بعده.

وأمّا الأُضحيَّة ـ بضم الهمزة وتشديد الياء ـ فهي ما يذبح في أي مكان من الدنيا في يوم عيد الأضحى بنية الأُضحيّة قربة إلى الله تعالى. ولعل سبب تسميتها بذلك؛ لأنها تذبح غالباً في الضحى من يوم العيد.

قيل: وبها سمي عيد الأضحى، كما سمي عيد الفطر بالإفطار من الصوم.

---

(١) التفسير الكبير ٣٢: ١٢٩.
(٢) الحج: ٣٧.

قال بعضهم: وهي من الأشياء الواجبة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم[١]، أما على غيره فهي مستحبة استحباباً مؤكداً، ولا تجب إلّا بالنذر.

وقد ورد فيها عن بعض المعصومين عليهم السلام أنه قال: «**لو علم الناس ما في الأُضحيّة لاستدانوا وضحّوا**»[٢].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**استفرهوا ضحاياكم، فإنها مطاياكم على الصراط**»[٣].

وروي أيضاً أنه يغفر لصاحبها بأول قطرة تقطر من دمها[٤].

قال الفقهاء: ويصحّ التبرع بها عن الحي والميت، والذكر والأُنثى، والبالغ وغيره[٥] ما عدا الحمل، فإنها لا تصحّ عنه[٦]، ويصحّ الإتيان بها واحدة عن متعدّد، ومتعدّدة عن واحد ولو في سنة واحدة، ويجوز اشتراك جماعة في واحدة وإن لم يكونوا أهل بيت واحد[٧]. ويستحب تكرارها[٨] كلّ سنة، ويجزي عنها الهدي الواجب في الحج، ولكن الجمع بينهما أفضل. ومن لم يجدها جاز أن يتصدّق بثمنها[٩]. ووقتها أربعة أيام العيد[١٠]، ولكن أفضل أوقاتها يوم العيد بعد طلوع الشمس إلى مضي مقدار صلاته[١١]، ويكره ذبحها في الليل[١٢].

وتشترط فيها شرائط الهدي، ومصرفها كمصرفه: ثلث له ولأهل بيته، وثلث للصدقة، وثلث للهدية[١٣]. ويستحب الأكل منها كالهدي[١٤] أيضاً، ولا يجوز

---

(١) شرائع الإسلام ٢: ٤٩٧.
(٢) علل الشرائع ٢: ٤٤٠ / ٢.
(٣) علل الشرائع ٢: ٤٣٨ / ١.
(٤) علل الشرائع ٢: ٢٣٧ / ٢.
(٥) الدروس ١: ٤٩٢.
(٦) الحدائق الناضرة ٢٥: ٥٩.
(٧) الدروس ١: ٤٤.
(٨) جواهر الكلام ٣١: ٢٦٨.
(٩) شرائع الإسلام ١: ١٩٧.
(١٠) تحرير الأحكام ١: ٦٣٥ / ٢١٨٠.
(١١) تحرير الأحكام ١: ٦٣٥ / ٢١٨١.
(١٢) تحرير الأحكام ١: ٦٣٨.
(١٣) الخلاف ٢: ٤٤٥ المسألة ٣٤٦.
(١٤) شرائع الإسلام ٤: ٧٤١.

لصاحبها بيع لحمها[١]، ويجوز له شراؤه ممن أهداه إليه أو تصدق به عليه[٢].

وإذا نذر الأُضحيّة صارت واجبة[٣] كما تقدم؛ فإن لم يعملها حتى انقضت أيامها، فإن لم يكن عينها في تلك السنة فعلها فيما بعد ذلك في أيامها من السنة القادمة، وإن كان قد عينها في تلك السنة، ذبحها ولو في غير أيامها من تلك السنة.

ويستحب عند ذبحها أن يدعو بالمأثور، فيقول: «**وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين لا شريك له؛ وبذلك أُمرت وأنا من المسلمين. اللهمّ تقبل مني. باسم الله لا إله إلّا هو والله أكبر، وصلى الله على محمد وأهل بيته الطاهرين**»[٤].

وفي الجزء ٥١ من كتاب (الأعيان) للسيد الأمين‏ﷺ نقلاً عن كتاب (كنز الفوائد)[٥] للكراجكي المتوفى سنة ٤٤٩هجرية عن الشعبي المتوفى سنة ١٠٤هـ، قال: كنت بواسط وكان يوم أضحى، فحضرت صلاة العيد مع الحجّاج، فلمّا انصرفت جاءني رسوله فأتيته، فقال: يا شعبي هذا يوم أضحى وقد أردت أن أُضحي فيه برجل من أهل العراق، وأحببت أن تسمع قوله لتعلم أني قد أصبت الرأي فيما أفعل به. فقلت: أيها الأمير، أو ترى أن تستنّ بسنة الرسول‏ﷺ، وتضحّي بما أمر أن يضحَّى به، وتفعل مثل فعله، وتدع ما أردت أن تفعله في هذا اليوم العظيم إلى غيره؟ فقال: إنك إذا سمعت ما يقول صوَّبت رأيي فيه؛ لكذبه على الله وعلى رسوله، وإدخال الشبهة في الإسلام. قلت: أفيرى الأمير أن يعفيني من ذلك؟ فقال: لابدّ منه.

---

(١) المبسوط ١: ٣٩٣.

(٢) تذكرة الفقهاء ٨: ٣٢٤ / المسألة: ٦٥٢.

(٣) الخلاف ٦: ٦٣ / المسألة: ٢٥.

(٤) مسائل علي بن جعفر: ١٤١ / ١٦١.

(٥) كنز الفوائد: ١٦٧ ـ ١٦٨.

ولما انتهينا إلى مجلسه أمر بالنطع فبسط، وأمر بالسياف فأُحضر، ثم قال: احضروا الشيخ. فأتوا به وإذا به يحيى بن يعمر العدواني الفقيه الكبير المتوفّى سنة ١٢٠ أو سنة ١٢٩ هجرية، فاغتممت غمّاً شديداً، وقلت في نفسي: وأي شيء يقوله يحيى مما يوجب قتله؟

فقال له الحجاج: تزعم أنك فقيه العراق؟ قال: أنا من فقهاء العراق. قال: من فقهك زعمت أن الحسنين من ذرية رسول الله ﷺ؟ فقال: ما أنا زاعم ذلك، بل أنا قائله بحقّ. قال: وبأي حقّ قلته؟ قال: بكتاب الله عزّ وجل.

قال الشعبي: فنظر إليّ الحجاج، فقال: اسمع ما يقول. ثم قال ليحيى: لعلك تريد قول الله عزّوجل: ﴿**فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾[1]، وإن رسول الله ﷺ خرج للمباهلة ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين؟ قال الشعبي: فكأنما أهدى إلى نفسي سروراً، وقلت في نفسي: قد خلص يحيىٰ. فقال يحيى: والله إنها لحجّة بليغة، ولكن ليس منها أحتجّ لما قلت.

قال الشعبي: فاصفرّ وجه الحجاج وأطرق ملياً يفكر، وكان حافظاً للقرآن، ثم رفع رأسه وقال: إن جئت بغيرها من كتاب الله فلك عشرة آلاف درهم، وإن لم تأتِ بها فأنا في حلٍّ من دمك. قال الشعبي: فغمّني ذلك، وقلت في نفسي: أما كان فيما جاء به الحجّاج ما يحتجّ به يحيى ويرضيه؟ فإنه إن جاء بشيء غيره لا آمن أن يدخل عليه فيه من القول ما يبطل به حجّته؛ لئلّا يقول الناس: إنه علم ما جهله الحجّاج.

وإذا بيحيى يقول قول الله عزوجل: ﴿**وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ**﴾ من عنى

---

(١) آل عمران: ٦١.

بذلك؟ فقال الحجاج: عنى إبراهيم عليه السلام، قال يحيى: فداود وسليمان من ذريته؟ قال: نعم. قال يحيى: فمن نصّ الله عليه بعد هذين أنه من ذريته؟ فقرأ الحجاج: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1]. فقال يحيى ابن يعمر: ومن أين كان عيسى من ذرية إبراهيم، ولا أب له؟ قال: من قبل أُمّه مريم. قال يحيى: فمَن أقرب: مريم من إبراهيم، أم فاطمة من محمد صلى الله عليه وآله وسلم؟ وعيسى من إبراهيم، أم الحسنان من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟

قال الشعبي: فكأنّما ألقمة حجراً، فقال الحجاج: أطلقوه (قبحه الله)، وادفعوا له عشرة آلاف درهم، (لا بارك الله له فيها).

ثم دعا بجزور فنحره أُضحيّة له، ودعا بالطعام فأكل وأكلنا معه، وما تكلم بكلمة حتى انصرفنا، وما زال واجماً مما احتجّ به يحيى رحمه الله[2].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ أمر غيبي أيضاً، فإن هذه الآية تخبر عن شانئه وهو العاص بن وائل السهمي أنه أبتر لا عقب له، وهذا هو المعروف عنه.

ومن أجل ما تتضمّنه حتى السور القصار أمثال هذه السورة من سور القرآن من العلوم الغيبية عجز الناس كلهم أن يأتوا بمثله أو بمثل سورة منه، مع أنه تحدّاهم بذلك وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾، أي مثل القرآن ﴿وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم﴾، أي وادعوا من بحضرتكم من الناس ممن يريد مساعدتكم والتعاون معكم على ذلك، فليتعاونوا معكم، وليساعدوكم على الإتيان ولو بسورة من مثله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في تكذيبكم لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ

---

(١) الأنعام: ٨٤ ـ ٨٥.

(٢) أعيان الشيعة ١٠: ٣٠٤ ـ ٣٠٥.

لِلْكَافِرِينَ﴾[١].

ولا شيء أقوى في الدلالة على صدق القرآن وصدق من جاء بهﷺ من هذا الجزم، والوثوق الحاصل في قوله تعالى: **﴿وَلَنْ تَفْعَلُواْ﴾**؛ لأن (لن) تفيد التأبيد، فمعنى ذلك أن الناس وإلى الأبد لا يستطيعون أن يأتوا بمثله، ولو استطاعوا ذلك لحاربوه ومن جاء به باللسان بدلاً من السنان، ولردوا عليه بالكلام بدلاً من أن يردوا عليه بالحسام، ولكنهم عجزوا عن هذا فلجؤوا إلى ذاك؛ وذلك لأن معجزة القرآن ليست في البلاغة والفصاحة، فقط ولكنها في المضامين العلمية والأُمور الغيبية التي لا تكاد تخلو منها سورة واحدة.

وإذا كان القرآن كذلك فالذي يعلم القرآن لا بدّ أن يكون له نصيب من علم الغيب وغيره، وإذا كان الذي عنده علم من الكتاب يستطيع أن يأتي بعرش بلقيس في ردّ الطرف، فالذي عنده علم الكتاب بكامله أولى بأن يأتي بما هو أعظم من ذلك من المعاجز والكرامات.

وقد أخبر القرآن أنه يوجد من يعلمه، حيث قال تعالى: **﴿قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾**[٢]، فمن هو هذا الذي عنده علم الكتاب؟ روي في تفسير (الميزان)[٣] وتفسير (الأمثل)[٤] وغيرهما[٥] عن أبي سعيد الخدري‏ؓ أنه قال: سألت رسول اللهﷺ عن قوله تعالى: **﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾**[٦]. من هو؟ قال: «**ذاك وصي أخي سليمان بن داود**». قال: فقلت: يا رسول الله فقوله تعالى: **﴿قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾**[٧]. قال:

---

(١) البقرة: ٢٣ ـ ٢٤. (٢) الرعد: ٤٣.
(٣) الميزان ١١: ٣٨٧. (٤) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزّل ٧: ٣٨٩.
(٥) الأمالي (الصدوق): ٦٥٩ / ٨٩٢، روضة الواعظين: ١١١.
(٦) النحل: ٤٠. (٧) الرعد: ٤٣.

«**ذاك علي بن أبي طالب**عليه السلام».

ولعل ﴿**الْكِتَابِ**﴾ هاهنا اسم جنس يشمل القرآن وغيره. ويدل على ذلك قوله عليه السلام: «**والله لو ثنيت الوسادة لأفتيت لأهل التوراة بتوراتهم، ولأهل الإنجيل بإنجيلهم، ولأهل الزبور بزبورهم، ولأهل القرآن بقرآنهم، حتى ينطق كلّ كتاب فيقول: صدق علي**»[1].

وقد قال قوم: إن الآية تعني عبد الله بن سلام[2] الذي كان يهودياً فأسلم، على الرغم من أن سورة (الرعد) مكية كلها، وعبد الله بن سلام أسلم في المدينة، ولكنهم أبوا إلّا أن يكونوا مع علي هكذا، فعبد الله بن سلام عندهم أعلم بالكتاب من علي عليه السلام، وأبو هريرة أعلم بالسنة من علي عليه السلام، وخالد بن الوليد أشجع من علي عليه السلام، ومعاوية أسوس للرعية من علي عليه السلام، وزيد بن حارثة أحبّ إلى الرسول من علي عليه السلام، وإلى ما لا نهاية: ﴿**فَمَا لِهَؤُلاء الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً**﴾.

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه — فالكل أعداء له وخصومُ
كضرائر الحسناء قلن لوجهها — حسداً وبغياً إنه لدميمُ[3]

---

(١) الاحتجاج ١: ٣٨٤. (٢) تفسير الثعلبي ٣: ٣٣.
(٣) جامع بيان العلم وفضله ٢: ١٦٢، شرح نهج البلاغة ١: ٣١٩.

سورة الماعون

﴿٣٨﴾

رعاية اليتيم في الإسلام

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾(١).

اختلف المفسرون في هذه السورة الكريمة هل هي مكية أم مدنيّة؟ ثم رجَّحوا أن آياتها الثلاث الأُولى مكية، والآيات التي بعدها مدنية؛ لأنها تتكلم عن النفاق والرياء، وهو ما لم يكن معروفاً في الجماعة المسلمة في مكّة المكرمة، وإنما كان معروفاً في المدينة المنورة، قال تعالى: **﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾**: مرة بالفضيحة في عالم الدنيا، ومرة بعذاب القبر في عالم البرزخ **﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾** وهو عذاب النار يوم القيامة.

ومعنى **﴿أَرَأَيْتَ﴾** يعني هل علمت؟ والصيغة للاستفهام، ولكن معناها الإنكار لما حدث من ذلك المكذّب بالدين، يعني بالإسلام؛ لأن من معاني **﴿الدِّينِ﴾** الإسلام، قال تعالى: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾**(٢)، أو أنه الجزاء، فإن من معاني

---

(١) الماعون: ١ ـ ٣. (٢) آل عمران: ١٩.

الدين الجزاء، قال تعالى: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ أي مالك يوم الجزاء. وإنما كذب بالجزاء؛ لأنه من أُولئك الذين يستبعدون إمكان الحياة بعد الموت، وقد أخبر الله جلّ وعلا عنهم في آيات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾[١]، ومنها قوله تعالى: ﴿**وَقَالُواْ أَ إِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً * قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً * أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُؤُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً**﴾[٢].

وإذا كنت لا تعرف المكذب بالدين فإنه الّذي ﴿**يَدُعُّ الْيَتِيمَ**﴾، أي يدفعه دفعاً عنيفاً خشناً. وقد ذكر بعض المفسرين أنه أبو سفيان[٣]. وقال بعضهم: إنه الوليد بن المغيرة[٤]، وقال بعضهم: إنه أبو جهل، وإنه كان وصياً على يتيم، فجاءه عرياناً يسأله من ماله ما يكسوه به، فدعَّه، أي دفعه دفعاً عنيفاً، فأنزل الله فيه هذه الآيات الشريفة[٥].

وإذا كان النزول لا يمنع الشمول، وتخصيص المورد لا يخصص الوارد، فلا يهمنا أن نعرف في أيهم نزلت لأيهم عنت، ويهمنا أن نعرف أن كلّ من ﴿**يَدُعُّ الْيَتِيمَ**﴾ فهو ممن ﴿**يُكَذِّبُ بِـ**﴾ يوم ﴿**الدِّينِ**﴾؛ لأن الفاء هنا لها معنى السببية، ولا فرق بين أن يكون المراد بالدين هو الإسلام أو هو الجزاء؛ لأنه إن كان المراد بالدين هنا هو الإسلام فإن من أهم أحكامه رعاية اليتيم والاهتمام بشأنه، وإن كان المراد بالدين هو الجزاء فإن الذي يؤمن بالجزاء لابدّ أن يكون شفيقاً على اليتيم ورفيقاً به. وقد روي عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «**أنا وكافل اليتيم كهاتين،**

---

(١) يس: ٧٧ ـ ٧٩.
(٢) الإسراء: ٤٩ ـ ٥١.
(٣) مجمع البيان ١٠: ٤٥٦.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) تفسير البيضاوي ٥: ٥٣٤.

إذا اتقى الله»، وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى[١].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**من ضمن يتيماً حتى يستغني وجبت له الجنة**»[٢].

وكان أمير المؤمنين عليه السلام كثيراً ما ينشد:

ما إن تأوّهت من شيء رزئت به كما تأوهت للأيتام في الصغرِ

قد مات والدهم من كان يكفلهم في النائبات وفي الأسفار والحضرِ[٣]

وكان أشفق الناس على اليتامى، وقد روي أنه عليه السلام رأى يوماً صبياً واضعاً يده على الجدار، وواضعاً وجهه على يده وهو يبكي، فوقف عنده وسأله عن سبب بكائه، فقال: أنا يتيم، وقد لعبت مع هؤلاء الصبية فعيروني بيتمي. فأخذ يسليه ويسكته ويمسح على رأسه، ثم دخل به السوق وشرى له ما تطيب به نفسه، وقال له: «**العب مع الصبيان، فإذا عيروك بيتمك فقل لهم: أنا أبي علي بن أبي طالب عليه السلام**».

واليتيم على ثلاثة أنواع:

١ ـ اليتيم من أُمّه، ويكون المسؤول الأول لرعاية هذا اليتيم والده وزوجة أبيه التي لا يسع زوجها إلّا أن يدعه عندها ويخرج لطلب الرزق، ولا يدري ماذا يحصل منها لذلك اليتيم المسكين الذي أصبح تحت رحمة يدها.

وقد جاء في الحديث أن الملائكة لتبكي من أشياء، منها «**اليتيم إذا استيقظ من نومه فبكى لتنتبه إليه أُمّه، وكان حينئذٍ قد نسي موتها فتنتبه إليه ضرّتها فتزجره، فيذكر موت أُمّه فتنكسر العبرة في صدره ويسكت خائفاً من سطوة ضرّتها عليه، فتبكي الملائكة حينئذٍ رحمة له**»[٤].

ولذا اهتمت الصديقة الزهراء عليها السلام غاية الاهتمام بيتم أولادها، فلم تخرج من الدنيا حتى عينت لهم أُمّاً تحنو عليهم بعدها، فقالت لعلي عليه السلام: «**تزوج بعدي بابنة**

---

(١) مجمع البيان ١٠: ٣٥٢.

(٢) الفقيه ٤: ١٩٠ / ٥٤٣٣.

(٣) الخرائج والجرائح ٢: ٥٤٤.

(٤) شجرة طوبى ٢: ٤٣٢.

أُختي أُمامة، فإنها تكون لولدي مثلي»(١).

٢ـ اليتيم من أبيه، ويكون المسؤول الأول عن رعاية هذا اليتيم أُمّه ووليه سواء كان زوجاً لأُمّه أم لا، فعلى هذا الولي أن يحسن رعاية هذا اليتيم، كما فعل مولانا أمير المؤمنين عليه السلام بأولاد أسماء بنت عميس الذين خلفه عليهم جعفر بن أبي طالب وأبو بكر (رضي الله عنهما). وقد روي أنه لما قتل ولده محمد بن أبـي بكـر رضي الله عنه بمصر حزن عليه أمير المؤمنين عليه السلام، وقال: «**لقد كان لي ربيباً، وكان لأولادي أخاً، وكنت أُعدّه ولداً**»(٢).

وكثيراً ما تزوج المحسنون أُمّهات اليتامىٰ من أجل أن يحسنوا إلى أيـتامهن ويؤجروا على تربية أطفالهن.

٣ـ اليتيم من الأبوين، كما كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهذا النوع هو أشد أنواع اليتم، فعلى من يقوم بكفالته بدلاً من أُمّه وأبيه أن يحسن الرعاية له، كما كان أبو طالب وزوجته فاطمة بنت أسد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. قال تعالى: ﴿**أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى**﴾(٣)، حيث آواه إلى جدّه وعمه وزوجة عمّه، فكانوا أحنى عليه من أبيه وأُمّه، ومع ذلك فقد شقّ عليه فراق أبيه وأُمّه حتى كان يحس بلوعة اليتم. ومما يدل على ذلك ما روي أن أبا طالب عليه السلام أراد الخروج إلى الشام في سـفر التـجارة، فـخرج عـياله لتوديعه وخرج معهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فلمّا عانق عمّه للوداع جعل يـبكي بكـاء شديداً، فسأله عمّه عن سبب ذلك البكاء، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إلى من تدعني يا عم؟ لا أب لي ولا أُمّ**»، فبكى أبو طالب رحمةً له وأخذه معه إلى الشام(٤).

هذا مع أن زوجة عمّه كانت تحنو عليه وتعتني به أكثر مما تحنو على أولادها وتعتني بهم، فما حال من لم يجد من يحنو عليه؟ روي أن رجلاً من الصـالحين توفي، وكان قد جعل وصيته والولاية على أولاده القاصرين لزوجته؛ لحسن ظنّه

---

(١) روضة الواعظين: ١٥١.
(٢) الغارات ١: ٣٠١.
(٣) الضحى: ٤.
(٤) كمال الدين: ١٨٧.

بها، وأوصاها فيما أوصاها به من الأعمال الصالحة أن تخرج عشاءه أربعين جمعة بعد موته إلى مسكين من المساكين المعوزين، وخلف عندها مع أولادها يتيماً له كانت أُمّه قد ماتت قبل موت أبيه، فبقي عندها بلا أب ولا أُم، فكانت إذا جاءت ليلة الجمعة أعطت ذلك اليتيم عشاء أبيه وأمرته أن يذهب به إلى ذلك المسكين الذي عينته له في تلك الليلة، فكان ذلك اليتيم يمتثل أمرها ويمضي بعشاء أبيه إلى ذلك الفقير المعين له منها، ثم يرجع مسرعاً يطلب العشاء لنفسه منها فلا يجده؛ لأنها تعشت به هي وأولادها، ولم تترك له شيئاً يسدّ به جوعته، فيبيت طاوياً يتململ من مسّ الجوع. وهكذا استمر الحال مع تلك المرأة القاسية.

وبعد جمعات عديدة جعل الولد يفكر في نفسه؛ فإن الحاجة تفتق الحيلة، فكان يقول في نفسه: إن هذا المسكين الذي أمرتني زوجة أبي بإعطائه العشاء لعلّه يجد ما يسدّ به جوعته، أما أنا فإني لا أجد ما يسدّ جوعتي، وعلى فرض أن يكون حال هذا المسكين كحالي فأنا أولى بعشاء أبي لقرابتي منه فـ« الأقربون أولى بالمعروف »، فلمَ لا أتعشى بعشاء أبي بدلاً من ذلك المسكين الذي أوصى بعشائه إليه، ويكون ثواب سدّ جوعتي لأبي؟

فلما صارت ليلة الجمعة وذهب بعشاء أبيه، جلس في زاوية من الطريق وتعشى به، ولما رجع إلى زوجة أبيه طلب العشاء لنفسه لئلّا تشعر بما فعل، فوجدها على عادتها لم تترك له شيئاً من الطعام، فبات تلك الليلة على شبع. وفي أثناء الليل رأت الزوجة زوجها في النوم يقول لها: إنه لم تصل إليه بركة عشائه إلّا في هذه الليلة، فما السبب في ذلك؟ فانتبهت منزعجة، وجاءت إلى ذلك اليتيم المسكين توقظه بشدة، وتسأله بقسوة: أين كنت تمضي بعشاء أبيك فيما مضى من الجمع السابقة؛ فإنه قد أخبرني في النوم أنه لم يرَ بركة عشائه إلّا في هذه الجمعة. فلعلك قبل هذه الجمعة كنت لا توصله إلى المساكين الذين أمرتك بإيصاله إليهم؟

فلما شدّدت وعليه النكير، وأرعبت قلبه بالوعيد، أخبرها بالحقيقة، وقال: يا

أُمّاه، لو عكستِ لأصبتِ؛ فإني كنت في الجمع الماضية أذهب بـعشاء أبـي إلى المساكين الذين تأمرينني بهم، ولكنني إذا رجعت لم أجـد عـندك مـا أسـدّ بـه جوعتي، فأبيت طاوياً أتقلّب من مسّ الجوع، وفي هذه الجمعة جعلت نفسي أنا ذلك المسكين الذي تصدّق أبي بعشائه عليه، وتعشيت به، وأهديت ثوابه لروح والدي، وهذا ما جعل والدي يحسّ ببركته.

فلما تبيّن لها صدقه، أحسّت أن زوجها يحسّ بما يحصل لولده مـن الجـوع والعري، فعدلت عمّا هي عليه.

وقد ذكرت هذه القصة في كتاب (التكامل في الإسلام)[1] ولكن بأُسلوب آخر.

كما ذكرت في الكتاب المذكور قصة أُخرى مفادها أن عالماً من العلماء العظام من أهل المؤلفات النافعة والأعمال المشكورة تعاهَدَ مع أحد أصـدقائه أن مـن مات منهما قبل صاحبه، فعليه أن يأتي لصاحبه في النوم، فيخبره بما جـرى له. فمات هذا العالم الكبير قبل صاحبه، وبقي صاحبه ينتظر زيارته، فلم يره إلّا بعد سنة، فعاتبه على تأخّره هذه المدّه الطويلة، فاعتذر له بأنه كان في كلّ هذه المدّة مشغولاً بالحساب، فقال له صاحبه: أمثلك يبقى في الحسـاب كـلّ هـذه المـدّة الطويلة؟ فقال: نعم، وقد حوسبت حساباً دقيقاً حتى كدت أن أقـنط لولا أن الله نفعني بشيئين:

١ ـ أني دعيت لمقابلة الملك في بعض الأيام، فلمّا ذهبت لمـقابلتة اسـتقبلني رجال الملك، وأخذوا ينحّون الناس عن طريقي بعنف وشدّة، فقلت لهم: إن كان هذا من أجلي فإني لا أرضى بذلك، ورفضت مقابلة الملك إذا كانت تستلزم مثل ذلك العمل حتى كففتهم عن أذية الناس.

---

(١) التكامل في الإسلام ٣: ١٢٥.

٢ ـ أني لما قابلت الملك أهدى إلي تفاحة في غير موسمها، ولما خرجت من عنده، مررت بولد يتيم، فجعل ينظر إلى التفاحة، فأعطيتها إياه لوجه الله جلّ وعلا.

فهذان العملان هما اللذان سهّلا عليّ الدخول إلى الجنة، والحمد لله رب العالمين[1]، (فهنيئاً لمن وفّق للإحسان ليتيم).

وقد روي في ملحق كتاب (شجرة طوبى) نقلاً عن كتابي (مفتاح البكاء) وكشكول البهائي أن رجلاً من المنهمكين في الفساد مات في حوالي البصرة، فلم تجد امرأته من يحمل جنازته؛ لتنفّر طباع الناس منه، فاضطرّت إلى أن تستأجر من يحمل جنازته إلى المصلّى، فما وجدوا من يصلّي عليها، فحملوها إلى الدفن. وكان بالقرب من المقبرة رجل زاهد عابد يعبد الله على جبل هناك، فلما قربوا بالجنازة وجدوه واقفاً لانتظارها، متهيّئاً للصلاة عليها، وتسامع الناس بذلك، فأقبلوا وصلوا معه، ثمّ سألوه عن سبب ذلك، فقال لهم: إني أُمرت في منامي أن أُصلّي عليه، وأُخبرت أنه مغفور له. فتعجّب الناس من ذلك، وسألوا زوجته عن حاله، وهل تعرف له شيئاً من أعمال الخير، فقالت: نعم، أعرف له ثلاثة أُمور:

١ ـ أنه إذا أفاق من سكره في أثناء الليل يبكي ويقول: يا رب أي زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الخبيث؟

٢ ـ أنه إذا أصبح كلّ يوم يغتسِل ويلبس ثياباً طاهرة ويتوضّأ ويصلّي صلاة الصبح.

٣ ـ أنه كان لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمين أو أكثر، وكان يحسن إليهم أكثر مما يحسن لأولاده.

---

(١) التكامل في الإسلام ٣: ٢٠٦.

وحينئذٍ عرفوا بأن الله غفر له، وأمر هذا العابد بالصلاة عليه من أجل هذه الأُمورالثلاثة. وصدق الله حيث يقول: ﴿**وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[1].

وقد بالغ الإمام الحسينعليه السلام في رعاية أيتام أخيه الحسنعليه السلام حتّى إن أحدهم ـ وهو القاسم ـ لم يجد همّاً ولا غمّاً منذ موت أبيه إلّا يوم عاشوراء عندما منعه عمّه من البراز.

وقوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ**﴾، أي ولا يحثّ الناس على إطعام المسكين؛ لأن الحضّ هو الحثّ.

وفي الآية الكريمة إشارة إلى محبوبية حثّ الناس على التعاون مع المعوزين، فإن الدالّ على الخير كفاعله إذا لم يكن من فاعليه، فكيف إذا كان من فاعليه أيضاً؟

وقد جاء عن الإمام الحسن العسكري أنه قال: «**وأشدُّ من يتم اليتيم الذي انقطع عن أبيه يتمُ يتيم انقطع عن إمامه؛ فلا يقدر على الوصول إليه، ولا يدري كيف حكمه فيما يُبتلى به من شرائع دينه. ألا فمن هداه وأرشده وعلمه شريعتنا كان معنا في الرفيق الأعلى. وإن محبّي محمد وآله مساكين سكنت جوارحهم، وضعفت قواهم عن مقابلة أعداء الله الذين يعيّرونهم بدينهم، ويسفهون أحلامهم. ألا فمن قوّاهم بفقهه وعلمهم حتى أزال مسكنتهم قضى بذلك لله حقاً**»[2].

---

(١) التوبة: ١٠٢. (٢) شجرة طوبى ٢: ٤٤٧ ـ ٤٤٨.

﴿٣٩﴾

الاستخفاف بالصلاة

قوله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[1].

الويل: كلمة عذاب وهلكة، بعكس الويح فإنها كلمة رحمة وشفقة، فمن دعي عليه بالعذاب والهلكة قيل: ويله، وويل له. وقد وردت في القرآن الكريم بهذا المعنى، أي بمعنى الدعاء على من يستحقّ العذاب والهلكة، كهذه الآية وأمثالها. وقد يضيفها الداعي لنفسه فيقول: ويلي. قال أعشى قيس وهو ميمون بن قيس المتوفّى سنة ٧ من الهجرة في لاميته المشهورة.

قالت هريرة لما جئت زائرَها ويلي عليك وويلي منك يا رجلُ[2]

وقد جاء في سورة يّس: **﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾**[3]، إلى غير ذلك.

---

(١) الماعون: ٤ ـ ٧.
(٢) مجمع البيان ٨: ٢٨٠.
(٣) يّس: ٥٢.

وقد تضاف إليها تاء التأنيث، فيقال: يا ويلتا، قال تعالى حكاية عن قابيل: ﴿قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾[١].

وقال تعالى حكاية من سارة زوجة الخليل إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلاً﴾[٣]، ويقول تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾[٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

ويقال: إن ﴿وَيْل﴾ اسم وادٍ في جهنم، لو وضعت فيه الجبال لذابت من حرّه.

﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾: جمع مصلٍّ. وقد استغلّ بعض المولعين بالخمر هذه الآية الكريمة، فسخّرها لغرضه، واقتطعها عمّا بعدها مغالطة منه، وقال:

ما قال ربك ويل للذي شربوا   بل قال ربك ويل للمصلّينا[٥]

والجواب على هذا التهكم والاستهتار أن الله جلّ وعلا وإن لم يقل ذلك بلفظه[٦] فقد قاله بمعناه، وإلاّ فما معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٧]؟ فوضع الخمر والميسر إلى جانب الأنصاب والأزلام؛ للدلالة على أنهما لا يقلّان في الإثم عمّا قُرنا به، وقد جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**شارب الخمر كعابد الوثن**»[٨].

---

(١) المائدة: ٣١.
(٢) هود: ٧٢.
(٣) الفرقان: ٢٧ ـ ٢٨.
(٤) الكهف: ٤٩.
(٥) شجرة طوبى: ١٤٢.
(٦) أي (ويل لشاربي الخمر).
(٧) المائدة: ٩٠.
(٨) عوالي اللآلي ٢: ١٤٨ / ٤١٣.

ثم إنه جلّ وعلا لم يجعل الويل لجميع المصلّين، وإنما جعله لفئة خاصة وهم ﴿**الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾، وهم المنافقون الذين لا يرجون لها ثواباً إن صلّوا، ولا يخافون عليها عقاباً إن تركوا. فهم عنها غافلون؛ إن كانوا مع المؤمنين صلّوها، وإن لم يكونوا معهم تركوها.

قال بعضهم: والحمد لله الذي قال: ﴿**عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ**﴾ ولم يقل: (في صلاتهم ساهون)[١]؛ لأن السهو في الصلاة يقع من كلّ أحد إلّا من عصم الله سبحانه وتعالى، وقد نسبه بعضهم حتى للرسول صلى الله عليه وآله وسلم الّذي هو أفضل المعصومين، فقد روى البخاري[٢] وغيره[٣] عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم صلّى بالناس صلاة العصر ركعتين، ثم قام إلى خشبة في مقدمة المسجد فوضع يده عليها، فقال له ذو اليدين: أنسيت يا رسول الله، أم قصرت؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**لم أنَس، ولم تقصر**». فقال: بل نسيت يا رسول الله. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم للمسلمين: «**أكما يقول ذو اليدين؟**». قالوا: بلى يا رسول الله. فرجع فأتمّ الصلاة بركعتين وسجد، أي سجدتي السهو.

وقد لوحظ على أبي هريرة في هذه الرواية عدة أُمور، هي:

١ ـ أن ذا اليدين حليف بني زهرة استشهد في بدر قبل إسلام أبي هريرة بخمس سنين، فكيف شاهده أبو هريره وروى عنه؟[٤]

٢ ـ ومنها أن الشيء الماحي لصورة الصلاة كالانحراف عن القبلة، والكلام مع الناس مبطل للصلاة، فلا يصحّ البناء على ما سبق منها.

٣ ـ ومنها أن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم لو لم يكن معصوماً عن النسيان، لوجب أن

---

(١) التفسير الكبير ٣٢: ١١٤، الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ٢١٢، تفسير القرآن العظيم ٤: ٥٩٣.

(٢) صحيح البخاري ١: ١٢٣، ٢: ٦٦، ٧: ٨٥.

(٣) سنن أبي داود ١: ٢٢٨ / ١٠٠٨، السنن الكبرىٰ (النسائي) ٣: ٢١.

(٤) وإن كان قد روىٰ عمّن روى عنه، فلِمَ لَمْ تظهر الرواية قبلُ ولم تشتهر حتىٰ رواها أبو هريرة؟

يكون معصوماً عن المكابرة في نفي الواقع؛ لأن ذلك لا يناسب أخلاق الأنبياء عليهم السلام.

إلى غير ذلك من المؤاخذات التي تفضل بها المقدّس شرف الدين رحمه الله في كتابه المشهور (أبو هريرة)(١).

وفي كتاب (الدر المنثور) عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: إن الساهين هم المنافقون الذين يراؤون الناس بالصلاة إذا حضروا معهم، ويتركونها إذا غابوا عنهم، ويمنعونهم العارية بغضاً لهم، وهي (الماعون)(٢).

وفي الكتاب المذكور عن أبي برزة الأسلمي قال: لما نزلت هذه الآيات قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**هو الذي إن صلى لم يرجُ خير صلاته، وإن تركها لم يخف من ربّه**»(٣).

وقد عدّ بعضهم المستخفّين بالصلاة من هؤلاء ﴿**الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾.

قالوا: والاستخفاف بالصلاة يأتي على أنواع:

الأول: الاستخفاف الزماني

وهو الذي لا يبالي صاحبه متى جاءت الصلاة. وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**الصلاة عماد الدين، فمن ترك صلاته متعمداً فقد هدم دينه، ومن ترك أوقاتها فإنه يدخل الويل، والويل: واد في جهنم، كما قال تعالى: ﴿فَوَيل لِلْمُصلين الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ﴾...**»(٤).

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**امتحنوا شيعتنا عند مواقيت الصلاة كيف**

(١) أبو هريرة: ٨٦.
(٢) الدر المنثور ٦: ٣٩٩.
(٣) الدر المنثور ٦: ٤٠٠.
(٤) جامع الأخبار: ٨٦، عنه في مستدرك وسائل الشيعة ٣: ٩٨ / ١٣.

محافظتهم عليها»[١].

الثاني: الاستخفاف المكاني

فلا يبالي أين جاءت. وقد روي أنه «**لا صلاة لجار المسجد إلّا في المسجد**»[٢]. وفي كتاب (الواعظ) أن في التوراة مكتوباً: «**إن بيوتي في الأرض المساجد، فطوبى لعبد تطهّر في بيته ثم زارني في بيتي، ألا إن على المزور كرامة الزائر، ألا بشّر المشّائين في الظلمات إلى المساجد بالنور الساطع يوم القيامة**»[٣].

الثالث: الاستخفاف العملي

فلا يبالي بصلاته كيف جاءت وكيف حصلت. وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جالس في المسجد إذ دخل رجل، فقام يصلّي، فلم يتم ركوعه ولا سجوده، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: نقر كنقر الغراب، لئن مات هذا وهكذا صلاته، ليموتنّ على غير ديني**»[٤].

الرابع: الاستخفاف العلمي

فلا يتعلّم شيئاً من أحكام الصلاة، ولا يتفهم شيئاً من أُمورها؛ لأنه لا يبالي أصحّت أم بطلت. وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**ركعة يصلّيها الفقيه أفضل من سبعين ألف ركعة يصلّيها العابد**»[٥].

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**ألا لا خير في عبادة لا فقه فيها**»[٦].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال: «**من لم يتفقّه في دينه لم يرضَ الله له عملاً**»[٧].

---

(١) قرب الأسناد: ٧٨ / ٢٥٣.
(٢) دعائم الإسلام ١: ١٤٨.
(٣) المصدر غير متوفّر لدينا، انظر: مكارم الأخلاق: ٢٩٧.
(٤) الكافي ٣: ٢٦٨ / ٦.
(٥) بحار الأنوار ٢: ١٩ / ٥١.
(٦) الكافي ١: ٣٦ / ٣.
(٧) تحف العقول: ٤١٠.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**أُفٍّ لكلّ مسلم لا يجعل له في كلّ جمعة يوماً يتفقّه فيه في أمر دينه، ويسأل عن دينه**»[١].

الخامس: الاستخفاف الفكري

فلا يفكر في شيء من أهداف الصلاة، ولا في شيء من أبعادها. قد جاء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لأبي ذر: «**يا أبا ذر، ركعتان مقتصرتان في تفكّر خير من قيام ليلة والقلب لاهٍ ـ أو قال ـ: والقلب ساهٍ**»[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**من صلّى ركعتين يعلم ما يقول فيهما انصرف وليس بينه وبين الله ذنب**»[٣].

وعنه عليه السلام أنه قال: «**إذا أحرمت في الصلاة فأقبل عليها؛ لأنك إذا أقبلت أقبل الله عليك، وإذا أعرضت أعرض الله عنك. وربما لم يرفع من الصلاة إلّا ربعها أو ثلثها أو سدسها بقدر ما أقبل المصلي عليها، وإن الله لا يعطي الغافل شيئاً**»[٤].

وعنه عليه السلام أنه قال لأبان بن تغلب: «**يا أبان، الصلوات الخمس المفروضات من أقام حدودهن، وحافظ على مواقيتهن، لقي الله يوم القيامة وله عنده عهد يدخله به الجنة. ومن لم يقم حدودهن، ولم يحافظ على مواقيتهن، لقي الله ولا عهد له؛ إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له**»[٥].

قالوا: فكل من استخفّ بصلاته بهذه الأنواع الخمسة أو ببعضها فهو مراءٍ وإن لم يقصد الرياء، وإلا فلماذا يصلّي وهو لا يبالي متى جاءت، ولا أين جاءت، ولا كيف جاءت، وهل صحت أم بطلت، وهل ردّت أم قبلت؟ إنه لا تفسير لذلك

---

(١) المحاسن ١: ٢٢٥ / ١٤٩.

(٢) الأمالي (الطوسي): ٣٥٣، مكارم الأخلاق: ٤٦٥، وفيه: «مقتصدتان».

(٣) الكافي ٣: ٢٦٦ / ١٢.

(٤) دعائم الإسلام ١: ١٥٨.

(٥) الكافي ٣: ٢٦٧ / ١.

إلّا أنه يصلّي لئلّا يقول الناس: إنه لا يصلّي. وهل هذا إلّا الرياء؟ ولذلك بيَّن جلّ وعلا معنى قوله: ﴿**الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ**﴾ بقوله: ﴿**الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾.

ولعلّ مولانا الإمام الصادق عليه السلام لم يقل: «**إن شفاعتنا لا تنال مستخفّاً بالصلاة**»(١) إلّا لأن الاستخفاف من الرياء.

وقد جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**واعلموا أن أيسر الرياء شرك**»(٢).

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن المرائي يدعى يوم القيامة بأربعة أسماء: يا كافر، يا فاجر، يا غادر، يا خاسر، حبط عملك، وبطل أجرك؛ فلا خلاص لك اليوم؛ فالتمس أجرك ممّن كنت تعمل له**»(٣).

وأما ﴿**الْمَاعُون**﴾، فإنه من المعن، وهو الشيء القليل الذي يستعيره الناس، ولا سيما الجيران من بعضهم البعض؛ ومنه الفأس، والأواني، وغير ذلك من الأشياء البسيطة. وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**هو القرض تُقرضه، والمعروف تصطنعه، ومتاع البيت تعيره، ومنه الزكاة**». قال الراوي: فقلت له: إن لنّا جيراناً إذا أعرناهم متاعاً، كسروه وأفسدوه، أفعلينا جناح أن نمنعهم؟ فقال عليه السلام: «**لا، ليس عليك جناح أن تمنعهم إذا كانوا كذلك**»(٤).

قالوا: ومما يؤيّد أن الزكاة من الماعون هو أن الزكاة تأتي دائماً مقرونة بالصلاة، فلما ذكرت السورة الكريمة الساهين عن الصلاة كان من القريب جدّاً أن تذكر معهم المانعين للزكاة.

ثم إن (المعن) هو الشيء القليل كما تقدم، والزكاة: قليل من المال، فقد تكون في بعض الموارد كما في النقد من الذهب والفضة ربع عشر المال؛ ففي العشرين

---

(١) المحاسن ١: ٨٠ / ٦.
(٢) الخصال: ٥٤٣ / ١٩.
(٣) الأمالي (الصدوق): ٦٧٨ / ٢٣.
(٤) الكافي ٣: ٤٩٩ / ٩.

ديناراً نصفُ دينار، وفي المئتي درهم خمسةُ دراهم، إلى غير ذلك.

وقد جاء أن «**مانع الزكاة كتارك الصلاة، فمن لم يزكِّ لم يصلِّ**».

سورة قريش

﴿٤٠﴾

معنى الإيلاف

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ﴾[(١)].

قال اللغويون: إن معنى الإيلاف هو الإلفة للشيء والأُنس به. وذكر البعض أن اللّام في كلمة **﴿لإِيلاَفِ﴾** للتعليل أو للسبب، فكأنه جلّ وعلا يقول: إنما جعلنا أصحاب الفيل **﴿كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾**[(٢)] **﴿لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ﴾**، أي لكي تألف قريش في هذه الأرض المقدّسة، وفي هذا البلد الطيّب.

قالوا: وعلى هذا المعنى يصحّ أن تكون السورتان سورة واحدة؛ لتعلّق الثانية وهي (الإيلاف) بالأُولى وهي سورة (الفيل).

قالوا: ويوجد من الروايات ما يدل على ذلك، ولكن صاحب (الميزان)رحمه الله قال: إنها لا تفيد شيئاً من ذلك، وإنها إن دلّت على شيء فإنما تدلّ على جواز القران بينهما في الصلاة، كما يجوز القران بين سورتي **﴿وَالضُّحَى﴾**[(٣)] و **﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾**[(٤)]، مع أن كلّ واحدة منهما سورة مستقلة عن صاحبتها. وروي عن المفضل بن صالح

---

(١) الإيلاف: ١ ـ ٢.
(٢) الفيل: ٥.
(٣) الضحى: ١.
(٤) الانشراح: ١.

عن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال له: «**لا تجمع بين سورتين في ركعة واحدة إلّا** ﴿**وَالضُّحَىٰ**﴾ و﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ**﴾، و﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ**﴾ و﴿**لِإِيلافِ قُرَيْشٍ**﴾...».

ثم قال: وهذه الرواية أدلّ على كونهما سورتين من كونهما سورة واحدة؛ حيث إنهعليه السلام قال: «**لا تجمع بين سورتين**»، ثم استثنى ﴿**الضُّحَىٰ**﴾، و﴿**أَلَمْ نَشْرَحْ**﴾، و﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ**﴾، و﴿**لِإِيلافِ قُرَيْشٍ**﴾[1].

قالوا: وعلى هذا يجوز ما قاله بعض المفسرين من أن اللام في ﴿**لِإِيلافِ**﴾ للتعجّب[2]، فكأن الآية تقول: اعجب يا محمدصلى الله عليه وآله وسلم، وليتعجب كلّ متعجّب ﴿**لِإِيلافِ قُرَيْشٍ**﴾؛ حيث ألفوا رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام مع ما في هاتين الرحلتين من المشقّة والكلفة، ولكنهم لما وطّنوا نفوسهم على تلك الأسفار وألفوها، هانت عليهم مشقّتها، مع العلم أن السفر في ذلك الزمان قطعة من سقر، بل بالغ بعضهم فقال:

كل العذاب قطعة من السفرْ يا ربّ فارددنا إلى خير الحضرْ[3]

فلماذا لا يوطنون أنفسهم على عبادة ربّ هذا البيت ﴿**الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ**﴾؟ وما جزاء الإحسان إلّا الإحسان.

وقريش هم قبيلة النبيصلى الله عليه وآله وسلم، وهم أولاد النضر بن كنانة. وفي بعض التفاسير أن قريشاً تصغير قرش، وهي التجارة، وسمي بها أولاد النضر؛ لأن معيشتهم من التجارة. ويومئ إلى ممارستهم التجارة قوله تعالى: ﴿**إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ**﴾، فكل من كان ولد النضر بن كنانة فهو قريش دون من كان من إخوته وأبنائهم ودون من كان من فوق كنانة.

---

(١) الميزان ٢٠: ٣٦٥. (٢) جامع البيان ٣٠: ٣٩٥.

(٣) ربيع الأبرار ٣: ١٠.

وقيل: إن سبب تسمية النضر بقريش لأنه ركب البحر، فاعترضت مركبهم سمكة يقال لها: قريش، فرماها النضر بحراب فقتلها[(١)]، فجعل الناس يسمونه نضر قريش، أي قاتل قريش.

وقيل: إن قريشاً سميت قريشاً تشبيهاً لها بهذه السمكة؛ لأنها تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تعلى. وروي أن معاوية سأل ابن عباس: لمَ سميت قريش قريشاً؟ فقال: لدابة في البحر من أقوى دوابّه يقال لها القرش، تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تعلى. ثم أنشد قول تبع الجمحي:

وقريش هي التي تسكن البحـ ... ـر بها سميت قريش قريشا
تأكل الغث والسمين ولا تتـ ... ـرك فيها لذي جناحين ريشا
هكذا في البلاد حي قريش ... يأكلون البلاد أكلاً كميشا
ولهم آخر الزمان نبي ... يُكثر القتل فيهُمُ والخموشا[(٢)]

وقيل: إنهم سموا قريشاً من التقريش، وهو التجمع، فقد كانوا متفرقين في غير الحرم، فجمعهم قصي بن كلاب في الحرم حتى اتخذوه مسكناً. وفي ذلك يقول الشاعر:

أبوكم قصي كان يدعى مجمعاً ... به جمع الله القبائل من فهرِ[(٣)]

ولكن المشهور هو القول الأول.

وفي (مسند أحمد)[(٤)] و(صحيح مسلم)[(٥)] عنه ﷺ أنه قال: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني**

---

(١) الدر النظيم: ٤٤.
(٢) تفسير الثعلبي ١٠: ٣٠١.
(٣) التفسير الكبير ٣٢: ١٠٦.
(٤) مسند أحمد ٤: ١٠٧.
(٥) صحيح مسلم ٧: ٥٨.

هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

وروى البخاري وغيره[١] عن أم هاني (رضي الله عنها) أن رسول الله ﷺ قال: «**فضّل الله قريشاً بسبع خصال لم يعطِها أحداً قبلهم، ولا يعطيها أحداً بعدهم: النبوة فيهم، والخلافة فيهم، والحجابة فيهم، والسقاية فيهم، ونصروا على أصحاب الفيل، وعبدوا الله عشر سنين لم يعبده أحد غيرهم، ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحدٌ غيرهم: ﴿لِإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾...**».

وفي كتاب (المستطرف) أن معاوية قال يوماً: إن الله حبا قريشاً بثلاث، فقال لنبيه: **﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾**[٢]، ونحن عشيرته الأقربون، وقال تعالى: **﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾**[٣]، ونحن قومه، وقال تعالى: **﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾**، ونحن قريش. فأجابه رجل من الأنصار ـ وقيل: إنه صعصعة بن صوحان العبدي ـ فقال: على رسلك يا معاوية فإن الله تعالى يقول: **﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾**[٤]، وأنتم قومه، وقال تعالى: **﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾**[٥]، وأنتم قومه، وقال تعالى: **﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾**[٦]، وأنتم قومه. ثلاث بثلاث، ولو زدتنا لزدناك[٧].

ويتبيّن من هذه المقارنة وأمثالها أن قريشاً كما أن لهم مناقب فإن لهم مثالب ما عدا الطيّبين الطاهرين، ويكفيهم من المثالب ما فعل هذا الرجل وسلفه وخلفه.

قال المقريزي رحمه الله المتوفى، سنة ٨٤٥ هـ.

عبد شمس قد أضرمت لبني ها ... شم حرباً يشيب منها الوليدُ

---

(١) المستدرك على الصحيحين ٢: ٥٣٦. (٢) الشعراء: ٢١٤.
(٣) الزخرف: ٤٤. (٤) الأنعام: ٦٦.
(٥) الزخرف: ٥٧. (٦) الفرقان: ٣٠.
(٧) المستطرف في كل فنّ مستظرف ١: ١٣٣.

فابن حرب للمصطفى وابن هند   لعلي وللحسين يزيدُ[(١)]

وقال أبو العلاء المعري، المتوفى سنة ٤٤٩ هـ.

أرى الأيام تفعل كلّ نكر   فما أنا في العجائب مستزيدُ
أليس قريشكم قتلت حسيناً   وكان على خلافتكم يزيدُ[(٢)]

أمّا قوله تعالى: ﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ﴾، فكلمة ﴿إِيلَافِهِمْ﴾ بدل من ﴿لِإِيلَافِهِمْ﴾، و﴿رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ﴾ بيان لأسفارهم التي ألفوها، وهي كما تقدم رحلة في الشتاء إلى اليمن لدفئها، ورحلة في الصيف إلى الشام لبرودتها. وكان سبب وجود هاتين الرحلتين أن قريشاً كانوا إذا أصابت أحدهم مخمصة ـ أي مجاعة ـ اعتفد هو وعياله، والاعتفاد هو أنه يغلق عليه بابه هو وعياله إلى أن يموتوا من الجوع، ولا يسألون الناس، فلما جاء زمان هاشم بن عبد مناف جد النبي ﷺ كان لولده أسد والد فاطمة بنت أسد ترب من بني مخزوم كان يحبّه ويلعب معه، فأصابت أهل ذلك الترب مخمصة، فعزموا على الاعتفاد، وأخبر ذلك الترب المخزومي أسد بن هاشم بذلك، فمضى أسد إلى أهله يبكي حزناً على تربه. ولما سأله أهله عن بكائه أخبرهم بما عزم عليه أهل تربه، فشقّ ذلك على هاشم، وكان أريحياً مثالياً يحمل هموم الناس، فجمع قريشاً، وقام فيهم خطيباً، وقال في خطبته: «إنكم قد أحدثتم حدثاً تقلّون به ويكثر العرب، وتذلّون به ويعز العرب، وأنتم أهل حرم الله وأشرف ولد آدم. ويكاد هذا الاعتفاد يأتي عليكم، فابدؤوا بهذا الرجل ـ يعني والد ترب ولده أسد ـ فاغنوه عن الاعتفاد». ففعلوا ذلك، وجمعوا له من المال ما يكفيه.

---

(١) الوافي بالوفيات ١٢: ٢٦٦، النزاع والتخاصم: ٦٢.
(٢) ديوان أبي العلاء المعرّي ١: ٣٠٤، جميع دواوين الشعر العربي ٤٠: ١٨٨.

ثم أمرهم أن يجتمع كلّ بني أب على تجارة، فيرتحلون في الشتاء إلى البلد الدافئة كاليمن، وفي الصيف إلى البلد الباردة كالشام، وأن يستعين غنيهم بفقيرهم، وأن يجعل له نصيباً مما ربحه في التجارة. وبذلك بدأت الحركة التجارية في مكة المكرمة ببركة هاشم.

ثم لم يقتنع بالتجارة الخاصة لكل بني أب تجارتهم حتى عزم على أن يعمل لهم تجارة عامة يجتمع فيها جميع أهل مكة، فمضى إلى الشام فحالف قيصر على أن تدخل قريش بتجارتها إلى بلدة، وأرسل أخاه عبد شمس إلى الحبشة، وأخاه المطلب إلى اليمن، وأخاه نوفلاً إلى فارس، فأخذوا لقريش مثل ما أخذ من الأمان والمعاهدة والموافقة، فكانت قريش يسمونهم المجيرين.

ومضى هاشم بعد ذلك إلى القبائل المنبثة والأحياء المتفرقة في الصحراء، فاتفق معهم على الأمان والسلامة لجميع قوافل قريش المارة بهم، فحوَّل مسبعة الطريق الضارية إلى أمن ودعة، وبدّل أهاويل الصحراء الفاتكة إلى طمأنينة واستقرار.

ثم جمع قريشاً كلها على تجارة عامة يشترك فيها كلّ قريشي وقرشية، وسار بها إلى اليمن في الشتاء، وإلى الشام في الصيف، فأثْرت قريش بهذه الحركة التجارية الخاصة والعامة، واختلط فقيرهم بغنيهم ببركة هاشم. وجعل كلّما عاد من سفر التجارة إلى مكة نصب الجفان، وملأها بالثريد واللحم، ودعا الناس إليها، فطار صيته، وعلا مجده، وتبدّل اسمه إلى هاشم[1].

وكان قبل ذلك يدعى عمراً، فلما فعل بمكّة ما فعل من إلغاء الاعتفاد، وسنِّ الرحلتين، وهشْم الثريد لأهل مكّة ومن يزورها سمي عمرو العلا وهاشماً، ثم

---

(١) انظر التفسير الكبير ٣٢: ١٠٦.

غلب عليه اسم هاشم، وفي ذلك يقول الشاعر:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجافُ
سُنت إليه الرحلتان كلاهما سفر الشتاء ورحلة الأصيافُ[١]

وما زال عليه السلام يواصل رحلاته التجارية، وكان كثيراً ما يمرّ بالمدينة المنوّرة حتى تزوّج منها بسلمى بنت عمرو النجّارية، فولدت له عبد المطّلب عليه السلام، ثم توفي بغزّة من أرض الشام، وهو بعدُ لم يبلغ الثلاثين من عمره، ولكنه كما قال الشاعر:

قل كيف عاش ولا تقل كم عاش من جعل الحياة إلى علاه سبيلا

معنى العبادة

قوله تعالى: ﴿**فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ**﴾. العبادة: هي غاية الخضوع والتذلّل؛ ولذلك فإنها لا تصلح إلّا لله جل وعلا؛ لأنه المتفضّل بجميع النعم، فهو حقيق بالشكر، ولا شكر كالعبادة. وأما تسميته لنفسه جلّ وعلا ﴿**رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ**﴾، مع أنه ربّ كل شيء، فإن ذلك من باب التكريم للكعبة المعظّمة، ومن باب التعظيم لنفسه أيضاً؛ لأنه كما تقدّم في مجلس سابق في الكلام على كلمة ﴿**رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[٢]، أن مراتب الربوبية تختلف باختلاف مراتب المربوب، فكلّما ارتفع مقام المربوب ارتفع مقام الربوبية، ولذلك قال تعالى: ﴿**وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿**وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى**﴾[٤]، إلى غير ذلك مما تقدم في المجلس المذكور.

والكعبة أعظم شعيرة وأوّل شعيرة وضعت لعبادة الله في الأرض، قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ**﴾[٥]. ولذلك فقد

---

(١) بحار الأنوار ١٥: ٣٩، عن الأنوار للبكري.
(٢) الحمد: ١. (٣) التوبة: ١٢٩.
(٤) النجم: ٤٩. (٥) آل عمران: ٩٦.

أضافها لنفسه، فقال جل وعلا: ﴿**وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُود**﴾[١]، وأضافها لنفسه في هذه الآية، فقال: ﴿**فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْت**﴾، كل ذلك تعظيماً لها. ثم ذكر قريشاً بعظيم بركتها عليهم، وأنه جلّ وعلا أطعمهم من الجوع ببركتها، وذلك لما سبق لها من دعاء الخليل إبراهيم عليه السلام، حيث قال تعالى: ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَات**﴾[٢]. ثم آمنهم من الخوف ببركتها أيضاً، فكفاهم شرّ أصحاب الفيل، قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيل**﴾.

وجعلهم في أمن من الخوف من غير أصحاب الفيل أيضاً، فكانت قوافلهم التجارية في أمن من النهب والغارات ببركتها، فإن الناس يحترمون قوافلهم، ولا يتعرّضون لها بنهب ولا سلب، لا لشيء إلّا لأنها قوافل أهل الحرم. فإذا كان الإنعام والإحسان لا يكون إلّا بجلب نفع أو دفع ضرر، فالله جل وعلا أنعم على قريش بكلا الأمرين ببركة هذا البيت، فعليهم أن يقابلوا ذلك بالشكر القولي والعلمي والعملي؛ ليزيدهم الله من فضله، ويغدق عليهم من نعمه، قال تعالى: ﴿**لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾[٣]، ولكنهم ويا للأسف لم يفعلوا من ذلك شيئاً.

والخوف هو تأثّر القلب بسبب توقّع مكروه. وهو شرعي، كما في قوله تعالى ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً**﴾[٤]، أو غير شرعي، وهو نوعان: ممدوح، ومذموم. فالخوف الذي يدفع صاحبه إلى الأمور الدنيئة، كالخوف من الموت الّذي يدفع صاحبه إلى الجبن مذموم، قال بعضهم:

أنا في الحرب ما جربت نفسي ... ولكن في الهزيمة كالغزالِ

---

(١) البقرة: ١٢٥.
(٢) إبراهيم: ٣٧.
(٣) إبراهيم: ٧.
(٤) النساء: ٣.

ولكن الخوف مما بعد الموت، والّذي يدفع صاحبه إلى العمل لما بعده خوف ممدوح، قال لقمان الحكيم لولده: « **خف الله خوفاً لوجئت يوم القيامة ببر الثقلين، لخفت أن يعذّبك، وارجُ الله رجاء لو جئت يوم القيامة بوزر الثقلين، لرجوت أن يغفرلك** »(١). وقال تعالى: **﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى * فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى﴾**(٢)، وقال تعالى: **﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾**(٣)، إلى غير ذلك من الآيات الشريفة.

وفي الحديث القدسي: « **أنا لا أجمع لعبدي بين أمنين ولا خوفين؛ فمن خافني في الدنيا أمنته في الآخرة، ومن أمنني في الدنيا أخفته في الآخرة** »(٤).

ومن أحاديثهم عليهم السلام: « **خَف الله كأنك تراه، فإن لم ترَه فإنه يراك. فإن كنت ترى أنه لايراك، فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك، ثم أقدمت على معصيته، فقد جعلته أهون الناظرين إليك** »(٥).

ومما حفظ من خطب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، أنه قال: « **أيها الناس، إن لكم معالم، فانتهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية، فانتهوا إلى نهايتكم، ألا إن المؤمن يعمل بين مخافتين: بين أجل قد مضى لايدري ماالله صانع به، وبين أجل قد بقي ما يدري ما الله قاضٍ فيه. فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دنياه لآخرته، ومن الشبيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الممات. فوالذي نفسي بيده ما بعد الدنيا من مستعتب، وما بعدها من دار إلّا الجنة أو النار** »(٦).

---

(١) تفسير القمي ٢: ١٦٤، مستدرك وسائل الشيعة ١١: ٢٢٥ / ١٢٨٠٨، باختلاف يسير.
(٢) النازعات: ٤٠. (٣) الرحمن: ٤٦.
(٤) كنز العمال ٣: ١٤١ / ٥٨٧٨، فيض القدير ٤: ٦٤٩، باختلاف.
(٥) الكافي ٢: ٦٨ / ٢، وسائل الشيعة ١٥: ٢٢٠ / ٢٠٣٢٤.
(٦) الكافي ٢: ٧٠ / ٩، وسائل الشيعة ١٥: ٢١٩ / ٢٠٣١٩.

ولذلك، فقد صرح القرآن الكريم بأن الإنسان المؤمن لايزال خائفاً، حتى في أعماله الصالحة؛ لأنه لايدري أقبلت أم لا، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ**﴾[١]. روي أنه قيل للنبي ﷺ: أهو الرجل الّذي يزني ويسرق ويشرب الخمر، وهو خائف؟ قال: «**لا، ولكنه الرجل الذي يصلّي ويصوم ويتصدّق، وهو مع ذلك يخاف ألّا يقبل منه**»[٢].

ومن الخوف المذموم الخوف من الفقر الّذي يدفع صاحبه إلى البخل الّذي قد يصل بصاحبه إلى ما قاله تعالى: ﴿ **قُلْ لَوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذن لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ**﴾ أي خوف نفادها بالإنفاق، ﴿**وَكَانَ الإِنْسَانُ قَتُوراً**﴾[٣]. وقد يصعد به الخوف من الفقر إلى قتل بعض أبنائه، أو وأد بعض بناته، قال تعالى: ﴿**وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً**﴾[٤].

إن هذا الخوف وأمثاله مذموم، ولكن الخوف من كثرة الإنفاق خشية أن يبلغ حدّ الإسراف أو التبذير خوف ممدوح، قال تعالى:﴿**وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً**﴾[٥].

وبما أن الخوف ظاهرة طبيعية؛ فإنه لايختصّ بالأُمور الدنيوية دون الأُخروية، ولا بالأُمور الأُخروية دون الدنيوية، بل يحصل كلّما حصلت دواعيه حتى من الأنبياء والأولياء، قال تعالى: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الخَوْفِ وَالجُوعِ وَنَقْصٍ مِنْ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِين**﴾[٦].

فمن خوف الأنبياء لبعض الأُمور الدنيوية خوف إبراهيم الخليل ولوط عليهما السلام،

---

(١) المؤمنون: ٦٠.
(٢) مسند أحمد ٦: ٢٠٥.
(٣) الإسراء: ١٠٠.
(٤) الإسراء: ٣١.
(٥) الإسراء: ٢٩.
(٦) البقرة: ١٥٥.

قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إبْرَاهِيمَ بِالبُشْرَى قَالُوا سَلاماً قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لاتَخَفْ إنَّا أُرْسِلْنَا إلَى قَوْمِ لُوطٍ**﴾[١]. و﴿**سَلاماً**﴾ منصوب، على أنه مفعول مطلق، أي سلّموا سلاماً، و﴿**سَلامٌ**﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره أمري سلام، والـ﴿**حَنِيذ**﴾: المشوي على الحجارة المحماة من دون أن تمسّه النار مباشرة، ولذلك يكون أكله لذيذاً جداً، ﴿**فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً**﴾؛ لأن من عادة الناس، أنه إذا امتنع الضيف من أكل الطعام في بيت مضيفه، فإن ذلك يعني أنه يريدبمضيفه سوءاً، وكان إبراهيم عليه السلام يظنّ أن ضيوفه بشر، لأنهم جاؤوه على صورة البشر، فلما رآهم لا يأكلون من الطعام خافهم على نفسه وأهله، فلما رأوا ظاهرة الخوف على وجهه، ﴿**قَالُوا لا تَخَفْ**﴾ وأخبروه أنهم ملائكة، وأنهم أُرسلوا إلى قوم لوط عليه السلام، وبشروه وزوجته بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، قال تعالى: ﴿**فَلَمَّا ذَهَبَ عَنِ ابْرَاهِيمَ الرَّوْعُ**﴾، أي الخوف ﴿**وَجَاءَتْهُ البُشْرَى**﴾ بالولد، أخذ ﴿**يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إنَّ إبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ**﴾[٢].

ولما خرجوا من عنده وجاؤوا إلى لوط ﴿**سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً**﴾؛ لأنهم جاؤوه على هيئة شباب صِباح مِلاح، فخاف عليهم من قومه أن يعتدوا على شرفهم، وهو لايقدر على حمايتهم منهم، فلما رأوا ظاهرة الخوف على وجهه عليه السلام أيضاً، وتضايقه من نزولهم عنده، ﴿**قَالُوا لا تَخَفْ وَلاتَحْزَنْ إنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الغَابِرِين**﴾[٣].

ومن خوف الأنبياء عليهم السلام خوف موسى عليه السلام لمّا قتل القبطي، قال تعالى ﴿**فَأَصْبَحَ فِي المَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّب**﴾[٤]، ينتظر مايناله بسبب القتل، فلمّا علم فرعون

---

(١) هود: ٦٩ ـ ٧٠.
(٢) هود: ٧٥.
(٣) العنكبوت: ٣٣.
(٤) القصص: ١٨.

بأن القاتل هو موسى عليه السلام، أمر بقتله، فأخبره مؤمن آل فرعون: ﴿**إِنَّ المَلأَ يَأتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوك**﴾، ونصحه بأن يخرج من هذا البلد، وقال له: ﴿**فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِين * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ القَوْمِ الظَّالِمِين**﴾(١).

وخوفه من عصاته لمّا انقلبت حية، قال تعالى: ﴿**وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ**﴾، أي ولم يفكّر عليه السلام في الرجوع إليها لولا أن الله جل وعلا ناداه: ﴿**يَا مُوسَى لا تَخَفْ إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ المُرْسَلُون**﴾(٢). ثم خوفه من فرعون أن يكذبه ويقتله لمّا أمره ربه أن يدعوه إلى الإيمان به: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُون * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ**﴾(٣)، ومعنى الردء: المعين. ثم خوفه عليه السلام من غلبة السحرة على أمره، قال تعالى: ﴿**قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى * قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى * قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى**﴾(٤).

ومن خوف الأنبياء عليهم السلام خوف نبي الله داود عليه السلام، قال تعالى: ﴿**وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ**﴾(٥). ثم قصّا عليه قصّتهما، فقال أحدهما: ﴿**إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الخِطَاب**﴾، أي وشدّد علي في القول. واستثارت القضية داود عليه السلام فبادر بالحكم قبل أن يسأل

---

(١) القصص: ٢١. (٢) النمل: ١٠.
(٣) القصص: ٣٣ ـ ٣٤. (٤) طه: ٦٥ ـ ٦٨.
(٥) ص: ٢١ – ٢٢.

الخصم الآخر عن حجته، وقال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَ ظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ باستعجاله بالحكم لأحد الخصمين قبل سؤال الآخر. قيل: وكان الّذي نبهه إلى ذلك أن الخصمين تغيّبا عنه، لأنهما ملكان أرسلهما الله لاختباره، ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآب﴾[1].

ومن خوف الأنبياء خوف يعقوب على يوسف عليه السلام، حيث ذكر الله عنه أنه قال لأولاده عندما طلبوا منه أخاهم يوسف: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُون﴾[2].

ومن خوف المؤمنين، ماذكره الله جل وعلا عنهم في واقعة الخندق بقوله: ﴿وَإِذْ جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللّهِ الظُّنُونَ * هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً * وَإِذْ يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُوراً﴾[3].

قال صاحب القصيدة الأزرية المتوفى بتاريخ ١ / ٥ / ١٢١١ هـ رحمه الله:

يوم غصت بجيش عمرو بن ودّ	لهوات الفلا وضاق فضاها
وتخطّى إلى المدينة فرداً	لا يخاف العدى ولا يخشاها
فابتدا المصطفى يحدّث عما	يؤجَر الصابرون في أُخراها
قائلاً للجليل جنات عدن	ليس غير المجاهدين يراها
من لعمرو وقد ضمنت على اللـ	ـه له في جنانه أعلاها
فالتووا عن جوابه كسوامٍ	لا تراها مجيبة من دعاها

(١) ص: ٢٤ ـ ٢٥. (٢) يوسف: ١٣.
(٣) الاحزاب: ١٠ ـ ١٢.

وإذا هـم بـفارس قـرشي ترجف الأرض خيفة أن يطاها
قـائلاً مـا له سـواي كـفيلٌ هـذه ذمّـة عـليّ وفـاها
ومشـى يطلب البـراز كـما تـمـ ـشي خماص الحشا إلى مرعاها
وانـتضى مشـرفيّه فـتلقّىٰ سـاق عـمرٍو بـضربة فبراهـا
يـالها ضـربة حـوت مكرمات لم يـزن ثِـقل أجـرها ثَـقَلاها
هـذه مـن عـلاه إحـدى المـعالي وعلى هذه فـقِس مـا سـواهـا[1]

وللخوف صلاة بصورة خاصّة صلّاها رسول الله ﷺ في بعض غزواته مرّتين، وصلّاها ولده الحسين يوم عاشوراء، وقد ذكرها القرآن الكريم في الآية ٢٣٩ من سورة (البقرة)، وفي الآية ١٠٢ من سورة (النساء)، فراجع.

---

(١) ديوان الأزري الكبير: ٣٦، الكنى والألقاب ٢: ٢٣.

سورة الفيل

﴿٤١﴾

سبب النزول وهلاك أبرهة

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾.

في (التفسير الأمثل) أن سبب نزول هذه السورة الكريمة، أن أبا طالب رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا بن أخي، هل أُرسلت إلى قومك خاصّة، أم إلى الناس كافّة؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**بل إلى الناس كافّة، والذي نفسي بيده، لأدعونّ إلى هذا الأمر الأبيض والأسود، والعرب والعجم، ومن على رؤوس الجبال، ومن في لجج البحار، ولأدعون فارس والروم**».

فلما سمعت قريش بذلك، قالوا لأبي طالب: أما تسمع ما يقول ابن أخيك؟ والله لو سمعت بهذا فارس والروم لاختُطفنا من أرضنا، ولقلعت الكعبة حجراً حجراً. فأنزل الله جلّ وعلا ردّاً على قولهم: «لاختُطفنا من أرضنا» قوله تعالى: **﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ**

ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾(١)، وأنزل ردّاً على قولهم: «ولقلعت الكعبة حجراً حجرا»: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ...**﴾(٢).

والمقصود من ذلك هو إعلام قريش بأن الّذي أهلك أصحاب الفيل قادر على أن يهلك فارس والروم لو أرادوا هدم الكعبة المعظّمة. وهذا الخطاب للتقرير، والمخاطب به هو الرسولﷺ، وهو وإن لم يشاهد واقعة الفيل ـ لأنه بعدُ لم يولد ـ لكنه شاهد آثارها، وسمع بالتواتر أخبارها؛ فكأنه رآها.

وإنما، قال تعالى: ﴿**كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ**﴾، ولم يقل: ماذا فعل ربك؛ لأن المراد هو التذكير بما جاء في كيفية هلاك أصحاب الفيل، وليس المراد هو التذكير بهلاكهم فقط، فإن هلاك ذلك الجيش العظيم، وتلك القوّة الكاسحة بحصيات حقيرة تحملها طويرات صغيرة من أعجب مظاهر قدرة الله جلّ وعلا، و﴿**أَصْحَابِ الْفِيلِ**﴾، هم قوم أبرهة بن الصباح الأشرم ملك اليمن من قبل النجاشي ملك الحبشة جدّ النجاشي الملك العادل الّذي نصح النبيﷺ المستضعفين من قومه بالهجرة إلى بلده فراراً من تعذيب قريش.

قالوا: وكان السبب في حادثة الفيل أن أبرهه كان قد بنى كنيسة عظيمة بصنعاء اليمن، وأراد أن يصرف الحاجّ إليها، ووجّه الدعاة يدعون الناس إلى ذلك، فجاء رجل من أهل الحجاز من كنانة، فقعد فيها لحاجة الإنسان، فلما علم أبرهة بذلك أغضبه، وحلف أن يهدم الكعبة المعظمة، فخرج بجيشه ومعه الفيلة المدرّبة على عملية الهدم، ليهدم بها الكعبة، فلما وصل إلى الطائف طلب دليلاً يدلّه على مكّة، فمضى معه رجل يسمّى أبا رغال، فما وصل إلى المكان المسمى بالمغمّس بين

---

(١) القصص: ٥٧.
(٢) التفسير الأمثل ٢٠: ٤٦٥.

مكّة والطائف، حتى هلك، فرجم الناس قبره بعد ذلك وجعلوا يتمثّلون به، حتى قال جرير بن عطية بن الخَطَفي التميمي اليربوعي في هجاء ابن عمه الفرزدق الّذي توفي معه في سنة ١١٤:

إذا مات الفرزدق فارجموه كما ترمون قبر أبي رغالِ(١)

وسار أبرهة حتى قرب من مكّة، فبعث إلى أهلها: إنّي لم آتِ لحربكم، وإنما جئت لهدم هذا البيت؛ فإن لم تتعرّضوا لي دونه بحرب، فلا حاجة لي بدمائكم. فقال عبد المطلب لرسوله: قل له: إنا لا نريد حربه، وإن هذا البيت بيت الله وبيت خليله إبراهيمعليه السلام، فهو يحميه إن شاء.

ثم أمر عبد المطلب قريشاً بتخلية مكة، فصعد بعضهم في رؤوس الجبال، وخرج بعضهم إلى بطون الأودية، قيل: ولم يبقَ بمكّة غيره، وجعل جيش أبرهة ينهب ما يجده من الإبل والغنم وغيرها، فكان فيما أصاب من ذلك مئتي ناقة لعبد المطلب، فجاء يطلبها من أبرهة. قالوا: وكان عبد المطلب وسيماً جسيماً ما رآه أحد إلّا هابه، فقيل لابرهة: قد جاءك سيد قريش الّذي يطعم الناس في السهل، ويطعم الطير والوحش في رؤوس الجبال. فأمر بإدخاله عليه، فلما رآه هابه وأجلسه على سريره، وقيل: إنه لم يجلس على سريره، ولكنه جلس معه على الأرض هيبة له وتعظيماً.

ثم قال لترجمانه: سله، ماذا يريد؟ فلما سأله الترجمان أخبره أنه جاء في طلب إبله منه، فلمّا قال له ذلك، قال له: قل له: إني لما رأيتك أعجبتني، فلما أخبرتني بطلبك زهدت فيك؛ حيث كلّمتني في إبلك، ولم تكلّمني في بيت دينك وشرفك، وقد علمت أني إنما جئت لهدمه. فقال له: أنا ربّ الإبل، فكلمتك فيها، وأما البيت

(١) لسان العرب ١١: ٢٩١، تاج العروس ٧: ٣٢١.

فإن له رباً غيري، وهو قادر على أن يحميه إن شاء ذلك. فقال أبرهة: ما كان ليمتنع مني. فقال عبد المطلب: أنت وذاك. فردّ عليه إبله.

قالوا ورجع عبد المطلب بإبله إلى مكة، وجعل يتعلّق بأستار الكعبة، ويأخذ بحلقة بابها وينشد:

يا ربّ لا أرجو لهم سواكا   يا ربّ فامنع منهُمُ حماكا
إن عدوّ البيت من عاداكا   فامنعهُمُ أن يخربوا قراكا

ويقول أيضاً:

لاهمّ إن المرء يمـ   ـنع رحله فامنع رحالكْ
وانصر على آل الصليـ   ـب وعابديه اليوم آلكْ
لايغلبنّ صليبهم   ومحالهم أبداً محالكْ
إن يدخلوا البلد الحرا   م فذاك أمر ما بدا لكْ(١)

وفي تفسير الإمام الرازي، أنه قال:

إن كنت تاركهم وكعـ   ـبتنا فأمر ما بدا لك(٢)

قيل: وفي قول عبد المطلب لأبرهة، وفي ملازمته للكعبة المكرّمة، وفي إنشائه وإنشاده لهذا الشعر الشريف دليل قاطع وبرهان واضح على صدق ما تعتقده الشيعة، وبعض أخوانهم السنة في أن عبد المطلب وجميع آباء النبيﷺ وأُمّهاته موحّدون، وأنه منذ بدء الخليقة كان ينتقل من الأصلاب الطاهرة إلى الأرحام المطهّرة، حتى ولد من أبوين طاهرين. قالوا: وقد روي عنهﷺ، أنه قال:

---

(١) مجمع البيان ١٠: ٤٤٣، الكامل في التاريخ ١: ٤٤٣ ـ ٤٤٥.
(٢) التفسير الكبير ٣٢: ٩٢.

«**مازلت أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام المطهّرات، حتى أخرجني الله في عالمكم هذا**»[١]. وإذا صحّ ذلك عنه صلى الله عليه وآله وسلم، فقد دلّ على أن آبائه وأمّهاته كلهم موحّدون مؤمنون؛ إذ لو كان بعضهم كافراً لما استحقّ أن يصفه صلى الله عليه وآله وسلم بالطهارة؛ لقوله تعالى: ﴿**إنَّمَا المُشْرِكُونَ نَجَس**﴾[٢]، وهو صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن عن كتاب الله صادفاً، ولا لأحكامه مخالفاً. وقد جاء في همزية البوصيري المتوفّى بتاريخ ٦٩٤ رحمه الله قوله:

لم تزل في ضمائر الكون تُختا ... ر لك الأُمّهات والآباءُ
تتباهى بك العصور وتسمو ... بك علياء بعدها علياءُ
وبدا للوجود منك كريم ... من كريم آباؤه كرماءُ
نسب تحسب العلا بحلاه ... قلّدتها نجومها الجوزاءُ
حبّذا عقد سؤدد وفخار ... أنت فيه اليتيمة العصماءُ
ومحيا كالشمس منك مضيء ... أسفرت عنه ليلة غرّاءُ
ليلة المولد التي كان للديـ ... ـن سرور بيومها وازدهاءُ[٣]

ولكن البعض من المسلمين امتنعوا من القول بذلك، أي بإيمان آباء النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأُمهاته، واحتجّوا بقوله تعالى: ﴿**وَإذْ قَالَ إبْرَاهِيمُ لأبِيهِ آزَرَ أتَتَّخِذُ أصْنَاماً آلِهَةً إنِّي أرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ**﴾[٤]، وبآية ﴿**وَاذْكُرْ فِي الكِتَابِ إبْرَاهِيمَ إنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً * إذْ قَالَ لأبِيهِ يَا أبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً**﴾[٥]، وإن ابراهيم من أجداد النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه من ذرية إسماعيل عليه السلام. وقال

---

(١) تصحيح اعتقادات الإمامية: ١٣٩، أوائل المقالات: ٤٦.
(٢) التوبة: ٢٨.
(٣) السيرة الحلبية ١: ٤٤، سبل الهدى والرشاد ١: ٣٥٥.
(٤) الأنعام: ٧٤. (٥) مريم: ٤١ ـ ٤٢.

الشيعة ومن وافقهم من إخوانهم السنة على إيمان آباء النبيﷺ وأُمّهاته: إن آزر عمّ إبراهيم وشقيق أبيه، ولم يكن أباً له. وقد أُطلق عليه لفظ الأب مجازاً، وقد استغفر له ابراهيمعليه السلام، في بادئ الأمر لموعدة وعدها إياه، حيث قال له: ﴿**سَوفَ أَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً**﴾(١). ﴿**فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ**﴾، ولم يعد يستغفر له؛ لأنه لا يحلّ له ذلك، قال تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيم**﴾(٢).

ولما هلك آزر، ومضى على هلاكه زمن طويل، وامتدّ العمر بإبراهيمعليه السلام، وهاجر إلى فلسطين، ثم جاء إلى مكة، وأسكن إسماعيل وأُمه هاجر مكان البيت الحرام، ثم ولد له إسحاق من زوجته الأُولى سارة، قال بعد ذلك كله: ﴿**الحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الحِسَاب**﴾(٣).

ولا ريب أن كل متأمّل يعرف أن هذا الاستغفار غير ذلك الاستغفار الأول الّذي عدل عنه إبراهيمعليه السلام، وتبرأ ممّن عناه به؛ لاختلاف الزمانين، وبعد العهدين.

عبد المطّلبرضي الله عنه يقول بالبداء

ومن العجيب أن إيمان عبد المطلب قد وصل في عمقه وغزارته إلى الإيمان بالبداء؛ لأنه قال في شعره:

---

(١) مريم: ٤٧. (٢) التوبة: ١١٣ ـ ١١٤.
(٣) ابراهيم: ٣٩ ـ ٤١.

إن يـــدخلوا البـــلد الحـــرا م فـــذاك أمـــر مـــا بـــدا لكْ

ومعنى ذلك أنك قد عوّدتنا أنك تدفع عن هذا البيت كلّ من أراده بسوء؛ فإن سمحت لهؤلاء أن يدخلوه، وأن يفعلوا به ما أرادوه، فليس ذلك لعجز في قدرتك، ولا لضعف في إرادتك ولا لعبث في حكمتك، ولكن ذلك لأمر أردت أن تبديه، وهذا هو معنى البداء الّذي تخبر عنه الآية الكريمة: ﴿**يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الكِتَاب**﴾[1].

ولما صارت الليلة الّتي عزم أبرهة على هدم الكعبة في يومها أدلجوا في السحر يريدون أن يصبحوا بمكّة، وقدّموا الفيلة أمامهم يقدمهم فيل يسمى محمود، فلمّا قربوا من مكّة كبا الفيل، وقال بعضهم: برك، مع أن الفيل لا يبرك؛ لأنه لا مفاصل له. ولعلهم إنما قالوا ذلك؛ لأنه فعل فعل البارك الّذي يلزم موضعه ولا يبرحه، ويحتمل أن يكون بروكه تعبيراً عن سقوطه على الأرض لِما دهمه من أمر الله جلّ وعلا.

وفي كتاب (حياة الحيوان) للدميري المتوفّى سنة ٨٠٨هجرية، عن السهيلي المتوفى سنة ٥٨١هجرية، أنه قال: وسمعت من يقول: إن في الفيلة صنفاً يبرك، كما يبرك الجمل[2]، فإن صحّ هذا، وإلاّ فتأويله ما تقدّم.

فلما برك الفيل، ضربوه فلم يتقدّم، فوجّهوه إلى اليمن فأسرع مهرولاً، ثم وجهوه إلى مكّة فامتنع، وضربوه فلم يتحرّك، ولم يزالوا كذلك، حتى كادت الشمس أن تطلع، وحينئذٍ طلعت عليهم الطير الأبابيل فأهلكتهم.

وفي الصحاح أن رسول الله ﷺ لمّا خرج إلى العمرة المسمّاة بعمرة الحديبية سنة ستّ من الهجرة، ووصل إلى الحديبية، وبلغ الثنية الّتي يهبط منها على مكّة

---

(١) الرعد: ٣٩.

(٢) حياة الحيوان الكبرى ٢: ٩٠.

بركت ناقته القصوى، فجعل الناس يقولون: حل حل. فلم تنبعث، فقال الناس: خلأت القصوى. أي حرنت، فقال: « **ماحرنت القصوى، وماذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل** »(١).

قال الدميري في (حياة الحيوان): ومعنى ذلك، أنهم لو دخلوا مكّة لوقع القتال بينهم وبين قريش، ولأُريق الدم الحرام في البلد الحرام، وقتل من أهل مكّة من لا يستحقّ القتل؛ لأنه قد سبق في علم الله جل وعلا أنه سيسلم الكثير منهم في عام الفتح، وأنه سيخرج من أصلابهم قوم مؤمنون، فمنع الله من ذلك كلّه بما حصل من راحلة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

وهكذا حصل له صلى الله عليه وآله وسلم عندما دخل إلى المدينة وازدحم الأعيان على ناقته كلاًّ يجذب زمامها إلى بيته ليحلّ ضيفاً عنده، وإذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول لهم: « **دعوها؛ فإنها مأمورة** ». فتركوها، ومازالت تسير، حتى بركت على باب بيت أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه، ولولا ذلك لوقع التشاجر بين أعيان المسلمين.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حيث يقول: « **حسين مني، وأنا من حسين** »؛ فقد وقف جواد الحسين عليه السلام، بأرض كربلاء:

بينما السبط بأهليه مجدّ بالمسيرْ وإذا الهاتف ينعاهم ويدعو ويشيرْ
إن قدام مطاياهم مناياهم تسيرْ ساعة إذ وقف المهر الذي تحت الحسينْ

---

(١) مسند أحمد ٤: ٣٢٣، وانظر الكامل في التاريخ ٢: ٢٠٠.

﴿٤٢﴾

فوائد من السورة المباركة

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾.

السؤال في السورة الكريمة؛ للتقرير، وتعليق السؤال بكيفية الفعل دون ذاته؛ لتهويل الفعل وتعظيمه. ومخاطبة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بالكاف، وإضافته إليه به؛ لتشريف الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ولتعريف قريش بأن الّذي فعل بأصحاب الفيل مافعل هو ربك الّذي تدعوهم إلى عبادته، فعليهم أن يخافوه ويحذروه، فإنه لو أراد أن يفعل بهم مثل ما فعل بأصحاب الفيل، لكان قادراً على ذلك.

و﴿**كَيْد**﴾ أصحاب الفيل هو مكرهم وسعيهم لهدم الكعبة المكرمة، و﴿**فِي تَضْلِيل**﴾، يعني في ضياع وإبطال، و﴿**وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ**﴾، أي فرقاً وجماعات، قال الشاعر:

كادت تهدّ من الأصوات راحلتي إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيلِ[1]

(١) مجمع البيان ٢: ٤٤٨، جامع البيان ٤: ٢٣٩.

أي إذ سالت الأرض بالخيل الّتي جاءت فرقاً وجماعات.

وقيل: إن الأبابيل جمع، واحده إبّالة، وقيل: واحده أبول، مثل عجول وعجاجيل، وقيل: واحده إيبال كدينار ودنانير، وقيل: لا واحد لها من لفظها، وهي أشبه شيء بالخطاطيف.

﴿**تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ**﴾، أي ترمهيم بحجارة من طين متحجّر، ﴿**فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ**﴾، أي جعلهم كالورق الّذي أُكل حبُّه، أو كقشر الحبّ الّذي أُكل لبّه، أو كورق الزرع الّذي وقع فيه الأكال، وهو الدود الّذي يأكله ويفسده، حتى ورد أن رجلاً منهم يقال له أبو يكسوم، وقال بعضهم: إنه أبرهة نفسه رجع هارباً إلى اليمن، وكان قد أصابه حجر من تلك الأحجار، فجعل كلّما وصل أرض قوم انقطع منه إرب، حتى إذا انتهى إلى اليمن ـ وكان قد تقطّعت أطرافه، ولم يبقَ منه إلّا بدنه ـ تصدّع صدره، وانشقّ بطنه، وهلك. وأفلت وزيره، وطائر من الطير الأبابيل يتبعه، حتى وصل إلى الحبشة، ودخل على النجاشي، فقصّ عليه القصة والطائر يحلّق فوق رأسه، فلمّا أتمّ القصة رماه الطائر بحجر من سجيل فخرّ ميتاً.

وصار كلّ ما معهم من المتاع والأنعام غنيمة لأهل مكة ومن حولها، قال صاحب (الكشاف): وجمع عبد المطلب الكثير من أموالهم، وكان ذلك سبباً ليساره[1].

وأما كنيسة أبرهة التي بناها باليمن، وأراد أن يصرف الناس إليها بدلاً من الكعبة، فقد أقفرت وأقفر ما حولها، وجعلت تأويها الوحوش والحشرات والهوامّ والجن، حتى كان الناس لا يقدمون على دخولها، وبقيت بما فيها من الأخشاب المذهّبة، والأحجار الثمينة، والآلات المفضّضة، والصلبان الذهبية، والأصنام

---

(١) الكشاف ٤: ٢٨٦.

الفضية إلى زمن أبي العباس السفاح الذي تولّى الملك من سنة ١٣٢ هجرية إلى سنة ٢٣٦هـ، فذكروا له أمرها، وما يتهيّب الناس من جنها وحشراتها وهوامها، فبعث إليها عامله على اليمن أبا العباس بن الربيع، فسار إليها بأهل العزم والجلد والقوة فخربها، وحصل منها على الأموال الكثيرة.

روى الطنطاوي في تفسيره أن السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي ـ نسبة إلى غزنة وهي مدينة بشرق أفغانستان، وقد ولد بها سنة ٣٦١، وتوفي بها سنة ٤٢١ هجرية ـ بعث إلى الخليفة العباسي ـ وهو أحمد القادر بالله الذي تولى الخلافة سنة ٣٨١، وتوفي سنة ٤٢٢ هجرية، كتب إليه ـ أن يذكر اسمه في الخطبة ببغداد، وأن ينقش اسمه في سكة الذهب والفضة، فامتنع الخليفة من ذلك، فبعث إليه بكتاب يتوعّده فيه ويتهدّده إن لم يفعل ذلك، وقال في الكتاب: إني لو أردت أن أنقل حجارة بغداد على ظهور الفيلة إلى غزنة لفعلت. فبعث إليه الخليفة كتاباً مختوماً، فلمّا فتحه لم يجد فيه بعد البسملة إلّا ألفاً ممدودة، وفي وسطه (ل) وفي آخره (م). فحارالسلطان محمود ومن في مجلسه في ذلك، حتى دخل عليهم أبو بكر القهستاني ـ نسبة إلى قهستان بلدة من بلدان خراسان ـ ففكر في ذلك فقال: لعلك أيها السلطان كتبت إلى الخليفة تتهدّده بالفيلة، فبعث لك هذا الكتاب، وفيه (أ ل م) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ**﴾.

فارتاع السلطان محمود، لذلك، ووقع في قلبه الخوف والرعب، وندم على ما فعل، ورجع إلى أحسن الأحوال والرضا والأدب مع الخليفة العباسي.

فائدة:

قال الدميري في كتابه المشهور (حياة الحيوان): إذا دخل إنسان على من يخاف شرّه فليقرأ ﴿**كٓهيعٓصٓ**﴾(١) و﴿**حمٓ ۞ عٓسٓقٓ**﴾(٢)، وعدد حروف الكلمتين

---

(١) مريم: ١.　　(٢) الشورى: ١.

عشرة حروف، ويعقد لكل حرف واحد من أصابعه بإبهام يده اليسرى، فإذا فرغ من عقد جميع أصابعه العشرة قرأ في نفسه سورة الفيل، فإذا وصل إلى قوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِمْ﴾ كررها عشراً، يفتح في كلّ مرة إصبعاً من أصابعه المعقودة؛ فإذا فعل ذلك أمن شرّه إن شاء الله. قال: وهو سرّ عجيب(١).

قالوا: وفي واقعة الفيل أُمور تتعلّق بنبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم:

الأول: أنها من الإرهاصات الدالة على قرب زمانه صلى الله عليه وآله وسلم، ومعنى الإرهاصات: الأشياء الدالّة على تأسيس الشيء وإثباته وقربه. وبالفعل فقد كان مولده صلى الله عليه وآله وسلم بعد واقعة الفيل بأيام معدودة. قال بعضهم:

وكان عام الفيل عام المولدِ   للمصطفى خير الورى محمدِ(٢)

الثاني: أن نزول سورة الفيل عليه صلى الله عليه وآله وسلم كان من الأدلّة على صدق نبوّته وثبوت رسالته؛ لأنها قد جاءت بقصة أصحاب الفيل بدون زيادة ولا نقصان، وبصورة موجزة وعبارة بليغة يعجز أن يأتي بمثلها الإنسان، ويكلّ عن نظيرها البيان، وهي في نفس الوقت تحمل تحذيراً وتخويفاً لقريش أن يحلّ بهم مثل ماحلَّ بأصحاب الفيل إن اعتدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالث: أن قصة أصحاب الفيل لا يمكن أحداً من الملحدين أن يعللها بشيء من الأسباب الكونية أو الحوادث الطبيعية، كما كانوا يعلّلون الخسوف والكسوف والزلازل والفيضانات وأمثالها، وبذلك يكون الخوف من حدوث أمثالها أبلغ وأوقع في النفوس؛ لأنها لا مصدر لها إلّا قدرة الله الذي يفعل ما يشاء، ولا يفعل ما يشاء غيره. فعلى الناس ـ ولا سيما قريش ـ أن يخافوه، فلا يعتدوا على رسول صلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) حياة الحيوان الكبرىٰ ٢: ٩١.   (٢) مستدرك سفينة البحار ٨: ٣٥٥.

الرابع: أن في عدم حصول مثلها للذين اعتدوا على الكعبة من أُمّتهﷺ دليلاً على كرامتهﷺ عند ربّه، فإن يزيد والحجاج قد اعتديا على الكعبة بسبب مقاومة ابن الزبير لهم، قال ابن الأثير في تاريخه: وسار الحصين بن نمير بالناس، فقدم مكّة لأربع بقين من المحرم سنة ٦٤ من الهجرة، وقد بايع أهلها وكثير من أهل الحجاز عبد الله بن الزبير واجتمعوا عليه، ولحق بهم المنهزمون من أهل المدينة بسبب واقعة الحرّة، وخرج ابن الزبير للقاء أهل الشام، وجرى بينهم القتال ولازال حتّى انتهى المحرم وصفر، ومضت ثلاثة أيام من شهر ربيع الأول سنة ٦٤ من الهجرة، فرموا البيت بالمجانيق، وحرقوه بالنار، وأخذوا يرتجزون ويقولون:

خطاره مثل الفنيق المزبدِ   نرمي بها أعواد هذا المسجدِ

وما زال أهل الشام يواصلون اعتداءهم على الكعبة المكرمة حتى جاءهم نعي يزيد بتاريخ ١ / ٤ / ٦٤ هجرية، فانصرفوا عن مكة، وبنى ابن الزبير الكعبة لما أصابها من التصديع بسبب فعل أهل الشام. قال: وفي شهر ذي القعدة سنة ٧٢ هجرية قدم الحجاج مكة محرماً، ونزل بئر ميمون، وحجّ بالناس تلك السنة إلّا إن ابن الزبير منعه من دخول مكة، فلم يطف بالكعبة ولم يسعَ بين الصفا والمروة.

كما أن ابن الزبير وأصحابه لم يحجّوا في تلك السنة؛ لأنهم لم يقدروا على الخروج إلى عرفة وغيرها من المشاعر المقدّسة بسبب وجود الحجاج وأصحابه، ونصب الحجاج المنجنيقات على أبي قبيس، وجعل يرمي الكعبة بالأحجار وكيزان النفط بأمر عبد الملك بن مروان الذي كان ينكر ذلك على يزيد بن معاوية فيما قبل. ثم فعل ما هو أعظم منه، وأرسل ابن عمر ـ وكان حاجّاً في تلك السنة ـ إلى الحجاج: اتّقِ الله، واكفف هذه الحجارة عن الناس، فإنك في شهر حرام، وبلد حرام، وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدّوا فريضة الله، ويزدادوا خيراً،

وإن المنجنيقات قد منعتهم عن الطواف، فاكفف عن الرمي حتى يقضوا ما يجب عليهم. فأوقف الرمي حتى عاد الناس من منى وطافوا وسعوا.

ولما فرغوا من ذلك نادى منادي الحجاج: انصرفوا؛ فإنّا سنعود برمي الحجارة على ابن الزبير الملحد. فخرج الناس مسرعين، وعاد الرمي على الكعبة، فأبرقت السماء وأرعدت، وعلا صوت الرعد على صوت الحجارة، فأعظم ذلك أهل الشام، وأمسكوا عن الرمي، فجعل الحجاج يرمي بالمنجنيق بنفسه، فلما رأوا إقدامه على ذلك جعلوا يرمون معه، وجاءت الصواعق فقتلت من أصحابه اثني عشر رجلاً، فانكسرت عزيمة أهل الشام، فقال الحجاج. يا أهل الشام لا تنكروا هذا فإنها صواعق تهامة، وأنا ابنها وأعرَف بها، وهذا الفتح قد حضر فأبشروا.

ثم لما كان الغد جاءت صاعقة فأصابت عدّة من أصحاب ابن الزبير، فقال الحجاج: ألا ترون أنهم يصابون كما تصابون، وأنتم على الطاعة وهم على المعصية؟ فعادت إليهم عزائمهم وعادوا إلى أفعالهم[1].

وما زالوا على ذلك إلى أن قتل ابن الزبير في العاشر أو الثالث عشر أو الرابع عشر من شهر جمادى الأُولى أو جمادى الآخرة سنة ٧٣ هجرية، وله من العمر ٧٢ سنة، ولكنه لم يقتل حتى تحطّمت الكعبة، فأعاد الحجاج بناءها في تلك السنة.

قال أهل السير: لما أراد الحسين عليه السلام الخروج من مكّة وذلك في الليلة الثامنة من شهر ذي الحجة الحرام سنة ٦٠ من الهجرة، كان فيمن جاء إليه عبد الله بن الزبير، فقال: إلى أين يابن رسول الله؟ فقال: «**إلى الكوفة**». فقال: وفّقك الله، أما لو كان لي بها مثل أنصارك ما عدلت عنها[2].

قالوا: وإنما قال ذلك؛ لأنه كان يحدث نفسه بالوثوب على يزيد، وقد علم أن

(١) الكامل في التاريخ ٤: ٣٥٠.
(٢) مروج الذهب ٣: ٦٩، البداية والنهاية ٨: ١٧٢.

الناس لا يبايعونه والحسين عندهم، فحبّب إليه قصد الكوفة، ثم خشي أن يتّهمه الحسين أو غيره، فقال: ولو أقمت مكانك ودعوتنا وأهل الحجاز إلى بيعتك لما خالفنا عليك. فقال الحسين عليه السلام: «**لئن أُدفن بشاطئ الفرات أحبّ إليّ من أن أُدفن بفناء الكعبة**»[1]، وقال: «**إن أبي حدثني أن بها كبشاً يستحلّ حرمتها ـ أو ـ تستحلّ به حرمتها، فما أحب أن أكون أنا ذلك الكبش**»[2]. فكان ذلك الكبش هو ابن الزبير.

قال الشيخ النَّجار في تعليقه على القصة في تاريخ ابن الأثير: إن ابن الزبير باحتمائه بالكعبه قد عرَّض الحرم لأن يسفك فيه الدم من قوم ليس لشيء عندهم حرمة، فهو شريكهم في هذه التبعة.

أقول: وأمَّا الحسين فإنه قد خرج من مكة لئلّا يقتل بها، فيكون الذي تستحلّ به حرمة ذلك البيت الحرام (زاده الله تكريماً وتعظيماً).

---

(١) كامل الزيارات: ١٥١ / ١٨٤. (٢) تاريخ الطبري ٤: ٢٨٩.

سورة الهمزة

﴿٤٣﴾

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ * كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾.

تقدم الكلام عن كلمة ﴿وَيْلٌ﴾ في سورة الماعون، وأنها على العكس من كلمة «ويح»؛ لأن «ويح» للرحمة، و«ويل» للعذاب، ولذلك يدعى بها على المجرمين، كما في هذه السورة المباركة وتلك السورة وسورة (المطفّفين): ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾[(١)]، وغيرها.

وأما الويح فيُترحّم بها على الصالحين، كما قال رسول الله ﷺ عن عمار بن ياسر: «**ويح ابن سمية؛ تقتله الفئة الباغية**»[(٢)].

---

(١) المطففين: ١.

(٢) انظر: دعائم الإسلام ١: ٣٩٢، الاختصاص: ١٤، مسند أحمد ٢: ١٦١، ١٦٤، ٢٠٦، ٣: ٥، ٢٢، ٢٨، ٩١، ٤: ١٩٧، ١٩٩، ٥: ٢١٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٦: ٢٨٩، ٣٠٠، ٣١١، ٣١٥، صحيح

والويل ـ كما تقدم في سورة الماعون ـ: الهلاك وحلول الشرّ، وأنها تضاف إلى ياء المتكلم فيقال: «ويلي»، كما قال أعشى قيس:

قالت هريرة لما جئت زائرها ويلي عليك وويلي منك يا رجلُ[1]

وتضاف إلى ضمير المخاطب فيقال: «ويلك»، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتْ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾[2].

وقد صرف بنو أُمية هذه الآية إلى عبد الرحمن بن أبي بكر لما عارضهم في أخذ البيعة ليزيد بن معاوية، فقد روي أن معاوية أرسل إلى واليه على المدينة يومئذٍ مروان بن الحكم أن يأخذ من الناس البيعة لولده يزيد، فلمّا كلّم مروان الناس في ذلك قال له عبد الرحمن: يريد معاوية أن يجعل هذا الأمر ـ يعني الخلافة ـ هرقلياً وكسروياً؟ أي إذا مات الآباء جعلوا أبناءهم مكانهم حتى ولو لم يكونوا أهلاً لذلك. فصاح به مروان: صه؛ فأنت الّذي نزلت فيك ﴿**وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي**﴾. فلمّا بلغ أُمّ المؤنين عائشة قوله قالت: كذب مروان، وإنّي لأعلم فيمن نزلت، ولو شئت أن أُخبر باسمه ونسبه لفعلت، ولكني أشهد أن رسول الله ﷺ لعن والد مروان، ومروان في صلبه[3].

قالوا: وقد أشارت أُمّ المؤمنين بهذا القول إلى ما رواه الحاكم في (المستدرك)، ورواه عنه الدميري في (حياة الحيوان) في باب الوزغ عن عمرو بن مرة الجهني أن الحكم بن أبي العاص بن أُمية استأذن على النبي ﷺ، فعرف النبي ﷺ صوته

البخاري ٣: ٢٠٧، صحيح مسلم ٨: ١٨٦، البداية والنهاية ٣: ٢٦٣ ـ ٢٦٤، وغيرها كثير.

(١) مجمع البيان ٨: ٢٨٠. (٢) الأحقاف: ١٧.

(٣) العمدة: ٤٥٤، تفسير الثعلبي ٩: ١٣.

وكلامه، فقال: «**ائذنوا له، عليه لعنة الله وعلى من يخرج من صلبه إلّا المؤمن منهم، وقليل ما هم، يشرفون في الدنيا، ويضيعون في الآخرة، ذوو مكر وخديعة، يعطون في الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق**»[١].

وتضاف كلمة «ويل» إلى ميم الجماعة، فيقال: «ويلكم». قال تعالى في قصة موسى عليه السلام والسحرة: ﴿**قَالَ لَهُم مُّوسَى وَيْلَكُمْ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى**﴾[٢].

وتضاف إلى ضمير المتكلمين، فيقال: «ويلنا». قال تعالى: ﴿**قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا**﴾[٣].

ويؤنث الويل فيقال: «ويلة»، قال مالك بن جعدة التغلبي:

لأمك ويلة وعليك أُخرى ... فلا شاة تنيل ولا بعيرا[٤]

وتجمع «الويلة» على «ويلات»، قال امرؤ القيس الكندي:

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة ... فقالت لك الويلات إنك مرجلي[٥]

وقيل: إن الويل وادٍ في جهنم (نستجير بالله منها).

وأما قوله تعالى: ﴿**لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ**﴾ فإن (كل) اسم موضوع لاستغراق الأفراد المتعدّدة، أو لعموم أجزاء الواحد، فهي هنا تدلّ على أن الآية عامة لكل من يتّصف بهذه الصفة وإن قال بعضهم: إنها نزلت في إنسان معيّن، وهو الوليد بن المغيرة المخزومي. ولكن النزول لا يمنع الشمول، وتخصيص المورد لا يخصّص الوارد.

﴿**الهُمَزَةِ اللُّمَزَةِ**﴾. قيل: إن معناهما واحد، وإن الموصوفين بالكلمتين هم

---

(١) حياة الحيوان الكبرىٰ ٢: ٢٤٧. (٢) طه: ٦١.
(٣) يس: ٥٢. (٤) الصحاح ٥: ١٨٤٦ ـ ويل.
(٥) العين ٦: ١٠٤ ـ رجل. مغني اللبيب ٢: ٣٤٣ / ٥٦١.

المشّاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبّة، العيّابون للناس. قال الشاعر:

كـد لي بـودّي إذا لاقيتني كـذباً وإن أغيب فأنت الهـامز اللـمزه[١]

ولكن الّذي عليه الأكثر أن الهمزة هو الّذي يغتابك في غيبتك، واللمزة هو الّذي يسيئك في حضرتك؛ فإنه الموافق لقوله تعالى: ﴿**وَقُل رَّبِّ أَعُـوذُ بِكَ مِـنْ هَـمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ**﴾[٢]. فإن همزات الشياطين خطراتها التي تخطرها في قلب الإنسان من حيث لا يراها الإنسان، فكأنه يهمزه وهو غائب عنه، ولذلك عقّب عـلى الغـيبة بالحضور، فقال تعالى: ﴿**وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ**﴾[٣].

والقول: إن اللمز هو إساءة الإنسان في محضره هو الموافق أيضاً لقوله تعالى: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**﴾[٤]. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقسم غنائم هوازن التي غنمها منهم يوم حنين، إذ جاءه حرقوص بن زهير التميمي المـلقّب بذي الخويصرة، والّذي أصبح رأساً للخوارج فيما بعد، فقال: اعـدل يـا رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: «**ويلك، ومن يعدل إذا لم أعـدل؟**». فقال الخليفة عمر: يا رسول الله، ائذن لي أن أضرب عنقه. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**دعه فإن له أصحاباً يحتقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، آيتهم رجل أسود إحدى يديه مثل ثدي المرأة، يخرجون على فترة مـن الناس، فإذا خرجوا فاقتلوهم**».

قال أبو سعيد الخدري: أشهد أني سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأشهد أن علياً عليه السلام حين قتلهم وأنا معه ـ أي يوم النهروان ـ جيء بالرجل على النعت الذي

---

(١) التبيان ١٠: ٤٠٧.
(٢) المؤمنون: ٩٨.
(٣) المؤمنون: ٩٨.
(٤) التوبة: ٥٨.

نعته رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[١].

وروي في كتاب (الكنى والألقاب) عن حبّة العرني قال: كان رجلاً أسودَ، منتن الريح، له يد إذا مدت كانت بطول اليد الأُخرى، وإذا تركت اجتمعت وتقلّصت وصارت كثدي المرأة[٢].

والقول: إن اللمز هو إساءة الإنسان في محضره هو الموافق أيضاً لقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ**﴾[٣]، لأنه جلّ وعلا بعد أن نهى عن اللمز في هذه الآية نهى عن الغيبة في الآية التي بعدها، فقال تعالى: ﴿**وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً**﴾، فدل على أن الهمز غير اللمز، وأن اللمز هو عيب الإنسان في مشهده، والهمز هو عيبه في مغيبه. وإنما قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ**﴾؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة، فمن لمز أخاه المؤمن فكأنه لمز نفسه. روى صاحب تفسير (البرهان) بسنده عن سليمان الديلمي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما معنى قوله تعالى: ﴿**وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ**﴾؟ قال: «**الذين همزوا آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولمزوهم، وجلسوا مجلساً كان آل محمد أحقّ به منهم**»[٤].

﴿**الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ**﴾، قيل: إن معنى ذلك أنه جمع المال وعدّده للناس للفخر والتطاول به عليهم، كصاحب الجنتين الّذي ﴿**قَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً**﴾[٥]، وكالذين قال الله فيهم: ﴿**وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ**﴾[٦]. وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**يقول ابن آدم: مالي. وما لَك من مالِك**

---

(١) بحار الأنوار ٢٢: ٣٧ ـ ٣٩، المصنف (الصنعاني) ١٠: ١٤٧ / ١٨٦٤٩، ومثله عن جابر في ص ١٤٩ / ١٨٦٥١.

(٢) الكنىٰ والألقاب ٢: ٢٤٧.

(٣) الحجرات: ١١.

(٤) البرهان ٤: ٥٠٥ / ١.

(٥) الكهف: ٣٥.

(٦) سبأ: ٣٥.

إلّا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو أعطيت فأمضيت، أو تصدّقت فأبقيت، وما سوى ذلك فهو ذاهب لغيرك»[١].

وقيل: إن معنى ﴿**عَدَّدَهُ**﴾، أي عدّده مرة بعد أُخرى؛ شغفاً به وحباً له، ولذلك فإنه يبخل بما فرض الله عليه فيه؛ خوفاً عليه من النقص. وفي مثله جاء قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ**﴾[٢].

وقد ورد أنه لما نزلت هذه الآية قال المسلمون: يا رسول الله، ليس لنا أن ندّخر شيئاً لأبنائنا؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن الله لم يفرض الزكاة إلّا ليطيب بها ما بقي من أموالكم، وإنما فرض الله المواريث من أموال تبقى بعدكم**»[٣].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: «**من أدّى زكاة ماله، فما تبقّى منه فليس بكنز**»[٤].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**ما أدّيت زكاته، فليس بكنز**»[٥].

إذن فآية الكنز إنّما عنت من يمنع الزكاة، كقارون وأمثاله من الأولين، وكثعلبة وأمثاله من الآخرين، فهؤلاء هم الذين عناهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: «**الدينار والدرهم أهلكا من كان قبلكم وإنهما مهلكاكم**».

وقد ورد أن هذه الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿**حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ**﴾، أنها تعني أهل الأموال الذين لم يؤدّوا ما فرض الله عليهم فيها، فإنهم يتمنون على ربهم أن يعيدهم إلى الدنيا

---

(١) مسند أحمد ٤: ٢٤. (٢) التوبة: ٣٤ ـ ٣٥.

(٣) المستدرك على الصحيحين ٢: ٣٣٣.

(٤) الأمالي (الطوسي): ٥١٩ / ١١٤٢، المعتبر ٢: ٥٢٤، السنن الكبرىٰ (البيهقي) ٤: ٨٣، باختلاف. (٥) مجمع البيان ٥: ٤٧.

ليعملوا صالحاً فيما تركوا منها، ولكنهم لا يعطون ذلك بل يقال لهم: ﴿**كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾[١].

﴿**يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ**﴾، يعني أنه يبلغ اعتزازه المولع بالمال إلى حدّ يحسب أن ماله يخلده في الدنيا، وأنى له وذاك:

مـا أخـلدت قـارون أمـواله　　　بل أهلكته فـاغتدى هـالكا

﴿**كَلاَّ لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ**﴾، أي ليس الأمر كما يظنّ؛ فإن ماله لا يـخلده فـي الدنيا، بل ربما أهلكه كما أهلك قارون، وإذا لم يهلكه فلابدّ لأحدهما أن يفارق الآخر:

تشحُّ بالمال حرصاً وهو منتقل　　　أو أنت عنه برغم منك مـنتقل[٢]

﴿**لَيُنبَذَنَّ**﴾، أي ليقذفنّ ﴿**فِي الْحُطَمَةِ**﴾ بسبب همزه ولمزه، وجمعه المال من غير حله، أو لحجبه ما يجب عليه في المال عن أهله، فقد روي أنه « **يؤتى برجل يوم القيامة وقد جمع المال من حرام وأنفقه في حرام، فيقال: اذهبوا به إلى النار، ويؤتى برجل قد جمع المال من حلال وأنفقه في حرام فيقال: اذهبوا به إلى النار، ويؤتى برجل قد جمع المال من حرام وانفقه في حلال فيقال: اذهبوا به إلى النار، ويؤتى برجل قد جمع المال من حلال وانفقه في حلال فيقال له: قف للحساب؛ فلعلك قد قصرت في طلب هذا المال بشيء مما فرض الله عليك من صلاة لم تصلّها لوقتها، أو قصرت في ركوعها وسجودها، او لعلك اختلت في هذا المال بمركب تركبه، أو ثوب تلبسه، أو لعلك منعت حق أحد أمرك الله أن تعطيه من ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل** »، إلى غير ذلك.

---

(١) المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠.　　　(٢) أعيان الشيعة ٥: ٢٦١.

وهذا هو ما قاله الإمام الحسن بن علي عليه السلام في وصيته لجنادة: «**واعلم أن الدنيا في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، وفي الشبهات عتاب**»(١).

﴿**فِي الْحُطَمَةِ**﴾، ﴿**الْحُطَمَة**﴾: اسم من أسماء النار. وقيل: إن النار لها سبع دركات، ودركات النار منازل أهلها؛ فالنار دركات، والجنة درجات، ولكل درك اسم:

فدرك اسمه الحطمة؛ لأنه يحطم ما فيه. قال أمير المؤنين عليه السلام: «**أعلمتم أن مالكاً إذا غضب على النار حطم بعضها بعضاً لغضبه، وإذا زجرها توثبت بين أبوابها جزعاً من زجرته**»(٢).

ودرك اسمه لظى. قال تعالى: ﴿**كَلاَّ إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى**﴾(٣).

ودرك اسمه سقر. قال تعالى: ﴿**سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ**﴾(٤).

ودرك اسمه الجحيم. قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾(٥).

ودرك اسمه السعير. قال تعالى: ﴿**فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**﴾(٦).

ودرك اسمه جهنم. قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً**﴾(٧).

ودرك اسمه الهاوية. قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ**﴾(٨).

قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ**﴾.

وكلمة ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ**﴾ و﴿**وَمَا يُدْرِيكَ**﴾(٩) للتعظيم، وبيان أن الأمر فوق ما يُتصور. قال بعضهم: ولعلّه جلّ وعلا إنّما جعل مقام الهامز للناس بغيبته لهم، واللّامز لهم

---

(١) كفاية الأثر: ٢٢٦.
(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ١٨٣.
(٣) المعارج: ١٥ ـ ١٦.
(٤) المدثر: ٢٦ ـ ٢٧.
(٥) المائدة: ١٠.
(٦) الشورى: ٧.
(٧) الجن: ١٥.
(٨) القارعة: ٦ ـ ٧.
(٩) الأحزاب: ٦٣، الشورى: ١٧، عبس: ٣.

بإساءته إياهم، والجامع للمال بمنع الحقوق التي فرضها الله عليه لضعفائهم إنما جعل الله سبحانه مقامه الحطمة للتناسب بين الذنب والجزاء، فبما أنّ المغتاب العيّاب والمانع لحقوق الضعفاء والمعوزين يكسر حيثيتهم ويحطم كرامتهم كان جزاؤه ﴿**الْحُطَمَةِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ**﴾.

﴿**نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ**﴾، إنما نسبها الله سبحانه لنفسه؛ تعظيماً لعذابها.

﴿**الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ**﴾، أي أنها على خلاف نيران الدنيا، فإن نيران الدنيا تشوي من الظاهر إلى الداخل، فتحرق الجلد قبل اللحم، واللحم قبل العظم. وأما نار الآخرة فإنها تحرق الداخل قبل الخارج، فتصل إلى القلب قبل أن تصل إلى خارج البدن؛ فهي أشبه شيء بأشعة رونتجن[1] التي تصل إلى دواخل جسم الإنسان وترسمه للطبيب، بحيث يستطيع بواسطة ذلك الرسم وبسبب ذلك التصوير أن يشخّص الداء ويصف الدواء.

قال الطنطاوي في تفسيره (الكبير): وقد ثارت مناقشة حادة في الجرائد المصرية سنة ١٩٢٥م بسبب أن بعض الأطباء المسلمين قال: لعل هذه الآية والتي بعدها تشير إلى أشعة رونتجن التي هي ذات أثر عظيم في عملها في النوع البشري بسبب كشفها الداخلي، وأنها ترى في إشراقها كالأعمدة الممددة. ونفى آخرون ما يقول هذا الطبيب وما زال النقاش قائماً بين الفريقين إلى أن انتصر الأول.

ورونتجن الّذي نسبت إليه هذه الأشعة هو فيزيائي ألماني عاش من سنة ١٨٤٥م إلى سنة ١٩٢٣م.

قال بعض المفسرين: وإن التناسب بين الفعل والجزاء هو الّذي أوجب أن يكون عذاب النار متّصلاً بالقلب، فإن الهمز واللمز، ومنع الحقوق التي فرضها الله جلّ

---

(١) ومثال أقرب هو التسخين بأشعة المايكرويف، حيث إن التسخين بها يبدأ من قلب الجسم المراد تسخينه ثم ينتشر نحو حدوده الخارجية.

وعلا ينبعث من القلب ويحرق قلب الموجّه إليه، فناسب أن يكون جزاء فاعله أن يحترق قلبه قبل أن تحترق أعضاؤه.

وهذا هو ما يقوله العرفاء الشامخون فإن العذاب عندهم هو تجسّم الأعمال السيئة، والنعيم عندهم إنما هو تجسّم الأعمال الحسنة. ويستدلّون على ذلك بعدة آيات، منها قوله تعالى: ﴿**وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً**﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿**هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون**﴾[٢]. وغير ذلك من الآيات. وهناك أيضاً من الروايات ما يناسب ذلك والله اعلم.

﴿**إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ**﴾، تقرا بالهمزة وبغيره؛ فبالهمزة من «أصدت الباب»، وبغيرها من «أوصدت الباب». والمعنى واحد، وهو أنها مطبقة ومغلقة على أهلها؛ فلا يدخل عليها روح، ولا يخرج منها روح.

﴿**فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ**﴾، و﴿**عَمَدٍ**﴾ جمع عمود، كما قال تعالى: ﴿**رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا**﴾[٣]. والتمديد مبالغة في المدّ، فيفترق معنى ﴿**مُّمَدَّدَة**﴾ عن معنى ممدودة من جهة وجود المبالغة في الأُولى، وعدمه في الثانية.

قال بعض المفسرين: والعمد هي أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار. وقيل: هي خشب أو جذوع من نار فيها خروق توضع فيها أرجل المحبوسين في النار، وقيل غير ذلك. روى الطبرسي والعياشي وغيرهما بالإسناد عن حمران بن أعين عن الإمام الباقرعليه السلام أنه قال: «**إن الكفار والمشركين يعيرون أهل التوحيد في النار ويقولون لهم: ما نرى توحيدكم أغنى عنكم شيئاً، وما نحن وأنتم إلّا سواء. فيأنف لهم الرب جلّ وعلا ويقول للملائكة: اشفعوا. فيشفعون لمن شاء الله لهم أن يشفعوا فيهم، ثم يقول للنبيين: اشفعوا. فيشفعون لمن شاء الله لهم أن يشفعوا**

---

(١) الكهف: ٤٩. (٢) التوبة: ٣٥.

(٣) الرعد: ٢.

فيهم، ثم يقول للمؤمنين: اشفعوا. فيشفعون لمن شاء الله لهم أن يشفعوا فيهم، ثم يقول جلّ وعلا: أنا أرحم الراحمين، اخرجوا برحمتي. فيخرجون كما يخرج الفراش. ثم مُدّت العمد، وأُوصدت النار على من بها، وكان الخلود»[١]. (نستجير بالله من النار).

اتحرقني بالنار يا غاية المنى ... فأين رجائى ثم أين مخافتي
أتيت بأعمال قباح زرية ... وما في الورى خلق جنى كجنايتي[٢]

---

(١) مجمع البيان ١٠: ٤٤٠.
(٢) الصحيفة السجادية: ١٧٧.

سورة العصر

﴿٤٤﴾

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

قوله تعالى: **﴿وَالْعَصْرِ﴾**، للقسم. وقد أقسم الله سبحانه في القرآن الكريم بما يقارب أربعين قسماً كلها بأشياء من مخلوقاته؛ تنبيهاً على شرفها وفضلها. قالوا: لله جل وعلا أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته، وليس للمخلوق أن يقسم إلّا بخالقه، في كتاب الواعظ عن محمد بن مسلم قال قلت: لأبي جعفر عليه السلام: قول الله جل وعلا: **﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾** وقوله: **﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾** وما أشبه ذلك؟ فقال: «**إن لله عزّ وجل أن يقسم بما يشاء، وليس لخلقه أن يقسموا إلّا به**».

وعن ولده الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**لا أرى أن يحلف الرجل إلّا بالله**»[١].

وقد ذكر المفسرون أن للعصر الذي أقسم الله به في هذه الآية الكريمة عدة معانٍ: منها أنه صلاة العصر باعتبار أنها الصلاة الوسطى التي ذكرها الله سبحانه بقوله: **﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾**[٢].

---

(١) الكافي ٧: ٤٤٩ / ٢.

(٢) البقرة: ٢٣٨.

وإنما اعتبرها بعضهم أنها الصلاة الوسطى؛ لأن الصلوات اليوميّة خمس، فقبلها صلاتان نهاريتان: صلاة الصبح وصلاة الظهر، وبعدها صلاتان ليليّتان، وهما صلاة المغرب وصلاة العشاء، وهي بين هاتين وهاتين. وقد أقسم الله بها تأكيداً على أهميتها، وذكرها في الآية المذكورة معطوفة على الصلوات من باب ذكر الخاص بعد العام.

ومن معاني العصر أنه الطرف الأخير من النهار. وقد أقسم الله به كما أقسم بالجزء الأول من النهار فقال: ﴿**وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا**﴾. وإنما أقسم الله بها لما في الأول من إدبار سلطان الليل وإقبال سلطان النهار، ولما في الثاني من عكس ذلك، وكلاهما بقدرة الله وحكمته وتدبيره، قال تعالى: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللّهُ عَلَيْكُمْ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ**﴾[1].

ومن معاني العصر أنه الليل والنهار؛ وذلك لما فيهما من آيات الله جل وعلا، ومن تلك الآيات اختلافهما بذهاب أحدهما وقدوم الآخر بصورة مستمرة، وباختلافهما بالطول والقصر في فصلي الشتاء والربيع، وفصلي الصيف والخريف، وبما يأخذ أحدهما من الآخر في تلك الفصول المذكورة بصورة مماثلة، وقسمة عادلة. وكل ذلك في حدود ٢٤ ساعة مهما طال أحدهما وقصر الآخر، وفي اختلافهما بالذهاب والإياب، والطول والقصر، قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ**﴾[2].

قالوا: وأطول ما يكون النهار يوم ١٧ حزيران عند حلول الشمس آخر الجوزاء فيكون النهار حينئذٍ ١٥ ساعة، والليل ٩ ساعات، وهو أقصر ما يكون

---

(١) القصص: ٧١ ـ ٧٢.
(٢) آل عمران: ١٩٠.

الليل، ثم يأخذ النهار في النقصان والليل في الزيادة إلى ١٨ أيلول عند حلول الشمس آخر السنبلة فيستوي الليل والنهار ويصير كلّ واحد منهما ١٢ ساعة، ويسمى الاعتدال الخريفي. وبعد التساوي يأخذ النهار في النقصان والليل في الزيادة إلى ١٨ كانون الأول عند حلول الشمس آخر القوس فيصير الليل ١٥ ساعة والنهار ٩ ساعات، ثم يأخذ النهار في الزيادة والليل في النقصان إلى ١٦ آذار عند حلول الشمس آخر الحوت، فيستوي الليل والنهار، ويسمى الاعتدال الربيعي، ثم يستأنفان الدور، وهكذا إلى ما شاء الله.

ومن معاني العصر أنه الزمن بكامله، وذلك لما فيه من العجائب والغرائب؛ فغني يفتقر وفقير يستغني، ومريض يبرأ وصحيح يموت، وموجود يفقد ومفقود يولد، ودول تفنى ودول تأتي. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**ألّا ترون إلى أهل الدنيا كيف يمسون ويصبحون على أحوال شتى؛ فبين عائد ومعود، وآخر بنفسه يجود؟**»[1]. إلى آخر كلامه عليه السلام. وقال الشاعر:

إن للدهر صولة فاحذرَنْها ... لا تبيتن قد أمنت الشرورا
قد يبيت الفتى معافى فيردى ... ولقد كان آمنا مسرورا[2]

وتقول حرقة بنت النعمان بن المنذر ملك العرب بعد أن زال ملكهم وذهب سلطانهم، وصارت في حالة الفقر والبؤس: أصبحنا وما من عربي إلّا وهو يرهبنا ويرغب إلينا، وأمسينا وما من عربي إلّا ونحن نرهبه ونرغب إليه. وأنشدت:

فبينا نفوس الناس والملك ملكنا ... إذا نحن فيهم سوقة نتسكّعُ

ومن معاني العصر أنه عصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم؛ وذلك لأنه أشرف العصور بحياة

---

(١) معاني الأخبار: ١٩٨.
(٢) البيتان لعدي بن زيد. خزانة الأدب ١: ٣٦٧.

الرسولﷺ فيه؛ لأن الزمان والمكان ظرفان يشرفان ويسوءان بأهلهما، وكما أقسم جل وعلا بزمان الرسولﷺ فقد أقسم بمكانه، فقال تعالى: **﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾** على قول من قال: إن **﴿لا﴾** زائدة، والمعنى: **﴿أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾** لشرفه، فهو حرم الله وأمنه، وزاده شرفاً أنك حِلّ به: **﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾** جيء بها لابتداء الكلام، وأقسم بعمرهﷺ، فقال تعالى: **﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾**[(١)].

نقل صاحب (خلاصة التفاسير) الشيخ أحمد مغنية عن ابن عباس أنه قال: ما خلق الله عزوجل وما برأ ولا ذرأ نفساً أكرم عليه من محمدﷺ، وما سمعت الله أقسم إلّا بحياته، فقال تعالى: **﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾**[(٢)].

ومن معاني العصر أنه عصر دولة الإمام المهدي (عجل الله فرجه الشريف)، وذلك لأنه عصر أيام الدنيا؛ باعتباره آخر أيامها، ولأنه عصر ظهور الحق على الباطل. وقد وردت بذلك روايات عن أهل البيتعليهم السلام ففي (التفسير الصافي) بسنده عن المفضل بن عمر قال: سألت الإمام الصادقعليه السلام عن قوله تعالى: **﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾** فقالعليه السلام: «**يعني أعداءنا، ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، يعني بولايتنا، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ يعني الإمامة، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ يعني العترة**»[(٣)].

والإنسان هو هذا النوع البشري، وإنما سمي الإنسان لأُنسه؛ فهو يأنس بنوعه، ويأنس بغيره، ويؤنس به. وقد تقدم الكلام عن ذلك في سورة الناس.

و**﴿الْخُسْرِ﴾** هو نقصان رأس المال، وهذا أمر واقع؛ لأنه في كلّ ثانية يخسر جزءاً من عمره الذي هو رأس ماله، قال الشاعر:

---

(١) الحجر: ٧٢. (٢) الحجر: ٧٢.

(٣) التفسير الصافي ٥:٣٧٢، ٧: ٥٥٠، نور الثقلين ٥:٦٦٦/ ٥.

حـــياتك أنـــفاس تـــعدّ فكـلما مضى نفس منها نقصْتَ به جـزءا[١]

إلّا أن يكون قد ربح من هذا الجزء جزءاً أطول وأسعد في الدار الآخرة، وإلّا فهو من الخاسرين. روى الشيخ البديري في كتابه (على ضوء القرآن) أن قـوماً ضلّوا عن طريقهم، فوصلوا إلىٰ صومعة راهب، فنادوه، فأشرف عـليهم، فسألوه: أين الطريق؟ فقال: ها هنا. وأومأ بيده إلى السماء، فـعلموا بـمراده، فـقالوا: إنـا سائلوك. فقال: سلوا ولا تكثروا؛ فإن النهار لا يرجع، والعمر لا يعود. قالوا فأخبرنا إلام المصير؟ قال: إلى ما قدَمتم. قالوا: فأوصِنا. قال: إن أعماركم رؤوس أموالكم، فلا تخسروها[٢].

قالوا: وإنما نكّر (الخسر) في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾ لأن التنكير يفيد التهويل، فكأنه تعالى يقول: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾ عظيم. وقد أوضح جل وعلا ذلك الخسر في آية أُخرى، فقال: ﴿**خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْـرَانُ الْمُبِينُ**﴾[٣].

وبعد أن ذكر الله سبحانه خسر الإنسان، وأكده بـ﴿إن﴾ واللام والجملة الاسمية التي تدل كلها على التأكيد مضافاً إلى الإتيان بالحرف ﴿في﴾ الذي يستفاد مـنه الكون في الخسر واستغراق الإنسان بكامله فيه؛ لأن الألف واللام في ﴿الإنسان﴾ للجنس، وقد جعل الخسر لجميع الإنسان نظراً للأعمّ الأغلب منه، استثنى بعد ذلك أهل القوة العلمية فقال: ﴿**إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ أي آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسـله واليوم الآخر. وهذا هو الإيمان العام، وأما الإيمان الخاص، فهو الذي ذكره الله جلّ وعلا بقوله: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ**

---

(١) محاسبة النفس: ١٤٥. (٢) على ضوء القرآن: ١٢٣.
(٣) الحج: ١١.

آياتُهُ زَادَتْهُمْ إيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(١).

ثم عطف عليهم أهل القوة العملية فقال: **﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾**، أي لوجه الله سبحانه، وبدافع من الإيمان به. أمّا من عمل الصالحات لغير وجه الله فإن عمله لا يوجب له الأجر من الله سبحانه، روى الدميري في كتاب (حياة الحيوان) أن أم المؤمنين عائشة قالت لرسول الله ﷺ يوماً: إن ابن جدعان كان يطعم الطعام، ويقري الضيف، ويفعل المعروف، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة؟ قال: «لا، إنه لم يقل يوماً: **﴿أنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾**(٢).

ولما جيء بسبايا طيّئ إلى رسول الله ﷺ كلمته سفانة بنت حاتم الطائي في فكاكها، وقالت: إن رأيت أن تطلقني ولا تشمت بي أحياء العرب، فأنا ابنة سيد في قومه؛ إن أبي كان يطعم الطعام، ويفشي السلام ويفك العاني، ويكسو العاري، وما جاءه طالب حاجة فردّه خائباً، انا ابنة حاتم الطائي. فقال ﷺ: «**هذه صفات المؤمنين لو كان أبوك مسلماً لترحّمنا عليه**»(٣).

وبموجب هذا القول فإن الإنسان لا ينتفع بعمله ما لم يكن ذلك العمل صادراً من إيمانه بربه، كما أنه لا ينتفع من إيمانه بربه ما لم يدفعه إيمانه إلى الأعمال الصالحة وإلّا فهو خائب خاسر وإن كان ثرياً يملك الملايين، وعالماً يكشف أسرار الطبيعة ويسخرها لمصالحه، وقوياً يخضع الناس لسيطرته، وبليغاً يحسن صناعة الكلام والوعظ، ويقدر على التوحيد والإرشاد؛ فإن الإيمان بلا عمل مجرد فكرة ونظرية، قال صاحب (التفسير الكاشف) رحمه الله: ولقد قرأت فيما قرأت أن الطيارين الأمريكان الثلاثة الذين ألقوا القنبلة الذرية على مدينة هيروشيما في اليابان في ٦ آب سنة ١٩٤٥ م ومات بسببها ٨٠ ألفاً، وتشوّه بسببها مثل ذلك أو

---

(١) الأنفال: ٢. (٢) الشعراء: ٨٢.

(٣) حياة الحيوان الكبرىٰ ١: ١٧٢.

أكثر كان كلّ واحد منهما يحمل معه نسخة من الكتاب المقدس إلى جانب قنبلة الفناء والدمار(١).

و﴿**الصَّالِحَاتِ**﴾ هي كلّ عمل يرضاه الله ورسوله، ولا سيما إذا عاد على الناس بخير.

وبما أن الإيمان والعمل الصالح لا يكتب لهما البقاء إلّا في ظل حركة اجتماعية تستهدف التواصي بالحق تارة، وبالصبر أُخرى، فقد قال تعالى: ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ**﴾.

و(التواصي) هو تبادل الوصيّة من الطرفين؛ فالكبير يوصي الصغير، والصغير يوصي الكبير. و(الحقّ) في الأصل هو كلّ ما وافق الواقع الذي نزلت به كتب الله، وأمرت به رسله، ومنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإرشاد الجاهل، وتنبيه الغافل. وحبّذا لو كان الآمر بالمعروف مؤتمِراً والناهي عن المنكر منتهياً! فقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له، والناهين عن المنكر العاملين به**»(٢). وقال الشاعر:

لا تنهَ عن خلق وتاتيَ مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيمُ(٣)

وبما أن الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر والمتواصين بالحق بما للحق من معنى واسع لابد أن تحصل لهم الموانع والعوائق، وتبدو العقبات والزوابع في طريقهم، فحينئذٍ لا نجاح لهم إلّا بالصبر، قال تعالى: ﴿**وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾.

وقال لقمان لولده: ﴿**يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ المُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾(٤).

---

(١) التفسير الكاشف.

(٢) نهج البلاغة / الخطبة: ١٢٩.

(٣) التبيان ١: ١٩١.

(٤) لقمان: ١٧.

وعلى فرض أن البعض لا ترتفع بهم هممهم إلى هذه الخدمة الشريفة، ولم تسمُ بهم أنفسهم إلى هذه الغاية المنيفة بصورة عامة، فعلى الأقل أن يتواصوا بينهم بعمل الطاعة إذا وجبت عليهم، وبترك المعصية إذا عرضت لهم، وبالصبر على المصيبة إذا ألمّت بهم، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً**﴾[1].

وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**كلكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيته**»[2].

---

(١) التحريم: ٦. (٢) عوالي اللآلي ١: ١٢٩ / ٣، ٣٦٤ / ٥.

سورة التكاثر

﴿٤٥﴾

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَلْـهَاكُـمُ التَّكَـاثُرُ * حَـتَّى زُرْتُـمُ الْمَقَابِرَ * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَـنِ النَّعِيمِ﴾.

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ يعني: شغلكم التكاثر بالأموال والأولاد وغيرهما من متع الحياة الدنيا، كما حصل من صاحب الجنتين الذي **﴿قَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾**[١]، وكالذين قال الله عنهم: **﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾**[٢].

﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ يعني: حتى جاءكم الموت فزرتم المقابر. وفي هذه الآية دليل على أن الإنسان لا يبقى دائماً في قبره، بل يبقى فيه مدة معينة كالزائر لغير

(١) الكهف: ٣٤ ـ ٣٥. (٢) سبأ: ٣٥.

بلده أو لغير بيته، ثم يخرج منه إلى مقرّه الذي قُدّر له؛ إمّا إلى جنة، وإما إلى نار، قال تعالى: ﴿**فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**﴾[١]. وروي عن عمر بن عبد العزيز كما في كتاب (الدر المنثور) أنه قرأ ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ**﴾، ثم قال: ما أرى المقابر إلّا زيارة، وما للزائر من بدّ أن يرجع إلى منزله[٢].

ومن الغريب ما زعمه بعض المتعصّبين أن هذه السورة تعني الشيعة الذين تكاثروا بأموالهم وأولادهم حتى زاروا قبور أئمتهم وساداتهم.

وقال بعضهم: إن معنى الآية أنه حصل بعض التكاثر والتفاخر بين بعض قبائل قريش حتى حملهم ذلك على الذهاب إلى المقبرة لتحصي كلّ قبيلة موتاها من أجل التكاثر والتفاخر بهم، فأنزل الله فيهم هذه السورة المباركة.

ويؤيّد هذا القول أن أمير المؤمنين عليه السلام قرأ هذه السورة يوماً ثم قال: «**يا له مراماً ما أبعده**»، وهو تفاخرهم بالموتى، «**وزَوراً ما أغفله**»، يعني وزوّاراً ما أغفلهم؛ فإنهم لولا الغفلة لما تكاثروا وما تفاخروا بموتاهم، «**وخطراً ما أفظعه**»، أي على الإنسان المتكاثر المتفاخر، «**لقد استخلوا منهم أي مذكّر**»، أي لقد استخلوا منهم المنازل التي لم يبقَ في خلوها منهم أي مذكّر للأحياء، «**وتناوشوهم من مكان بعيد**»، وهي القبور التي أبعدت الشقة بينهم وبين من فيها، كما قال الشاعر:

من كان بينك في التراب وبينه ... شبران فهو بغاية البعدِ[٣]

«**أفبمصارع آبائهم يفتخرون؟ أم بعديد الهلكى يتكاثرون؟ يرتجعون منهم**

---

(١) الشورى: ٧. (٢) الدرّ المنثور ٦: ٣٨٧.

(٣) بهجة المجالس ١: ٢٨٤، سراج الملوك ١: ١٢، قال وجد مكتوباً على قصر سيف بن ذي يزن، وهو ثاني بيتين أوّلهما:

من كان لا يطأ التراب برجله ... وطئ التراب بصفحة الخدِّ

أجساداً وحركات سكنت »، أي أنهم بزيارتهم إلى المقابر وعدّ من فيها من موتاهم كأنما يريدون أن يرجعوا إلى الدنيا ليكملوا بهم عددهم، ويتمّموا بهم فخرهم. ثم أكّد عليه السلام التوبيخ لهؤلاء المتكاثرين والمتفاخرين بموتاهم فقط: **« ولَأن يكونوا عبراً أحقّ من أن يكونوا مفتخراً، ولَأن يهبطوا بهم جناب ذلّة أحجى من أن يقوموا بهم مقام عزّة »**[١]؛ لأنهم صاروا جيفاً نتنة يهرب منها الحيوان، ويستقذرها الإنسان. ومن هذا حاله لا يُفتخر به، والانتساب إليه لا يورث العزّة وإنما يورث الذلّة؛ لأن حاله يوحي إلى من بقي بعده بأنه سيكون هكذا مهما طال عمره وعظم خطره، كما قال عليه السلام: **« عش ما شئت فإنك ميت، واصحب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك لاقيه »**[٢].

وقوله تعالى: ﴿**كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ أي ﴿**كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾، أي ماذا ترون في قبوركم، ﴿**ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ أي ﴿**ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ ماذا ترون بعد نشوركم، وحينئذٍ ستكونون نادمين على ما سبق منكم من التكاثر والتفاخر بالأموال والأولاد وغيرهما من زخارف الدنيا ومتاعها.

وعلى هذا التفسير لا تكون ﴿**ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ تأكيداً للآية السابقة؛ لأنها تعني عالماً غير عالمها؛ فالأُولى للقبور، والثانية للنشور.

وفي تفسير الرازي عن زرّ بن حبيش قال: كنّا نشكّ في عذاب القبر حتى سألنا علياً عليه السلام فأخبرنا أن هذه الآية دليل على عذاب القبر[٣].

وفي (مجمع البيان) عنه أنه قال: مازلنا نشكّ في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ يريد في القبر[٤].

---

(١) نهج البلاغة / الكلام: ٢٢١.
(٢) الكافي ٣: ٢٥٥ / ١٧.
(٣) التفسير الكبير ٣٢: ٧٨.
(٤) مجمع البيان ١٠: ٤٣٢.

﴿ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بعد البعث، قالوا: وعالم القبور وما فيه من نعيم وجحيم هو المسمى بعالم البرزخ؛ لأنه حاجز بين الدنيا والآخرة، وهو الذي ذكره الله جلّ وعلا بقوله: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(١). والناس فيه على ثلاثة أقسام:

فمنهم من ينفي الحياة فيه، ويستدل على ذلك بعدّة آيات منها قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ* وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾(٢)، فهذه الآية وما ماثلها من الآيات الكريمة تدلّ عندهم أنه لا حياة في عالم القبور؛ لأنهم لو كانوا أحياء لعلموا كم لبثوا، وينفون سماع الميت بعد الموت، ويعدون حديث رسول الله ﷺ مع أصحاب القليب يوم بدر(٣) من معاجز الرسول ﷺ الخاصّة به. ومع ذلك فإنها عندهم ليست على وجه العموم والإطلاق، وإنما هي في قتلى بدر خاصّة. ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾(٤)، وبقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾(٥).

ومنهم من يرى أن في ذلك العالم حياة، وأن فيها نعيماً وجحيماً، ويستدلون على ذلك بعدة آيات، منها هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ومنها قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، بالشهادتين، وبكل ما يرضاه الله ﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾ أي في القبر عندما يسألهم الملكان عن ربهم ودينهم ونبيهم وإمامهم، فيجيبون بالصواب، ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ

---

(١) المؤمنون: ١٠٠. (٢) الروم ٥٥ ـ ٥٦.
(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ٥٥، السيرة النبوية (ابن هشام) ٢: ٢٦٦ .
(٤) فاطر: ٢٢. (٥) النمل: ٨٠.

الظَّالِمِينَ﴾ بعدم الثبات على القول الثابت قبل الموت وبعده أي في القبر، **﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾**[١].

قال صاحب (الميزانﷺ): «وإعطاء الثبات وعدمه لابدّ أن يكون في مقام يجوز فيه ذلك، وهذا إنما يتصوّر في غير يوم القيامة الذي ليس فيه إلّا المجازاة بالأعمال». ثم قالﷺ: «وهناك روايات كثيرة من طرق السنة والشيعة وردت في تفصيل سؤال القبر، وإتيان الملكين منكر ونكير، وثبات المؤمن وضلال الكافر. وقد وقع في كثير منها التمسّك بهذه الآية الكريمة»[٢]، أي آية **﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾** إلى آخرها.

ومنها ما روي عن الإمام الصادقعليه السلام في كتب كثيرة[٣].

وفي كتاب (الدر المنثور) عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم يقول في هذه الآية ـ وهي قوله تعالى: **﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾** ـ قالصلى الله عليه وآله وسلم: «**﴿وَفِي الآخِرَةِ﴾، يعني في القبر**»[٤].

وفي الكتاب المذكور أيضاً عن رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم: «**إن المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله الّا الله، وأن محمداً رسول الله، فذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾...**»[٥].

وأخرج أبو داود عن رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم أنه كان إذا فرغ من دفن الميت، وقف عليه وقال: «**استغفروا لأخيكم واسألوا الله له التثبيت؛ فإنه الآن يسأل**»[٦].

---

(١) إبراهيم: ٢٧.
(٢) الميزان ١٢: ٦٥.
(٣) التفسير الصافي ٣: ٨٦.
(٤) الدرّ المنثور ٤: ٧٩.
(٥) الدرّ المنثور ٤: ٧٨.
(٦) سنن أبي داود ٢: ٨٤ / ٧٣. قال صاحب كتاب (حقّ اليقين): وروى العامّة في كتبهم عن أبي أُمامة الباهلي عن رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم ما ملخصه أنه قال: «إذا مات أحدكم وسوّيتم عليه التراب، فليقم أحدكم على قبره، وليناده: يا فلان ابن فلانة، اذكر ما خرجت عليه من الدنيا:

وفي الكتاب المذكور وغيره أن المؤمن إذا أُدخل في قبره يأتيه الملكان فيسألانه: من ربّك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟ فإذا أجاب قالا له: نم نومة الشابّ الناعم. وفتحا عليه باباً يدخل عليه منه رَوح الجنة وريحانها، فذلك قوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ**﴾ أي في القبر، ﴿**وَجَنَّةُ نَعِيمٍ**﴾[١] في الآخرة، وإن الكافر إذا أُدخل في قبره يأتيه الملكان فيسألانه: من ربّك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟ فيقول: لا أدري. فيقولان له: لا دريت ولا هديت. ويضربانه بمرزبة من نار، ويفتحان له باباً إلى النار يدخل عليه من حرّها وحميمها، فذلك قوله تعالى: ﴿**وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ**﴾ أي في القبر، ﴿**وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ**﴾[٢] أي في الآخرة[٣].

قالوا: ومما جاء عن أهل البيت عليهم السلام في هذا الموضوع قول الإمام زين العابدين عليه السلام في الدعاء المسمى بدعاء أبي حمزة الثمالي: «**وما لي لا أبكي؟ أبكي لخروج نفسي، أبكي، لظلمة قبري، أبكي لضيق لحدي، أبكي لسؤال منكر ونكير إيّاي**»[٤]. وقال بعض الشعراء:

فمن لي إذا منكر جدّ في سؤالي فأذهلني عن جوابي[٥]

وفي كتاب (حقّ اليقين) عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**القبر إمّا روضة من رياض الجنة، وإمّا حفرة من حفر النيران**».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال عن سعد بن معاذ: «**إنه أصابته ضمّة**»[٦] أي ضغطة القبر.

شهادة أن لا إله إلّا الله، وأن محمداً رسول الله، وأنك رضيت بالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وآله وسلم نبيّاً، وبالقرآن كتاباً؛ فإن منكراً ونكيراً يتأخّران عنه، ويقول أحدهما للآخر: انطلق؛ فإنه قد لُقّن حجته». المعجم الكبير ٨: ٢٥٠.

(١) الواقعة: ٨٩.

(٢) الواقعة: ٩٢ ـ ٩٤.

(٣) الدرّ المنثور ٦: ١٦٦.

(٤) الصحيفة السجادية الكاملة: ٢٢٦.

(٥) ديوان السيد رضا الهندي: ٣٩.

(٦) انظر الأمالي (الصدوق) ٤٦٨ / ٦٢٣.

وأنه عمل لفاطمة بنت أسد عملاً يقيها من ضغطة القبر، وأنه نادى عليها بعد دفنها: «**ابنك ابنك، لا جعفر ولا عقيل**»(١).

وأنه صلى الله عليه وآله وسلم مرّ على قبر يعذّب صاحبه، فأمر أن يؤتى إليه بخضرة من خضر النخيل، وقطعها قطعتين، وغرز إحداهما عند رأسه والأُخرى عند رجليه، وقال: «**يخفّف عنه العذاب ما كانتا خضراوين**»(٢).

وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**مر عيسى بن مريم بقبر يعذب صاحبه، ثم مر به في عام آخر فإذا هو قد رفع عنه العذاب، فسأل ربه عن ذلك، فأوحى إليه أنه أدرك له ولد فأصلح طريقاً، وآوى يتيماً، فغفرت له بما عمل ولده**»(٣).

والقسم الثالث هم الذين يروون عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إنما يسأل في قبره من محض الإيمان محضاً، ومن محض الكفر محضاً، وما سوى ذلك فإنه يلهى عنه**»(٤).

قالوا: وهم الذين لا يعلمون كم لبثوا في قبورهم.

ثم قال تعالى: ﴿**كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ**﴾، أي بما أمامكم، ﴿**لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ**﴾، أي ببصائركم في الدنيا؛ لأن اليقين قد يبلغ بصاحبه إلى أن يعيش به في عالم الغيب بكل جوارحه؛ ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام في صفات المتّقين: «**فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعّمون، وهم والنار كمن قد دراها، فهم فيها معذّبون**»(٥).

وجاء في (الكافي)(٦) وغيره(٧) أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلى بالناس يوماً صلاة الصبح، فنظر إلى شابّ في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه، مصفرٍّ لونه، قد نحف

---

(١) الفضائل (ابن شاذان): ١٠٢، مستدرك وسائل الشيعة ٢: ٣٤٢ / ٢١٤١.
(٢) الفقيه ١: ١٤٤ / ٤٠٢.
(٣) الكافي ٦: ٣ / ١٢.
(٤) الكافي ٣: ٢٣٥ / ١.
(٥) نهج البلاغة / الخطبة: ١٩٣.
(٦) الكافي ٢: ٥٣ / ٢.
(٧) مشكاة الأنوار: ٤٦.

جسمه، وغارت عيناه، فقال له رسول الله ﷺ: «**كيف أصبحت؟**». فقال: أصبحت موقناً. فعجب رسول الله ﷺ من قوله، وقال له: «**إن لكلّ يقين حقيقة، فما حقيقة يقينك؟**». فقال: يا رسول الله، إن يقيني هو الذي أحزنني، وأسهر ليلي، وأظمأ هواجري، فعرفت نفسي في الدنيا وما فيها حتى كأني أنظر إلى عرش ربّي وقد نصب للحساب، وحشر الخلائق لذلك، وأنا فيهم، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتنعّمون فيها، ويتعارفون على الأرائك متكّئون، وكأني أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذّبون يصطرخون، وكأني الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي. فقال رسول الله ﷺ: «**هذا عبد نوّر الله قلبه بالإيمان**». ثم قال له: «**الزم ما أنت عليه**». فقال: يا رسول الله، ادعُ الله لي أن أُرزق الشهادة بين يديك. فدعا له، فلم يلبث أن خرج مع النبي ﷺ في بعض غزواته، فاستشهد بعد تسعة نفر كان هو عاشرهم (رضي الله عنه وأرضاه).

﴿**ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ**﴾، أي ثم لترونّها بأبصاركم في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً * ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً**﴾[1].

فعلم اليقين هو علم المعرفة، وعين اليقين هو علم المشاهدة، وهو الذي طلبه الخليل عليه السلام من ربه فقال: ﴿**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾[2]. والمعنى: ليطمئن قلبي بالمشاهدة.

وبقيت بعد ذلك مرتبة ثالثة لليقين وهي مرتبة «حق اليقين»، وهي مرتبة الملامسة للشيء والمباشرة له. وقد ضربوا الذلك مثلاً بالنار؛ يرى الإنسان ضوءها ودخانها، فيعلم بوجودها قطعاً، وهو بعد لم يرَها، فهذا «علم اليقين»، ثم يدنو

---

(١) مريم: ٧١ ـ ٧٢.　　(٢) البقرة: ٢٦٠.

فيرى النار بعينه فهذا «عين اليقين»، وهاتان المرتبتان ذكرتها هذه السورة، ثم يدنو أكثر وأكثر فتلامسه حرارتها ويحس بحرقتها، فهذا «حق اليقين».

وهذه المرتبة لم تذكرها هذه السورة الكريمة، وإنما ذكرتها سورة الواقعة المباركة، قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ**﴾.

وذلك لأن سورة (التكاثر) لم تصل بأهلها إلى مرحلة دخول النار، وإنما وصلت بهم إلى مرحلة مشاهدتها فقط، ثم انتقلت بهم إلى مرحلة السؤال، فقال تعالى: ﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾، والسؤال قبل دخول النار قطعاً.

وقد ورد في أحاديثهمعليهم السلام عن السؤال: «**إن العبد يوقف بين يدي ربّه فلا يرفع قدماً على قدم حتى يسأل عن شبابه فيما أبلاه، وعن عمره فيما أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن ولايتنا أهل البيت**»[1].

وروي أن أبا حنيفة سأل الإمام الصادقعليه السلام فقال: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ**﴾، قالعليه السلام، «**فما هو عندك يا أبا حنيفة؟**». فقال: الأمن في السرب، والصحة في البدن، والقوت الحاضر. فقالعليه السلام: «**يا أبا حنيفة، لئن أوقفك الله يوم القيامة، وسألك عن كلّ أكلة أكلتها، وعن كلّ شربة شربتها، ليطولن وقوفك**». قال: فما النعيم؟. قالعليه السلام: «**النعيم نحن الذين أنقذ الله الناس بنا من الضلال، وبصّرهم من العمى، وعلّمهم من الجهل**»[2].

وعن الإمام الرضاعليه السلام أن بعض الفقهاء فسّر عنده النعيم بالماء البارد والطعام الطيب، فقالعليه السلام: «**هكذا فسّرتموه أنتم**». ثم نقل حديثاً عن آبائه جاء فيه: «**إن الله عزّ وجل لا يسأل عباده عما تفضّل به عليهم**»، ثم قال: «**ولكن النعيم حبّنا أهل**

---

(١) علل الشرائع ١: ٢١٨.
(٢) تأويل الآيات الباهرة ٢: ٨٥٢.

البيت، يسأل العبد عنه بعد التوحيد والنبوّة، فإذا وفى العبد بذلك أدّاه إلى نعيم الجنة»[1].

وروى الرازي في تفسيره عن جابر الجعفي أنه قال: دخلت على الإمام الباقر عليه السلام، فقال لي: «**ما يقول أرباب التأويل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾؟**». فقلت: يقولون: الظل والماء البارد. فقال: «**لو أنك أدخلت بيتك أحداً، وأقعدته في ظلّ، وأسقيته ماء بارداً، أتمنّ عليه بذلك؟**». قال: فقلت: لا. قال: «**فالله أكرم من أن يطعم عبده ويسقيه، ثم يسأله عن ذلك**». قلت: فما تأويله؟ قال: «**النعيم هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنعم الله به على هذا العالم فاستنقذهم من الضلالة، أما سمعت قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾**[2] ...»[3].

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٣٧ / ٨. (٢) آل عمران: ١٦٤.

(٣) التفسير الكبير ٣٢: ٨٢، وانظر تفسير الآلوسي ٣٠: ٣٢٦.

سورة القارعة

﴿٤٦﴾

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ
مَا الْقَارِعَةُ * يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ
كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ
كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ * فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ
مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ *
وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ *
وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌ﴾.

القرع: هو الضرب والدقّ بشدة واعتماد، ومن ذلك قولهم:

العبد يُقرع بالعصا   والحر تكفيه الإشارة[1]

وقرع الباب، أي دقّه[2]، ثم سميت الحادثة العظيمة قارعة، قال تعالى: ﴿**وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ**﴾[3]، أي تصيبهم بما صنعوا حادثة شديدة من حوادث الدهر.

---

(١) البيت للصلتان الفهمي. إكمال الكمال ٧: ٧٢.

(٢) القاموس المحيط ٣: ٦٦ ـ قرع.   (٣) الرعد: ٣١.

وسميت القارعة بذلك؛ لأنها تقرع القلوب، أي تدقّها بالخوف والوجل من شدة الأمر المهول حتى لا يبقى قلب ساكن إلّا قلوب عباد الله المخلصين الذين قال الله عنهم: ﴿**مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا**﴾[1].

أما قوله تعالى: ﴿**مَا الْقَارِعَةُ**﴾، فللتعظيم والتفخيم، ثم أكد ذلك التعظيم والتفخيم بقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ**﴾، أي أنها فوق ما يدركه فهم الإنسان، وفوق ما يقدّر ويتصوّر، فهي قارعة ليست كقارعة الدنيا، فإن الأُمور الدنيوية سماعها أعظم من مشاهدتها، وأما الأمور الأُخروية فمشاهدتها أعظم من سماعها. ثم بين كيف يكون حال الناس فيها فقال: ﴿**يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ**﴾، والفراش: جمع فراشة، وهي طائر صغير يتهافت على النار، ولذا قال ابن أبي الحديد المعتزلي مخاطباً لمن يحاول التوصّل إلى معرفة الذات المقدسة جلّ صاحبها وعلا:

ما أنتُمُ إلّا الفرا	**ش رأى السراج وقد توقّدْ**
فدنا فأحرق نفسه	**ولوِ اهتدى رشداً لأبعدْ**[2]

وقال مهلهل بن عبد يموت المتوفى بعد سنة (٣٣٤) هجرية:

جلّت محاسنه عن كلّ تشبيهِ	**وجلّ عن واصف في الحسن يكفيهِ**
انظر إلى حسنه واستغنِ عن صفتي	**سبحان خالقه سبحان باريهِ**
النرجس الغضّ والورد الجنيّ له	**والإقحوان النضير الغضّ في فيهِ**
دعا بألحاظه قلبي إلى عطب	**فجاءه مسرعاً طوعاً يلبيهِ**
مثل الفراشة تأتي إذ ترى لهباً	**إلى السراج فتلقي نفسها فيهِ**[3]

---

(١) النمل: ٨٩.
(٢) شرح نهج البلاغة ١٣: ٥٠.
(٣) تاريخ مدينة دمشق ٦١: ٣٠٦.

و﴿**الْمَبْثُوثِ**﴾: المنتشر والمتفرّق، وقد وصف الله الناس بهذا الوصف يوم القيامة؛ لأن الخلق يومئذٍ يموج بعضهم في بعض، ويأخذ كلّ واحد منهم وجهاً غير الذي يأخذ صاحبه؛ لشدّة ما يرونه من هول القيامة، فوصفهم بـ﴿**الْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ**﴾كما وصفهم تعالى في آية أُخرى بالجراد المنتشر فقال: ﴿**يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ**﴾(١).

ثم قال تعالى: ﴿**وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ**﴾، و﴿**الْعِهْنِ**﴾ هو الصوف ذو الألوان المختلفة. وبما أن للجبال ألواناً مختلفة فقد شبّهها تعالى بـ﴿**الْعِهْنِ**﴾. وقد بيّن جلّ وعلا ألوان الجبال بقوله: ﴿**وَمِنْ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ**﴾(٢). والـ﴿**جُدَد**﴾: جمع جدة ـ بضم الميم ـ وهي الجادة، أي الطريق. والـ﴿**غَرَابِيبُ**﴾: جمع غربيب، وهو الشيء الشديد السواد، فإذا نسفت هذه الجبال ذات الألوان المختلفة التي منها جوادّ بيضاء مختلفة في بياضها، ومنها جوادّ حمراء مختلفة في حمرتها، ومنها جوادّ سوداء مختلفة في سوادها، فإذا نسفت وتقطّعت أجزاؤها، وتفتّتت صخورها، واختلطت بعضها ببعض بقدرة خالقها، فإنها ستكون حينئذٍ كالصوف المنفوش الملوّن.

ثم قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ**﴾، و(الموازين): جمع ميزان، قالوا: وذِكرها بصيغة الجمع في القرآن الكريم يدلّ على أنها كثيرة يوم القيامة، وليست ميزاناً واحداً، بل هي متعدّدة؛ إمّا بتعدّد الأعمال أو بتعدّد العاملين. وقد اختلفوا في كيفية هذه الموازين التي توزن فيها الأعمال يوم القيامة:

فقال بعضهم: إنها الأنبياء والأوصياء(٣).

---

(١) القمر: ٧.　　(٢) فاطر: ٢٧.

(٣) تفسير غريب القرآن: ٥٦٠.

وقال بعضهم: إنها العدل الإلهي[١].

وقال بعضهم: إنها أوامر الله ونواهيه.

وقال بعضهم: إنها موازين كموازين الدنيا، وإن لكلّ واحد منها كفّتين توضع فيهما الأعمال فتوزن. وقد رووا مثل هذا القول عن ابن عباس‏رضي الله عنه[٢]، والله أعلم بصحة ما رووا.

واختلفوا أيضاً في كيفية وزن الأعمال:

فقال بعضهم: إن الأعمال تجسّم حتى تكون ذات وزن فتوزن[٣].

وقال بعضهم: بل توزن صحائف الأعمال لأنه يكون لها وزن يوم القيامة بقدر ما فيها[٤].

وقال بعضهم: بل يوزن صاحب الأعمال، فيكون وزنه بقدر أعماله.

وقال بعضهم: نحن نؤمن بالموازين لأن الله جلّ وعلا أخبر عنها في القرآن الكريم في هذه الآية وفي غيرها كقوله تعالى: **﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِآيَاتِنَا يِظْلِمُونَ﴾**[٥]، وكقوله تعالى: **﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾**[٦]، إلى غير ذلك من الآيات. فعلينا بعد ذلك أن نؤمن بالموازين، وأما كيفيتها وكيفية الوزن فيها فلسنا مكلّفين بذلك.

وإذا كانت الموازين هي المقاييس التي تقاس بها الأشياء، وقد اخترع الإنسان

---

(١) بحار الأنوار ٧: ٢٤٣، زاد المسير ٣: ١١٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٧: ١٦٦، التفسير الكبير ٣٢: ٧٣.

(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزّل ٢٠: ٤١١.

(٤) التبيان ٤: ٣٥٣، التفسير الكبير ٣٢: ٧٣.

(٥) الأعراف: ٨ ـ ٩.

(٦) الأنبياء: ٤٧.

بمواهبه وعلومه لكل شيء ما يناسبه من الموازين؛ فميزان الحرارة، وميزان الشعر، وميزان الهواء، وميزان الدم، إلى غير ذلك من الموازين المتعدّدة فلا شك أن الله جلّ وعلا أقدر من عباده على إيجاد ما تقاس به أعمالهم، وتوزن به سيّئاتهم وحسناتهم.

وقد روي عن النبيﷺ أنه سئل: هل يذكر الناس أهليهم يوم القيامة؟ فقالﷺ: «**أما في ثلاثة مواطن، فلا يذكر أحد أحداً: عند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله، وعند الميزان حتى يعلم أيخفّ ميزانه أم يثقل، وعند الصراط حتى يجوز**»(١).

وروي أنه توزن أعمال العبد فتنقصه حسنة واحدة حتى يثقل ميزان حسناته على ميزان سيّئاته، فيقال له: انظر في الحشر لعلك تجد من يعطيك حسنة. فيذهب ويأتي إلى أخيه فيسأله ذلك، فيأبى عليه ويتركه ويمضي عنه، فيأتي إلى أُمّه ويسألها ذلك فتأبى عليه وتتركه وتمضي عنه، فيأتي إلى أبيه فيسأله ذلك فيأبى عليه ويتركه ويمضي عنه، فيأتي إلى زوجته ويسألها ذلك فتأبى عليه وتتركه وتمضي عنه، فيأتى إلى ولده ويسأله ذلك فيأبى عليه ويتركه ويمضي عنه، فذلك قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**﴾(٢)، فيرجع إلى مكانه خائفاً وجلاً؛ حيث لم يحصل على ما طلبه من أقرب الناس إليه وأعزّهم عليه، فيقول: إني قد طلبت من أخي وأُمّي وأبي وزوجتي وولدي، فلم يعطِني أحد منهم شيئاً، فإذا أراد الله جلّ وعلا أن يرحمه قال: «**أنا أرحم بك منهم، خذوه إلى الجنة**»(٣).

وهنا يأتي هذا السؤال، وهو: لماذا يصل الإنسان إلى هذا الحدّ يوم القيامة،

---

(١) الجامع الصغير ١: ٢٤٣ / ١٦٠٣. (٢) عبس: ٢٤ ـ ٢٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٤: ٥٠٥.

فلا أنساب ولا صداقات ولا مروءات ولا مكافآت، ولا شيء ممّا يحصل بين الناس في الدنيا؟ لماذا كلّ هذا؟ والجواب على ذلك أنه إنما حصل ذلك لأن الأمر لا يطاق؛ فإن عذاب الله شديد. وإذا كانت حاجة الإنسان إلى الحسنة يوم القيامة تفرض عليه بان يشحّ بها على أقرب الأقربين، وأحبّ المحبّين، فكيف تكون حسرته إذا أُخذت منه إلى أعدى المعادين وأبغض المبغضين؟ روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**أتدرون من المفلس من أُمّتي؟**». فقالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار ولا متاع. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**المفلس من أُمّتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا شيئاً من حسناته وهذا شيئاً من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخذ من سيئاتهم فطرحت عليه، ثم طرح في النار**»[١].

أقول: وعلى فرض أنه لم يبلغ به الحال إلى هذا الحدّ الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنه بلغ به الحال إلى حدّ أن قلّت فيه حسناته، وكثرت فيه سيّئاته فثقلت، فكيف يكون حاله حينئذٍ؟ إن الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية قد بيّنت حال هذا المسكين، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**إن ملكاً من ملائكة الله يوكل يوم القيامة بميزان ابن آدم فإن ثقل ميزانه** ـ أي ميزان حسناته ـ **نادى الملك بصوت يسمعه جميع الخلق: ألا سعد فلان سعادة لا شقاوة بعدها، وإن خفّ ميزانه** ـ أي ميزان حسناته ـ **نادى الملك بصوت يسمعه جميع الخلق: ألا شقي فلان شقاوة لا سعادة بعدها**»[٢].

وفي (الدرّ المنثور) عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**يوضع الميزان يوم القيامة، فتوزن الحسنات والسيئات، فمن رجحت حسناته على سيئاته مثقال صؤابة دخل الجنة،**

---

(١) مسند أحمد ٢: ٣٠٣، ٣٣٤، ٣٧٧.   (٢) كنز العمّال ١٤: ٣٨٤ / ٣٩٠٢٦.

ومن رجحت سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار». والصؤابة: بيضة البرغوث والقمل[1]. قيل: يا رسول الله، فمن استوت حسناته وسيئاته؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**أُولئك أصحاب الأعراف، لم يدخلوها وهم يطمعون**»[2].

ورویٰ في (الميزان) عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال عن أصحاب الأعراف: «**إنهم قوم استوت حسناتهم وسيّئاتهم؛ فإن أدخلهم الله النار فبذنوبهم، وإن أدخلهم الجنّة فبرحمته**»[3].

ويستفاد من بعض الآيات وبعض الروايات أن بعض الأخيار وبعض الأشرار لا ينصب لهم يوم القيامة ميزان، ولا ينشر لهم ديوان. فمن أُولئك الأخيار: الصابرون الذين قال الله عنهم: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾[4]. في تفسير (الأمثل) عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**إذا نشرت الدواوين، ونصبت الموازين، لم ينصب لأهل البلاء ميزان، ولم ينشر لهم ديوان**».

ثم تلا هذه الآية الشريفة: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾.

ومن أُولئك الأشرار: الذين قال الله فيهم: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً * أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَنُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً**﴾[5].

وأما قوله تعالى: ﴿**فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ**﴾، فيعني أنه يأوي إليها كما يأوي الولد إلى أُمّه، قال تعالى: ﴿**كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ**﴾[6].

ثم قال تعالى: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ**﴾ للتفخيم والتعظيم، كما تقدّم في قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ**﴾[7].

---

(١) لسان العرب ١: ٥١٤ ـ صأب.
(٢) الدرّ المنثور ٣: ٨٧.
(٣) الميزان ٨: ١٤٢.
(٤) الزمر: ١٠.
(٥) الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥.
(٦) الحج: ٢٢.
(٧) القارعة: ٣.

ثم قال تعالى: ﴿**نَارٌ حَامِيَةٌ**﴾، يعني أنها ليست كنار الدنيا، بل هي ﴿**نَارٌ حَامِيَةٌ**﴾ إلى حدّ لا يوصف، (اللهم أجِرنا من النار).

وجاء في (الدرّ المنثور) أن رسول الله ﷺ كان إذا فقد الرجل من المسلمين ثلاثة أيام سأل عنه؛ فإن كان غائباً دعا له، وإن كان مريضاً عاده، وإن كان شاهداً زاره، ففقد رجلاً من الأنصار ثلاثة أيام، فسأل عنه، فقالوا: تركناه مثل الفرخ، لا يدخل فمه شيء إلّا خرج من دبره، فقال ﷺ: «**عودوا أخاكم**». فخرجنا معه إلى عيادة ذلك الرجل، فلمّا دخلنا عليه قال: «**كيف تجدك؟**». فأخبره بحاله، فقال: «**مم ذلك؟**». فقال: يا رسول الله ﷺ، مررت بك وأنت تصلّي المغرب، فصليت معك وأنت تقرأ سورة القارعة إلى أن وصلت إلى آخرها: ﴿**نَارٌ حَامِيَةٌ**﴾، فقلت: اللهم إن كان لي من ذنب أنت معذّبي عليه في الآخرة، فعجّل لي عقوبته في الدنيا، فنزل بي ما ترى. فقال رسول الله ﷺ: «**بما قلت إلّا سألت ربّك أن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ويقيك عذاب النار**». ثم أمره أن يدعو بذلك، ودعا له النبي ﷺ والمسلمون، فمنّ الله عليه بالعافية[1]: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[2].

---

(١) الدرّ المنثور ٦: ٣٨٦.
(٢) البقرة: ٢٠١.

سورة العاديات

﴿٤٧﴾

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً * فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً * فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً * إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾.

في تفسير (مجمع البيان) لأمين الإسلام الطبرسي؛ أن سبب نزول هذه السورة الكريمة أن رسول الله ﷺ بعث سرية من كنانة، واستعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري أحد النقباء، فتأخّر رجوعهم، فأرجف بهم المنافقون وقالوا: إنهم قد قتلوا جميعاً، فأخبر الله عن سلامتهم وعن ظفرهم بعدوّهم بهذه السورة المباركة: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾... إلى آخرها.

قال: وقيل: نزلت السورة لما بعث علياً عليه السلام إلى غزوة ذات السلاسل، فأوقع بهم، وذلك بعد أن أرسل إليهم مراراً غيره من الصحابة، فرجع كلّ منهم إلى رسول الله ﷺ. وهو المروي عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث طويل قال: «**وسميت هذه الغزوة بذات السلاسل؛ لأنه عليه السلام أسر منهم وقتل وسبى، وشدّ أسراهم في**

الحبال مكتفين كأنهم في السلاسل، ولما نزلت السورة خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الناس فصلّى بهم الغداة، وقرأ فيها السورة نفسها، فلما فرغ من صلاته قال له أصحابه: هذه سورة لم نعرفها، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: نعم إن علياً ظفر بأعداء الله، وقد بشّرني جبرئيل بذلك في هذه الليلة بهذه السورة. وقدم علي عليه السلام بعد أيام بالغنائم والأُسارى»[1].

وبسبب هذه الرواية وأمثالها تكون هذه السورة مدنية، وشهد بذلك ما في صدرها من الأقسام الظاهرة في خيل الغزاة المجاهدين في سبيل الله، وإنما شرع الجهاد بعد الهجرة.

وقال بعضهم: إن السورة مكية، وإن آياتها بما فيها من الصفات تعني إبل الحجيج والغزاة في سبيل الله. إلّا إن البعض الآخر يستبعد أن تكون الإبل هي ﴿**الْعَادِيَاتِ ضَبْحاً**﴾ و﴿**الْمُورِيَاتِ قَدْحاً**﴾؛ لأن الضبح هو صوت أنفاس الخيل عند عدوها بشدة، والإيراء هو إخراج النار، والقدح: الضرب، يقال: (قدح فأورى)، إذا أخرج النار بالقدح أي بالضرب. والمراد به: الخيل تخرج النار من الحجارة بضرب حوافرها فيها إذا عدت على الحجارة أو على الأرض المحصبة، وأما الإبل فإنها لا تقدح النار بأخفافها من الحجارة.

وأما قوله تعالى: ﴿**فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً**﴾، فإنه يعني غارة المسلمين على العدو قرب الفجر، حتى أمكنهم الله منهم في تلك الغزوة المذكورة. فهي صفة لأصحاب الخيل، وإنما نسبت إلى الخيل مجازاً. والمعنى: وأُقسم بالخيل الهاجمات على العدوّ بغتة في وقت الصبح؛ لتاخذهم على غفلة منهم.

﴿**فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً**﴾، أي ﴿**فَأَثَرْنَ**﴾ بالصباح ﴿**نَقْعاً**﴾. والنقع: هو الغبار الذي أهاجته

---

(١) مجمع البيان ٧: ٤٢٢.

الخيل بسبب غارتها على العدو.

﴿**فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً**﴾، أي ﴿**فَوَسَطْنَ**﴾ بالصباح ﴿**جَمْعاً**﴾، وهو جمع العدو الذي أغار عليه المسلمون في صباح ذلك اليوم المبارك، فقتلوا وأسروا وسبوا وغنموا.

وقد أقسم الله سبحانه بخيل الغزاة، ووصف ضبحها وقدحها وإثارتها النقع بغارتها؛ ترغيباً للمسلمين في اقتنائها واقتناء العدّة والتسلّح بالقوة لردع أعداء الله، والدفاع عن الإسلام وأهله؛ لأن مِن الأعداء مَن لا ينفعهم إلّا لغة القوة؛ ولذلك قال تعالى: ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ**﴾(١).

وإنما ذكر الله سبحانه الخيل بصفاتها في هذه السورة المباركة، وباسمها في هذه الآية الميمونة؛ لأنها كانت يومئذٍ من أبرز مظاهر القوة؛ ولذا جاء عن النبيﷺ أنه قال: «**الخير معقود بنواصي الخيل**»(٢). وأمر أن يسهم للفرس في الغنيمة، فمن كان معه فرس في الغزوة أُعطي فرسه سهماً مثل سهمه، ومن كانت معه فرسان أُعطي لكلّ فرس منهما سهماً كسهم الرجل. وما زاد على الفرسين لا يسهم له؛ لأن الفارس لا يحتاج إلى أكثر من فرسين، ولا يسهم للإبل والبغال والحمير لأنها لا تغنيهم في الحرب ومقاومة العدو مثلما تغنيهم الخيل.

قيل: وسميت الخيل خيلاً؛ لزهوها واختيالها. وهي على أنواع، وأفضل أنواعها الخيل العراب، يعني العربية الأصيلة، ذات النسب والحسب.

ومنها الصافنات الجياد التي كان لسليمان بن داود عليه السلام عدد كثير منها من أجل الغزو في سبيل الله، وكان يستعرضها ويأنس بها، قال تعالى: ﴿**وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي**

---

(١) الأنفال: ٦٠.

(٢) ثواب الأعمال: ١٩٠، صحيح البخاري ٤: ١٨٧.

أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾[١].

والـ﴿**أَوَّاب**﴾: الرجّاع إلى الله بالتوبة و﴿**الصَّافِنَاتُ**﴾: الخيل التي تقوم على ثلاث قوائم، وترفع الرابعة، أو تجعلها مطروحة على طرف حافرها و﴿**الْجِيَادُ**﴾: جمع جيد، وهو من الخيلِ السريعُ العدو. وكان سليمان بن داود عليهما السلام قد بدا له في عصر يوم من الأيام أن يستعرض ما أعدّ من جياد الخيل للحرب والغزو في سبيل الله، وبعبارة أُخرى: إنه أراد أن يعمل استعراضاً عسكرياً، فأمر بإحضار الخيل وأن يجريها الفرسان أمام عينيه، ففعلوا ذلك، فما زالت تجري بين يديه وهو مأنوس بها، ومعجب بجريها، ويقول: ﴿**إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ**﴾، يعني: أني أحببت هذا الاستعراض حبّ الطاعة لا حبّ المعصية ﴿**عَنْ ذِكْرِ رَبِّي**﴾، يعني عن أمر ربّي لا عن أمر هوى في نفسي. وما زالت الخيل تجري بين يديه ﴿**حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ**﴾، يعني حتى توارت عن بصره بحجاب البعد عنه، فقال: ﴿**رُدُّوهَا عَلَيَّ**﴾، فردّوها عليه، ﴿**فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ**﴾، يعني فشرع يمسح سوقها وأعناقها لسروره بها ورضاه عنها؛ لأنها كانت حينئذٍ أعظم قوّة ترهب العدو.

ويوجد لهذه الآيات الكريمة تفاسير أُخرى، ولكنها لم يوجد دليل على صحتها.

وقد ملك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عدّة منها، منها «المرتجز»، ومنها «السكب»[٢]، ومنها ومنها[٣]. وقد جاء في الروايات أنه صلى الله عليه وآله وسلم اشترى فرساً من أعرابي يقال له سوادة بن الحرث المحاربي، واستتبعه ليقبض ثمنه منه، فأسرع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في

---

(١) ص: ٣٠ ـ ٣٣.
(٢) الفقيه ٤: ١٧٨ / ٥٤٠٣.
(٣) انظر مناقب آل أبي طالب ١: ١٤٦.

المشي وأبطأ الأعرابي، فساومه رجال لا يشعرون أن النبيﷺ قد ابتاعه منه، فلمّا أعطوه أكثر من ثمنه الذي ابتاعه به رسول اللهﷺ نادى عليه: إن كنت مبتاعاً للفرس وإلّا بعتها لغيرك. فقالﷺ: «**أو ليس قد ابتعته منك؟**». فقال: لا والله، فإن كنت تزعم ذلك، فهلمّ بشهود. وحينئذٍ جاء خزيمة بن ثابت الأنصاري الأوسي رضي الله عنه الشهيد بصفّين بين يدي أمير المؤمنينعليه السلام، فسمع ما يقول الأعرابي فقال مبتدئاً: أنا أشهد أنه ابتاعه منك. فقال له رسول اللهﷺ: «**فهل حضرتنا يا خزيمة؟**». قال: لا. قال: «**فكيف تشهد بذلك؟**». فقال: بأبي أنت وأُمّي يا رسول الله، أُصدّقك على أخبار السماء وما يكون في غد، ولا أُصدّقك في ابتياعك هذا الفرس؟ فقالﷺ: «**إنك لذو الشهادتين**»[1].

وروى الطبراني عنهﷺ أنه قال: «**من شهد له خزيمة، أو شهد عليه، فحسبه**»[2].

واختلف الناس في هذه الفرس؛ فمنهم من قال: إن النبيﷺ أخذها فهي فرس «المرتجز»، ومنهم من قال: إنهﷺ أعرض عنها، وامتنع الناس عن شرائها، وأصبحت ميتة.

وكان المسلمون في الصدر الأول يتواصون باقتناء الخيل ومحبّتها والصبر عليها، حتى روي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال:

أحبّوا الخيل واصطبروا عليها ... فإن العزّ فيها والجمالا
إذا ما الخيل ضيعها أُناس ... ربطناها فشاركت العيالا
نقاسمها المعيشة كلّ يوم ... ونكسوها البراقع والجِلالا[3]

وقد ولع بالخيل أُناس من العرب حتى سموا بها، ومنهم زيد الخيل، وهو زيد

---

(١) الفقيه ٣: ١٠٨ / ٣٤٢٧.   (٢) المعجم الكبير ٤: ٨٧.
(٣) التمهيد ٤: ٤٠٦.

ابن مهلهل بن يزيد الطائي الذي عرف بـ«زيد الخيل»، وكان من أبطال العرب، فقد كان وسيماً طويلاً جسيماً، إذا ركب الفرس المطهّم فإن رجليه تخطّان في الأرض. وكان شاعراً محسناً، وخطيباً لسناً، وكريماً موصوفاً، أدرك الإسلام ووفد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم سنة (٩) من الهجرة في وفد طيّئ، فأسلم، وسرّ به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وسمّاه «زيد الخير» بدلاً من «زيد الخيل»، وقال له: «**يا زيد، ما وُصف لي أحد فرأيته إلّا رأيته من دون ما وصف إلّا أنت**». ومكث زيد في المدينة سبعة أيام، وأصابته حمى شديدة، فخرج عائداً إلى نجد؛ لأن منازلهم بجبلي «أجأ» و«سلمى»[1] بنجد، فنزل على ماء يقال له الفردة، فمات هناك رضي الله عنه.

وخلف ثلاثة بنين: عروة وحريثاً ومهلهلاً، وكان عروة ممّن شهد مع أمير المؤمنين عليه السلام صفين، ثم عاش إلى زمان معاوية، فأراده على البراءة من علي عليه السلام، فامتنع وقال:

يحاولني معاوية بن حرب ... وليس إلى الذي يهدي سبيلُ
على جحدي أبا حسن عليّاً ... وحظّي في أبي حسن جليلُ[2]

وقد بيّن القرآن الكريم أن الخيل كانت فيما مضى من أفضل زينة الحياة الدنيا،

---

(١) أجأ أحد جبلي طيّئ، وهو غربي فيد، وبينهما مسير ليلتين، وفيه قرى كثيرة. ذكر العلماء بأخبار العرب أن «أجأ» سمي باسم رجل، وسمي «سلمى» باسم امرأة، وكان من خبرهما أن رجلاً من العماليق يقال له «أجأ بن عبد الحي» عشق امرأة من قومه يقال لها سلمى، وكانت لها حاضنة يقال لها العوجاء تعلم بأمرها، فكانا يجتمعان في منزلها، فعرف بخبرهما إخوة سلمى وزوجها، فخافت سلمى وهربت هي و«أجأ» والعوجاء، وتبعهم زوجها وإخوتها، فلحقوا سلمى على جبل، فقتلوها هناك فسمي الجبل باسمها، ولحقوا العوجاء على هضبة بين الجبلين، فقتلوها هناك فسمي المكان بها، ولحقوا «أجأ» على جبل، فقتلوه فيه، فسمي به. معجم البلدان ١: ٩٤ ـ ٩٥ ـ أجأ.

(٢) كتاب الفتوح ٣: ٨٣، مختصر أخبار شعراء الشيعة: ٤٧.

قال تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾[١].

ومعنى ﴿**الْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ**﴾: المعلّمة بعلامة تدلّ على هيكلها، أو على أنها مدرّبة، أو معدّة للركوب، أو على ملكيتها لفلان أو لبني فلان، أو غير ذلك.

وقال تعالى: ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾[٢].

والبغال: هي التي تتولّد بين الخيل والحمير، وأكثر ما يكون شبهها بأُمّها؛ فإن كانت أُمّها من الخيل كانت أكثر شبهاً بالخيل، وإن كانت أُمّها من الحمير كانت أكثر شبهاً بالحمير. روي في كتاب (المستطرف)[٣]، وغيره[٤] أن هنداً ابنة النعمان بن بشير الأنصاري كانت من أحسن نساء زمانها، وعلم الحجاج بذلك، فتزوّجها بالترغيب والترهيب على غير قناعة منها، وأخذها إلى العراق، وبعد مدّة دخل عليها فوجدها تنظر إلى نفسها في المرآة وتقول:

وما هند إلّا مهرة عربية ... سليلة أفراس تحلّلها بغلُ
فإن ولت فحلاً فلله درّها ... وإن ولدت بغلاً فجاء به البغلُ

فانصرف راجعاً، ولم تكن علمت به، ثم أرسل إليها عبد الله بن طاهر وقال له: طلقها بكلمتين ولا تزد عليها. وإنما قال ذلك خوفاً منها أن تقول فيه ما يسوءه. فجاءها عبد الله بن طاهر، فقال لها: يقول لك الحجاج: كنت فبنت، وقد أعطاني ما

---

(١) آل عمران: ١٤. (٢) النحل: ٨.
(٣) المستطرف في كلّ فن مستظرف ١: ١٢٣.
(٤) انظرها ملفّقة في وفيات الأعيان ٢: ٤٤، ٣٩٥.

شرط لك من المال، فخذيه. فقالت: يابن طاهر: قل له: كنّا فما حمدنا، وبنّا فما ندمنا. والمال الذي جئت به من عنده بشارة لك على خلاصي من كلب بني ثقيف.

وجاء في (دائرة المعارف) للبستاني أن الخيل أحسن الحيوانات شكلاً، وأشدّ ذكاء بعد الإنسان، ولها خصال حميدة وأخلاق مرضية، وفيها صفاء اللون وحسن الصوت وتناسب الأعضاء وحسن طاعتها للإنسان. ومن الخيل ما يعرف راكبه ولا يمكّن غيره من ركوبه، ومنها ما يقف عند صاحبه إذا وقع عنه، ولا يذهب عنه حتى ييأس منه.

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ**﴾، هذه الآية الكريمة جواب للأقسام المتقدّمة عليها. والمراد بـ﴿**الإِنسَان**﴾: بعض أفراده، بل أغلبهم. والـ﴿**كَنُود**﴾: الكفور، أي أن الإنسان لكفور بربّه. وقد قدم الجارّ والمجرور ـ وهو ﴿**لِرَبِّهِ**﴾ ـ على المتعلَّق به ـ وهي الصفة ﴿**لَكَنُودٌ**﴾ ـ لإفادة التخصيص والحصر، فكأن كفران المنعم أو كفران نعمه جلّ وعلا مخصوص بعالم الإنسان؛ ولذا قال تعالى: ﴿**قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ**﴾[1].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ**﴾[2] إلى غير ذلك من الآيات.

﴿**وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ**﴾، أي وإنه ليشهد على نفسه بأقواله وأعماله وبضميره ووجدانه، حتى ولو أنكر ذلك بلسانه، ولفّق لنفسه الأعذار ببيانه، فهو في ضميره ووجدانه معترف بإساءته، قال تعالى: ﴿**بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**﴾[3]. وربّما بلغ به وخز الضمير إلى الانتحار للتخلّص مما هو فيه من عذاب وجدانه، وتأنيب ضميره وفطرته؛ لأنه مطبوع على معرفة الخير والشر، قال تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا**﴾[4]. وإذا لم يعترف

(١) عبس: ١٧.
(٢) الزخرف: ١٥.
(٣) القيامة: ١٤ ـ ١٥.
(٤) الشمس: ٨.

على نفسه في الدنيا، فيعترف عليها في الآخرة، قال تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، المقصود من ﴿الْخَيْرِ﴾: المال، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾(٢).

فهذه الآية من سورة (العاديات) متناسبة مع قوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً﴾(٣).

وفي تسمية المال باسم الخير دليل على أن المال في حدّ ذاته شيء حسن إذا اكتُسب من حلّه وصرف في محلّه، ولكن أكثر الناس لا يقفون عند هذا الحدّ، فيطلبونه بأساليب عجيبة وحيل غريبة، روي في كتاب (حياة الحيوان) في باب (البغل) عن رجل من الجند أنه قال: خرجت من بعض بلدان الشام على بغلة لي أُريد قرية من قراها، وفي قرب المساء مررت بدير راهب، فنزل من الدير واستقبلني، وطلب أن أبيت عنده ليضيفني، وكان الوقت بارداً، والثلج ينزل من السماء، فأجبته إلى ذلك، فأدخلني الدير، وإذا ليس فيه غيره، فأخذ بغلتي وطرح لها علفاً من الشعير، وأوقد لي النار، وجاء بالطعام الطيب والماء الساخن، ووضع رحلي في بيت من الدير، وهيّأ لي الفراش. فلمّا أردت النوم سألته عن المستراح، فدلّني عليه، فلما دخلته سقط بي، وإذا أنا في الصحراء، وقد تجرّح بدني، فصحت بالراهب، فلم يجبني، فجئت إلى الباب وإذا به يرميني بالحجارة الصلبة التي لو أصاب حجر منها رأسي لأهلكني، فابتعدت عن الدير وهو يشتمني ويرميني بالحجارة.

---

(١) الملك: ١١. (٢) البقرة: ١٨٠.

(٣) الفجر: ٢٠.

فعلمت أنه قد احتال عليّ، وطمع في رحلي ودابتي، وأخذني البرد والثلج حتى أشرفت على الهلكة، فجعلت أحمل الحجارة الكبيرة على رأسي وقاية من الثلج، وأعدو في البرّ وقاية من البرد، حتى صار الصباح، فرجعت إلى الدير، وإذا به قد فتح الباب وجعل يدور خلف الدير ليعرف خبري، فخالفته إلى باب الدير ودخلت واستترت في الدير، وهو لم يرَني، فلمّا يئس مني دخل الدير وأغلق الباب، فوثبت عليه، ووجأت بطنه بخنجر كان معي. فلما قتلته صعدت إلى المكان الذي خرجت منه، وتدفّأت بالنار، وطرحت عليّ من رحلي ثياباً كثيرة، وتغطّيت بكساء، ونمت، فما أفقت إلّا قرب العصر، وجعلت أدور في الدير وأفتح بيوته بيتاً بيتاً وداراً داراً، وإذا أموال عظيمة وأمتعة كثيرة، فتبيّن لي أنه قد عمل ذلك بكثير من الناس قبلي.

فذهبت إلى قرية قريبة من الدير، فاكتريت بها منزلاً، ولم أزل أنقل المال على بغلتي من الدير إلى ذلك البيت حتى لم أدع إلّا ما لم أقدر على نقله، ثم اكتريت عدّة دواب، وحملت ذلك المال إلى بلدي، فرجعت بغنيمة عظيمة[١].

فهكذا يبلغ حبّ المال بالإنسان، فلا يترك وسيلة إلّا عملها، ولا حيلة إلّا دبّرها، كلّ ذلك من أجل الحصول على المال. ومن تلك الحيل والوسائل وسيلة التسوّل الخبيثة التي روي عن النبيﷺ أنه قال: « **سؤال الناس من الفواحش** »[٢].

وعنهﷺ أنه قال: « **إياكم وسؤال الناس؛ فإنه ذلّ في الدنيا، وحساب طويل في الآخرة** »[٣].

وعنهﷺ أنه قال: « **من سأل الناس وعنده ما يغنيه، فإنما يستكثر من جمر**

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ١: ١٤١ ـ ١٤٢.

(٢) ورد: «ترك سؤال الناس من التقوىٰ». عمدة القاري ٩: ١٣٩.

(٣) الكافي ٤: ٢٠ / ١.

جهنم». قيل: يا رسول الله، وما الذي يغنيه؟ قال: «**ما يغدّيه أو يعشّيه**»[١].

وعنهﷺ أنه قال: «**لأن يأخذ أحدكم حبلاً فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه**»[٢]. وقالﷺ وقال.

ومع ذلك فإن من الناس من يتّخذ السؤال مهنة يرغب بها عن الحلال، ويجمع بها الكثير من المال، تقول بعض الصحف: إن سائلين في الشام مَلّا من كثرة السؤال وقلة التحصيل، فبدا لأحدهما أن يذهب إلى مصر ويمارس هذه المهنة الوضيعة، فمضى إليها، فنجحت مهنته، فكتب إلى صاحبه في الشام أن يأتي لزيارته بمصر، وأخبره أنه قد نجح في مهنته. فذهب إليه صاحبه على عنوانه الذي ذكره له، فلما انتهى إلى المكان رأى رجلاً معصوب الرأس بعصابة نازلة على عينيه كأنه أعمى، وهو جالس على قارعة الطريق يسأل الناس، فسأله عن صاحبه، فأخبره أنه يعرفه ويعرف منزله، وقام معه ليدلّه على البيت، فمشى أمامه مشية العميان، يتلمّس الجدران، ويصطدم بالحيطان، إلى أن وصل إلى البيت وأدخله في المكان المهيأ له، ورفع العصابة عن رأسه، وإذا هو صاحبه، فأحسن له الضيافة، وأغدق عليه النعمة، وأخبره بما حصل له من الخير الكثير، فقال له: أُحبّ أن تطلعني على بعض الحيل التي حصلت بها على هذا المال. فقال له: نلتقي غداً في صلاة الجمعة؛ لأُريك بعض ما أفعل من الحيل المحكمة.

فحضر الشامي، وفي أثناء خطبة الجمعة قام رجل من المصلّين ينادي بالناس: افتحوا الطريق لهذا المسكين ليؤدّي أمانته للإمام. فأفسح الناس له، فدخل الرجل إلى الإمام وهو بحالة الذلّ والمسكنة، فأعطى الإمام كيساً مملوءاً بالدنانير، وقال

---

(١) مسند أحمد ١: ١٨١، سنن أبي داود ١: ٣٦٧ / ١٦٢٩.

(٢) مسند أحمد ١: ١٦٤، ١٦٧.

له: وجدت هذا الكيس في الطريق الذي أجلس فيه صباح كلّ يوم ليتصدّق الناس عليّ بما يجودون به (جزاهم الله خيراً)، فنادِ في الناس؛ فلعلّ صاحبه يكون موجوداً فيأخذه. فنادى الإمام في الناس، وأثنى على الفقير المسكين الذي أدّى الأمانة مع حاجته وفقره، ودعا الناس إلى مساعدته كفقير مؤمن، فاندفع الناس عليه بالعطاء والثناء حتى ملؤوا حجره.

وبعد أن صلّى الإمام بالناس، وأوشك الناس على أن يتفرّقوا وإذا بامرأة تنادي من صفّة النساء: لقد فقدت بدرة من المال مقدارها كذا وكذا، فمن وجدها فليردَّها عليّ مشكوراً. ففتحها الإمام وعدّها فوجدها كما قالت المرأة، فدفعها إليها.

يقول الشامي: وفي الأخير تبيّن لي أن الفقير الذي جاء بالكيس إلى الإمام صاحبي، وأن الذي نادى الناس أن يفرجوا له ليسلّم أمانته إلى الإمام ولده، والمرأة التي أخذت المال امرأته. وقد حصل بهذه الحيلة في ذلك اليوم على ما هو أكثر ممّا في الكيس. وأعظم من ذلك أن الناس بقوا يتحدّثون عن أمانته وإيمانه، وقصدوه بالصدقات، وأغدقوا عليه العطيّات.

فهكذا يفعل الإنسان من أجل الحصول على المال، ومن يفعل مثل هذا لا يمكن أن يجود بما فرض الله عليه في ماله؛ ولذا جاء في الحديث: «**الدينار والدرهم أهلكا من كان قبلكم، وإنهما مهلكاكم**»[1].

وفي كتاب (جامع السعادات): قيل: إن أول ما ضرب الدينار والدرهم رفعهما إبليس، وقبّلهما، ووضعهما على جبهته، وقال: من أحبّكما فهو عبدي حقّاً[2]:

صدق الكاذبُ اللعينُ بقولِهْ　　　فمحبُّ الأموالِ عبدُ بفعلِهْ

وأما قوله تعالى: ﴿**أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ**﴾،

(١) الكافي ٢: ٣١٦ / ٦.　　(٢) جامع السعادات ٢: ٣٨.

فإن معناه: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ الإنسان الكنود ـ أي الكفور بربّه، والذي يحمله حبّ المال على أن يطلبه من غير حلّه وينفقه في غير محلّه ـ أنه ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ الناس من قبورهم، ﴿وَحُصِّلَ﴾ أي وأُبرز ﴿مَا فِي﴾ صدورهم ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ﴾؟

وهذه الخبرة المذكورة في الآية الكريمة، والمقرونة بـ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، وهو يوم القيامة عبارة عن مجازاته تعالى لأُولئك على أعمالهم، وإلّا فهو خبير بهم قبل يوم القيامة؛ فإنه تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾[1].

(١) غافر: ١٩.

سورة الزلزلة

﴿٤٨﴾

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا زُلْــزِلَتِ الأَرْضُ زِلْــزَالَــهَا * وَأَخْــرَجَتِ الأَرْضُ أَثْــقَالَهَا * وَقَــالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْـمَالَهُمْ * فَـمَنْ يَعْمَلْ مِـثْقَالَ ذَرَّةٍ خَـيْراً يَـرَه * وَمَـنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾.

المعنى:

قوله تعالى: ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا**﴾يعني زلزالها العام الشامل لجميع أجزائها، فليس هو كغيره من الزلزال الذي يكون في جزء منها دون الآخر. قالوا: وأكثر ما تتسبّب الزلازل من التفاعلات الأرضية الحاصلة من بطن الأرض بسبب تسرّب المياه من خلال طبقات الأرض حتى تصل فيها إلى عمق تكون فيه درجة الحرارة شديدة جدّاً، فيغلي الماء ويتبخّر. فإذ لم يجد البخار مساماً يتخلّص منها تراكم بعضه على بعض، ويشتدّ به الضغط حتى يهدّ كلّ ما يصادفه أمامه من الحواجز، فترتجّ القشرة الأرضية بما تحتها بسبب تلك التفاعلات ارتجاجاً

مخيفاً، وهو ما يسمى بالزلزلة.

وفي بعض الأوقات تنفتح القشرة الأرضية بسبب ما تحتها من تراكم البخار، ثم تنشقّ وتتكوّن فيها فتحات يخرج منها ذلك البخار مصحوباً ببعض الموادّ الأرضية، فذلك هو البركان الذي ربما انتهى من دون أن يخلف أثراً على الأرض، وربما أوجد عليها من المواد التي استخرجها منها جبالاً شاهقة، وربما التهم في نهايته بعض المدن أو القرى، أو بعض المزارع والمصانع وأنزلها في أعماق الأرض، فلا يُرى لها عين ولا أثر كما حدث في إيطاليا سنة (١٩٠٩) م، فقد ثار فيها بركان، وابتلع مدينة تسمى (ميسنا)، فلم يُبقِ منها عيناً ولا أثراً، ولم يسلم من أهلها أحد.

فهذه الزلازل والبراكين التي تحدث في حياتنا الدنيا إنما تحدث في بعض المناطق دون غيرها، وأما الزلزلة المذكورة في هذه السورة (سورة الزلزلة)، فهي زلزلة عامّة شاملة عظيمة هائلة، وهي المعنية بقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾**[1].

وقد ظنّ الشيخ الفيشاوي أن هذه الآية الكريمة لا تعني يوم القيامة كما ذكره المفسّرون؛ لأن قوله تعالى: **﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾** يمنع من ذلك؛ إذ لا حمل ولا إرضاع يوم القيامة؛ إذن فالمراد بها: ما سوف يحصل في الدنيا من الحروب المدمّرة (نستجير بالله منها)[2].

---

(١) الحج: ١. (٢) آراء حرّة ١: ١٨٠.

وقال غيره من المفسّرين: إنها زلزلة يوم القيامة، وإن قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا**﴾ في هذه الآية كناية عن هول الساعة وشدّتها، بحيث لو كانت هناك مرضع لذهلت، أو حامل لوضعت. ولم يستبعد بعضهم وجود ذلك فعليّاً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿**وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا**﴾، قيل: إن الأثقال هم البشر الذين ﴿**يَخْرُجُونَ مِنْ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ**﴾[١].

﴿**وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا**﴾ أي أن الإنسان تصيبه حينئذٍ دهشة، فيقول وهو في ذعر واندهاش ما لهذه الأرض تتزلزل هكذا؟

وقيل: إن ذلك السؤال خاصّ بالإنسان الكافر، أما الإنسان المؤمن فإنه يعلم ما لها.

﴿**يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا**﴾، أي بلسان مقالها لا بلسان حالها، ففي (الدر المنثور)[٢] وغيره[٣] عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أتدرون ما** ﴿**أَخْبَارَهَا**﴾؟». ***قالوا:*** الله ورسوله أعلم. قال: «**أخبارها: أن تشهد على كلّ عبد وأمة بما عمل على ظهرها، تقول: عمل كذا يوم كذا، وعمل كذا يوم كذا، فهذه أخبارها**».

وفي خبر آخر: «**تحفّظوا من الأرض؛ فإنها أُمّكم، وليس فيها أحد يعمل خيراً أو شرّاً إلّا وهي مخبرة به**»[٤].

وإذا كانت شهادة الأرض فيما مضى في الزمن ممّا يتعجّب منه الإنسان، فليست هي اليوم كذلك بعد أن رأى الإنسان أن شريطاً رقيقاً يمكن أن يكون بحجم أحد أزرار اللباس قادر على أن يحتفظ بكثير من الأعمال والأقوال. وقد

---

(١) القمر: ٧.
(٢) الدرّ المنثور ٦: ٣٨٠.
(٣) بحار الأنوار ٧: ٩٧، مسند أحمد ٢: ٣٧٤، الجامع الصحيح (سنن الترمذي) ٤: ٤١ / ٢٥٤٦، ٥: ١١٧ / ٣٤١١.
(٤) الجامع الصغير ١: ٥٠٢ / ٣٢٦٠.

جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «**صلوا في المساجد في بقاع مختلفة؛ فإن كلّ بقعة تشهد للمصلّي عليها يوم القيامة**»[١].

وعنه عليه السلام أنه كان إذا فرغ من تقسيم بيت المال يصلى فيه ركعتين ثم يقول مخاطباً الأرض: «**اشهدي أني قد ملأتك بحقّ وفرّغتك بحقّ**»[٢].

قوله تعالى: ﴿**بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا**﴾؛ لأن حديث الأرض بلسان مقالها خلاف طبيعتها، فلا يتيسّر لها ذلك إلّا أن يكون عن طريق الأمر الإلهي، كما يكون ذلك في جلود البشر يوم القيامة أيضاً، قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[٣].

﴿**يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً**﴾، ﴿**يَوْمَئِذٍ**﴾ إشارة إلى ذلك اليوم الذي تتزلزل فيه الأرض زلزالها، وتخرج فيه أثقالها. وكلمة ﴿**يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ**﴾ من (الصدور) الذي هو عكس الورود، وهو خروج الإبل من بركة الماء بعد ورودها إليها. وهو هنا كناية عن خروج الناس من القبور وورودهم على المحشر للحساب.

وكلمة ﴿**أَشْتَاتاً**﴾ من (التشتّت)، وهو التبعثر والتفرّق، أي أن الناس يصدرون من هاهنا وهاهنا ويردون المحشر متفرقين متبعثرين كلّ أهل دين منفصلون عن غيرهم، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**﴾[٤].

﴿**لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ**﴾ أي ﴿**لِيُرَوْا**﴾ ذكر ﴿**أَعْمَالَهُمْ**﴾ في صحائفهم التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها، وليروا أعمالهم في الموازين العادلة التي تزن حتى مثاقيل الذرات التي لا وزن لها في موازين الدنيا، قال تعالى: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ**

---

(١) الأمالي (الصدوق): ٤٤٠ / ٥٨٤، الكشاف ٢: ٣٤٩.

(٢) الأمالي (الصدوق): ٤٤٠ / ٥٨٤، روضة الواعظين: ٣٣٧، عن صادق أهل البيت عليهم السلام، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزّل ٢٠: ٣٨٠.

(٣) فصلت: ٢١.

(٤) الإسراء: ٧١.

لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[١].

وليروا نفس أعمالهم؛ لأن أعمالهم تجسّم بأجسام تتناسب مع طبيعتها، وتمثل أمام أصحابها، وتكون صحبتها سروراً وانشراحاً له، أو عذاباً ووبالاً عـليه. قـال الطباطبائي في (الميزان) في كلامه عن قوله تعالى: **وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً**﴾[٢]: «ويمكن أن يكون ذيل هذه الآية شاهداً على موضوع تجسيم الأعمال لأن حضور نفس العمل لإثبات نفي الظلم عنه عزّ وجلّ أبلغ وأوضـح. وهذا ما تصرّح به الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه**﴾.

والمثقال في اللغة: الثقل، وبموجب ذلك يكون معنى الآية: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ**﴾ ثقل ﴿**ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ**﴾ ثقل ﴿**ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه**﴾.

و(الذرة) تطلق على عدّة أشياء، منها النملة الصغيرة التي يبلغ من صغرها أنها لا وزن لها، جاء في كتاب (حياة الحيوان) أن رجلاً وضع خبزاً وتركه حتى علاه الذر وستره، ثم وزنه فلم يزد شيئاً عن وزنه الأوّل[٣].

كما أنها تطلق على الغبار الذي يعلق باليد عند وضعها على الأرض، وتطلق على الغبار الهائم في الجو الذي يتّضح عندما يدخل الضوء من ثقب أو كوّة.

وهي اليوم تطلق على أصغر جزء من أجزاء المادّة، والتي لا ترى حتى بأقوى المجاهر، وإنما تشاهد آثارها، وتعرف خواصّها بالحاسبات والمعادلات العلميّة.

وهذه الآية وأمثالها تهزّ كيان الإنسان الواعي من الأعماق؛ لأنها تشير إلى دقّة حساب الله جل وعلا لعباده في ذلك اليوم العظيم.

ونعني بأمثال هذه الآية من الآيات قوله تعالى حكاية عن لقمان الحكيم عليه السلام أنه

---

(١) الأنبياء: ٤٧. (٢) الكهف: ٤٩.

(٣) حياة الحيوان الكبرى ١: ٣٦١.

قال لولده وهو يعظه: ﴿**يَا بنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُنْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ**﴾[١]. و(الخردل): بذر صغير جداً لنبات معروف، يضرب به المثل في صغره.

وكقوله تعالى: ﴿**لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾[٢]، ومثلها الآية ٦١ من سورة يونس[٣].

والذي أصغر من الذرّة أجزاؤها التي تتكوّن منها، وهي الألكترونات والبروتونات والنيوترونات، فسبحان الخلّاق العليم.

وعن عبد الله بن مسعود‌رضي الله عنه أنه قال: إن أحكم آية في كتاب الله هي هذه الآية ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه**﴾، وكان رسول الله‌صلى الله عليه وآله وسلم يسميها الجامعة[٤]. وعن زيد بن أسلم أن رجلاً جاء إلى رسول الله‌صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له: علمني ممّا علّمك الله. فدفعه إلى رجل من الصحابة يعلمه القرآن، فعلّمه هذه السورة المباركة حتى بلغ إلى قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ**﴾، و﴿**وَمَنْ يَعْمَلْ**﴾، فقال الرجل: حسبي. فجاء معلمه إلى النبي‌صلى الله عليه وآله وسلم وأخبره بذلك، فقال‌صلى الله عليه وآله وسلم: «**دعه فقد فقه**»[٥].

وعن زيد بن أسلم أيضاً أن رجلاً قال: يا رسول الله، ليس رجل يعمل مثقال ذرّة خيراً إلّا رآه، ولم يعمل مثقال ذرّة شرّاً إلّا رآه؟ قال: «**نعم**». فانطلق الرجل وهو يقول: وا سوءتاه. فقال النبي‌صلى الله عليه وآله وسلم: «**أمّا الرجل فقد آمن**»[٦].

وفي كتاب (الدرّ المنثور) عن شدّاد بن أوس قال: سمعت رسول الله يقول:

---

(١) لقمان: ١٦. (٢) سبأ: ٣.
(٣) هي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. (٤) مجمع البيان ١٠: ٤٢٠.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ١٥٣. (٦) الدرّ المنثور ٦: ٣٨١.

«**أيها الناس، إن الدنيا عرض حاضر يأكل منه البرّ والفاجر، وأن الآخرة وعد صادق يحكم فيه ملك قادر، يحقّ فيها الحقّ ويبطل الباطل. أيها الناس: كونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن كلّ أُمّ يتبعها ولدها. اعملوا وأنتم من الله على حذر، واعلموا أنكم معروضون على أعمالكم، وأنكم ملاقو الله لابد منه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾...**»[١].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: لما نزلت هذه الآية الشريفة **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ﴾**، و**﴿وَمَنْ يَعْمَلْ﴾** قلت: يا رسول الله، إني لراءٍ عملي؟ قال: «**نعم**». قلت: الكبار الكبار؟ قال: «**نعم**». قلت: والصغار الصغار؟ قال: «**نعم**». قلت: وا ثكل أُمّي. قال: «**أبشر يا أبا سعيد؛ فإن الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء، والسيّئة بمثلها أو يعفو الله. ولن ينجوَ أحد بعمله**». قلت: ولا أنت يا نبي الله؟ قال: «**ولا أنا، إلّا أن يتغمّدني الله برحمة منه**»[٢].

قال الشيخ مغنية رحمه الله في تفسيره (الكاشف): ونسأل: هل المؤمن والكافر في ذلك ـ أي في قوله تعالى: **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ﴾**، و**﴿وَمَنْ يَعْمَلْ﴾** ـ سواء، أم إن من كفر بالله لا يقبل منه عمل الخير، ولا يثاب عليه حتى ولو أتى به لوجه الخير والإنسانية؟

ثم قال: والجواب: كلّ شيء بحسابه، فإذا فعل الكافر خيراً يعذّب عذاب الكفر ويجزى على عمل الخير بما تستدعيه الحكمة الإلهية من ثواب الدنيا أو التخفيف من عذاب الاخرة.

ثم جاء رحمه الله بسؤال آخر وهو: لقد دلّ كثير من الآيات أن الكفر يحبط الأعمال وإن كانت حسنة، ومنها قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾**[٣].

قال: وقد أجاب عن هذا بعض العلماء، فقال: إن معنى الإحباط أن حسنات

---

(١) الدرّ المنثور ٦: ٣٨٣. (٢) الدرّ المنثور ٦: ٣٨١.

(٣) المائدة: ٥.

الكافر لا تنجيه من عذاب الكفر، ولكن ليس معنى ذلك أن الله لا يثيبه عليها إطلاقاً؛ لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وقال في تفسيره المذكور ما يستفاد منه أنه ليس المراد من قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنْ الْمُتَّقِينَ**﴾[١]: أن الإنسان إذا عصى الله في شيء لا يقبل منه إذا أطاعه في شيء آخر، وإلّا لزم ألّا يتقبّل إلّا من المعصوم، وهذا يتنافى مع عدل الله وحكمته، وإنما المراد من الآية الكريمة: أن الله سبحانه لا يقبل إلّا العمل الذي اتّقى فيه العبد ربّه، وذلك بأن جعله خالصاً من كلّ شائبة دنيوية؛ لأن من عمل لغير الله فإن الله يكله إلى من عمل له، وليس من شك أن من عمل الخير لوجه الخير والإنسانية فقد عمل لله جلّ وعلا، ومن عمل لله فقد وقع أجره على الله. ولا ينحصر الأجر بالجنة؛ فقد يكون بشيء من أُمور الدنيا أو يكون بتخفيف العذاب في الآخرة؛ لأنه ليس في الجنة مكان لكافر. وقد ذكروا أن كسرى وحاتماً الطائيّ في النار، ولكنهما لا يعذبان بها؛ الأول لعدله، والثاني لكرمه، والله سبحانه وتعالى أعلم بحقائق الأُمور[٢].

---

(١) المائدة: ٢٧. (٢) الكاشف ٢: ٢١٢.

سورة البيّنة

﴿٤٩﴾

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ * رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ * وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ * وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾[١].

المعنى

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم اليهود والنصارى، وإنما وصفهم

---

(١) البيّنة ١ ـ ٦.

الله بالكفر مع أنهم أهل كتاب؛ لأنهم حرّفوا كتابهم، وبدّلوا دينهم. ثم عطف عليهم المشركين فقال ﴿**وَالْمُشْرِكِينَ**﴾، وهم الذين جعلوا لله شركاء من أصنامهم، وعبدوهم من دون الله ليقربوهم زلفى إليه بزعمهم. قالت الصديقة الطاهرة عليها السلام في خطبتها المشهورة: «**فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عكّفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكرة لله مع عرفانها**»[1].

وقد شدّدوا النكير على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما دعاهم إلى عبادة الله وحده، وقالوا: ﴿**أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ**﴾[2]، ولم يكونوا ﴿**مُنفَكِّينَ**﴾ أي منفصلين ولا مفارقين لما هم عليه ﴿**حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ**﴾، يعني حتى أتتهم البينة، وهم على ما هم عليه. فاللفظ للاستقبال، والمعنى للماضي، مع أنهم قرؤوا في كتبهم وسمعوا من أنبيائهم وعلمائهم أن الله سيبعث فيهم نبياً يهدي إلى الحقّ، وأخبروهم بصفاته وسماته التي عرفوه بها بعدما رأوه، ومع ذلك فقد أنفوا من الانقياد إليه حسداً له، وهو ﴿**الْبَيِّنَةُ**﴾؛ فقد قال تعالى: في بيانها ﴿**رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً**﴾، فالرسول هو رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، والصحف هي القرآن الكريم، والجمع باعتبار تعدّد سوره، أو أوراقه؛ لأن كلّ ورقة مكتوبة يقال لها: صحيفة. و﴿**مُطَهَّرَةً**﴾ تعني منزّهة عن الباطل ومصانة عن التحريف. ﴿**فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ**﴾، الضمير يعود على الصحف، والمراد بالكتب: أن القران الكريم فيه تبيان لكثير ممّا أنزل الله في الكتب السماوية السابقة كصحف إبراهيم وتوراة موسى عليه السلام قال تعالى: ﴿**إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى * صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى**﴾[3]، بل فيه تبيان ما نزل على جميع الأنبياء عليهم السلام.

---

(١) دلائل الإمامة ١١٢ / ٣٦. (٢) صٓ: ٥.
(٣) الأعلى: ١٨ ـ ١٩.

ومعنى ﴿قَيِّمَةٌ﴾: مستقيمة، وهي التي تدعو الإنسان إلى الاستقامة على نهج الحقّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، أي في ماضيهم وحاضرهم ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾السابقة واللّاحقة، أي على يد الرسل الماضية والرسول الحاضر حال نزول السورة المباركة، وهو محمد بن عبد الله ﷺ الذي حدثتهم عنه أنبياؤهم، وأخبرتهم عنه كتبهم، ولكن عنادهم وعصبيتهم وحسدهم حالت بينهم وبين اتّباعهم له إلّا القليل منهم، كعبد الله بن سلام الذي جاء إلى رسول الله ﷺ وأسلم على يده بعد سلسلة من المناظرات والمجادلات المطوّلة.

ولما يعلم من عناد قومه اليهود فإنه قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إن اليهود قوم بهت، وإني أُحب أن تغيّبني عنهم وتسألهم عني قبل أن يعلموا بإسلامي؛ فإنهم إن علموا بإسلامي بهتوني وعابوني. فأخفاه رسول الله ﷺ عنهم، وسألهم عنه، فقالوا: إنه سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا. وبعد أن أثنوا عليه بالثناء الجميل، خرج عليهم وقال: اتّقوا الله يا معشر اليهود، واقبلوا ما جاءكم به محمد، فوالله إنكم لتعلمُنّ أنه رسول الله ﷺ، وإنكم لتجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته. فلم يكن منهم إلّا أن عابوه وشتموه وبهتوه(٢).

قال بعضهم(٣): فأنزل الله في ذلك: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾(٤).

---

(١) الإسراء: ٩.
(٢) علل الشرائع ١: ٩٥ / ٣، جوامع الجامع ٣: ٣٤٨، التفسير الكبير ٢٨: ٩.
(٣) مناقب آل أبي طالب ١: ٤٨، الميزان ١٨: ١٩٨.
(٤) الأحقاف: ١٠.

وأشكل بعضهم على نزول الآية في عبد الله بن سلام بأن السورة مكية، وعبد الله بن سلام أسلم في المدينة[١]، بينما جوّز بعضهم أن تكون السورة مكية وبعض آياتها مدنية، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ومن أراد أن يعرف عن مواقف اليهود من نبي الإسلام فليقرأ ما حصل له منهم بعد وصوله إلى المدينة، فقد عملوا كلّ ما في وسعهم أن يعملوه من الدسائس والحروب الدامية، ولكن الله أمكن منهم، قالت الصديقة الطاهرة عليها السلام: « **وبعد أن مني ببهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب، كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله** »[٢].

قوله تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾، في تفسير (الأمثل) ما معناه: ولعلّ معنى الآية هو أن دين الإسلام ليس فيه سوى التوحيد الخالص، والصلاة التي تطهّر الأرواح، والزكاة التي تطهّر الأموال، وأمثالها من التعاليم المعروفة في الأديان السابقة، فلماذا كلّ هذا الإعراض[٣]؟

والـ﴿**حُنَفَاءَ**﴾: جمع حنيف، من الفعل الثلاثي (حنف)، أي عدل وانحرف عن الضلال إلى الطريق المستقيم؛ لأن أصل الكلمة من (الاعوجاج) و(الانحراف)؛ ولذلك فإن من كانت رجله عوجاء يسمى أحنف، كالأحنف بن قيس التميمي رحمه الله. ويبدو أن المجتمعات الوثنية أطلقت على كلّ من ينحرف عن أوثانها، ويتّجه إلى التوحيد اسم (أحنف)، بمعنى منحرف أو معوجّ، ثم أصبحت الكلمة بالتدريج اسماً لسالكي طريق التوحيد، حتى إن الله جل وعلا وصف بها خليله إبراهيم عليه السلام في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ**

---

(١) التفسير الكبير ٢٨: ١٠. (٢) الاحتجاج ١: ١٣٦.
(٣) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزّل ٢٠: ٣٦٣.

حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾[١].

وقد أمر حبيبه محمداً ﷺ أن يكون كذلك في أكثر من آية، ومنها قوله تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**﴾[٢].

وأما معنى قوله تعالى: ﴿**وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾، فإنه يعني أن الأُصول المذكورة في الآية ـ وهي التوحيد الخالص لله جلّ وعلا، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة ـ من الأُصول القائمة والثابتة في أعماق الإنسان، فإن مصير الإنسان يرتبط بالتوحيد، قالت الصديقة الطاهرة فاطمة الزهراء عليها السلام في خطبتها المشهورة: «**وأشهد أن لا إله إلّا الله، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمّن القلوب موصولها، وأنار في الفكر معقولها**»[٣].

وفطرة الإنسان تدعو إلى شكر المنعم بعبادته، وأهمّها وأعظمها الصلاة، وروحه الاجتماعية تدعوه إلى مساعدة المحرومين بالزكاة وغيرها، فإن من أحبّ الله أحبّ عباده، ولا أبلغ من أن الله سبحانه جعل إعطاءهم قرضة له، ووعد المقرضين له بالخلف في الدنيا، وإلّا في الآخرة، فقال تعالى: ﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ**﴾[٤].

فهذا هو ﴿**دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾، فلماذا أعرضوا عنه؟

ثم ذكر الله تعالى ما لكلّ من الأشرار والأبرار في دار الجزاء والقرار، فقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ**﴾، قال الإمام الرازي:

«***فإن قيل:*** لم ذكر الله جل وعلا الكافرين بلفظ الفعل، فقال تعالى: ﴿**لَمْ يَكُنِ**

---

(١) آل عمران: ٦٧.
(٢) الروم: ٣٠.
(٣) الاحتجاج ١: ١٣٣.
(٤) الحديد: ١١.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، وذكر المشركين باسم الفاعل فقال: **﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾**؟

فالجواب أن أهل الكتاب ما كانوا كافرين بنبوّة محمدﷺ من أول الأمر، بل كانوا ينتظرون بعثته، ويعرفونه باسمه وصفاته وسماته، ويزعمون أنهم سيتّبعونه عندما يبعث، وكان علماء اليهود بالمدينة يقولون للأوس والخزرج إذا وقع بينهم الشرّ: إن نبياً يبعث في هذا الزمان، وسنتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وثمود. فلما بعثﷺ كفروا به حسداً له، فعبر عنهم بلفظ الفعل، وأنزل فيهم قوله تعالى: **﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾**(١)...»(٢).

قال كثير من المفسرين: وكان من الموانع التي حالت بينهم وبين اتّباعهﷺ أنه لم يكن من بني إسرائيل، مع أنهم وجدوا فيه كلّ ما قرؤوا وسمعوا عن النبي المبعوث في آخر الزمان. وقد روي عن معاذ بن جبل وبشر بن البراء أنهما قالا لهم: اتّقوا الله يا معشر اليهود، وأسلموا؛ فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمدﷺ، وتصفونه لنا، وتذكرون أنه مبعوث عن قريب. فقال سلام بن مسلم اليهودي: ما جاء بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكره لكم(٣).

ولا شك أنه كاذب فيما يقول؛ لأن الله جلّ وعلا يقول عنه وعن قومه: **﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾**كما في الآية السابقة. قال البوصيري رحمه الله في همزيّته:

عـــرفوه وأنكـــروه فـظلماً	**كـــتمته الشـــهادة الشـــهداءُ**
كـيف يـهدي الإله مـنهم قـلوباً	**حشْوُها من حبيبه البغضاءُ**(٤)

وكان من أُولئك الموصوفين بالآية الكريمة حيي بن أخطب النضيري من بني

(١) البقرة: ٨٩. (٢) التفسير الكبير ٣٢: ٤٩.
(٣) مجمع البيان ١: ٢٧٣، التفسير الكبير ٣: ١٩٩، تفسير القرآن العظيم ١: ١٩٩.
(٤) لم تذكر في ديوانه، انظر السيرة الحلبية ٢: ٣٢٧.

النضير الذين بالمدينة، فلما قدم النبيﷺ المدينة تقابل معه هو وأخوه ياسر، وكانا عالمين، تقول ابنته الصغيرة صفية زوجة الرسولﷺ: فلما قدما من عنده سمعت عمي ياسراً يقول لأبي: أهو هو؟ قال: نعم والله، هو هو. قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم. قال: فما الذي في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت[١].

قيل: فأراد ياسر أن يعدل بأخيه إلى التصديق والإيمان فأبى، ثم إن ياسراً وافق أخاه حيياً، فكانا من أشدّ الناس عداوة لرسول اللهﷺ، وعملا جاهدين في رد الناس عن الإسلام حتى أنزل الله فيهما وفي من كان موافقاً لهما على ذلك: **﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ﴾**[٢].

وما زالا على ذلك حتى أمكن الله منهما؛ فهلك ياسر وقتل حيي مع بني قريظة؛ ولذلك قال الله سبحانه عنهم: **﴿أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾**. وهذا القول يفيد الحصر، فهم أشرّ من السرّاق؛ لأنهم سرقوا من التوراة صفة الرسولﷺ، وشرّ من قطّاع الطرق؛ لأنهم قطعوا طريق الحقّ على الخلق، وأحدثوا الكفر، فهم شرّ من المشركين الذين ولدوا على الشرك. وبعد أن ذكر الله جل وعلا مقرّ الأشقياء، ذكر بعده مقرّ السعداء، فقال تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾**.

في (المجمع) عن ابن عبّاس: إن هذه الآية نزلت في علي وأهل بيتهعليهم السلام[٣].

وفي (الدرّ المنثور): أخرج ابن مردويه عن أُمّ المؤمنين عائشة قالت: قلت: يا رسول الله، من أكرم الخلق على الله؟ فقال: «**يا عائشة، أما تقرئين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾**...»[٤].

---

(١) السيرة النبوية (ابن هشام) ٢: ٢٦٣، السيرة النبوية ٢: ٢٩٨.
(٢) البقرة: ١٠٩. (٣) مجمع البيان ١٠: ٤١٥.
(٤) الدرّ المنثور ٦: ٣٧٩.

وفي (الدرّ المنثور) أيضاً عن ابن عبّاس أنه قال: لما نزلت هـذه الآيـة قـال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام: «**هو أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين**»(١).

وفيه أيضاً عن علي عليه السلام أنه قال: «**قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ألم تسمع قـول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾؟ أنت وشيعتك، وموعدي وموعدكم الحوض إذا جئت الأُمم للحساب تدعون غرّاً محجّلين**»(٢).

قوله تعالى: **﴿جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾**، أي ثوابهم عند ربهم، أي في الآخرة **﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾**، أي جنّات إقامة، **﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾**، أي تجري من تحت قصورها الأنهار، **﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾** لا يموتون فيها ولا يخرجون منها **﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ﴾** بما عملوا في الدنيا من الطاعات **﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾** بما أعطاهم من الخيرات والكرامات، **﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾** أي أن ذلك الثواب العظيم والنعيم المقيم **﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾** واتّقاه، (اللهم ارزقنا توفيق الطاعة، وبعد المعصية وعرفان الحرمة، وأكرمنا بالهدى والاستقامة إنك أرحم الراحمين).

---

(١) المصدر نفسه، وانظر المعجم الأوسط ٤: ١٨٧، تفسير الآلوسي ٣٠: ٢٠٧.

(٢) المصدر نفسه.

سورة القدر

﴿٥٠﴾

قال تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾(1).

المعنى

﴿إِنَّا﴾: للتعظيم، وقد تقدّم الكلام على ذلك في سورة الكوثر. **﴿أَنزَلْنَاهُ﴾** إشارة إلى القرآن الكريم، فإن الضمير ينصرف إليه. والإنزال كما قال بعضهم: يدلّ على الدفعة الواحدة، كما أن النزول يدلّ على التدريج، فإذا قال: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾** فمعنى ذلك أن الله جلّ وعلا أنزله دفعة واحدة.

وإذا كان كذلك فإلى أين هذا الإنزال؟

قال بعضهم: إنه تعالى أنزله في تلك الليلة إلى البيت المعمور، أو إلى سماء الدنيا، ثم جعل جبرئيل ينزل به نجوماً على النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى أكمله في ٢٣ سنة.

---

(١) البيّنة ١ ـ ٦.

قال صاحب (الكاشف): وهذا قول لا دليل عليه[١].

وقال بعضهم: إنه جلّ وعلا أنزله على قلب محمدﷺ دفعة واحدة، فحفظه من فاتحته إلى خاتمته، ولكنه لم يؤذن له في إذاعة شيء منه إلّا بعد أن تحصل له المناسبة، ويرخّص له في إذاعة ما يتعلّق بها. وجعلوا من قوله تعالى: ﴿**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**﴾[٢]، ومن قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ**﴾[٣] دليلاً على ذلك، وإلّا فكيف يعجل به قبل أن يتمّ إليه وحيه من ملك الوحي لولا علمه به؟

بينما قال آخرون: إن معنى ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾ يعني: إنا ابتدأنا إنزاله في ﴿**لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾، وإن معنى ﴿**لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**﴾، و﴿**وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ**﴾: أنهﷺ كان يتابع جبرئيل في قراءة الوحي خوفاً من أن يفوته شيء من ذلك، فأمره الله في تينك الآيتين أن يصغي ولا يتابع، وضمن له أن يثبّته في قلبه، فقال: ﴿**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ**﴾[٤] يعني فإذا انتهينا من قراءته فاتّبع قرآنه ولا تخف أن يفوتك منه شيء. وقال له أيضاً: ﴿**سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ**﴾[٥] و﴿**لَا**﴾ هنا نافية وليست ناهية؛ لأن النسيان ظاهرة قهرية، فلا يصحّ النهي عنه؛ لأنه ليس في وسع الإنسان أن ينتهي عن النسيان إلّا إذا عصمه الله.

وإذا صحّ أن معنى ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾ يعني: ﴿**إِنَّا**﴾ ابتدأنا إنزاله ﴿**فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾، تكون ليلة القدر هي ليلة المبعث النبوي الشريف، وأن ليلة (٢٧) من شهر رجب ليلة الإسراء والمعراج فقط، وأن تكون ليلة (٢٧) من شهر رجب هي ليلة

---

(١) الكاشف ٥: ٩٦.
(٢) القيامة: ١٦.
(٣) طه: ١١٤.
(٤) القيامة: ١٧ ـ ١٨.
(٥) الأعلى: ٦.

ابتداء نزول القرآن عليه ﷺ نزولاً تدريجيّاً، وأن نزوله على قلبه ﷺ بكامله في ليلة القدر. وبهذا يحصل الجمع بين الأمرين؛ إذ لا مانع من أن يكون للقرآن نزولان: نزول كلّي ونزول جزئي، أو أن تكون ليلة (٢٧) من شهر رجب هي أول ليلة سمع فيها ﷺ نداء السماء، وذلك من باب المقدّمة لإعداده ﷺ إلى تلقّي الوحي، وما زال يسمع النداء ولا يرى الشخص حتى صارت ليلة القدر، فبدا له جبرئيل عليه السلام، وخاطبه بما أوحى إليه ربه. وقد ذكر الشيخ السبحاني (حفظه الله) في كتابه (سيّد المرسلين) ما يدلّ على هذا الاحتمال، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿**فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾، أي في ليلة الشرف والخطر وعظم الشأن، من قولهم: رجل له قدر، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾[1]، أي وما عظّموه حقّ عظمته. وممّا يدلّ على ذلك أن الله عظّمها فقال: ﴿**وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ**﴾، ووصفها جلّ وعلا في سورة (الدخان) بأنها ليلة مباركة، فقال تعالى: ﴿**حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ**﴾[2]. ثم أخبر جلّ وعلا عنها بأنها ليلة الفصل والتقدير، فقال تعالى: ﴿**فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْراً مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ**﴾[3].

قالوا: ومعنى ذلك أن في هذه الليلة ـ وهي ليلة القدر التي نزل فيها القرآن الكريم ـ ﴿**يُفْرَقُ**﴾، أي يفصل ويقدر ﴿**كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ**﴾، أي كلّ أمر محكم من الأرزاق والآجال وغيرهما من الأُمور التي تكون في جميع السنة؛ ولذلك قال بعضهم: إنما سميت ليلة القدر من التقدير لكلّ ما يجري في ذلك العام.

وقيل: سميت ﴿**لَيْلَةُ الْقَدْرِ**﴾؛ لأن الله جلّ وعلا أنزل فيها كتاباً ذا قدر على نبي ذي قدر لأجل أُمّة ذات قدر على يد ملَك ذي قدر.

---

(١) الأنعام: ٩١.
(٢) الدخان: ٣.
(٣) الدخان: ٥.

وقيل: إنما سميت ﴿**لَيْلَةُ الْقَدْرِ**﴾؛ لأن الأرض تضيق فيها بالملائكة من قوله تعالى: ﴿**فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ**﴾[١].

وقيل: سميت ﴿**لَيْلَةُ الْقَدْرِ**﴾؛ لأن للطاعات فيها قدراً عظيماً؛ فقد جاء عن الإمام الباقر عليه السلام أنه سأله حمران فقال له: ﴿**لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ**﴾، أي شيء عنى بها؟ فقال عليه السلام: «**العمل الصالح فيها من الصلاة والزكاة وأنواع الخير خير من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، ولولا ما يضاعف الله للمؤمنين ما بلغوا، ولكن الله عزّ وجلّ يضاعف لهم الحسنات**»[٢].

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أُري أعمار الناس قبله أو ما شاء الله من ذلك، فكأنه تقاصر أعمار أُمّته، وأنهم لم يبلغوا من العمل ما يبلغ غيرهم في طول العمر، فأعطاه الله ليلة القدر، وجعلها له ولأُمّته خيراً من ألف شهر[٣].

وبموجب هذا القول تكون ﴿**أَلْف شَهْرٍ**﴾ مطلقة، وليست معيّنة ولا مقيّدة بشهور خاصّة.

وقال بعضهم: إنها مخصّصة بشهور المجاهد الإسرائيلي الذي ذكر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه حمل السلاح على عاتقه في سبيل الله ألف شهر، فتعجّب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من ذلك وتمنّى أن يكون ذلك في أُمّته، وقال: «**ربّ جعلت أُمّتي أقصر الأُمم أعماراً، وأقلّهم أعمالاً**». فأعطاه الله ليلة القدر، وجعلها له ولأُمّته خيراً من تلك الألف الشهر التي جاهد فيها الإسرائيلي في سبيل الله[٤].

وقال بعضهم: إنها مخصّصة بشهور ملك بني أُميّة، فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رأى في منامه بني أُميّة ينزون على منبره نزو القردة يردّون الناس عن الدين

---

(١) الفجر: ١٦. (٢) الكافي ٤: ١٥٨ / ٦.

(٣) تفسير الثعلبي ١٠: ٢٥٥، الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ١٣٣.

(٤) مجمع البيان ١٠: ٤٠٩، تفسير البغوي ٤: ٥١٢.

القهقرى، فأصبح كئيباً حزيناً، فأتاه جبرئيل فسأله عن سبب ذلك، فأخبره بما رأى في منامه، فقال: «**هذا شيء لم أطّلع عليه**». ثم عرج إلى السماء، ولم يلبث أن رجع بآي من القرآن يؤنسه بها عمّا رأى في منامه، وهي قوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ**﴾[١].

ثم قرأ عليه سورة: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ**﴾ هي مدّة ملك بني أُميّة.

وروى الترمذي في صحيحه قال: قام رجل إلى الإمام الحسن عليه السلام بعدما صالح معاوية، فقال: سوّدت وجوه المؤمنين. فقال عليه السلام: «**لا تؤذني (رحمك الله)؛ فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأى بني أُميّة على منبره، فساءه ذلك، فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[٢]، ونزلت عليه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ يملكها بنو أُمية**». قال القاسم: فعددناها فإذا هي ألف شهر لا تنقص ولا تزيد.

لأنهم ملكوا على ما قاله المسعودي في (مروج الذهب) إحدى وتسعين سنة وسبعة أشهر وثلاثة عشر يوماً، يوضع من ذلك أيام الحسن بن علي عليه السلام، وهي خمسة أشهر وعشرة أيام، وتوضع أيام عبد الله بن الزبير إلى الوقت الذي قتل فيه، وهي سبع سنين وعشرة أشهر وثلاثة أيام، فيصير الباقي بعد ذلك ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر فقط، فيكون ذلك ألف شهر سواء.

قال: وقد ذكر قوم أن تأويل قوله عزّ وجل: ﴿**لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ**﴾ ما ذكرناه من أيامهم[٣].

---

(١) الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧.
(٢) التبيان ١٠: ٤١٨.
(٣) مروج الذهب ١: ٤٤٩.

أقول: وعلى هذا تكون هذه الآية الشريفة من الآيات التي تحمل علماً من علوم الغيب، مضافاً إلى ما فيها من الكشف عن فضيلة هذه الليلة المباركة.

ثم قال تعالى: ﴿**تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ**﴾، قال صاحب تفسير (الأمثل) و﴿**تَنَزَّلُ**﴾: فعل مضارع يدل على الاستمرار، والأصل (تتنزّل)، ممّا يدلّ على أن ليلة القدر لم تكن خاصّة بزمن نزول القرآن على النبي الأكرمﷺ، بل هي تتكرّر بكلّ عام باستمرار[1].

وإذا اختلفت رؤية الهلال باختلاف الآفاق، فلكلّ أُفق ليلته، وبما أن الليل هو ظلّ نصف الكرة الأرضيّة، وهذا الظلّ يتحرّك بتحرّك الكرة الأرضية، ويدور دورة كاملة في كلّ ٢٤ ساعة، فلابدّ أن تكون ليلة القدر دورة كاملة لليلة كاملة حول جميع الكرة الأرضية، فتأمّل.

﴿**تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ**﴾، الملائكة نوع من خلق الله لا سبيل إلى معرفة حقيقتهم بالحسّ والتجربة، ولا بالعقل والأقيسة، ولا بأي شيء إلّا بطريق الوحي من الله على لسان أنبيائه ورسله. فمن يؤمن بالوحي يلزمه حتماً أن يؤمن بالملائكة إن أخبر الوحي عنهم بوضوح، ومن ينكر الوحي فلا يجوز الحديث معه عن الملائكة بحال.

قوله تعالى: ﴿**وَالرُّوحُ**﴾، قيل: إن الروح هو جبرئيل، بدليل قوله تعالى: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنْ الْمُنذِرِينَ**﴾[2]، وبدليل قوله تعالى عن مريمعليها السلام: ﴿**فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيًّا**﴾[3].

وقيل: إن ﴿**الرُّوحُ**﴾: الرحمة ينزل بها جبرئيلعليه السلام والملائكة ليلة القدر على من يستحقّها من عباده جلّ وعلا. ويساعد على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿**يُنَزِّلُ**

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزّل ٢: ٣٤٥ ـ ٣٤٦، قريب منه.

(٢) الشعراء: ١٩٤.

(٣) مريم: ١٧.

الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾[١]. وحينئذٍ يكون معنى الآية: **﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾** والرحمة **﴿فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾** إلى آخره.

وقيل: إن **﴿الرُّوحُ﴾** مخلوق عظيم يفوق الملائكة. وقد روي أن الإمام الصادق عليه السلام سئل عن الروح: هل هو جبرئيل؟ فقال: «**جبرئيل من الملائكة، والروح أعظم من الملائكة، أليس الله عزّ وجل يقول: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾**...»[٢]؟ ويؤيّد هذا المعنى قوله تعالى: **﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً﴾**[٣]، وقوله تعالى: **﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً﴾**[٤].

وبموجب ذلك يكون المعنى: أن من عالم الملائكة ومن عالم الروح الذي هو أعظم من الملائكة من يتنزل بالرحمة على من يستحقّ ذلك من عباد الله في تلك الليلة المباركة، فيا لها من ليلة! في (المجمع) عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**إذا كان ليلة القدر تنزل الملائكة الذين هم سكان سدرة المنتهى، ومنهم جبرئيل، فينزل جبرئيل ومعه ألوية ينصب لواء منها على قبري، ولواء على بيت المقدس، ولواء في المسجد الحرام، ولواء على طور سيناء، ولا يدع فيها مؤمناً ولا مؤمنة إلّا سلم عليه**»[٥].

وتنزّلهم هذا **﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾**، أي بأمر ربهم الذي لا يتنزلون إلّا بأمره، قال تعالى حكاية عنه: **﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾**[٦].

---

(١) النحل: ٢.
(٢) البرهان ٤: ٤٨١ / ١.
(٣) المعارج: ٤ ـ ٧.
(٤) النبأ: ٣٨.
(٥) مجمع البيان ١٠: ٤٠٦.
(٦) مريم: ٦٤.

﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾، أي من أجل كلّ أمر أُمروا أن يعملوه لأهل الأرض.

﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، أي كلّها سلام من مغربها إلى فجرها.

فالسورة الكريمة ذكرت لهذه الليلة المباركة ثلاث فضائل:

الأُولى: أن العمل الصالح فيها خير من العمل الصالح في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

الثانية: أنها ﴿تَنَزَّلُ﴾ فيها ﴿الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ من أجل كلّ أمر قدره الله في الأرض. وبناء على ذلك يكون قوله تعالى: ﴿وَالرُّوحُ﴾ عطفاً للخاصّ على العام؛ لأن جبرئيل ـ وهو الروح ـ من الملائكة، ومع ذلك عطف عليهم تنبيهاً على جلالة قدره.

الثالثة: أنها كلها ﴿سَلَامٌ﴾ من مغربها إلى فجرها، وبحسب الدورة الأرضية فإن تنزل الملائكة فيها والسلام الحاصل للأرض ببركتها يستمرّان فيها إلى ٢٤ ساعة، مضافاً إلى ما فيها من العلم الغيبي الذي حدّد مدّة ملك بني أُميّة. قال بعضهم: ومضافاً إلى ما في السورة من تعيين ليلة القدر بليلة ٢٧ من شهر رمضان المبارك، فقد جاء في تفسير القرطبي[1] وغيره[2] أن الله جلّ وعلا قسم كلمات سورة القدر على ليالي شهر رمضان المبارك، فجعلها ثلاثين كلمة لثلاثين ليلة، وجعل كلمة ٢٧ هي إشارة إلى أنها هي ليلة القدر. ومرة ثانية هي أن الله جل وعلا لم يذكر ليلة القدر باسمها إلّا في هذه السورة، وقد ذكرها فيها ثلاث مرات، فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ وكل مرة من هذه المرات الثلاث ٩ أحرف فتكون نتيجة ٩ x ٣ = ٢٧ إشارة إلى أنها ليلة ٢٧.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ١٣٦. (٢) مجمع البيان ١٠: ٤٠٨.

وفي (الدر المنثور) عن ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**التمسوا ليلة القدر ليلة ٢٧**».

وقال بعضهم: إنها ليلة (١٧) من شهر رمضان المبارك؛ اعتماداً على قوله تعالى: ﴿**إِنْ كُنتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ وَمَا أَنـزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ**﴾[1]؛ لأن معنى ذلك أن الله جلّ وعلا أنزل القرآن في ليلة ذلك اليوم الذي سمّاه يوم الفرقان، وهو يوم بدر ١٧ من شهر رمضان. إذن فليلته ليلة القدر.

وقال بعضهم: إنها ليلة إحدى وعشرين؛ معتمدين في قولهم هذا على ما روي عن الإمام الحسن عليه السلام أنه عندما أبّن أباه يوم ليلة وفاته، وهو اليوم ٢١ من شهر رمضان المبارك قال عليه السلام: «**لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأوّلون ولا يدركه الآخرون، لقد كان يجاهد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيقيه بنفسه، ولقد كان يوجهه برايته فيكتنفه جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن شماله، فلا يرجع حتى يفتح الله عليه. ولقد توفي في الليلة التي قبض فيها موسى بن عمران، ورفع فيها عيسى بن مريم، وأُنزل فيها القرآن، مات ولم يخلّف صفراء ولا بيضاء إلّا سبعمئة درهم فضلت من عطائه أراد أن يشتري بها خادماً لأهله**». وخنقته العبرة، فبكى وبكى الناس[2].

وقال بعضهم: إنها ليلة ٢٣.

وإذا صحّت الرواية القائلة بأن الإمام علياً عليه السلام ضرب ليلة ٢١، وتوفي ليلة ٢٣؛ فلا منافاة بين هذا القول وبين ما روي عن الإمام الحسن عليه السلام.

وفي (الدرّ المنثور)[3] بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: التمسوا ليلة القدر لسبع عشرة خلت من شهر رمضان؛ فإنها صبيحة يوم بدر التي قال الله عزّ

---

(١) الأنفال: ٤١.
(٢) روضة الواعظين: ١٣٨.
(٣) الدرّ المنثور ٦: ٣٧٦.

وجلَّ: ﴿**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ**﴾[١]، وفي إحدى وعشرين وفي ثلاث وعشرين؛ فإنها لا تكون إلّا في وتر[٢].

أمّا رواية عبد الله بن أنيس الجهني فإنها قد عيّنت ليلة ٢٣، فقد روي في الكتب الكثيرة أنه جاء إلى النبيﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي إبلاً وغنماً وغلمة، فأُحبّ أن تأمرني بليلة أدخل فيها فأشهد الصلاة معك. قالوا: وكان ذلك في شهر رمضان، فدعاه رسول اللهﷺ، فسارّه في أُذنه، ثم كان الجهني إذا كانت ليلة ٢٣ من شهر رمضان دخل المدينة بأهله وولده وغلمانه، وحضروا الصلاة مع رسول اللهﷺ، فإذا أصبح خرج بمن معه[٣].

وأخرج البيهقي عن الزهري قال: قلت لضمرة بن عبد الله بن أنيس الجهني: ما قال النبيﷺ لأبيك عن ليلة القدر؟ فقال: كان أبي صاحب بادية، فقال لرسول اللهﷺ: مرني بليلة أنزل فيها. قال: «**انزل ليلة ثلاث وعشرين**»[٤].

وروي في (الإقبال) للسيد ابن طاووس رحمه الله بإسناده إلى سفيان بن السمط قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أفرد لي ليلة القدر؟ قال: «**ليلة ثلاث وعشرين**»[٥].

وقال بعضهم: إن ليلة القدر في شهر رمضان لقوله تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**﴾[٦]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ**﴾، فيلزم أن تكون ليلة القدر في شهر رمضان ليحصل الجمع بين الآيتين. في (الدر المنثور) عن ابن عمر أنه سئل عن ليلة القدر: أفي شهر رمضان هي؟ قال: نعم، ألم تسمع إلى قول الله جلّ وعلا: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾، وقوله تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**﴾؟ فهي في شهر رمضان[٧].

---

(١) الأنفال: ٤١.
(٢) الدرّ المنثور ٦: ٣٧٦.
(٣) تهذيب الأحكام ٤: ٣٣٠ / ١٠٣٢.
(٤) عنه في الدرّ المنثور ٦: ٣٧٣.
(٥) الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٣٧٤.
(٦) البقرة: ١٨٥.
(٧) الدرّ المنثور ٦: ٣٧٢.

قالوا: وأمّا أيّ ليلة هي بالتحديد، فإن الله جل وعلا أخفاها في ليالي هذا الشهر على عباده، كما أخفى الصلاة الوسطى في الصلوات الخمسة، وكما أخفى ساعة الإجابة في ساعات ليلة الجمعة ويومها، وكما أخفى الاسم الأعظم في أسمائه الحسنى، وكما أخفى أولياءه في عباده. وكل ذلك لخير أراده الله بهم، فأخفى عليهم ليلة القدر في ليالي شهر رمضان ليحيوا ليالي الشهر من أجلها، وأخفى عليهم الصلاة الوسطى في الصلوات الخمسة ليحافظوا على الصلوات من أجلها، وأخفى اسمه الأعظم في أسمائه الحسنى ليدعوه بجميع أسمائه، وأخفى ساعة الإجابة في ساعات ليلة الجمعة ويومها ليدعوه في جميع ساعاتها، وأخفى أولياءه في عباده لئلّا يستهينوا بأحد من عباده المؤمنين، وكل ذلك خير.

ويبدو من بعض الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أراد إخفاءها أيضا، ففي حديث الجهني أنه صلى الله عليه وآله وسلم أسرّها إليه إسراراً، كما تقدم. وفي رواية أبي ذرّ رضي الله عنه التي رواها صاحب (الدر المنثور) عنه أنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن ليلة القدر: أهي في زمان الأنبياء فقط، أم هي إلى يوم القيامة؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «**بل هي إلى يوم القيامة**». فقلت: يا رسول الله، في أي رمضان هي؟ فقال: «**التمسوها في العشر الأُول، وفي العشر الأواخر**». فقلت: يا رسول الله، أقسمت عليك لمّا أخبرتني في أي العشر هي؟ فغضب عليَّ غضباً ما غضب عليّ مثله، ثم قال: «**إن الله لو شاء لأطلعكم عليها، التمسوها في السبع الأواخر، لا تسألني عن شيء بعدها**»[١].

ويبدو أن الخلاف حاصل فيها منذ الصدر الأول، فقد روي في كتب كثيرة[٢] ومنها (الدر المنثور)[٣] أن الخليفة عمر جمع علماء الصحابة في أيام خلافته،

(١) الدرّ المنثور ٦: ٣٧٢ـ٣٧٣، وانظر: مسند أحمد ٥:١٧١، السنن الكبرى (البيهقي) ٤: ٣٠٧.
(٢) مجمع البيان ١٠: ٤٠٧، تفسير الثعلبي ١٠: ٢٥٢، السنن الكبرى (البيهقي) ٧: ٤٠٠.
(٣) الدرّ المنثور ٦: ٣٧٥، وفيه أن ابن عباس رضي الله عنه قال: لا أراها ـ والله أعلم ـ إلّا لثلاث يمضين وسبع يبقين.

وفيهم ابن عباس رضي الله عنه، فقال لهم: أرأيتم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة القدر: «**التمسوها في العشر الأواخر وتراً**». أي ليلة ترونها؟ فتكلّموا واختلفوا، قالوا: وكان ابن عباس ساكتاً، فقال له عمر: ما لك لا تتكلّم؟ فقال: إنك أمرتني ألّا أتكلّم حتى يتكلّموا. فقال: ما أرسلت إليك إلّا لتتكلّم. فقال رضي الله عنه إن الله وتر ويحب الوتر، وقد جعل أيام الدنيا تدور على سبعة أيام، وإن السماوات سبع، والأرضين سبع، والسجود على سبع، والطواف سبع، والسعي سبع، والجمار سبع، وخلق الإنسان من سبع، وجعل رزقه من سبع. قال الخليفة: وكيف خلق الإنسان من سبع، وجعل رزقه من سبع؟ لقد فهمتَ من هذا شيئاً لم أفهمه. قال: قول الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾[1]. ثم ذكر رزق الإنسان فقال تعالى: ﴿**فَلْيَنْظُرِ الإنسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً * ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً * وَعِنَبَاً وَقَضْباً * وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً * وَحَدَائِقَ غُلْبَاً * وَفَاكِهَةً وَأَبّاً * مَتَاعَاً لَكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ**﴾[2]. فما أراها إلّا في السبع الأواخر من شهر رمضان.

وفي رواية أنه قال: فلا أراها ـ والله أعلم ـ إلّا لثلاث يمضين وسبع يبقين[3].

وفي رواية أنه قال: فلا أراها الّا لسبع يبقين أو لسبع يمضين من العشر الأواخر من شهر رمضان. فقال الخليفة: أعجزتم أن تكونوا مثل هذا الغلام الذي لم تجتمع شؤون رأسه؟ والله إني لا أرى القول إلّا كما قلت يابن عباس.

أعمال ليلة القدر

وأما أعمالها فكثيرة، ومنها الصلاة في جماعة؛ فقد روي أنه من شهد العشاء

---

(١) المؤمنون: ١٢ ـ ١٤. (٢) عبس: ٢٤ ـ ٣٢.

(٣) كما في (مجمع البيان)، و(تفسير الثعلبي)، و(السنن الكبرى) و(الدرّ المنثور) المارّ التخريج عنها والإشارة إليها.

ليلة القدر في جماعة، فقد أخذ بحظّه منها[١].

وفي (الإقبال) عن (كنز اليواقيت) عن النبيصلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**قال موسى**عليه السلام: **إلهي، أُريد قربك. قال: قربي لمن استيقظ ليلة القدر. قال: إلهي، أُريد رحمتك. قال: رحمتي لمن رحم المساكين ليلة القدر. قال: إلهي، أُريد الجواز على الصراط. قال: ذلك لمن تصدّق بصدقة في ليلة القدر. قال: إلهي، أُريد من أشجار الجنة وثمارها. قال: ذلك لمن سبّح تسبيحة في ليلة القدر. قال: إلهي، أُريد النجاة من النار. قال: ذلك لمن استغفر في ليلة القدر. قال: إلهي، أُريد رضاك. قال: رضاي لمن صلّى ركعتين في ليلة القدر**»[٢].

وفي الكتابين المذكورين[٣] وغيرهما[٤] عن النبيصلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**من صلّى ركعتين في ليلة القدر، فيقرأ في كلّ ركعة فاتحة الكتاب مرة، و﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾[٥] سبع مرات، فإذا فرغ يستغفر سبعين مرة، فما يقوم من مقامه حتى يغفر له ولوالديه، ويبعث الله ملائكة يكتبون له الحسنات إلى السنة الأُخرى، ويبعث الله ملائكة إلى الجنان يغرسون له الأشجار، ويبنون له القصور، ويجرون له الأنهار، ولا يخرج من الدنيا حتى يرى ذلك كلّه**».

ومن أعمالها قراءة سورة (الروم) و(العنكبوت)، ففي (الإقبال) عن الصادقعليه السلام أنه قال: «**من قرأ سورة (العنكبوت) و(الروم) في ليلة ثلاث وعشرين فهو والله من أهل الجنة لا أستثني فيه أبداً، ولا أخاف أن يكتب الله عليّ في يميني إثماً، وإن لهاتين السورتين من الله مكاناً**»[٦].

---

(١) فضائل الأوقات: ٢٦٢ / ١١٨، الجامع لأحكام القرآن ٢٠: ١٣٨.

(٢) الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٣٤٥.

(٣) الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٣٤٤ ـ ٣٤٥.

(٤) وسائل الشيعة ٨: ٢٠ / ١٠٠١٩، بحار الأنوار ٩٥: ١٤٤ ـ ١٤٥.

(٥) الإخلاص: ١.

(٦) الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٣٨١ ـ ٣٨٢.

ومن أعمالها قراءة سورة (الدخان) وقراءة سورة (القدر) ألف مرة؛ ففي (الإقبال) عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**لو قرأ رجل ليلة ثلاث وعشرين من شهر رمضان: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ألف مرة، لأصبح وهو شديد اليقين بالاعتراف بما يختصّ فينا، وما ذلك إلّا لشيء عاينه في نومه**»(١).

ومن أعمالها نشر المصحف الشريف بين يديك، وأن تقول: «**اللهم إني أسألك بكتابك المنزل وما فيه، وفيه اسمك الأكبر وأسماؤك الحسنى، وما يُخاف ويُرجى أن تجعلني من عتقائك من النار**»(٢).

ومن أعمالها أن تضع المصحف على الرأس وتقول: «**اللهم بحق هذا القرآن، وبحق من أرسلته به، وبحقّ كلّ مؤمن مدحته فيه، وبحقّك عليهم فلا أحد أعرف بحقّك منك، بك يا الله، بك يا الله (عشر مرّات)، ثم تقول: بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم (عشر مرّات)، بعلي (عشر مرّات)، بفاطمة (عشر مرّات)، بالحسن (عشر مرّات)، بالحسين (عشر مرّات)، بعلي بن الحسين (عشر مرّات)، بمحمد بن علي (عشر مرّات)، بجعفر بن محمد (عشر مرّات)، بموسى بن جعفر (عشر مرّات)، بعلي بن موسى (عشر مرّات)، بمحمد بن علي (عشر مرّات)، بعلي ابن محمد (عشر مرّات)، بالحسن بن علي (عشر مرّات)، بالحجة بن الحسن (عشر مرّات)، وتسأل حاجتك**».

ومن أعمالها لعن قتلة أمير المؤمنين عليه السلام سبعمئة مرة.

ومن أعمالها زيارة قبر الحسين عليه السلام.

---

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٣٨٢. (٢) الإقبال بالأعمال الحسنة ١: ٣٤٦.

الفهرس

سورة الفاتحة

أسماؤها المباركة ٩
السبع المثاني ١٧
خصائص البسملة ٢٣
في معنى ﴿بسم﴾ ٣٣
لفظ الجلالة ٣٩
معنى ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ من البسملة ٤٩
معنى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ٥٧
معنى كلمة ﴿رَبِّ﴾ ٦٥
معنى ﴿الْعَالَمِينَ﴾ ٧٥
العوالم مرئية وغير مرئية ٨١
معنى ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ٨٩
معنى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ٩٧
معنى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ١٠٧
العبودية ١٣١
استحقاق العبادة ١٣٩
ماهيّة العبادة والإخلاص فيها ١٤٣

أقسام العبادة ١٥١
الهداية الإلهية ١٥٧
معنى الصراط ١٦٧
العبور على الصراط ١٧٥

سورة الناس

مقامات القدس ومعنى الإنسان وأفضليته ١٨٧
وسوسة إبليس ١٩٧

سورة الفلق

معنى الفلق والغاسق والوقب ٢٠٧
السحر والحسد ٢١٧

سورة الإخلاص

التوحيد الخالص ٢٢٩
أحدية الله سبحانه وتعالى ٢٣٣
الصَّمَدية ٢٤١
معنى ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ٢٤٩
الكفاءة ٢٥٧

سورة المسد

جزاء من يحارب الله ورسوله ٢٦٧
موقف أمّ جميل من الإسلام ٢٧٩

سورة النصر

التسمية وسبب النزول ٢٨٧

عام الوفود.. ٢٩٣

سورة الكافرون

مصير الكافرين يوم القيامة ٣٠٣

الثبات على المبدأ ٣٠٩

سورة الكوثر

سورة الكوثر ٣١٧

سورة الماعون

رعاية اليتيم في الإسلام ٣٣٧

الاستخفاف بالصلاة.. ٣٤٥

سورة قريش

معنى الإيلاف ٣٥٥

سورة الفيل

سبب النزول وهلاك أبرهة ٣٧١

فوائد من السورة المباركة ٣٧٩

سورة الهمزة

سورة الهمزة ٣٨٩

سورة العصر

سورة العصر ٤٠٣

سورة التكاثر

سورة التكاثر.. ٤١٣

سورة القارعة

سورة القارعة ٤٢٥

سورة العاديات

سورة العاديات ٤٣٥

سورة الزلزلة

سورة الزلزلة ٤٥١

سورة البيّنة

سورة البيّنة ٤٦١

سورة القدر

سورة القدر ٤٧١
بعض أعمال ليلة القدر ٤٨٢
الفهرس ٤٨٥

الفهرس ٤٨٩